المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية





المقدمة للمؤتمر

الجزء الثالث

عُني بطبعه ومراجعته
خادم العلم
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت
☎ ٢٢٧٥٤٥ - بيروت ص.ب ٨٣٥٥
☎ ٧٢١٦١٢ - صيدا ص.ب ٢٢١

الطبعة الأولى
١٤٠١ هـ ١٩٨١ م


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ


البحوث والدراسات
المقدمة للمؤتمر


بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة النبوية
في
القرآن الكريم

دراسة وتحليل

للشيخ محمد علي الحركان
« السعودية »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة النبوية في القرآن الكريم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فان اجتماع هذه الصفوة الخيرة من علماء الأمة الاسلامية ومفكريها لتدارس السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، لمن الأمور المبشرة بالصحوة الاسلامية المنشودة، ودليل خير على ما يمكن أن ننتظره في الغد... ذلك أن عناية الأمة الاسلامية بسيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه إنما هي عناية بهذا الدين العظيم في ماضيه ومستقبله، ومراجعة سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه في أي زمان ومكان إنما هي في الحقيقة مراجعة لموقف الامة من دينها ومن أوامر ربها ونواهيه، ومن طبيعة دورها الذي أراده لها الله.. تنظر الأمة في السيرة وتتطلع إلى واقعها لترى البون الشاسع، بين ما هي مقيمة عليه وبين ما يطالبها به الدين.. ولترى كذلك مدى الفارق الكبير بين ما كان عليه سلفنا الصالح العظيم وبين ما انتهينا اليه.

ومهما يكن ما تخرجه المطابع من بحوث ودراسات لتذكير

المسلمين وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم.. فلن يكون ثمة كتاب بعد كتاب الله تبارك وتعالى أنفع لهذه الامة وأقوى أثرا في شحذ وجدان شبابها، وتبصير رجالها وقادتها من سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه.. بما تقدم بين أيدينا من صور الوفاء والفداء، ومن نماذج الايمان والتضحية والصبر على متاعب الدعوة في سمو عجيب يحار في وصفه وتعليله الواصفون.

وحسب السيرة النبوية الشريفة أنها تقدم بين يدي العالم كله كتاب ذلك اليتيم الفقير الذي جاء البشرية على فترة من الرسل، فأخرجها من الظلمات إلى النور، ونقلها من عبادة الطواغيت بكل صورها ونماذجها إلى عبادة الرحمن.

وحسب السيرة النبوية الشريفة أنها تسجل لنا معشر المسلمين ملامح خير أمة أخرجت للناس، تتلاشى بينهم الاحساب والألقاب، وتندثر العصبيات والنزعات، وتتكافأ دماؤهم جميعا، ولا يكون لعربي فضل على عجمي الا بما يعمر القلب من التقوى ومن سمات الايمان.

حسب هذه السيرة أن الذين يريدون أن يصنعوا الرجال أو يعيدوا بناء الامم لن يجدوا في غيرها بغيتهم، ولن يكون ثمة دليل اصدق ولا اهدى في التخطيط والتنفيذ

أعظم من هذا الدليل.

لقد كان العرب - كما شهد غير واحد من غير المسلمين - كانوا قوما يضربون في الصحراء عدة قرون لا يؤبه لهم، فلما جاءهم النبي العربي - صلوات الله وسلامه عليه - أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والمعرفة، وكثروا بعد قلة، وعزوا بعد ذلة، ولم يمض قرن من الزمان حتى استضاءت أطراف الأرض بما قدموا من علوم.. وما علموه للناس من قيم ومبادىء.

هكذا كان العرب قبل البعثة النبوية، وهكذا أصبح المسلمون في جاهلية اليوم لا يكادون يملكون من شئون أنفسهم ما ينبغي لهم أن يملكوه، ولا يكادون يملكون من أمر هذا العالم حتى مجرد أن يكون لهم رأي يؤبه له بين الآراء.. وبتنا وكأن هامش الحياة هو المكان المخصص لنا على خريطة الكون، وكأننا نحن الذين عناهم الشاعر حين قال:

ويقضى الامر حين تغيب تيم
ولا يستأذنون وهم شهود

واذا كان فجر الاسلام قد محا ظلمة الجاهلية الأولى.. فلن يمحو الظلمة الغاشية في جاهلية اليوم الا الاستمساك الصادق بهذا الدين والتأثر الكامل بالنبي صلوات الله

وسلامه عليه، وإعادة تصحيح المسار في ضوء ما حفلت به سيرته من مبادىء ومثل..

إن الاحتفال بأمر السيرة النبوية ليس احتفالا بكتاب من الكتب، ولا وقوفا في المناسبات أمام التاريخ الشخصي لعظيم من العظماء.. وانما هو مراجعة شاملة لتاريخ هذه الامة كيف نشأت؟ وعلى أي المبادىء صيغت؟ ومن أين تجمعت لها اسباب البقاء والانتصار.؟ الاحتفال بالسيرة مراجعة واجبة ومطلوبة دائما لمعالم الطريق الذي أصبحنا به أمة.. وبغيره لن يكون لنا وجود ولا تاريخ.

ومن ثم يصبح من الواجب علينا أن نتقدم بموفور التقدير والشكر لسمو أمير دولة قطر ولكافة المسئولين وللشعب القطري الشقيق على عقد واستضافة هذا المؤتمر للسيرة النبوية، الذي نرجو أن يكون خطوة إيجابية وبناءة على طريق تنبيه الأمة لِدَوْرها وواجبها، وأن يكون علامة مضيئة على الطريق يسترشد بها الراغبون المخلصون في إعادة تصحيح المسار، وتسديد الخطى نحو الغاية والله وحده المسئول أن ينفع بهذا المؤتمر وان يثيب عليه.

أما عن موضوع هذا البحث «السيرة النبوية في القرآن الكريم» فقد كان تناولنا إياه، كما هو واضح في الدراسة

المرافقة - كاشفا لامور بالغة الدلالة فيما يتصل بدراسة السيرة النبويـة من ناحيـة ومـا يتصـل بدراسة سمات وخصائص هذه الدعوة من ناحية ثانية.

فأما ما يتصل بدراسة السيرة النبوية فقد اتضح لنا أولا: ان كتب السيرة النبوية على وفائها وشمولها ووقوفها بالتفصيل أمام الأحداث والوقائع في حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه.. فإنها مع هذا كله لم تكد في معظم حالاتها تجاوز ما جاء عن الوقائع والأحداث نفسها في القرآن الكريم.

ونشير على سبيل المثال إلى ما تضمنته كتب السيرة عن وقائع غزوة الأحزاب وما أحاط بها من ظروف بالغة الصعوبة على المسلمين حتى نجم النفاق وأرجف المرجفون..

وقائع هذه الغزوة قد سجلها القرآن الكريم على نحو بالغ الدقة والابداع في آيات سورة الاحزاب..﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا. وإذ يقول المنافقون والذين

في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعوْرة إن يريدون إلا فرارا. ولو دخلت عليهم من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا. ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا﴾ (الاحزاب ٩ - ١٥)

الى غيرها من الآيات التي وصفت ما عاناه المسلمون، وما أنزلته بهم محنة الأحزاب من بأس لم يكونوا في مستوى التصدي له؛ لولا أن ربط الله على القلوب وأيدهم بنصر من عنده...

وثانيا: إن كتب السيرة في مجملها - وقفت عند حد تسجيل الوقائع والأحداث ووفقت في ذلك إلى حد بعيد، بحيث بات لدينا سجل حافل بكل ما نحتاج اليه لتتبع مراحل الدعوة وتفاصيل أحداثها ومواقف رجال الصدر الأول فيها ومواقف أعدائها والمترددين فيها من أهل النفاق.. فكل هذا وفره لنا اصحاب السير رحمهم الله وجزاهم خيرا.

لكن تقييم هذه الأحداث وتقديرها والحكم عليها.. هو

ما انفردبه القرآن الكريم في المواطن التي تعرض فيها لذكر هذه الأحداث والوقائع.

وعلى سبيل المثال أيضا فان ما ورد في القرآن الكريم عن «حديث الإفك» في سورة النور قد امتاز الى جانب الوصف والتسجيل بالتقييم والحكم. وذلك حيث قرر القرآن منذ البداية، أن ما قيل وما يقال حول هذا الموضوع إنما هو إفك وافتراء، خرجت به جماعة المنافقين والمرجفين في المدينة يريدون بالرسول وبالدعوة كلها شرا.. بدليل أنهم تلقفوا الفرية من غير أن يتدبروها أو يستوثقوا من عدالة قائليها، وأيضا من غير أن يطلبوا البينة عليها وهو أبسط ما يطلبه المنصف لنفسه وللناس.. وفوق هذا فقد فات هؤلاء المرجفين بأهل بيت رسول الله ﷺ أن يضعوا أنفسهم وبيوتهم في مثل هذا الموقف ويروا ماذا كان ينبغي لهم أن يفعلوه لو كانوا منصفين.. وذلك حيث يقول سبحانه: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم، بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم. لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا: هذاإفك مبين. لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم

الكاذبون﴾ . سورة النور ١١ - ١٣

ثالثا : إن الحدث الذي ترويه كتب السيرة يبقى مجرد حدث مرتبط بزمانه ومكانه وأشخاصه .. لكنه عندما يروى في القرآن الكريم يتحول الى درس كبير يتجاوز ظروف الحدث مكانا وزمانا وأشخاصا الى حيث يصبح قضية عامة ومبدأ يعامل به كل المسلمين في كل زمان وكل مكان متى تشابهت ظروفهم وظروف هذا الحدث الخاص ..

ونستفيد بالمثال الذي بين أيدينا من حديث الإفك .. الذي انتقل القرآن الكريم من الوقوف أمامه كحدث بعينه في ظروف خاصة الى اعتباره قضية من قضايا صيانة عرض المسلم ووجوب توفير الحماية له ، واعتبار من يشيع الفاحشة في مجتمع المسلمين أو ينال من أعراض المحصنات الغافلات .. بغير دليل يقيني هو أربعة شهود عدول - اعتبار ذلك من الأمور الخطيرة عند الله والتي يجب اعتبار من يفعلها من المفسدين لمجتمع الاسلام الذي يجب حمايته منهم في الدنيا بالحد ، ومعاقبتهم في الآخرة باشد العذاب ، على نحو ما قال سبحانه : «إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم. إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

الى قوله: « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم. إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم. يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾. سورة النور ١٥ - ٢٥

فهذا التفصيل الدقيق المقرون بالتقييم والتوجيه وتحديد التبعات والعلاقات بين الناس في مجتمع الاسلام.. يجاوز تماما ما وقفت عنده كتب السيرة ليصبح الحدث في ذاته مجرد مثل أو نموذج يحدد القرآن سماته ويضع له حدوده وأحكامه. بينما تفقد كتب السيرة هذه الميزة.

رابعا: ثمة أحداث عرضت لها كتب السيرة بشيء من التفصيل، بينما آثر القرآن الكريم فيها التعميم والاجمال. وذلك لحكمة إلهية تقتضي الايجاز وتكتفي بتقرير الحدث.

من ذلك ما جاء في القرآن الكريم عن حادث « الاسراء » حيث لم يزد ما ورد بشأنه عن آية واحدة في مفتتح سورة الاسراء. ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾. سورة الاسراء ١

وآية اخرى في سورة الاسراء هي قوله تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس..﴾. سورة الاسراء ٦٠

ومن ذلك أيضا ما جاء بشأن ما حدث بين الرسول وزوجاته والذي تحدث عنه القرآن في سورة التحريم:

﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾. الآيات من أول السورة.. فليس من شأن القرآن أن يعنى بما لا يستوجب العناية من التفاصيل.. وحسب القرآن - كما أشرنا - أن يحقق الواقعة ويؤكد حدوثها، ويترك للناس التفاصيل يختلفون من حولها ما يشاءون.

خامسا: على عكس ما سبق هناك أحداث أوجزتها كتب السيرة النبوية بينما فصلها القرآن فاستوعب الحدث ونتيجته وقرر الحكم الذي يترتب عليه.

على سبيل المثال فان ما جاء في كتب السيرة بشأن تبني رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، فهو قليل بالقياس إلى ما ورد في القرآن.. الذي عني بتحديد العلاقة بين الآباء والأبناء بالتبني، وكان أهل الجاهلية لا يجيزون زواج الأب من زوجة ابنه بالتبني إذا فارقها الابن.. فقرر الاسلام بشأنها حكمه الجديد الصحيح.. وأيضا فقد كان زواج النبي ﷺ من (زينب بنت جحش) مثار جدل وحديث طويل بدأه المشركون والمنافقون على أيامهم، وظل المرجفون حتى عصرنا الحاضر يلوكونه ويخوضون فيه.

ومع أن السيرة لم تعطه حقه من التفصيل فقد نفذ فيه القرآن الكريم الى أعماقه، بل لقد نشر على الناس أمره حتى مخاوف الرسول مما يمكن أن يقول الناس فيه.. وذلك في قوله تعالى في سورة الاحزاب: ٤، ٥

﴿... وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم... ».

﴿واذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله، وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه، فلما قضى زيد منها

وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا، وكان أمر الله مفعولا، ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا. الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله وكفى بالله حسيبا،ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما﴾.

(الأحزاب ٣٧ - ٤٠)

سادسا: قد انفرد القرآن الكريم بالحديث عن كثير من صفات النبوة وخصائصها بالنسبة لرسولنا صلوات الله وسلامه عليه.

من ذلك مثلا: حديث القرآن عن عموم رسالته ﷺ الى الناس كافة، وأنه رحمة مهداة الى الناس أجمعين. وذلك في مثل قوله تعالى: «...قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو الا ذكرى للعالمين».. (الأنعام ٩٠)

وقوله: «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين».

(الأنبياء ١٠٧)

وقوله: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون

للعالمين نذيرا ».

(الفرقان١)

وغير ذلك.

ومن ذلك مثلا تحديد مهمة الرسالة في البيان للناس وفي إبلاغهم ما أُرْسل به، وذلك في مثل قوله تعالى: « ... فان أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ». (آل عمران ٢٠)

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس.. » (المائدة ٦٧)

وقوله: « ما على الرسول الا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ».

(المائدة٩٩)

وقوله: « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك الا البلاغ.. »

(الشورى ٤٨)

الى غير ذلك من الآيات.

ومن ذلك مثلا: تأكيد بشريته ﷺ وأنه ليس ملكا من السماء وانما بشر من البشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق

ويجوز عليه ﷺ ما يجوز على الناس من النصر والهزيمة ومن المرض والموت.. ومن التزاوج والتناسل وما إلى ذلك من صفات البشر.

وذلك في مثل قوله تعالى: «أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أنّ لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين». (يونس ٢)

وقوله: «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية...»

(الرعد ٣٨)

وقوله: «انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما إلٰهكم اله واحد..»

(الكهف ١٠)

الى غير ذلك من الايات.

ومن ذلك مثلا: تقرير ان نبوة محمد ﷺ ختام النبوات والرسالات، وان القرآن الذي انزل عليه مصدق لما بين يديه من الكتاب.

وذلك في مثل قوله تعالى: «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين..» (الأحزاب ٤٠)

وقوله تعالى: «وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه...»

(الانعام ٩٢)

وقوله: «وآمنوا بما أُنزلت مصدقا لما معكم..»(البقرة٤١)

وقوله: «ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه..»

(آل عمران٨١)

وقوله: «وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه». المائدة «٤٨»

وقوله: «والذي أوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه».

(فاطر ٣١)

سابعا: لقد امتاز العرض القرآني لأي حدث من أحداث السيرة النبوية امتاز على كل ما كتب وما سيكتب منها بالاسلوب وبالبيان المعجز الذي تكتسب الكلمات والجمل فيه حيوية دفاقة تجسم الحدث، وتحيطه بالايحاءات والظلال وتنقل القارىء والمستمع الى جوه وكأنما يعيشه أو يشارك فيه، وذلك ما لم يتوفر وما لن يتوفر لأي من كتب السيرة في القديم والحديث.

ولنقف معا على سبيل المثال أمام قول الحق تبارك وتعالى في سورة الاحزاب واصفا مفاجأة المشركين وحلفائهم للنبي وأصحابه في عقر دارهم بالمدينة وما كان لذلك من أثر على حالة المؤمنين فيقول:

«إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا».

(الاحزاب ١٠ - ١١)

ولست أعتقد أن بوسع الكلمات مهما أوتيت أن تبلغ في تصوير هذه الإحاطة المخيفة المفزعة لجيوش المشركين بقوات المؤمنين المحصورة في المدينة أكثر مما بلغته هذه الآيات.. أو حتى تقرب منه.. جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم.. فلا مفر. إنها القارعة إذن وها هو المصير الرهيب الذي فر المهاجرون من مواجهته في مكة.. يلاحقهم في عقر دارهم حيث لا مهرب ولا مناص..

ولست أعتقد كذلك أن بوسع الكلمات مهما أوتيت أن تبلغ في تصوير فزع المسلمين واضطرابهم من مثل هذه الآية «وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر...» وما الذي يبقى من النفس إذا انخلعت القلوب من أماكنها كأنما

توشك هي الأخرى أن تفر هربا قبل أن يدركها المهاجمون... إن لهذا الموقف العصيب - كما صورته الآية - أثره الذي لا بد منه على طمأنينة النفس وعلى ثقتها في كل ما كانت تطمئن إليه وتثق به من قبل.. ولذا كان ختام الآية «ويظنون بالله الظنونا» من أعظم التعبيرات صدقا في الوصف والتصوير والدلالة.. وهذا - كما قلت - ما لا يمكن أن تبلغه الكلمات في غير بيان القرآن.

ثامنا: إذا كانت كتب السيرة تقف في تسجيلاتها عند ظواهر الأحداث والتصرفات.. لأنها لا تملك النفاذ إلى ما وراء ذلك.. فإن ما جاء عن السيرة في القرآن الكريم يمتاز بالحديث عما وراء الظاهر، حيث إنه بميزة الوحي الالهي إلى النبي ﷺ يستطيع استبطان الأحداث والأشخاص وكشف ما في أعماقهم وتقديمه للناس.

من ذلك مثلا حديث القرآن عن المنافقين، وقد جاء حديثهم هذا مبثوثا في كتب السيرة في شكل تصرفات ومواقف كانوا يقفونها من الرسول ﷺ والمسلمين، فاذا خوطبوا بشأنها قدموا العلل والمعاذير.. كما حدث عند استئذان بعضهم من رسول الله ﷺ يوم الاحزاب في

الرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة وأنها مكشوفة للعدو.. وقد أذن لهم.

فلما جاء القرآن فتحدث عنهم كشف الحقيقة في هذا الاعتذار الكاذب فقال: «وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا».

ثم يزيد القرآن في كشف الخبيء من أعماقهم ويبين أنهم لم يخرجوا لحماية اهليهم حتى لا يأخذهم المشركون والكفار كما زعموا.. بل إنهم هم أنفسهم على استعداد تام للاستسلام للكفر والارتداد عن الحق عند أبسط اختبار وذلك في قوله: «ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا. ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولاً». (الاحزاب ١٣ - ١٥)

تاسعا: اذا كانت كتب السيرة النبوية قد عرضت في تضاعيفها للكثير من حالات الناس ومواقفهم بين مرتبتي الايمان والكفر وما بينهما من تردد أو نفاق.. فهي قد عرضت ذلك مثبوتا في مواقعه وحسب زمان الحدث

ومكانه، من غير أن تقرن الحالات وتضمها بعضها إلى بعض بما يشكل منها آخر الأمر نموذجا تتضح فيه السمات والخصائص.

اذا كانت كتب السيرة قد فعلت ذلك فقد كان للقرآن أسلوب آخر، جمع فيه سمات النموذج المتشابه بعضها إلى بعض، وقدمها للناس في أدق صورة.

وعلى سبيل المثال فاذا كانت كتب السيرة قد تحدثت عن أخلاق أهل الايمان من أصحاب الرسول ﷺ ووصفت الكثير من شمائلهم مكتفية بذلك فنحن في القرآن الكريم نرى ملامح هذه الشخصيات مرسومة في بعض سور القرآن ليقتدي بها من شاء على نحو ما نجده في أول سورة «المؤمنون» حيث تجتمع في السورة عشر آيات متصلة تبين خصائص هؤلاء وما ينبغي أن يكون عليه من يرجو أن يكون منهم.. في مثل قوله تعالى: «قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون». إلى آخره.

ومثله كذلك حديث القرآن عن نموذج «عباد الرحمن» في سورة الفرقان ٦٣ - ٦٤ «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. والذين

يبيتون لربهم سُجَّدا وقياما ». إلى آخره.

وفي الجانب الآخر نجد الوصف الدقيق لسمات المنافقين وخصائصهم في سورة بأكملها تحمل اسمهم في القرآن وتتحدث بالتفصيل عنهم.

ومع ان تصرفات المنافقين والمؤمنين جميعا قد سجلت في كُتب السيرة.. لكنها سجلت كحالات فردية.. لا كنماذج يمكن التعرف عليها بوضوح كما صور القرآن.

عاشرا: اذا كانت كتب السيرة - على اختلاف مؤلفيها واختلاف وجهاتها في التناول.. قابلة لأن تضم بين طياتها خبرا غير صحيح، أو رواية مشكوكا فيها أو استنتاجا غير صدق..

اذا كانت كتب السيرة قابلة لذلك.. فان ما يجيء من حديث السيرة النبوية في القرآن الكريم هو القول الفصل الذي لا شك فيه ولا اضطراب.. وهو وحده المرجع الاعظم الذي تصحح به المراجع، وتعرض على مقياسه السير والتواريخ.

هذا كله ما نخرج به من ملاحظات على السيرة النبوية إذا درست في ضوء القرآن الكريم.

أما ما تعطينا إياه مثل هذه الدراسة مما نحن فعلا في

أشد الحاجة اليه لترشيد خطانا في مجال الدعوة، وما نرجو أن يكون فعلا هو الثمرة التي نخرج بها من مثل هذه اللقاءات وهذه الدراسات فذلك ما نوجزه فيما يلي:

أولا: الدعوة إيمان وعمل وليست كلمات وشعارات:

وهذا المبدأ الاساسي الهام يلتقي القرآن الكريم والسنة النبوية في تأكيده والاعلان المستمر عن أهميته في كل مناسبة.

«قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم..».(٤٩/١٤)

«أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله..». (٩/١٩)

«يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل».

(٩/٣٨)

والنماذج من السيرة تشرح ما تحمله الآيات.

أعراب من بني أسد بن خزيمة يظهرون الشهادتين ويقدمون بها على رسول الله مطالبين بالنفقات والصدقات

ويمنون على الرسول أنهم دخلوا في دينه.. وما هكذا الاسلام.

ثم: الذين افتخروا بأنهم سدنة البيت وعماره وبأيديهم مفاتيحه يجب أن يعلموا أن هذا الأمر على فضله - أدنى بكثير من الجهاد في سبيل الله.. لأن الاهتمام بالبيت ينبع من الطمأنينة ويتم في الرخاء، بينما الجهاد في سبيل الله عناء وفداء وبذل لأقصى ما يجود به إنسان.. ثم هو قبل هذا دفاع عن العقيدة وابتلاء من أجل انتشارها في الارض.

وهكذا بقية النماذج التي يتعاون القرآن والسيرة على تأكيد مثلها في الناس.

ثانيا: الدعوة قدوة وأسوة وليست تباليغاً بدون التزام:

وكذلك تلتقي السيرة النبوية بالقرآن الكريم في تأكيد هذا المبدأ.

«لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم». التوبة ١٢٨

«محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا...» سورة الفتح ٢٩.

وما حفلت به السيرة من شمائل الرسول صلوات الله عليه في غير حاجة إلى إعادة، فقد كان أعظم أصحابه بل أعظم

الناس طرا خوفا من الله ورعاية لحقوقه وعبادة له. وكان أكثر أصحابه بل أكثر الناس طرا تشديدا على نفسه وتكليفا لها بما لا يطلبه من الآخرين، وكان قبل هذا كله أرفق الناس بالناس وأشدهم عطفا على المستضعفين وأخفضهم جناحا لمن اتبعه من المؤمنين.

ولهذا تمكنت محبته ﷺ من القلوب، وكان الصحابة من حوله على استعداد حقيقي لافتدائه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم. ولعل ما فعلته أم عمارة الأنصارية يوم أحد وهي امرأة ضعيفة الجانب.. ما فعلته يوم أحد دفاعا عن رسول الله وقتالا دونه لجدير بأن يستلفت القادة في كل مكان إلى ما يمكن أن يصنعه حب القائد في وجدان أتباعه.

ولعل إيثار زيد بن حارثة لمحمد ﷺ على أبيه وقومه لجدير بأن يكتب في أعجب وأعظم صفحات التاريخ دليلا على ما امتازت به الشخصية المحمدية من صفات تستوجب من الحب ما يغلب عواطف الأبناء نحو الآباء.

كل هذا لأن المصطفى صلوات الله عليه كان مثلا بشريا لكل سماحة الاسلام يمشي على قدمين.. فأحبه الناس وأحبوا فيه دينه ودعوته.. وهكذا ينبغي أن تكون الدعوة.

ثالثا وأخيرا:

ان مثل هذه المؤتمرات يجب أن تتحول دائما إلى برامج عمل نعدها وفق مراحل زمنية ننفذ فيها ما نستطيع تنفيذه وفق الامكانيات المتاحة، حتى تؤدي هذه المؤتمرات ثمارها وتحقق الغايات منها.

ثم.. إن هذا المؤتمر ينبغي أن يهتم أكثر ما يهتم بمواجهة أولئك الضالين والمرتابين الذين يحاولون التشكيك في السنة النبوية والتقليل من أهميتها كمصدر للتشريع وركن ركين من أركان الشريعة.

إن على مؤتمركم الموقر أن يرفع صوته عاليا بادانة مثل هذه الدعوات الزائغة التي يحاول أصحابها التشكيك في السنة النبوية، مقدمة خبيثة للتشكيك في القرآن.

وفي الختام أكرر الشكر والتقدير لسمو أمير البلاد وللحكومة والشعب القطري الشقيق استضافتهم لهذا المؤتمر... سائلا المولى القدير أن يجعل عملنا خالصا... وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الامين العام

محمد علي الحركان

السيرة النبوية
في
القرآن الكريم



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بين يدي النبوة

حادث الفيل (ابن هشام ق ١ ص ٤٤ - ٥٧)

كان حادث الفيل بما اكتنفه من ظروف وما أحاط به من المعجزات دليلا لا شك فيه على أن الله تبارك وتعالى يريد للكعبة مستقبلا في الأرض لا تقوى قوة على هدمه... وأن لها في مستقبل الأديان السماوية دورا ليس لغيرها من الأديان.

وتسجل كتب السيرة حديثا مشهورا دار بين عبد المطلب جد الرسول ﷺ وسيد قريش وبين «أبرهة» قائد الجيش المغير على مكة، وكان أبرهة قد أصاب لعبد المطلب مائتين من إبله فسعى إلى مقابلته.. وظن أبرهة أنه جاء ليفاوضه بشأن البيت حتى يعود فلا يهدمه، لكنه حدثه عن الإبل.. فسقط في عينه بعدما أكبره وبعد ما نزل له عن سريره.. ثم قال له:

أتكلمني في مائتي بعير هي لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك وقد جئت لأهدمه وما تكلمني بشأنه؟ فقال عبد المطلب: أما الإبل فهي لي، وأما البيت فله رب سيمنعه.

وانحازت قريش إلى شعف الجبال والشعاب تخوفا ونجاة.. وترقبا لما يصنع أبرهة[1] بالبيت أو ما يصنعه به رب البيت.. وقام عبد المطلب ونفر معه يمسكون بحلق باب الكعبة يستصرخون رب البيت ويستنصرونه ويروى قوله من الشعر:

لا هُمَّ إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك

وأصبح أبرهة يتجه بجيشه إلى البيت ليهدمه، وهيأ فيله ليتقدم الجيش لكنه برك.. فحاولوا معه وضربوه فما تحرك، فلما حولوا وجهه صوب اليمن قام يهرول.

وعندئذ أرسل الله طيرا كثيرة في مناقيرها حصوات لا تصيب أحدا من جيش أبرهة إلا أهلكته.

وأصيب أبرهة في جسده وخرج معهم تسقط انامله. حتى وصل صنعاء فمات فيها.

هذا الحادث سجله القرآن الكريم في قوله تعالى: «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل★ ألم يجعل كيدهم في تضليل★ وأرسل عليهم طيرا أبابيل★ ترميهم بحجارة من

---

(١) الندوي (ص٥٦).

سجيل. فجعلهم كعصف مأكول ». (سورة الفيل)

قلق غامض:

يقول الندوي في كتابه (ص ٨٠):

« وكان ﷺ يجد في نفسه قلقا غامضا لا يعرف مصدره، ولا يخطر بباله لحظة ما أكرم به من الوحي والرسالة، ولا يحلم بذلك في يوم من الأيام ».

هذا المعنى يشير إليه القرآن في قوله تبارك وتعالى:

« وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ».

(٥٢ الشورى)

وقال تعالى: « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك.. ».

(القصص ٨٦)

شمائل نبي:

سجلت كتب السيرة باب (كيف كان بدء الوحي) قول خديجة رضي الله عنها للرسول ﷺ لما جاءها فزعا من غار حراء يقول: زملوني زملوني.. فقالت رضي الله عنها:

« والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ».

ويشير القرآن إلى مثل هذه الشمائل في وصفه للرسول صلوات الله عليه:

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم ».

(التوبة ١٢٨)

وفي قوله تعالى: « وإنك لعلى خلق عظيم ». (القلم ٤)

نبوة محمد ﷺ

دعوة ابراهيم وبشارة عيسى:

روى ابن سعد في الطبقات (١ : ١٤٨ - ١٤٩) عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر قال: قال رسول الله ﷺ:

« أنا دعوة أبي ابراهيم ، وبشرى عيسى بن مريم ».

هذا المعنى مشار إليه في القرآن في قول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة (آية ١٢٧):

« وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك... إلى قوله:

«ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.. » فهذه دعوة ابراهيم.

وبشرى عيسى بن مريم به مذكورة في القرآن في قوله تعالى في سورة الصف:

« ★.. ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.. » الصف ٦

صفته ﷺ في الانجيل:

قل ابن اسحاق (١ : ٢٤٨):

« وقد كان فيما بلغني عما كان وضع عيسى بن مريم فيما جاءه من الله في الانجيل لأهل الانجيل من صفة رسول الله ﷺ، مما أثبت يُحَنَّس الحواري لهم... قال:

« ... ولكن لا بد من أن تتم الكلمة التي في الناموس، إنهم قد أبغضوني مجانا أي باطلا فلو قد جاء المنحمنا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب وروح القدس، هذا الذي من عند الرب خرج، فهو شهيد علي وأنتم أيضا، لأنكم قديما كنتم معي، في هذا قلت لكم لكي لا تشكوا ».

قال ابن اسحاق:

والمنحمنا (بالسريانية) محمد.. وهو بالرومية البرقليطس، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وهذا المعنى مشار إليه في قول الله تبارك وتعالى في سورة الاعراف/١٥٧:

«الـذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحـل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضـع عنهم إصرهم والأغـلال الـتي كانـت عليهم...★».

«الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون★». (البقرة ١٤٦)

النبي الأمي:

كان من حكمة الله تبارك وتعالى أن يكون الرسول أميا لا يقرأ ولا يكتب.. ربما لتكون معجزة القرآن على لسانه أبلغ دليل على أنها من عند الله، وإبعادا لكل التهم والمظان السيئة التي حاول أعداء الاسلام أن يلصقوها بالنبي صلوات الله عليه.

هذه الأمية قررها القرآن في قوله تعالى:

«وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك،

إذا لارتاب المبطلون ».

(العنكبوت ٤٨)

« الـذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل.. ».(الاعراف ١٥٧)

« فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ». (الاعراف ١٥٨)

« « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ». (الجمعة ٢)

النبي اليتيم:

في السيرة :

« ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ أن هلك وأم رسول الله ﷺ حامل ».

« وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبـد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتاً حسنا، لما يريد الله به من كرامته.

فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب ».

(١ : ١٧٧)

هذا المعنى يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى:

«ألم يجدك يتيما فآوى ».(سورة الضحى)

بدء الوحي:

روى البخاري بسنده الى عائشة رضي الله عنها قالت:

«أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: (اقرأ باسم ربك الذي خلق ★ خلق الانسان من علق ★ اقرأ وربك الأكرم)... الحديث.

(البخاري: باب كيف بدأ الوحي)

هذا الحدث من السيرة النبوية مذكور بنصه في القرآن في سورة العلق:

«اقرأ باسم ربك الذي خلق★ خلق الانسان من علق★

اقرأ وربك الاكرم★ الذي علم بالقلم★ علم الانسان ما لم يعلم★. (العلق ١ - ٥)

المزمل المدثر صلوات الله عليه:

وفي حديث البخاري المذكور آنفا حول بدء الوحي تقول عائشة رضي الله عنها: «... فرجع بها رسول الله ﷺ - يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها -: فقال: زملوني.. زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع...». الحديث.

هذا الحدث جاء تصويره في القرآن الكريم في صورة نداء خوطب به المصطفى صلوات الله عليه في قوله تعالى: «يا أيها المزمل★ قم الليل إلا قليلا★». (المزمل ١ - ٢)

كما يروي البخاري بسنده إلى جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض، فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني... الحديث».

هذا الحدث في السيرة مذكورة في قوله تبارك وتعالى في

سورة المدثر:

« يا أيها المدثر★ ». (المدثر ١)

تحرك شفتيه ﷺ عند الوحي:

روى البخاري في الصحيح بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه (أى ممن يحرك شفتيه)... الحديث وكأنه صلوات الله عليه كان يتعجل حفظ ما يوحى إليه.

هذه الحالة مذكورة في القرآن في قول الحق تبارك وتعالى في سورة القيامة «لا تحرك به لسانك لتعجل به★ إن علينا جمعه وقرآنه★ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه★ ثم إن علينا بيانه★ ». (القيامة ١٦ - ١٩)

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما في تتمة الحديث وبعد أن فسر الايات:

« فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فاذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه ».

أو مخرجي هم؟

في البخاري وكتب السيرة:

أن ورقة بن نوفل لما سمع بما حدث للرسول ﷺ في

الغار قال: « والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الامة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، وإن قومك سيكذبونك ويؤذونك ويخرجونك ويقاتلونك ». فقال ﷺ متعجبا: «أو مخرجي هم؟؟ ».

هذا الإخراج يصفه القرآن في قوله تبارك وتعالى في سورة محمد: وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » ١٣

وفي البقرة ١٩١: « وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ».

وفي الممتحنة: « انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ». (آية ٩)

الجهر بالدعوة:

في سيرة ابن هشام (١ : ٢٨٠):

« ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه وأن يبادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه، فكان بين ما أخفى رسوله ﷺ أمره واستتر له إلى أن أمره الله تعالى باظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغني - من مبعثه ».

هذا المعنى يعبر عنه القرآن في قوله تعالى:

« وقل إني أنا النذير المبين ». (الحجر ٨٩)

وفي قوله تعالى: « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن

المشركين ». (الحجر ٩٤)

وفي قوله تعالى: «وأنذر عشيرتك الأقربين». (الشعراء ٢١٤)

وفي قوله تعالى: «يا أيها المدثر★ قم فأنذر». (المدثر ١ - ٢)

فترة الوحي:

قال ابن اسحاق (١ : ٢٥٧):

«ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة حتى شق عليه ذلك فأحزنه، فجاءه جبريل بسورة الضحى، يقسم له ربه وهو الذي أكرمه بما أكرمه به ما ودعه ربه وما قلاه».

فقال تعالى: «والضحى والليل إذا سجى★ ما ودعك ربك وما قلى★ وللآخرة خير لك من الأولى★ ولسوف يعطيك ربك فترضى». الآيات

مقالات المشركين في الرسول ﷺ:

في سيرة ابن هشام (١ : ٢٨٨) ما خلاصته أن نفرا من قريش اجتمعوا الى الوليد بن المغيرة وكان ذا سن فيهم، وقد أظلهم الموسم وخافوا أن تأتي وفود الحجيج فتسمع بأمر النبي ﷺ فتستجيب له، فارادوا أن يجمعوا رأيا يصفونه به ليحولوا بينه وبين الناس.

فسألهم الوليد: قولوا اسمع.. قالوا: نقول كاهن. قال: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا فنقول مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا وسوسته، قالوا: فنقول شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بِنَفْثهم ولا عقدهم.

قالوا: فما نقول: يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته.

القول بأن ما يأتي به سحر وشعر وأضغاث أحلام وجنون:

في كتب السيرة وكتب الأحاديث: إن الكفار لم يجدوا صفة من الصفات يمكن أن يظنوها تنفر الناس عن الرسول ﷺ إلا اتهموه بها وحاولوا أن يلصقوها به.

فقالوا إنه ساحر، وإنه شاعر، وإن ما يأتي به أضغاث

أحلام، وإن له رئيسا من الجن يعلمه.. وإن به مسا من جنون.. وإن ما يأتي به ليس إلا أساطير الأولين.. الخ.

ونظير هذا في القرآن قوله تعالى:

« ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ». (الانعام ٢٥)

وقوله: « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا الا أساطير الأولين ».

(الأنفال ٣١)

« ... ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ». (هود ٧)

« وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ».

(الحجر ٦)

« وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ».

(النحل ٢٤)

« بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ».

(الانبياء ٥)

«لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا الا أساطير الأولين».

(المؤمنون ٨٣)

«وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبدآباؤكم، وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين». (سبأ ٤٣)

«وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين». (يس ٦٩)

«ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون». (الصافات ٣٦)

«وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب». (ص ٤)

«ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون». (الزخرف ٣٠)

«أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا». (الاحقاف ٨)

«فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون». (الطور ٢٩)

«أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون». (الطور ٣٠)

«أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون». (الطور ٣٣)

«إنه لقول رسول كريم★ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون★ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون». (الحاقة ٤٠ - ٤٢)

«فقال إن هذا إلاسحر يؤثر★ إن هذا إلا قول البشر». (المدثر ٢٤ - ٢٥)

«وما صاحبكم بمجنون★ ولقد رآه بالافق المبين★ وما هو على الغيب بضنين★ وما هو بقول شيطان رجيم★». (التكوير ٢٢ - ٢٥

مقالة المشركين للرسول وايذاؤهم له. (إن كنت تريد ملكا ملكناك)

قال ابن اسحاق (١ : ٣١٥ - ٣١٨) - بتصرف:

«ثم إن الاسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين، ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة وقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وخاصموه حتى

تعذروا فيه. فبعثوا إليه.. وكان مما قالوا:

« يا محمد فان كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا عليك فانك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلدا ولا أقل مالا ولا أشد عيشا منا.. فسل ربك أن يسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا. وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ».. الخ

ونظير هذا في القرآن قوله تعالى: « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، بل لله الأمر جميعا.. ». (الرعد: ٣١)

وقوله تعالى: « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه؛ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ».
(١٧/ ٩٠ - ٩٣)

وقال ابن اسحاق (١: ٣١٧):

« قالوا: فاذا لم تفعل هذا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله

فيجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي. فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم».

نظير هذا في القرآن قوله تعالى:

«وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا★ أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة يأكل منها، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا★ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا★ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا★». (٢٥/٧ - ١٠)

وأيضا قوله تعالى: «وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا» (٢٥/٢٠)

(أو ترقى في السماء)

قال ابن اسحاق (١ : ٣١٨):

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ابن عمة رسول الله قائلا له:

« يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل.. ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل.. فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما، ثم ترقى وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم يأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك.. أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك... ».

نظير هذا في القرآن قوله تعالى:

« ... أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ». (١٧/٩٣)

الهمزة اللمزة:

قال ابن اسحاق (١ : ٣٨٢) وأمية بن خلف بن وهب ابن حذافة بن جمح، كان إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه. قال ابن هشام: والهمزة الذي يشتم الرجل علانية ويكسر عينيه عليه ويغمز به.

ونظير هذا في القرآن قوله تعالى:

« ويل لكل همزة لمزة★ الذي جمع مالا وعدده★ يحسب أن ماله أخلده★ كلا لينبذن في الحطمة★ » الآيات

سب الإله:

قال ابن اسحاق: ولقي ابو جهل بن هشام رسول الله ﷺ – فيما بلغني – فقال له:

« والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا، أو لنسبن إلهك الذي تعبد ».

يتحدث القرآن الكريم عن هذا في قوله تعالى:

« ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم... ».

(الانعام ١٠٨)

عظيم القريتين:

قال ابن اسحاق (١ : ٣٨٧):

« والوليد بن المغيرة قال: أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؟ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف؟ ونحن عظيما القريتين؟

يتحدث القرآن عن هذا في قوله تعالى:

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين

عظيم★ أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون★. (الزخرف ٣١ - ٣٢)

أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط:

في سيرة ابن هشام ما خلاصته (١ : ٣٨٧):

أن أُبي بن خلف وعقبة كانت بينهما صداقة قوية وسمع أُبي بأن عقبة جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، فأعلن قطيعته ما لم يذهب إلى محمد ﷺ ويتفل في وجهه.. وقد فعلها اللعين.

وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى:

«ويوم يعض الظالم على يديه يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا★ يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا★ لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا★». (الفرقان ٢٧ - ٢٩)

ومشى أُبي إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد تحطم فقال: يا محمد تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما ارم - أي بلى - ثم فته في يديه، ثم نفخه في وجه رسول الله ﷺ.

وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى:

« وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم★ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ». (٣٦/٧٨ - ٧٩)

أبو جهل والرسول:

قال ابن اسحاق (١ : ٣١٩):

« قال أبو جهل يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله، فاذا سجد في صلاته فضخت به رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ».

نظير هذا في القرآن قوله تعالى:

« أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى★ أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى★ أرأيت إنْ كذب وتولى★ ألم يعلم بأن الله يرى★ كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية★ ناصية كاذبة خاطئة★ فليدع ناديه★ سندع الزبانية★ كلا لا تطعه واسجد واقترب ».

(سورة العلق)

تبا لك ألهذا جمعتنا:

في السيرة أن الرسول ﷺ لما أنذر قومه.. وقال لهم:

«إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». قال له أبو لهب: تبا لك سائر اليوم (ألهذا جمعتنا؟).

وفي القرآن يسجل هذا في قوله تبارك وتعالى:

«تبت يدا أبي لهب وتب★ ما أغنى عنه ماله وما كسب★ سيصلى نارا ذات لهب★»

(سورة المسد)

حمالة الحطب:

كانت أم جميل - امرأة أبي لهب - تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر، فسماها القرآن «حمالة الحطب».. فأتت رسول الله ﷺ وهو جالس بالمسجد وبيدها حجر تريد أن تضربه به، فصرف الله بصرها عنه، فقالت شعرا تهجو به الرسول:

مذمما عصينا . . وأمره أبينا

ودينه قلينا

حديث أم جميل هذه مذكور في قوله تعالى:

«وامرأته حمالة الحطب★ في جيدها حبل من مسد».

(سورة المسد)

طعام الأثيم:

قال ابن إسحاق (السيرة ١/٣٨٨):

وأبو جهل بن هشام لما ذكر الله تعالى شجرة الزقوم تخويفا لهم قال: يا معشر قريش: أتدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا.. قال - متهكما - إنها عجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها تزقما.

عن هذا يتحدث القرآن (الدخان ٤٣ - ٥٠):

«إن شجرة الزقوم★ طعام الأثيم★ كالمهل يغلي في البطون★ كغلي الحميم★ خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم★ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم★ ذق إنك أنت العزيز الكريم★ إن هذا ما كنتم به تمترون★».

لا أريد منكم مالا.. ولا أسألكم عليه أجرا:

قال ابن اسحاق (١ : ٣١٦):

«قالوا: فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا.. وان كنت إنما تطلب به الشرف - وان كنت تريد به ملكا... الخ

فقال ﷺ: ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا.. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة..

نظير هذا في القرآن قوله تعالى:

« قل ما سألتكم من أجر فهو لكم، إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ».(سبأ ٤٧)

وقوله: « قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكر للعالمين ». (الانعام ٩٠)

وقوله: « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين★ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين★ ».

(يوسف ١٠٣ – ١٠٤)

وقوله: « أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين ». (المؤمنين ٧٢)

وقوله: « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ».

(الفرقان ٥٧)

وقوله: « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى... ». (الشورى ٢٣)

وقوله: « أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ». (الطور ٤٠) (القلم ٤٦)

لا أعبد ما تعبدون:

في السيرة ما خلاصته (١ : ٣٨٨):

إن الأسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف

والعاصي بن وائل اعترضوا رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة،فدعوه إلى أن يشتركوا معه في عبادة إلهه ويشترك معهم في عبادة آلهتهم.

وهذا ما يتحدث عنه القرآن في قوله تعالى:

«قل يا أيها الكافرون★ لا أعبد ما تعبدون★ ولا أنتم عابدون ما أعبد★ ولا أنا عابد ما عبدتم★ ولا أنتم عابدون ما أعبد★ لكم دينكم ولي دين★ ». سورة الكافرون

لو كان خيرا ما سبقونا اليه:

قال ابن اسحاق (٢ : ٣٣):

« وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد جلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب وعمار وأبو فكيهة، وصهيب وأشباههم من المسلمين هزئت بهم قريش،وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون! أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق، لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقونا إليه.. وما خصهم الله به من دوننا.

هذا الموقف هو ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله:

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه،ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم

من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين★ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا :أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟! أليس الله بأعلم بالشاكرين★ » .

(٦/٥٢ - ٥٣)

ذاك أعجمي وهذا عربي:

قال ابن اسحاق (٢ : ٣٣):

وكان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيرا ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له: جبر، عبد لبني الحضرمي، فكانوا يقولون، والله ما يعلم محمدا كثيرا مما يأتي به إلا هذا النصراني - غلام بني الحضرمي.

عن هذا الموقف يعبر القرآن الكريم بقوله تعالى:

« ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ».

(١٦/١٠٣)

إن شانئك هو الأبتر:

قال ابن اسحاق (٢ : ٣٤):

وكان العاصي بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ولو مات لا نقطع ذكره واسترحتم منه.

عن هذا المعنى يتحدث القرآن الكريم في قوله تعالى:
«إنا أعطيناك الكوثر★ فصل لربك وانحر★ إن شانئك هو الابتر».

لولا أنزل عليه ملك:

قال ابن اسحاق (٢: ٣٦):

ودعا رسول الله ﷺ قومه إلى الاسلام وكلمهم فأبلغ إليهم،فقال له نفر منهم (ذكر اسماءهم) يا محمد لو جعل معك ملك يحدث عنك الناس ويرى معك.

في هذا يقول القرآن الكريم:

«وقالوا لولا أنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون★ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون★». (٦ / ٨ - ٩)

وقال: «قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا». (٩٥/١٧)

ولقد استهزىء برسل من قبلك:

قال ابن اسحاق (٣٦/٢):

ومر رسول الله ﷺ بنفر من قريش - سماهم - فهمزوه واستهزءوا به فغاظه ذلك، فأنزل الله تعالى قوله:

« ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ».

حديث الإسراء:

قال ابن هشام (٢ : ٣٦):

« حدثنا زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن اسحاق المطلبي قال: ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وهو بيت المقدس من إيلياء، وقد فشا الاسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها.. الخ ».

عن هذا يتحدث القرآن الكريم في قوله تعالى:

« سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله.. ».

وقوله تعالى: « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس.. ».

أجعل الآلهة إلهاً واحدا:

قال ابن اسحاق (٢ : ٥٨ - ٦٠) بتصرف:

لما ثقل المرض بأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم مشى إليه أشراف قومه ليكلموه في أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم:

« كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم

بها العجم، فقال له ابو جهل.. نعم وابيك وعشر كلمات قال: تقولون لا اله الا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه. قال: فصفقوا بايديهم ثم قالوا: اتريد يا محمد أن تجعل الآلهة آلها واحدا؟ ان امرك لعجب.

عن هذا الموقف يتحدث القرآن في قوله تعالى:

«ص والقرآن ذي الذكر ★ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ★ كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ★ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ★ أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ★ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد ★ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق ★ أءنزل عليه الذكر من بيننا، بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب ★ ».

الجن يستمعون القرآن:

قال ابن اسحاق (٢ : ٦٣):

«ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى فمر به نفر من الجن.. فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا الى قومهم منذرين، قد

آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا.

عن هذا يتحدث القرآن الكريم في قوله تعالى:

«قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا ★ يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا★ ». (الجن ١ - ٢)

وقوله تعالى: «وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا: أنصتوا، فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين».

بيعة النساء:

قال ابن إسحاق (٢: ٧٥) بسنده إلى عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال:

«كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلا، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف..».

عن بيعة النساء يتحدث القرآن في سورة الممتحنة (٦٠: ١٢)

«يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا، ولا يسرقن ولا يزنين، ولا يقتلن

أولادهن،ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ،ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم ».

الاذن بالقتال:

قال ابن اسحاق (٢ : ١١٠) وما بعدها :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - قبل بيعة العقبة الأولى لم يؤذن له في الحرب ولم تحل له الدماء.. فلما عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم... أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم.

عن هذا يتحدث القرآن الكريم في قوله تعالى:

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ★ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ★ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ★ ». (سورة الحج ٣٩ - ٤١)

وقوله تعالى: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله». (الانفال ٣٩)

المؤامرة لقتل الرسول:

قال ابن اسحاق (٢ : ١٢٤):

«ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم.. عرفوا أنه قد أجمع لحربهم.. فاجتمعوا له في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون في أمره صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدون إليه فيضربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل، فلم يقدر بنو عبد مناف على حربهم.

إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله:

«وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين». (الأنفال ٣٠)

وقوله: «أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ★ قل تربصوا فاني معكم من المتربصين». (الطور ٣٠ - ٣١)

الهجرة وحديث غار ثور:

قال ابن اسحاق (٢ : ١٣):

« فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بجبل ثور فدخلاه ».

وقال ابن هشام:

« وانتهيا إلى الغار ليلا، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية، ليقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ».

عن حديث الغار هذا يقول القرآن الكريم:

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ». (التوبة ٤٠)

يهود المدينة والمنافقون في السيرة والقرآن:

عداؤهم للرسول:

قال ابن اسحاق (٢ : ١٦٠):

« ونصبت عند ذلك أحبار اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة بغيا وحسدا وضغنا.. ».

وإلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى:

« ... وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله، فان يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة ومالهم في الأرض من ولي ولا نصير ».
(٩ / ٧٤)

ظهور النفاق في المدينة

قال ابن اسحاق (٢ : ١٦٠):

« وانضاف إليهم - يعني اليهود - رجال من الأوس والخزرج ممن كان عسى - أي بقي - على جاهلية، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أن الاسلام قهرهم بظهوره، واجتماع قومهم عليه، فتظاهروا بالاسلام واتخذوه جنة من القتل، ونافقوا في السر، وكان هواهم مع اليهود لتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وجحودهم الاسلام.

من هؤلاء المنافقين: نبتل بن الحارث، وهو الذي قال: إنما محمد أذن.. من حدثه شيئا صدقه. (ابن اسحاق ٢ : ١٦٨)

وعنه يقول القرآن:

« ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن، قل أذن

خير لكم، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » (٩/ ٦١).

ومن هؤلاء: معتب بن قشير الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شـــيء ما قتلنا ها هنا.

وعنه يقول القرآن:

« وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون هل لنا من الأمر من شيء! قل إن الأمر كله لله، يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم.. ». (٣/ ١٥٤)

وهو الذي قال يوم الأحزاب (٢ : ١٦٩):

كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط.

وفيه يقول القرآن:

« وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ».

قال ابن اسحاق (٢ : ١٧٠):

ومنهم وديعة بن ثابت.. ممن بنى مسجد الضرار، وهو الذي قال: إنما كنا نخوض ونلعب.

وعنه يقول القرآن:

« ولئن سألتهم ليقولن: إنما كنا نخوض ونلعب، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ». (٩/٦٥)

قال ابن اسحاق (٢ : ١٧٠):

ومنهم أوس بن قيظي: الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق: يا رسول الله إن بيوتنا عورة فأْذن لنا لنرجع اليها.

وفيه يقول القرآن:

« يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، إن يريدون إلا فرارا ». (٣٣/١٣)

قال ابن اسحاق (٢ : ١٧٣):

وكان رأس المنافقين - عبد الله بن ابي بن سلول - وإليه يجتمعون، وهو الذي قال في غزوة بني المصطلق: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

وفيه نزلت سورة المنافقين.

كما نزل فيه قوله تعالى:

«ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم

أحـدا أبـدا، وإن قوتلتم لننصرنـكم، والله يشهد إنهم لكاذبون ». (١١/٥٩)

وفي هؤلاء المنافقين الذين حفلت السيرة النبوية بالكثير من ألوان نفاقهم يقول القرآن الكريم واصفا خلائقهم:

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ★ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون ألا أنفسهم وما يشعرون ★ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ★ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ★ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ★ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ★ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم إنما نحن مستهزئون ★ الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ★ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ★ ».

(سورة البقرة(٨ - ١٦)

جبريل عدوهم:

قال ابن اسحاق (٢ : ١٩١)

ثم إن نفرا من أحبار يهود جاءوا الى رسول الله صلى الله

عليه وسلم فقالوا يا محمد أخبرنا عن أربع نسألك عنهن. فان فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك وآمنا بك.

واخذوا يسألون، حتى سألوا عن الروح.. فقال صلى الله عليه وسلم لهم: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل: هل تعلمونه جبريل وهو الذي يأتيني؟ قالوا: اللهم نعم، ولكنه يا محمد لنا عدو وهو ملك انما يأتي بالشر وسفك الدماء، ولولا ذلك لاتبعناك.

عن هذا المعنى يتحدث القرآن في قوله تعالى:

«قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ★ من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ★ ». (٢/٩٧ - ٩٨)

وسليمان ساحر:

قال ابن اسحاق (٢: ١٩٢):

لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان بن داود في المرسلين قال بعض أحبار اليهود ألا تعجبون من محمد، يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا، والله ما كان إلا ساحرا.

وعن هذا يقول القرآن الكريم:

«واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وما كفر

سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ».
(١٠٢/٢)

فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به:

قال ابن اسحاق (٢ : ١٩٦):

إن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

عن هذا يقول القرآن:

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ». (٨٩/٢)

كما سئل موسى من قبل:

قال ابن اسحاق (٢ : ١٩٧):

وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك.

في هذا يقول القرآن الكريم:

« أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل ».
(١٠٨/٢)

وقوله « كما سئل موسى من قبل » إشارة إلى ما ورد في سورة البقرة (٢ : ٥٥):

« وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ». (البقرة ٥٥)

وما ورد كذلك في سورة النساء (٤ : ١٥٣):

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا ». (١٥٣/٤)

لولا يكلمنا الله؟

قال ابن اسحاق (٢ : ١٩٨):

وقال رافع بن حريملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله ليكلمنا حتى نسمع كلامه.

عن هذا يقول القرآن الكريم:

« وقال الذين لا يعلمــون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم، قد بينا الآيات لقوم يوقنون » (١١٨/٢)

اتبعنا يا محمد تهتد:

قال ابن اسحاق (٢ : ١٩٨):

وقال عبد الله بن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الهدى يا محمد إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد.. وقالت النصارى مثل ذلك.

عن هذا يتحدث القرآن في قوله تعالى:

« وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة ابراهيم حنيفا، وما كان من المشركين... » الآيات (١٣٥/٢) وما بعدها).

ما ولاك عن قبلتك؟

قال ابن اسحاق (٢ : ١٩٨):

لما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، قدم نفر من يهود وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه؟ ارجع الى قبلتك التي كنت عليها نتبعك.

إلى هذا يشير القرآن في قوله:

« سيقول السفهاء من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ★ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا، وما جعلنا

القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه... » (٢/١٤٢ - ١٤٣).

وقوله تعالى: « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره... ». (٢/١٤٤)

لو قاتلتنا لعرفت انا نحن الناس:

قال ابن اسحاق (٢ : ٢٠١):

ولما أصاب الله عز وجل قريشا يوم بدر جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود في سوق بني قينقاع وقال لهم: يا معشر يهود اسلموا قبل ان يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشا.. فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، انك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس.. وأنك لم تلق مثلنا.

عن هذا يتحدث القرآن في قوله تعالى:

« قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد ★ قد كان لكم آية في فئتين التقتا، فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مِثْلَيْهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الابصار ». (٣/١٢ - ١٣)

لم تحاجون في ابراهيم:

قال ابن اسحاق:

«دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتا لليهود يتدارسون فيه كتابهم.... فدعاهم إلى الله فقال له أحدهم: على أي دين أنت يا محمد؟ قال: على ملة ابراهيم ودينه.. قال: فإن إبراهيم كان يهوديا. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: فهلم إلى التوراة فهي بيننا وبينكم.. فأبوا عليه الاحتكام إليها.. وقال بعض النصارى مثل ذلك..

عن هذا يتحدث القرآن في قوله تعالى:

«ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدْعَوْن إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون». (٣/٢٣)

وقوله تعالى: «يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ★ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ★ ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ★ إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين». (٣/٦٥ – ٦٨.

آمنوا وجه النهار واكفروا آخره:

قال ابن اسحاق (٢ : ٢٠٢):

وقال نفر من أهل الكتاب - سماهم - تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، ويرجعون عن دينه.

في هذا يقول القرآن الكريم:

« وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ». (٣/٧٢)

أبدعوى الجاهلية وأنا بين اظهركم؟

قال ابن اسحاق (٢ /٢٠٥):

تفاخر الأوس والخزرج وتذاكروا يوم « بعاث » حتى أخذوا السلاح وتداعوا اليه وكان ذلك بفتنة من أحد اليهود، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم وقال: يا معشر المسلمين: الله الله.. أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للاسلام وأكرمكم به وقطع عنكم به أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم؟

عن هذا يقول القرآن الكريم:

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين ★ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسول ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ الى صر ط مستقيم ★ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ★ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ». (٣: ١٠٠ - ١٠٣)

تحبونهم ولا يحبونكم:

قال ابن اسحاق (٢: ٢٠٧):

وكان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فنهوا عن ذلك.

عن هذا يتحدث القرآن في قوله تعالى:

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، وَدُّوا ما عنتم ،قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم

تعقلون ★ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم، وتؤمنون بالكتاب كلــه وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليـم بذات الصدور». (٣ : ١١٨ - ١١٩)

محاولة القتل بالصخرة

قال ابن اسحاق (٢ : ٢١١ - ٢١٢):

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري. فلما خلا بعضهم إلى بعض قالوا لن تجدوا محمدا اقرب منه الآن. فمن رجل يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش أنا.. فأتى رسول الله الخبر فانصرف عنهم.

عن هذه الحادثة يقول القرآن (٥ : ١١):

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم، واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون». (٥/١١)

قالوا آمنا بأفواههم:

قصة عبد الله بن صوريا وما دار بينه وبين الرسول صلى

الله عليه وسلم وكفره بعد إيمانه. السيرة (٢ : ٢١٤)

وفي هذا يقول القرآن الكريم:

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ». (٥ : ٤١)

اقضِ لنا عليهم نتبعك:

مجموعة من أشراف اليهود يساومون الرسول صلى الله عليه وسلم لكي يتبعوه أن يقضي لهم على آخرين.. السيرة (٢ : ٢١٦)

جاء في القرآن الكريم:

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك... ». (٥/٤٩)

لا نؤمن بمن آمن بعيسى:

نفر من اليهود سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عما يؤمن به، فلما ذكر اسم عيسى عليه السلام قالوا لا نؤمن به ولا بمن آمن به. (السيرة / ٢ : ٢١٦)

جاء ذلك في القرآن:

« قولوا امنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم

وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى ». (١٣٦/٢)

وأيضا « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل، وأن أكثركم فاسقون ». (٥٩/٥)

حتى تقيموا التوراة والانجيل:

في السيرة (٢ : ٢١٧):

نفر من اليهود أتوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: إنا على الحق وبيدنا التوراة.. فقال: ولكنكم أحدثتم فيها..

جاء في القرآن.

« قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم، وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا، فلا تأس على القوم الكافرين ». (٦٨/٥)

انما هو إله واحد:

في السيرة (٢ : ٢١٧):

نفر من اليهود قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم يا محمد

ألا تعلم مع الله إلها غيره؟ قال: إنما هو إله واحد.

جاء في القرآن:

« وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد، قل إنما هو إله واحد، وإنني بريء مما تشركون».

(١٩/٦)

لا تتخذوهم أولياء:

في السيرة (٢ : ٢١٨):

نفران من اليهود أظهرا الإسلام ونافقا، فَنُهِيَ المسلمون عن مودتها.

وفي القرآن:

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء..» الآيات إلى قوله:

« وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به، والله أعلم بما كانوا يكتمون». (٥٧/٥ - ٦١)

متى قيام الساعة؟

في السيرة (٢ : ٢١٨):

نفر من اليهود يطلبون الى الرسول أن يخبرهم عن الساعة لكي يؤمنوا به.

وفي القرآن:

«يسألونك عن الساعة أيان مرساها؟ قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو...» الآية (٧: ١٨٧)

قل عزير ابن الله نتبعك:

في السيرة (٢: ٢١٩):

نفر من يهود يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وتزعم أن عزيرا ليس ابنا لله.

جاء في القرآن:

«وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم...» الآيات (٩: ٣٠)

وإلا.. جئناك بقرآن مثله:

في السيرة (٢: ٢٢٠):

نفر من يهود يقولون للرسول إن ما جئت به لا يتسق وما في التوراة، فقال بل هو من عند الله وأنتم تعرفون ذلك.. قالوا: إن كان من عند الله فائتنا به مكتوبا من السماء نقرؤه والا جئناك بقرآن مثله.. فقال صلى الله

عليه وسلم: لو اجتمعت الإنس والجن ما جاءوا بمثله.

وفي القرآن:

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ».

(٨٨/١٧)

هل تصف لنا الله؟

في السيرة (٢ : ٢٢١):

نفر من يهود سخروا من الرسول وقالوا: صف لنا الله كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب الرسول حتى هم أن يواثبهم ويبطش بهم..

وفي القرآن:

« وما قدروا الله حق قدره... » الآية (٩١/٦)

سرية عبد الله بن جحش:

في السيرة (٢ : ٢٥٢):

إن عبد الله بن جحش رضي الله عنه مضى بسريته حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة لقريش.. وتشاور القوم أيتركونهم أم يقاتلونهم وذلك في آخر يوم من رجب.. ثم شجعوا أنفسهم وقاتلوهم.. وأقبل ابن جحش بالعير والأسيرين على الرسول صلى الله

عليه وسلم فقال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام.. وأسقط في أيدي القوم وأكثر الناس فيه.

وفي القرآن:

«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا...» الآية. (٢/٢١٧)

بدر الكبرى:

في السيرة تفصيل كامل لأحداث هذه الغزوة الكبرى التي فرقت بين الحق والباطل وكسرت شوكة المشركين وقد بسط لها ابن هشام أكثر من خمس وسبعين صفحة لا مجال لتناولها هنا.. بيد أنا اتساقا مع طبيعة الموضوع سنقف فقط أمام الوقائع التي وردت في السيرة وورد لها نظير في القرآن.

يعدكم الله إحدى الطائفتين:

في السيرة (٢: ٢٥٦):

لما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم بقدوم العير لقريش يقودها أبو سفيان انتدب المسلمين إليهم وقال: هذه عير

قريش اخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم.

وفي القرآن:

«وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته..» الآية (٨/ ٧)

مقومات النصر:

في السيرة (٢: ٢٦٦):

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا عيرهم استشار الناس، فتكلم أبو بكر وعمر والمقداد بن عمرو وسعد بن معاذ... فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: سيروا وأبشروا.

وفي القرآن:

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ★ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاءالناس...» الآية (٨/ ٤٥ - ٤٧)

مواقع الفريقين يوم بدر:

في السيرة: إن المسلمين كانوا على بدر بالعدوة القريبة من المدينة، وكان المشركون بالناحية الأخرى تجاه مكة، وكانت العير التي خرج المسلمون لأخذها مما يلي الفريقين من ناحية الساحل.

وفي القرآن:

«إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى، والركب أسفل منكم..» الآية.

(٤٢/٨)

الحكمة الربانية في يوم بدر:

في السيرة أن المسلمين لما خرجوا للعير لم يكونوا طلاب حرب بقدر ما كانوا طلاب أنفال وغنيمة، ولكن أراد الله أمرا آخر، ولذا أرى الله رسوله المشركين في المنام قلة ليشجعه على قتالهم.. فلما التقى الجمعان أظهرهم كذلك في أعين المسلمين ليشجعهم على قتالهم ويصل أمر الله إلى غايته.

وفي القرآن:

«... ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة وإن الله لسميع عليم ★ إذ يريكهم الله في

منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم، إنه عليم بذات الصدور ★ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا ». (٨/٤١ - ٤٤).

وما رميت إذ رميت:

في السيرة (٢ : ٢٨٠):

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء،فاستقبل قريشا بها ثم قال: شاهت الوجوه ثم نفحهم بها وقال لأصحابه: شدوا.. فكانت الهزيمة.

وفي القرآن:

« ... وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاءحسنا ». الآية

(٨/١٧)

مساعدة الملائكة والبشرى بالنصر:

في السيرة (٢ : ٢٧٩):

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل الصفوف ورجع إلى العريش يناشد ربه النصر بدعائه المشهور «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد... ثم خفق خفقة وهو في

العريش، ثم انتبه وقال لأبي بكر وكان معـه: أبشر أتاك نُصرالله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقـوده على ثناياه النقع... وفي السيرة ايضا (٢ : ٢٨٥): أن بعض الصحابة دنت منهم سحابة سمعوا منها حمحمة الخيل وقائلا يقول: أقدم حيزوم... الخ

وفي القرآن:

«إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان».

وقال: «يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ★ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيِّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير».

غزوة أحد:

انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا:

في السيرة (٣ : ٦٤ - ٦٨):

قال ابن اسحاق: فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجت بجدها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها.. وشاور الرسول صلى الله عليه وسلم القوم، ولم

يكن به رغبة للحرب، ولكن لم يزل الناس به حتى دخل بيته ولبس لأُمته، فلما خرج عليهم قالوا: يا رسول الله استكرهنـــاك ولم يكن ذلك لنا فان شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال صلوات الله عليه: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأُمته أن يضعها حتى يقاتل.

قال: ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالشعب من أحد، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال.. وأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف وقال له: انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا. إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك.

عن هذا يقول القرآن الكريم:

« واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم »

انخذال المنافقين:

في السيرة (٣ : ٦٨) قال ابن اسحاق:

« فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من صحابه حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأحد انخزل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس وقال: أطاعهم

وعصاني، وما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ».

عن هذا في القرآن:

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ★ الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل: فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ».

وفي السيرة (٣: ١١٢):

قال ابن هشام: ان بني سلمة بن جشم من الخزرج، وبني حارثة بن النبت من الاوس وهما الجناحان هما أن يفشلا، وكان ذلك منهما عن ضعف ووهن.

عن هذا في القرآن:

« اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ». « آل عمران (١٢٢)

ذكر ما اصاب المسلمين وتعزيتهم عنه:

قال ابن اسحاق (٣: ١١٦) وهو يشرح بعض ما نزل في احد من القرآن:

ثم استقبل ذكر المصيبة التي نزلت بهم والبلاء الذي

أصابهم والتمحيص لما كان فيهم، واتخاذ الشهداء منهم. فقال تعزية لهم وتعريفا لهم فيما صنعوا وفيما هو صانع بهم:

عن هذا من القرآن:

«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ★ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ★ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ★ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ★ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون».

(٣: ١٣٩ - ١٤٣).

ذكر شجاعة المجاهدين:

«وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ★ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ★ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين».

(٣/١٤٦ - ١٤٨)

التحذير من طاعة الكفار والربط على القلوب:

« يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين ★ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ★ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ». (٢/١٤٩ - ١٥١).

التذكير بصدق وعد الله وتحميل المخالفين تبعة الهزيمة:

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ».

تأنيب الفارين عن القتال:

« اذ تصعدون ولا تلوون على أَحَد ، والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ».

المؤمنون والمنافقون في ساعة العسرة:

« ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن

الجاهلية ، يقولون: هل لنا من الأمر من شيء قل: إن الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم، وليبتلي الله ما في صدوركم، وليمحِّص ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور ».

أتخافون الموت في سبيل الله؟

« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الارض أو كانوا غُزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ، والله يحيي ويميت ، والله بما تعملون بصير★ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ★ ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ». (٣/١٥٦ - ١٥٨).

حديث عن المصيبة - سببها والحكمة فيها:

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير ★ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله ، وليعلم المؤمنين ★ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو

ادفعوا، قالوا: لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ★ الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا، لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادرأوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين».

(١٦٥/٣ - ١٦٨).

مصير الشهداء:

في السيرة (١٢٦/٣) قال ابن اسحاق:

بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لما أصيب إخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يكلوا عن الحرب.. فقال الله تعالى: فأنا أبلغهم عنكم.

وفي القرآن يأتي هذا البلاغ:

«ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون ★ فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم

ولا هم يحزنون ★ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ». (٣/١٦٩ - ١٧١).

الخروج إلى حمراء الأسد:

قال ابن اسحاق (٣/١٠٧) فلما كان الغد (غداة أُحُد) لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه ألا يخرجن معنا أَحَدٌ إلا أَحَدٌ حضر يومنا بالامس.

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى الى حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

عن هذا في القرآن:

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ★ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ★ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ★ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ».

(٣/١٧٢ - ١٧٥).

سرية الرجيع: (٣: ١٨٧)

في السيرة تفصيل كثير عن حديث يوم الرجيع، وعن ذلك الغدر المخزي من ذلك الرهط من عضل والقارة الذين غدروا بالنفر الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم، فقتل مرثد وابن البكير وعاصم، وزيد بن الدغنة، وخبيب بن عدي.

وكان للغدر الذي وقع بهذه السرية أثره على المشركين والمنافقين الذين قالوا:

«يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا (هكذا) لاهم قعدوا في أهليهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم».

عن موقف المنافقين وشماتتهم بأصحاب الرجيع يقول القرآن:

«ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ★ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ★ وإذا قيل له: اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد». (٢/ ٢٠٤ - ٢٠٦)

وعن شهداء الرجيع من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يقول القرآن:

« ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رؤوف بالعباد » .

(٢٠٧/٢)

إجلاء بني النضير:

قال ابن اسحاق في السيرة (١٩٩/٣) ما خلاصته:

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية رجلين قتلها عمرو بن أمية الضمري، فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اظهروا التودد له، وقالوا: نعينك يا ابا القاسم بما أحببت... ثم خلا بعضهم إلى بعض ورأوها فرصة سانحة للتخلص من الرسول حيث يعلو أحدهم الجدار الذي كان يجلس إليه ثم يلقي عليه صخرة قاتلة.

هكذا تآمروا ولكن الله بعث إليه جبريل عليه السلام يخبره بما عزم عليه القوم فمضى عنهم.

وعن حديث التآمر يقول القرآن:

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » . الأنفال ٣٠

وعن بني النضير وما تم من إجلائهم يقول القرآن في سورة الحشر:

« هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الابصار ».

« ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار »

« ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ».

وفي السيرة (٣/٢٠٠):

إن القوم لما حاصرهم الرسول امتنعوا في حصونهم فأمر الرسول بقطع نخيلهم فقالوا: كنت تنهانا عن الفساد وتفعله.

عن هذا يقول القرآن:

« ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ». (٥٩/٥)

تحريض المنافقين لهم على المقاومة:

قال ابن اسحاق (٢/٢٠٠):

وكان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول وآخرون قد بعثوا إلى بني النضير إن

أثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم إذا قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم.. فتربصوا ذلك منهم فلم يفعلوا وقذف الله في قلوبهم الرعب.

عن هذا يقول القرآن:

« ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا، وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون ★ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون★ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ».

فيء بلا قتال:

قال ابن اسحاق (٣/٢٠١):

وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة (السلاح) ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل.

فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام.

عن هذا يقول القرآن:

« وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل

ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء، والله على كل شيء قدير». (٦/٥٩).

تقسيم فيئهم على المهاجرين دون الأنصار:

قال ابن اسحاق (٣/٢٠١ - ٢٠٢):

وخلّوا الأموال فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار. إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة ذكرا فقرا فأعطاهما صلى الله عليه وسلم.

عن هذا في القرآن:

«ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فَلِلَّهِ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب ★ للفقراء المهاجرين الـذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ★ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق

شح نفسه فأولئك هم المفلحون ».

(٩ - ٧/٥٩)

صلاة الخوف في ذات الرقاع:

قال ابن اسحاق (٣/١٤ - ١٥):

وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم نجدا يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان ولقي بها جمعا عظيما، فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب ولكن خاف الناس بعضهم بعضا حتى صلى رسول الله صلاة الخوف، ثم انصرف.

وعن صلاة الخوف هذه يقول القرآن:

« وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا ★ واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم. ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة، ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم، إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ».

غزوة الخندق (الأحزاب)

دور اليهود في التحريض:

في السيرة (٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦):

إن نفرا من يهود منهم سلام بن أبي الحقيق وأخوه كنانة، وحُيَيُّ بن أخطب. ونفر من بني النضير ونفر من بني وائل هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله حتى قدموا على قريش بمكة.. فلما سألتهم قريش - بالذي يعلمون: أديننا خير أم دين محمد؟.. قالوا: بل دينكم خير من دينه.. وفعلوا مثل ذلك بغطفان.. فخرجت قريش وغطفان - يقصدون المدينة.

عن هذا يقول القرآن:

«ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ★ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا● أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا●أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله». (٤/ ٥١ - ٥٤)

حفر الخندق:

قال ابن اسحاق (٣: ٢٢٦ - ٢٢٧):

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ترغيبا للمسلمين فعملوا معه ودأب ودأبوا، وأبطأ عن ذلك رجال من المنافقين كانوا يوارون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من الرسول ولا أذن منه صلى الله عليه وسلم.

في هذا يقول القرآن:

«إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأْذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم★ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم» (٢٤/٦٢ - ٦٣).

اشتداد الأمر على المسلمين:

قال ابن اسحاق (٣: ٢٣٣):

وعظم عند ذلك البلاء على المسلمين واشتد الخوف

وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن.

عن هذا يقول القرآن:

«إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ★ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا».

(٣٣/١٠ - ١١)

ظهور النفاق:

قال ابن اسحاق (٢٣٣/٣):

ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير اخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن أن يذهب إلى الغائط. (وتنسب المقالة لغيره).

عن هذا يقول القرآن:

«واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا.»

رغبة المنافقين في الفرار بانتحال الأعذار:

قال ابن اسحاق: وقال أوس بن قيظي أحد بني حارثة ابن الحارث:

يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو فأْذن لنا أن نخرج فنرجع فانها خارج المدينة - وذلك على ملأ من رجال قومه.

عن هذا يقول القرآن:

«وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ★ ولو دُخِلَت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا ★ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ★ قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذا لا تمتعون الا قليلا ★ قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا».

دعاة الهزيمة والتخذيل عن القتال:

في السيرة حديث مفصل عما قام به عدو الله حُيَيُّ ابن أخطب في تخذيل بني قريظة وحملهم على نقض ما كانوا عاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم عليه... وما أدى إليه ذلك من فتنة، وما فت في عضد الناس وزاد المشقة عليهم، حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما اشتد البلاء وبرز النفاق أن يعقد صلحا مع غطفان.

عن موقف هؤلاء المعوقين يقول القرآن:

« قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا ★ أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد، أشحة على الخير، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا● يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وان يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا ».

موقف المؤمنين في المحنة:

في السيرة (٣/ ٢٣٤):

إنه لما اشتد البلاء على الناس هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعقد الصلح مع غطفان على أن يكون لهم ثلث ثمار المدينة.. ولما استشار سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة زعيمي الأنصار قالا له:

« يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعا..

أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه

نعطيهم أموالنا، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

عن هذا يقول القرآن:

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا ايمانا وتسليما ».

نهاية الاحزاب وارتحالهم عن المدينة:

قال ابن اسحاق (٣/٢٤١):

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن أرسل أبو سفيان ابن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة ابن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم أن اليوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا.. ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا.

ورفض القرشيون والغطفانيون أن يعطوا الرهن، وخذل الله بينهم، وبعث عليهم الريح تكفأ قُدورهم وتطرح أبنيتهم.. فارتحلوا.. وعاد المسلمون إلى المدينة.

عن هذا يقول القرآن:

« ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ».

غزوة بني قريظة.

في السيرة (٢٤٤/٣ - ٢٦٦):

وأذن مؤذن الرسول في الناس - بعد انصراف الاحزاب - من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.

وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب.

ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم أبا لبابة يستشيرونه في موقفهم فبعثه إليهم وكانت له قصة - ليس هذا مقام تفصيلها - وأخيرا ارتضوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، فقال سعد: فإني أحكم فيهم ان تقتل الرجال وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء.

عن هذا يقول القرآن:

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ★ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديرا ».

حديث الافك

في السيرة النبوية (٣/٣٠٩ - ٣٢١) حديث طويل مفصل عن قصة الإفك هذه. كيف بدأت أثناء غزوة بني المصطلق، والظروف التي صحبتها، والذين تولوا كبرها من المنافقين، والذين خاضوا فيها من بعض المؤمنين.

كما أورده البخاري في كتاب المغازي بعنوانه: حديث الافك.. وبتفصيل دقيق مما روته عائشة رضوان الله عليها. مما يطول نقله هنا، ونؤثر لمن شاء أن يلتمسه في مظانه التي أشرنا إليها... وغيرها.

أما ما جاء في القرآن فقد تضمنته آيات سورة النور على النحو التالي:

تبرئة عائشة وتسمية الحديث إفكا وعتاب الذين لم يعتبروه كذلك:

«ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم». (٢٤/١١)

«لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين» (٢٤/١٢)

رمي المحصنات بلا شهداء بهتان عظيم:

«لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء

فأولئك عند الله هم الكاذبون ». (١٣/٢٤)

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ». (١٤/٢٤)

« إذ تَلَقَّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ». (١٥/٢٤)

« إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ».

(١٩/٢٤)

« إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ». (٢٣/٢٤)

« يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعلمون ».

(٢٤/٢٤)

« يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين »

(٢٥/٢٤)

التحذير من الوقوع في الافك:

« يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين »

«ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم».
(١٧/٢٤ - ١٨)

«يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم». (٢١/٢٤)

رأس المنافقين الذي تولى كبره:

«إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم»
(١١/٢٤)

مطالبة أبي بكر بالعفو عن مسطح:

«ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم».
(٢٢/٢٤)

صلح الحديبية وبيعة الرضوان

في كتب السيرة عن صلح الحديبية وبيعة الرضوان

حديث طويل مفصل يبلغ عشرين صفحة في آخر الجزء الثالث من سيرة ابن هشام... فليرجع لتفصيله من أراد.

أما حديثها في القرآن فهذا تفصيله.

رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا»

(٤٨/٢٧)

المخلفون من الأعراب:

قال ابن اسحاق: وكان رسول الله صلى الله عيه وسلم قد استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب.

عن تخلف الأعراب جاء في القرآن:

«سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا. بل كان الله بما تعملون خبيرا ★ بل ظننتم أن لن

ينقلب الرسول والمؤمنون إلى اهليهم أبدا، وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ».
(٤٨/١١ - ١٢)

« سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا، بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ★ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون، فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا، وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما ». (٤٨/١٥ - ١٦)

بيعة الرضوان:

قال ابن اسحاق (٣: ٣٣):

إن رسول الله صلى لله عليه وسلم قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة:

قال ابن هشام: عن ابن عمر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع لعثمان فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

عن هذه البيعة يقول القرآن:

«لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ★ ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما★ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم، ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما★ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا».

(٤٨/١٨ - ٢١)

إصرار قريش على منع الرسول من دخول مكة:

في السيرة (٣/٣٢٢ - ٣٢٥):

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وصل عسفان في طريقه الى مكة لقيه بشر بن سفيان الكعبي فحدثه عما اعدت له قريش لتمنعه من دخول مكة.... فقال صلى الله عليه وسلم: يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب... ثم قال صلى الله عليه وسلم: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟

عن هذا يقول القرآن:

«هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي

معكوفا أن يبلغ محله ،ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، ليدخل الله في رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ★ اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما » .

(٤٨/٢٥ - ٢٦)

الهدنة:

قال ابن اسحاق (٣/٢٣١):

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: ائت محمدا فصالحه .. فلما انتهى سهيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أطال الكلام وتراجعا ، ثم جرى بينهما الصلح .

الى هذا يشير القرآن في قوله تعالى:

« وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيرا » .

(٤٨/٢٤)

الفتح المبين:

يقول الزهري (٣/٣٣٦):

فما فتح في الاسلام فتح قبله كان اعظم منه، ووضعت الحرب وآمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالاسلام يعقل شيئا الا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الاسلام قبل ذلك أو اكثر.

الى هذا يشير القرآن في قوله:

«انا فتحنا لك فتحا مبينا ★ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ★ وينصرك الله نصرا عزيزا ★ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما».

(٤٨/١ - ٤)

اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات:

قال ابن اسحاق (٣/٣٤٠):

وهاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في تلك المدة، فخرج أخواها عمارة

والوليد حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألانه ان يردها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية فلم يفعل، وقال: ابى الله ذلك.

عن هذا جاء في القرآن:

« يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن، الله أعلم بايمانهن، فان علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار، لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن، وآتوهم ما انفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن، ولا تمسكوا بعصم الكوافر، واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا، ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ».

(١٠/٦٠)

العائدون من المهجر:

قال ابن اسحاق (٣/٤):

وكان من أقام بارض الحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين فقدم بهم عليه وهو بخيبر بعد الحديبية.

وعن هذا جاء في القرآن:

«الـذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون بـه ومن يكفر بـه فأولئـك هم الخاسرون». (١٢١/٢)

قال ابن عباس فيما رواه عطاء والكلبي: نزلت في أصحاب السفينة الذين أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة وكانوا أربعين رجلا.

ويروي النيسابوري في أسباب النزول (ص ٦٨):

إن قوله تعالى «إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين». (٦٨/٣)

نزلت فيما دار بين المهاجرين إلى الحبشة من أصحاب الرسول صلوات الله عليه وبين طالبيهم من كفار مكة ليثأروا بهم مما أصيبوا به في بدر، وكان الحوار في حضرة النجاشي ملك الحبشة آنذاك.. الذي سمع من مهاجري المسلمين ما أثلج صدره عن الايمان بعيسى ومريم وابراهيم عليهم السلام.

حدث قبل فتح مكة:

في السيرة (٤٠/٤) وما بعدها:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أجمع السير إلى مكة،

كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا إلى قريش يخبرهم فيه بما اجمع الرسول عليه وأعطاه امرأة وجعل لها جُعْلاً إن أوصلته لقريش.

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء.. فلما سأل حاطبا عما فعل قال: «أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم أهل وولد فصانعتهم عليهم».

عن هذا يقول القرآن:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق، يخرجون الرسول وإياكم؛أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرون اليهم بالمودة، وأنا أعلم بما أخفيتم وما اعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل».

الى قوله تعالى:

«قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده».

(٤ - ١/٦٠)

يوم حنين

قال ابن اسحاق (٤/ ٨٠ وما بعدها):

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ألفان من أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه فكانوا اثني عشر ألفا. ثم مضوا يريدون لقاء هوازن.

وقال (٤/ ٨٧): وحدثني بعض أهل مكة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج الى حنين قال أحد أصحابه لما رأى كثرة من معه من جنود الله: لن نغلب اليوم من قلة.

قال ابن اسحاق: وزعم بعض الناس ان الذي قالها رجل من بكر.

عن غزوة حنين وما أحاط بها من هزيمة وثبات.. ثم نصر.. تقول الآيات الكريمة:

«لقد نصركم الله في مواطن كثيرة، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت، ثم وليتم مدبرين ★ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ★ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم».

(٩/ ٢٥ - ٢٧)

ائذن لي ولا تفتني:

في السيرة (٤/١٥٩):

لما تهيأ رسول الله لغزوة تبوك قال - وهو في جهازه - للجد بن قيس..: يا جد هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله.. أو تأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء مني؟ وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أذنت لك.

عن هذا يتحدث القرآن في قوله تعالى:

« ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ».

(٩/٤٩)

لا تنفروا في الحر:

في السيرة (٤/١٦٠):

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد وشكا في الحق وإرجافا برسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن هذا يقول القرآن:

«وقالوا: لا تنفروا في الحر؛ قل نار جهنم أشد حرا لو

كانوا يفقهون ★ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ★ فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا انكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ★ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ».

(٩/٨١ - ٨٤)

البكاؤون:

قال ابن اسحاق (٤/١٦١ وما بعدها):

ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم البكاؤون وهم سبعة نفر من الأنصار فاستحملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا أهل حاجة فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا.

عن هؤلاء يقول القرآن:

«ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ★ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا

وأعينــهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ».

(٩١/٩ - ٩٢)

غزوة تبوك

اثاقلتم إلى الارض:

في السيرة (١٥٩/٤):

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم وذلك في زمان من عسرة الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال وفي الزمان الذي هم عليه.

عن هذا تقول الآيات الكريمة:

« يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ★ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير ».

إلى قوله: « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ».

(٣٨/٩ - ٤١).

المعذرون من الأعراب:

قال ابن اسحاق (٤/١٦٢):

وجاءه المعذرون من الأعراب فاعتذروا إليه فلم يعذرهم الله تعالى، وقد ذكر لي أنهم نفر من بني غفار.

عن هذا تقول الآيات الكريمة:

« وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ».

لو خرجوا فيكم:

قال ابن اسحاق (٤/١٦٢ وما بعدها):

وضرب عبد الله بن أبي عسكره على حدة أسفل منهم نحو ذباب (جبل بالمدينة) وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه ابن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب.

عن هذا تقول الآيات الكريمة:

« لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ».

(٩/٤٢)

وقوله: «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة، وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ★ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون» (٩/٤٧ - ٤٨)

الثلاثة الذين خلفوا:

قال ابن اسحاق (٤: ١٧٥ وما بعدها):

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وكان قد تخلف عنه رهط من المنافقين، وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق: كعب بن مالك، ومرارة ابن الربيع وهلال بن أمية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: لا تكلمن أحدا من هؤلاء الثلاثة... وحديثهم في السيرة طويل ما بين الصفحات ١٧٥ - ١٨١ من الجزء الرابع.

عن هؤلاء الثلاثة تقول الآيات الكريمة:

«لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ★ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه، ثم

تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم ».

(١١٧/٩ - ١١٨)

اعتذار المخلفين من المنافقين:

قال ابن اسحاق (١٧٥/٤):

وأتاه من تخلف من المنافقين فجعلوا يحلفون له ويعتذرون فصفح عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعذرهم الله ولا رسوله.

عن هذا تقول الآيات الكريمة:

« يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون ★ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ★ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين »

(٩٤/٩ - ٩٦)

ما كان لهم أن يتخلفوا:

« ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك

بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون». (٩/ ١٢٠ - ١٢١)

اليوم أكملت لكم دينكم:

قال ابن اسحاق (٤/٦٥٣ ط الحلبي) عن ابن ابي مليكة:

«لما كان يوم الاثنين: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصبا رأسه إلى الصبح وأبو بكر يصلى بالناس.. قال: فلما فرغ من الصلاة اقبل على الناس فكلمهم رافعا صوته حتى خرج صوته من باب المسجد يقول: أيها الناس سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ما تمسكون علي بشيء، إني لم أحل إلا ما أحل القرآن، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن.

وقالت عائشة: رجع إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم حين دخل من المسجد فاضطجع في حجري.. قالت ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في

حجري فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول:

بل الرفيق الأعلى من الجنة.

قالت فقلت: خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق..
قالت: وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن هذه النهاية وما صحبها وما أعقبها يقول القرآن:

« اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الاسلام دينا ».

ويقول:

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبية فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ».

(صدق الله العظيم)



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

نبوّة محمّد
ودلائلها من القرآن

للأستاذ الدكتور التهامي نقرة
« تونس »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة السيرة

تقوم المنهجية العلمية في دراسة السيرة النبوية على عملية الانتقاء والتصفية، والرجوع إلى مصادرها الأساسية وبيئتها الواقعية، لتخليصها مما أقحم فيها من قصص وخوارق ومبالغات لا يؤيدها التاريخ، ولا يزكيها النقل الصحيح، ودون أن يكون لذلك أصل في القرآن أو الحديث، بل ربما تناقضت معها، ففتحت لبعض المستشرقين وغيرهم ممن لا تخلو كتاباتهم من تعصب وتحامل على الإسلام وعلى نبي الإسلام ثلمات وثغرات ساعدتهم على الطعن، وعلى إثارة الشكوك في السيرة، والاستعانة بالشاذ الغريب ليأخذوا منه ما يبيتون من أفكار مسبقة، وقد أثاروا الشك حتى في اسم النبي، ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجوده، كما أثاروه حول الوحي الذي جاء به، فحاولوا أن يضعوا أيدينا على الأشخاص الذين تلقى عنهم العلم من أهل الكتاب، وإثبات الاقتباسات من اليهودية والمسيحية، في حين أن التاريخ لم يترك مكانا لأصدقاء معلمين للرسول كما يزعمون.

وبُعد هؤلاء الحانقين عن المنهج العلمي يؤكده اعتمادهم على كل خبر يظفرون به في كتب السيرة، ويلائم رأيهم ليبنوا حكمهم عليه، وإن كان هذا الخبر ضعيفا واهيا، لأنهم أصحاب فكرة يريدون إثباتها بأي طريق، ولو أدى ذلك إلى هدم أخبار صحيحة، واختراع أخبار تقوم مقامها.

ومن المستشرقين المنصفين من كشفوا النقاب عن الأخطاء المنهجية التي وقع فيها رفاقهم، وهم يدرسون السيرة، والدوافع التي تكمن وراء مواقفهم.

ولقد رأى (دينيه) أنه من المتعذر، إن لم يكن من المستحيل أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة... ورغم مزاعمهم من اتباعهم لأساليب النقد الصحيح، وقوانين البحث العلمي الجاد، فإنا نلمس من خلال كتاباتهم محمدا يتحدث بلهجة ألمانية اذا كان المؤلف ألمانيا، وبلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليا، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب، وذلك أن هؤلاء يقدمون لنا صورة خيالية، أو يصورون لنا أشخاصا من أبناء قومهم، فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة،وقد ضرب المستشرق الانجليزي (مونتكمري وات) مثلا بالمستشرق الفرنسي «لامانس» على الانحرافات

المنهجية التي يمارسها كثير من المستشرقين، وبخاصة تلك التي تقوم على جعل الوقائع التاريخية مجالا انتقائيا للتدليل على فكرة مسبقة، أو اتجاه حدد من قبل فقال:

(إن لا منس - للأسف - يتجاوز الأدلة كثيرا، إذ أن طريقته العابثة في المعالجة ليست طريقة علمية، فهو يرفض هذا االرأي ويقبل الآخر حسب أفكاره الخاصة ومعتقداته، دون أن يعبأ بالموضوعية.)[1]

ولا شيء يبعد عن المنهجية العلمية كالانتقاء الكيفي أو التفسير الاختياري للنصوص التاريخية أو النفي الاعتباطي لبعض المسلمات والحقائق.

خطر المغالاة في الإنكار والإثبات:

ومن المستشرقين من اعتمد الجانب السلبي في اعتبار القرآن مصدرا أساسيا من مصادر السيرة مثل (سبرنجر)، وذلك بنفي الكثير من أحداث السيرة، ما دامت لم ترد في القرآن الكريم، وكأن القرآن كتاب تاريخي بتفاصيل حياة محمد صلى الله عليه وسلم! وهذا مكنهم من عملية انتقاء مغرضة ذات طابع سلبي معاكس وهي رفض كل رواية لا ترد مؤيداتها في القرآن إذا كان في هذه الرواية تمجيد للنبي صلى الله عليه وسلم، أو إذا كان في نفيها تأكيد لإحدى وجهات النظر الاستشراقية[2].

فسبرنجر يرى أن اسم النبـي ورد في أربع سور من القرآن، وهي آل عمران، والأحزاب، ومحمد، والفتح، وكلها سور مدنية. ومن ثَمَّ فإن لفظة (محمد) لم تكن علما للرسول قبل الهجرة. وإنما اتخذه بتأثير قراءته للانجيل، واتصاله بالنصارى[٣]

وكما وقع بعض المستشرقين في أخطاء وانحرفات عند بحثهم للسيرة النبوية، بعضها عن عمد وبعضها الآخر عن خطأ، فقد وقع بعض المسلمين في أخطاء من نوع آخر، ويتمثل معظمها في المغالاة عند بعض الوقائع أو تفسير بعض الشمائل النبوية بالعواطف والأهواء، كما نجد ذلك في كثير من القصص المولدية التي كادت تجعل للنبي صلى الله عليه وسلم شخصية لاهوتيّة، دون أن تكتفي بابراز ما يتحلى به من كمال الخلق، وصفاء النفس، وقوة الايمان، ورشد القيادة، وحصافة الرأي....

وليس معنى ذلك أنا ندعو الى قطع السيرة النبوية عن أية صلة بعالم الغيب، كما يحب أنصار التفسير المادي للتاريخ، أن ينفوا المعجزات، وينكروا اتصال النبي وسائر الأنبياء عن طريق الوحي بعالم الغيب في السماء، ويسخرون من الاعتقاد مثلا بأن الله نصر القلة المؤمنة على الكثرة

الكافرة في غزوة بدر بمدد من الملائكة مُسوَّمين ، أو أنه سبحانه طمس على أعين المشركين الذين حاصروا بيته ليقتلوه بضربة رجل واحد ، حتى يتفرق دمه في القبائل . وأحاطه بعنايته وعصمه من مؤامرات اغتياله استجابة لوعده .

ثم إن صدق الدليل لا يتوقف دائما على تصديق العقل به ، ولا ينحصر فيما يثبته الحس رغم أنه لا قطيعة بين الغيب والشهادة .

على أن لهؤلاء مندوحة عن عالم الغيب بعالم الشهادة في التصديق ، فقد كان محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل للإنسان السوي ، اجتمع فيه ما تفرق في العظماء والأنبياء من خصال الشهامة والرجولة وخصال المرؤءة والبطولة .

والباحث النزيه لا تختلط عليه الأمور ، فيفقد التمييز بين ما يصل إليه النبي على ضوء العلم الرباني وهو الوحي وبين ما يصل إليه من حدود قدرته البشرية على ضوء خبرته وتجربته الشخصية .

والمؤمن برسالات السماء لا يزعزع يقينه في صدق نبوته صلى الله عليه وسلم أن يراه في حادثة ما يقف حائرا أمام ما يصعب على الذكاء الانساني اختراق حجبه ، فيضع

علامة استفهام كغيره من الناس بكل أمانة وتواضع!

كما أن التمييز بين المعجزة والأسطورة هو الحد الفاصل بين الايمان والكفر، وبين التفسير الديني الذي له أصوله وقواعده، وبين التفسير الشخصي الذي لا يخلو من شطحات الخيال، وتخبطات الأهواء التي تكمن وراء الآراء، ومن جهل واضح للعوامل الجوهرية في معرفة الحقيقة كالزمن والبيئة والمطامح والميول والنزعات ونحو ذلك مما لا يدخل تحت مقاييس العقول، ولكنه شديد التأثير في الأفراد والجماعات.

يقول بروكلمان معلقا على حادثة الاسراء والمعراج:

«في هذه الأثناء كان مسلمو مكة على ما تقول الروايات، يعانون أزمة جديدة؛ ذلك أن حديث محمد عن اسرائه العجيب برفقة جبريل الى بيت المقدس، ومن ثم الى السماء، كان قد أوقع موجة من الشك في نفوس بعض المؤمنين، لكن أبا بكر ضرب بايمانه الراسخ مثلا طيبا لهؤلاء المتشككين، فزايلتهم الريب والظنون، ومن الجائز أن تكون هذه الرحلة السماوية التي كثيرا ما أشير اليها في الأساطير الغربية التي خلفتها لنا الكتب الاسلامية أقدم من ذلك عهدا. ولعلها ترجع إلى الأيام الأولى للبعثة النبوية

وأمثال هذه الرؤى في أثناء تهجد العراف معروفة ثابتة لدى بعض الشعوب البدائية[٤] »

والقضية الأساسية التي تتشعب منها الطرق، وتختلف الاتجاهات انما هي في البحث عن المصدر الحقيقي لتعاليم الرسول أي: منبع هذا الوحي الذي ينزل عليه، ومدى استجابته له،وتأثيره عليه في حياته الخاصة والعامة.

فقد كان سلوكه صلى الله عليه وسلم تطبيقا لأخلاق القرآن بالمثل، وتعليما لآدابه بالعمل، «وكانت أقواله سننا تتبع، وأعماله قدوة تحتذى، وأحكامه أقضية تنفّذ، لأنه صنع المعجزات، وعمل ما يعجز عنه سائر الناس.

فقد ألف بين قبائل متعادية، كانت سطوة اليد فيها تسرف على الأمن والعدل، وسلطان المال يبغي على الحق، وصولة النسب تستعبد الرقاب، وعصبية الدم تطغى على كل شيء، فجمعهم على الأخوة في الله، وجعل منهم أمة متجانسة الطباع، متماسكة الاجزاء، متساندة القوى، وأقام لهم من كتاب الله دستورا، ومن سنته منهاجا.

الوحي والبعثة والدعوة.

وقد بعثه الله على فترة من الرسل، انقطع فيها صوت الوحي، وخبا نور العقل، وأطبق الظلام، وغشى الضلال،

وجرت قافلة الحياة جائرة السبيل ، حائرة الدليل ، ومادية اليهود تستغرق شهوات الحس ونزوات النفس ، ووثنية الجاهلية توبق الروح ، والرومان في الغرب يسومون الناس خسفا ، ويحسبون أنهم حكام الأرض ومن سواهم عبيد ، والفرس في الشرق أضناهم الضلال ، وأتعبهم ما عانوا من رمزية (زرادشت) الذي مهد للمجوسية ، وعدمية (ماني) الذي حرم الزواج استعجالا للفناء ، ووجودية (مزدك) الذي جعل الحياة شركة في الأموال والنساء ، حتى أذن الله لشمس الاسلام أن تشرق ببعثة من اصطفاه الله للرسالة الخاتمة(٥).

ونزل صلى الله عليه وسلم من جبل النور الذي مكث فيه ليالي يتحنث بعد أن تنزل الوحي عليه ، ونور الله يسعى بين يديه ، وصوت الروح الأمين يتردد في أذنيه :

(يا محمد= أنت رسول الله وأنا جبريل!)

ولم يكن قبل ذلك يعرف ما ينتظره ، فكان لمفاجأة اتصاله الأول بالوحي هزة في نفسه ، تلاها مزيج من مشاعر الخوف والحيرة والشك ثم انقطع عنه الوحي فترة ، ليعظم استعداده للتلقي ، ويشتد شوقه وحنينه الى استجلاء هذا السر المكنون في عالم الغيب .

وبينما هو يمشي ذات يوم ، سمع صوتا من السماء ، فرفع

بصره فاذا الملك الذي جاءه بالغار، فارتاع لرؤيته، ورجع إلى أهله، وتزمل وتدثر، وهو يرتجف خوفا وإشفاقا، فأنزل الله عليه:

(يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر) (المدثر =٢ - ٤) في تبليغ ما أمر أن يصدع به من الدعوة الى الله، بصبر المجاهد، ويقين المؤمن، وعزم الرسول، لا تسنده سلطة، ولا يؤازره جيش، ولا يمهد له مال.

وليس بالأمر الهين أن يتصدى لمقاومة قبائل شتى، فاضت في نفوس أهلها الحياة، وزخرت في صدورهم القوة، فصار نشاطهم نزاعا لا يفتر، وصراعا لا يهدأ، وهم يرون في تقبل الدعوة خضوعا لقانون، وخروجا على عرف وامتهانا لقيم، وانقلابا على مواضعات وممارسات فبغتوا [٦]، (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا الشيء عجاب »(سورة ص = ٣ - ٤). فيا لعنف الصدام، ويا لهول ما سيلقى من صدود ومكارة وخطوب! سوف يكابد أذى قريش، وكيد اليهود، وحقد المنافقين، فيقابل الأذى بالصبر، والسفه بالحلم، والفظاظة بالرقة، ويقارع الجدال بالاقناع، والعنف

بالجهاد ، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا ، وتكون كلمة الله هي العليا .

ومن لم يصطنعه ربه لتحمل أعباء الرسالة العامة ، لا يستطيع أن يصمد ويثبت في ميدان الصراع بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، حتى تظهر الوحدانية على الوثنية ، والإنسانية على العصبية ، والإيثار على الأنانية ، وحتى يعرف الانسان قدر الانسان وتدرك النفوس المتألّهة فضل الاحسان! من يقدر غير نبيٍّ الرحمة أن يحول الجفاة القساة المشتتين على رمال القفر ، باشراق روحه ، ورقة طبعه ، ورحمة قلبه ، الى أمة واحدة ذات حضارة من أعظم الحضارات سعة وشمولا ، أقيمت في ظلها خلافة يمتد نفوذها شرقا وغربا ؟ .

من يقدر على ذلك كله غير رسول هو أفضل أولي العزم من الرسل ، وأفضل الخليلين اختصه الله بالمقام المحمود ، وأرسله رحمة للذين استضعفوا في الأرض لقلة المال كالفقراء ، أو لضعف النصير كالأرقاء ، أو لطبيعة الخلقة كالنساء ، فكفل الرزق للمعدم بنظام التكافل والعدالة ، وضمن العز للذليل بشرعة العدل والكرامة ، ومنح المرأة حقوقها الانسانية السليبة بقانون الشريعة .

والمستضعفون الذين رحمهم الله برسالة محمد صلى الله عليه

وسلم، لم يكونوا من حسب ممتاز، ولا من وطن محظوظ، وانما كانوا أشتاتا من أنحاء الأرض، فيهم العربي والفارسي والرومي والهندي والحبشي والصيني والبربري، جمعتهم على الاسلام عقيدة التوحيد، ولم يفضل أحدهم على الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح.

إيمان الرسول بصدق رسالته

ولقد استطاع الرسول بما غرس في القلوب من ايمان في الحياة من قيم، أن يقاوم كل التيارات التي وقفت في وجه الاسلام، وأن يغير مجرى التاريخ، وأن يحول المقلدين والراكدين الى بركان فوار يغلي بالحياة في أسمى مظاهرها، ويقذف بالنور والنار ضد الباطل والفساد والضلال.

وثباته في الشدائد والمحن ومصابرته على مغالبة الكبر والعناد، أول برهان قدمه للانسانية على مدار التاريخ، يشهد بصحة نبوته، وصدق رسالته.

وهل سادت دعوات الكذابين والمشعوذين والدجالين الذين ادعوا النبوة لأنفسهم؟ وهل نجحوا رغم محاولاتهم أن يحملوا الناس بشتى الأساليب على الاذعان لهم واتباع تعاليمهم؟

فلو صدق الناس كل من يدعي أنه تلقى وحيا من ربه،

وأنه قد جاءهم بما ينفي عقائده، لما استقرت عقيدة ولا شريعة، ولا انقلب المجتمع الى فوضى لاحد لها ولا نهاية.

«ولكن محمدا صلى الله عيه وسلم صدق بالرسالة التي بعث بها وامن بأنه رسول رب العالمين قبل إن يدعو غيره إلى التصديق والإيمان، وردد قبل أن يردد غيره عند كل تشهد في الصلاة»

«أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله» وقد أخبر عن هذه الحقيقة عالم الغيب سبحانه في قوله: «آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه» (سورة البقرة = ٢٨٤).

فما هو الطريق الذي كشف له عن الحق المبين، وقاده إلى نور اليقين؟

إنه نبي مرسل، والمرسلون عاشوا تجربة روحية في مستوى أعلى لا تتاح لكل الناس، وعاينوا حقيقة الايمان، وكلمهم الله وحيا أو من وراء حجاب أو بواسطة، فشاهدوا وذاقوا وعرفوا، وأتوا بما يعجز عنه غيرهم، فهل من حق الناس أن يرفضوا تصديقهم، وينتظروا حتى يروا ما رأى الأنبياء أو يتحدث الله إليهم مثلما تحدث لرسله؟ فالناس لم يروا الأشعة (تحت الحمراء)، ولكنهم يؤمنون بوجودها،

لأن أفرادا منهم اكتشفوهـا بأنفسهم، وأخبروهم بوجودها. وهم لم يفجروا الذرة، ولكنهم عرفوا الكثير من أخبارها، لأن طائفة من العلماء فجروها وأطلقوا طاقتها...

وهم لا يحسون أن الأرض تدور، ومع ذلك أيقنوا بدورانها، لأن العلم قرر ذلك.

فلماذا يصدقون كل هذا ونحوه، وهم لم يكتشفوه بأنفسهم؟

قد يقال إن الأمر مختلف، لأنك تستطيع التأكد من صحة هذه الاشياء اذا أخذت مكانك في مخبر أو معمل، لكن ليس في الأمر اختلاف. فأنت أيضا تستطيع أن تتأكد من صدق الذين حدثوك عن الله، اذا أخذت مكانك في مخابرهم ومعاملهم، رغم أنها من نوع آخر يستطيع كل إنسان أن يمتلكه إذا أيقظ قلبه، وألقى سمعه، وجمع قوى روحه المكنونة، واكتشف المناطق المخبوءة من عقله وبصيرته[٧]

لقد كان يقينه صلى الله عليه وسلم كاملا، واعتقاده راسخا بأن ما يوحى به اليه هو خارج عن ذاته، ولا صلة له بما علم أو عرف من تجاربه الشخصية، وفي حياته اليومية، إنما صلته بعالم الغيب. ولعل هذا الذي يشبه المقياس هو الذي مكنه أن يفصل ما هو شخصي بالنسبة إليه كافكاره

ومكاشفاته العادية. عما هو صادر عن الوحي، ولا يتصل بذاته. كما توضح ذلك هذه المشاهد الغيبية التي يسوقها القرآن لاحتياج النبي إليها اعتقادا وتربية وتعليما.. فما كان الرسول ليعرف مثلا كيف اختصم الملأ الأعلى من الملائكة في أمر آدم واستخلافه، وسؤالهم لما اختفت حكمة الله عنهم = (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) لولا أن الله اخبره عن طريق الوحي بذلك:

« قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون، ما كان لي من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون، ان يوحى الي الا انما أنا نذير مبين » (سورة ص = ٦٧ - ٧٠).

وما كان عليه السلام حاضرا في الجبل الغربي الذي كلم الله فيه موسى، ولا قريبا من جبل الطور. إذ ناداه وقربه، وعهد إليه بالرسالة. ولا مشاهدا لما جرى من أمره في ميقاته، ولا مقيما في أهل مدين، ولكنه الوحي، هو الذي عرفه بهذه الأسرار والأخبار فضلا من الله ورحمة للبشرية ببعثه هذا الرسول اليهم بعد أن مروا بأجيال متعاقبة، وأزمان طويلة اختل فيها النظام، وفشا الشر بين البشر «(وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين، ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم

العمر، وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا، ولكنا كنا مرسلين. وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون» (القصص = ٤٤ - ٤٦). لقد عانى النبي صلى الله عليه وسلم في بدء الوحي ما عانى من الشك في نفسه، فكان بحاجة الى مقياس صحيح يثبت قلبه ويدعمه، ويؤكد له/أن ما يتلقاه هو وحي الهي، وليس من هواجس النفس ولا من وساوس الشيطان.

والانتقال من الشك إلى اليقين يحتاج إلى وعي كامل، وبحث دقيق، واستبطان عميق، وادراك الرسول للحقيقة العلوية في الوحي هو ثمرة الفكرة الناضجة المستغرقة، وثمرة الدرس الباطني القرآني الذي قام على منهجين مختلفين، أولهما ذاتي محض يقتصر على ملاحظته وجود الوحي خارج الاطار الشخصي، كما سنوضحه بأمثلة من القرآن، ليكون صادقا مع نفسه، وثانيهما موضوعي يقوم على المقارنة الواقعية بين الوحي المنزل، وما ورد من التفاصيل في كتب اليهود والنصارى[٨]، ولا سيما عندما يجادلهم في العقيدة وفي الحق الذي بدلوه وحرفوه وكتموا منه ما شاء هواهم.

فاذا افترض الوحي شكه فيما أنزل الله عليه وخاطبه

صراحة:

« فان كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » (يونس = ٩٤) أجاب صلى الله عليه وسلم موضحا موقفه ومعقبا على نزول الآية = (ولا أشك ولا أسأل ، بل أشهد أَنه الحق)[٩].

وقد أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الوحي الذي يتنزل عليه ليس أفكارا نابعة من داخل نفسه، ولا مما سبق الحديث عنه، ولا هو مما يعكس شخصيته، ففي أكثر الأوقات لا يذكر شيئا عنه، بل هو يتجرد من الإشارة اليه.

وإذا تعلق الموضوع بسلوك أخلاقي، نرى التعارض جليا بين السلطة التشريعية العليا، والنفس الخاضعة المستسلمة، فيتعارض التشدد مع التساهل، والصراحة القصوى مع الحياء، والحلم وطول الأناة مع نفاذ الصبر.

وليس من النادر أن يتضمن الدرس اللوم الشديد لأقل مخالفة منه للمثل الأعلى المنشود.

وطالما لم تكن لديه تعاليم صريحة من الوحي في أمر ما، نراه صلى الله عليه وسلم ذا طبيعة خجولة وديعة، حساسا لما

قد يقال عنه، ولا يقطع دون أصحابه برأي، يمتنع عن اتخاذ أي موقف عند الشك، معترفا بعدم علمه بمصيره الشخصي ومصير غيره[١٠].

والآيات في ذلك كثيرة ومتنوعة، مثل قوله تعالى:

(إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم...) (الأحزاب: ٥٣).

(قل ان أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا (الجن = ٢٥).

ولما شُجَّ صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد قال كيف يفلح قوم شجوا نبيهم[١١] فنزلت «ليس لك من الامر شيء او يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون» (سورة آل عمران ١٢٨).

ثم ان ملاحظة الرسول بأن مصدر الوحي خارج عن ذاته يؤكد لديه صدقه وصحته ويظهر ذلك واضحا في التعارض الذي قد يبدو بين الفكرة المحمدية قبل الوحي والفكرة القرآنية بعده، كما نجد في الآيات التي عاتب الله فيها نبيه على بعض مواقفه الناجمة عن اجتهاده الشخصي، وليس في هذا تناقض مع ما يجب له من العصمة، ولكنه مخالف لما هو الأولى في علم الله المغيب عنه، حتى يتجلى

الفارق بين المخلوق والخالق.

ولو أنا تأملنا فيما عوتب عليه الرسول في آياته قبول الفداء من أسرى بدر بدل قتلهم، لكان موقفه نحوهم أقرب الى نفسه الرحيمة، ولو أنهم كانوا أشبه بمجرمي الحرب منهم بالأسرى. وانما نبهه القرآن الى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الالهية، فهل ترون في ذلك ذنبا يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب؟ أو هو مقام الربوبية ومقام العبودية. وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب؟[١٢].

(ما كان لنبي أن يكون له اسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) (سورة الانفال = ٦٧ - ٦٩).

وعوتب صلى الله عليه وسلم لما أذن للمنافقين الذين استأذنوه للتخلف عن غزوة تبوك عتابا رقيقا، ويتجلى لطف هذا العتاب، في التصدير بعبارة العفو قبل الخطاب » وفي ذلك فضل الله على نبيه:

(عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)؟ (التوبة ١١٨).

كما عاتبـه ربه على موقفه من ابن أُمّ مكتوم وكان كفيفا «اذ تقطب وجهه عليه السلام، لما قاطعه مكررا عليه القول = يا رسول الله، علمني مما علمك الله» وكان مع جماعة من سادة قريش يدعوهم الى الاسلام، وهو حريص كل الحرص على اقناعهم رجاء أن يتعزز بهم، فأنزل الله عليـه «عبس وتولى أن جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى، وما عليك الا يزكى واما من جاءك يسعى وهو يخشى، فأنت عنه تلهى) (سورة عبس ١٠).

ولقد دأب القرآن يذكره بفضل الله العظيم عليه في اصطفائه. وتعليمه بالوحي ما لم يكن يعلم، وهو أمي ليس لديه من معارف سوى ما يمكن أن يمنحه له وسطه الفروسي الوثني البدوي ليوقن بأن الله سبحانه هو الذي بعثه بالحق رسولا. ولم يكن قبـل ذلـك يعرف الكتاب والايمان. (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان؟ ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا. وانك لتهدي الى صراط مستقيم) الشورى = ٤٩) واذا ما ضاق صدره بعناد قومه واصرارهم على الكفر يذكره ربـه (فاستمسك بالذي أوحي اليك، انك على

صراط مستقيم » (الزخرف = ٤٢).

واذا استحكمت الأزمات واشتد الأذى ذكره بأن نزول الكتاب عليه رحمة من لدنه « وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك، فلا تكونن ظهيرا للكافرين » (القصص = ٨٧) وكم في القرآن الكريم من آيات تدعم في قلبه الايمان بصدق رسالته، والاقتناع الكلي بحقية دعوته مثل قوله تعالى « فتوكل على الله، انك على الحق المبين » (النمل= ٨١).

القرآن وأعداء الرسول

ولقد ظل القرآن يقود الرسول بالوحي المتجدد، ويرشده ويعلمه، ويشد أزره، وينافح عنه ويلقنه في الصراع الجدلي مع خصومه الوثنيين وبعض أهل الكتاب حول قضايا العقيدة كالتوحيد والنبوة والبعث بالغ الحجة وفصل الخطاب.

جحد المشركون نبوته، بدعوى أنه بشر مثلهم، ولم تكن فوق البشرية قدرة على فعل الخوارق، وتسخير الأكوان والخلود، والصعود إلى السماء واستنزال الملائكة، (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا، أو يلقى اليه كنز، أو تكون له جنة

يأكل منها ،) (الفرقان - ٧ - ٨) فأنزل الله عليه ما يؤكد نبوته ، ونبوة الانسان رغم تعرضه للمرض والضرر وللموت وسائر الاعراض البشرية ، وليس محمد بدعا من الرسل.

(وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون، وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين) (الأنبياء = ٧ - ٩). وادعوا في انكارهم لنبوته أنه لم يكن من جنس الملائكة والمخلوقات العلوية (قالو أبعث الله بشرا رسولا ؟). الاسراء ٩٤

فأوحي الله اليـه (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليه من السماء ملكا رسولا ، قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ، انه كان بعباده خبيرا بصيرا) (الاسراء = ٩٤ - ٩٦) وانما حصلت لهم هذه الشبهة لجهلهم حقيقة الانسان وكرامته عند الله ، وجهلهم كذلك لطبيعة الملائكة التي لو قدر لها أن تعيش في الأرض لصاغها الله في صورة آدمية ، لأنها هي الصورة التي تلائم طبيعة الأرض (١٣) مصداقا لقوله جل وعلا :(ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون) (الانعام ٩).

وهكذا اتخذ أعداء النبي من بشريته ذريعة لنقض دعوتـه ، والتشكيك في صدق نبوته ، فرد القرآن على

دعواهم الباطلة بما يثبت مقام الانسان النبي (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا، وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين، وكفى بربك هاديا ونصيرا (الفرقان= ٨١).

والشبهة الثانية التي أبعدتهم عن الايمان برسالته، أنه كان فقيرا يتيما، ثم راعيا صغيرا، ثم تاجر أجيرا، ولم يكن من الرجال الأقوياء الأشداء، ولا من الفرسان الشعراء، ولا من أصحاب الوظائف الدينية الذين يسشفعون عند الآلهة للخطاة والمذنبين.

وكانت قيادة البادية في هذا العصر من زعماء القبائل الذين يبلغون من العمر سنا متقدمة، وقد حنكتهم التجارب، ولهم في حسن التدبير مقام رفيع، وفي القبيلة منزلة اجتماعية مرموقة، لما يملكون من ثروات، وما يقدمون لها من خدمات، كما كانت قيادة الحضر في المجتمع المكي بين التجار الكبار وأصحاب القوافل ورؤوس الأموال، ولم يكن الرسول من أولئك ولا من هؤلاء.

انهم لا يخفون تعجبهم وانكارهم أن يكون محمد هو النبي الذي أظله هذا الزمان، وفيهم الزعماء المطاعون إن أمروا، والمستجابون اذا دعوا، وهم يحسبون أن اختصاص النبي

بهذا الفضل الالهي يخضع لمقاييسهم المادية المخالفة لمؤهلات الرسالة، ولمنطق الاصطفاء للنبوة وما دروا ان الله سبحانه لا يروج عنده خداع المظاهر الزائفة، والأعراض الدنيوية الزائلة، وأن الذين تنطبع في نفوسهم الحقيقة كاملة، هم الذين يؤمنون بالقيم الخالدة، ويدعون اليها، وان زهد فيها الناس وأعرضوا عنها.

وقيمة الرسول انما هي في ذلك الايمان العميق المستولي على كل مشاعره، والذي يجعله يفنى في الله، ويرتفع الى ذرى العظمة والقوة الروحية، فيستوي عنده الغنى والفقر والشبع والجوع، واللذة والألم، والراحة والتعب، وينتفي من نفسه كل خوف في غير الله، وكل حساب لغير الله، وكل تردد في سبيل الله، وتتضاءل عنده العظماء وهيبة الكبراء، وقوة أهل الثراء، ألم يقل رسول الله في مناجاته لربه ضارعا، وكان قد ارتحل الى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، ويدعوهم الى الله، ولكنهم أغروا به سفهاءهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقيبه: (ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك) وقيمة الرسول انما ترتبط بمدى صلاحيَّة عقله للحكم الصحيح والنظرة السليمة، واستعداد قلبه لحب

الإنسانية والاخلاص لله، فلا يحبس قلبه وعقله على فرد أو أسرة أو قبيلة، بل يسخرها في شؤون الدنيا والآخرة للخلق أجمعين.

فهو لا ينشد الرئاسة من وراء الرسالة، ولا المنافع الخاصة من وراء الدين، ولا ينكص عن التضحية من أجل الحياة، وانما هو صورة حية لرسالته الخاتمة الشاملة.

وقدأبدع القرآن في تشخيص ما يعتلق في نفوس المبطلين من عصبية وأنانية، وفيما أوحى إلى نبيه من أجوبة حاسمة ردا على اعتراض الماكرين، وافتراء الجاحدين، وتساؤل الحائرين.

وإنا لنجد في سورة الأعراف - إحدى السور المكية التي نزلت في أوائل الدعوة - ما يؤكد أن فريقا من اليهود والنصارى في مكة، وجدوا صفات النبي المنتظر مطابقة لما جاء في التوراة والإنجيل، فآمنوا به وصدقوه، ونصروه فاستحقوا تنويه الله في قوله: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا

النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) (الأعراف = ١٥٧).

وقد ذكرت السيرة أسماء الذين أسلموا وهم قليلون بالنسبة الى اليهود الذين كانوا في الجبهة المعادية من وثنيين ومنافقين، يوقظون الفتنة، ويستعملون أسلحة الحرب النفسية بالدسائس والمكائد الخفية، ونشر الأخبار المزيفة واعانة أعداء الاسلام بالحيلة والمال، وإعداد المخططات لهزيمة المسلمين وفتنتهم عن دينهم وبث التفرقة بين الأوس والخزرج، وهم في حصونهم آمنون، يشهدون الصراع، ويضعون الخطط على ضوء النتائج، ذلك أن طبيعة التعارض العقائدي بين الاسلام الذي يقوم على المساواة بين الناس جميعا، والانفتاح على الانسان، والعالم، وبين اليهودية التي تقوم على أسطورة (شعب الله المختار) وعصبية العرق، والانغلاق الكامل يجعل الفرق بعيدا.

ولم يكن أحبار اليهود يتوقعون أن النبي المنتظر سيجيء من سلالة غير السلالة اليهودية، التي يعتقدون أن النبوة لا تخرج عنها.

ففضح القرآن هذه المزاعم الدينية المحرّفة التي مارسوها طويلا، واتّضح لهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم يدعو إلى

توحيد غير الذي يؤمنون به على أساس قومي استعلائي مغلق، وهو أن الله الواحد هو إله اسرائيل الذي اختارهم لنفسه وميزهم من دون الناس والدين الجديد جاء بما يعم الناس جميعا، ونبي الاسلام ليس مجرد زعيم يحترف السياسة ويعتمد أي أسلوب لبلوغ أهدافه، إنما هو صاحب رسالة عظمى للعالم كله، رسالة تتجاوز تعاليمها ومتطلباتها الحدود الاقليمية ليثرب وللجزيرة العربية (١٤) وذلك يعنى الحد من نشاطهم الديـني والاقتصادي، ومن نفوذهم المادي والأدبي، وقد كشف القرآن في كثير من آياته عما يضمرون، ومن ذلك مثلا قوله تعالى=

(أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) (وقالوا قلوبنا غلف، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون، ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين، بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على ما يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين) (البقرة= ٨٦ - ٨٩).

ولقد جعل اليهود الدين رابطة عرقية قومية، ولم يجعلوه هداية ربانية، وأي منطق ينفذ الى بصيرة طمس الحسد نورها، وأغلقت عصبية الجنس أبوابها ونوافذها.

جاء في سفر التثنية أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام =: (... أقيم لهم نبيا من اخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بما أوصيه به) (الاصحاح = ١٨ فقرة ١٨).

وعبارة أقيم لهم نبيا من اخوتهم، مجملة، فسروها لمجيء رسول منهم، لا من ولد اسماعيل، وكأن الله سبحانه أراد ان تكون هذه العبارة مجملة حفظا لهذه البشارة، لأنهم لو عرفوا الحقيقة لاخفوها ومحوها! وكانوا اذا أقدموا على حرب أو على أمر عظيم سألوا الله أن ينصرهم، وتوسلوا اليه بالنبي الموعود كما تدل الآية= (افتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون؟) (البقرة= ٧٤ - ٧٥). فقد كان بينهم وبين الرسول حجاج وجدال بلغ من جانبهم حدّ التحدي والعناد، ودفعهم عداؤهم الشديد الى التورط في تفضيل عبادة الأوثان على التوحيد (١٥).

ولما أعيتهم كل حيلة، وضاقوا بالرسول ذرعا، حاولوا أن يقنعوه بالخروج من المدينة كما أخرجته قريش من مكة بحجة أن من سبقه من إخوانه الرسل ارتحلوا الى بيت المقدس وأقاموا به، وبأن القبلة في الصلاة نحوه.

ولكن رسول الله عرف مكرهم ونواياهم، فأوحى الله إليه بما كان يتمناه في نفسه، وهو أن يحول قبلة الاسلام والمسلمين إلى المسجد الحرام، أول بيت وضع للناس ورفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام= (قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام. وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره، وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، وما الله بغافل عما يعملون)

(البقرة = ١٤٨).

وهكذا فإن ما أثبته القرآن الكريم من أدلة قاطعة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صدق رسالته، وعلى ان ما أوحى الله به إليه هو الحق الذي لا مراء فيه، ليكشف عن جانب هام من السيرة النبوية يتمثل في هذا الصراع العنيف، وفي هذا الجهاد القاسي الذي خاضه الرسول وصحبه ضد الوثنية العنيدة، واليهودية الماكرة، وضد قوى

الشر والبغي على اختلاف أغراضها وأسلحتها ومكائدها.

فقد تآمروا على قتله وقاطعوه، وأصيب في بدنه، واتهم في عقله، وأوذي في أهله، وعذب في صحبه، فصبر على البلاء، وتجرع الأسى.

حسدوا فقالوا شاعر أو ساحر
ومن الحسود يكون الاستهزاء
أبوا الخروج إليـه من أوهامهم
والنـاس في أوهامهم سجنـاء
ومن العقول جـداول وجلامـد
ومن النفوس حرائر وامـاء
الحـق عرض الله كـل أبيـة
بـين النفوس حمى لـه ووقاء
ولمثـل هذا ذاق في الدنيا الطوى
وانشق من خلـق عليه رداء.

ألم يقل ربنا تعالى في معرض التنويه بخلقه الكريم، والامتنان عليه بفضله العظيم: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) (سورة التوبة = ١٢٩) فكان بحق، النعمة المهداة، والرحمة المسداة.

ألم يصبح هذا الدين الحنيف الذي بعث به، يتألق تألق الشمس في كبد السماء، ويمتد نوره في الآفاق مشرقا ومغربا؟ وفضله على سائر الأديان أنه عقيدة وشريعة ونظام، يتجاوب مع فطرة الانسان، ويستجيب لسمو أهدافه ومطامحه، لأنه لا يفصل بين المادة والروح، ولا بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، ولا بين العبادات والمعاملات، ولا يفرق بين تعبئة الطاقات المادية والطاقات الروحية، ولا بين ما يصلح الناس في معاشهم، وما يزكيهم في معادهم ولا بين بناء الحياة على الفضائل والكمالات الخلقية، وبين بناء الحضارة العمرانية والصناعية والعملية، إذ هو قد بنى أمة، وأنشأ دولة وأسس حضارة، ودعا إلى العمل والوحدة والنظام، وحث على التحابب والتآلف والسلام.

كان المسيحيون يرددون في الكنائس أيام الحرب في ليلة ميلاد المسيح عليه السلام «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام».

فاذا أصبحوا انقلبوا سراعا إلى آلات الدمار والفناء، يرسلون منها الحمم والموت على إخوانهم الذين هتفوا معهم وصلوا، نارا، وسحقوهم وأبادوهم إبادة الحشرات.

ونحن اليوم- رغم ضعفنا وقوتهم، وتخلفنا وتقدمهم -

لا يجوز لنا أن نستهين بقيم ديننا وتعاليم نبينا ، فتنقلب القيم في حياتنا ويصبح الدين كفرا ، والسلام خصاما ، والأخوة عداء ، والعهد غدرا ، والوعد خلفا ، والوحدة انقساما .

فمن حق رسول الله علينا - وقد أخرجنا من الظلمات إلى النور - أن نهتدي بسيرته ، ونقتدي بأخلاقه ، وأن نكون كما يحب أن تكون أمته عزيزة منيعة ، وهو الذي علمنا بجهاده الدائب أن الجمود في الوقوف ، والهوان في القعود ، والذل في ترك الجهاد وحب الدنيا .

ولم يتخلف العالم الاسلامي عن مسيرة الحياة الزاحفة إلا بتوقفه عن النشاط والحركة والتجديد قرونا طوالا ، فقد فيها عزة السيادة ، وحرم فضل الريادة ، وشرف القيادة ، وافتقر إلى مقومات الحضارة .

إن حبنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي شرح الله صدره ، ورفع ذكره ، وأعلى قدره ، واختصه بالشفاعة العظمى ، وأضفى عليه حلل المجد الذي لا يبلى ، ليفرض علينا طاعته والعمل بسنته وترسم خطاه عملا بقول الله جل جلاله :

(وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله ، ولو أنهم إذ

ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينـهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) (سورة النساء= ٦٣ - ٦٥).

المراجع

١ - مونتغمري وات = محمد في مكة (ت) شعبان بركات = ٢٤٣ (المكتبة العصرية بيروت)

٢ - عماد الدين خليل = دراسة في السيرة = ١٨ (ط بيروت ١٩٧٧).

٣ - جواد علي = تاريخ العرب في الاسلام والسيرة النبوية ١/٧٨ (بغداد ١٩٦١).

٤ - بروكلمان = تاريخ الشعوب الاسلامية = ٤٤ (ت) فارس والبعلبكي (ط بيروت ١٩٦٨).

٥ - أحمد حسن الزيات = وحي الرسالة = ٤/٧٩ (ط بيروت ١٩٧٣).

٦ - المصدر السابق = ٧٦.

٧ - خالد محمد خالد = الوصايا العشر - الوصية التاسعة.

٨ - مالك بن نبي = الظاهرة القرآنية ٨٧ (ط بيروت).

٩ - انظر تفسير النسفي لهذه الاية.

١٠ - محمد عبد الله دراز = مدخل الى القرآن الكريم = ١٧٠ (ط بيروت ١٩٧١).

١١ - صحيح البخاري = ج - ح «غزوة أحد»

١٢ - محمد عبد الله دراز - النبأ العظيم = ١٩ (ط بالكويت ١٩٧٦).

١٣ - التهامي نقرة = سيكلوجية القصة في القرآن= ٢١٦ (ط تونس ١٩٧٤).

١٤ - عماد الدين خليل = دراسة في السيرة = ٣٢٦

١٥ - أحمد ابراهيم الشريف = مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول = ٤١٥ (ط القاهرة ١٩٦٥).

تدوين السُّنة وأطواره

للشيخ ابراهيم القطان
« الأردن »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

- تدوين السنة وأطواره

١ - مصادر التشريع:

اتفق جمهور العلماء على أن أصول التشريع أربعة: كتاب الله: وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والاجماع، والقياس، وإليها أشارت هذه الآية الكريمة: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وأولي الامر منكم، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا) الآية ٥٩ سورة النساء.

وبعض العلماء أضاف إلى هذه المصادر الأربعة أدلة أخرى وهي: الاستحسان، والمصالح المرسلة، والعرف، والاستصحاب، وشرع من قبلنا، ومذهب الصحابي. ونحن في هذا الحديث الموجز نقتصر في بحثنا على السنة، من تاريخ حفظها في الصدور وتدوينها مختلطة بالفتاوى، وإفرادها بالتدوين، وتجريد الصحيح منها بالتأليف، وتهذيبها بالترتيب والجمع والشرح، وفنون الحديث المهمة، وتاريخ كل علم وأحسن المصنفات فيه.

السنة في اللغة: الطريقة المسلوكة، وفسرها بعضهم بالطريقة المعتادة سواء أكانت حسنة أم سيئة، محمودة أم غير محمودة. يؤيد ذلك ما جاء في الحديث الصحيح: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» رواه مسلم.

والسنة في عرف المحدثين وجمهور أهل الشرع: كل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، سواء أصدر عنه باعتباره رسولاً أم باعتباره إنسانا من البشر.

قال الشاطبي: ((ويطلق أيضا لفظ السنة على عمل الصحابة وجد ذلك في الكتاب، أو السنة أو لم يوجد، لكونه اتباعا لسنة ثبتت عندهم لم تنقل الينا، أو اجتهادا مجمعا عليه منهم، أو من خلفائهم، فيدخل تحت هذا الاطلاق المصالح المرسلة والاستحسان كما فعلوا في حد الخمر، وجمع المصاحف، وحمل الناس على القراءة بحرف واحد من الحروف السبعة، وتدوين الدواوين، ويشهد لذلك قوله صلوات الله عليه وسلامه: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ)).

وما أثر عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير إما

متلقى بالوحي او بالاجتهاد بناء على صحة الاجتهاد في حقه، وقد نقل الشوكاني في كتابه إرشاد الفحول، إن العلماء كرهوا أن يقال سنة أبي بكر وعمر، وإنما يقال سنة الله ورسوله، قال ويجاب عن هذا بما ورد في الحديث الصحيح :((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين...)).

٢ - حجية السنة ووجوب اتباعها:

أجمع المسلمون - إلا طائفة قليلة لا يعتد برأيها - على أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، مصدر من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم، فهي إما مبيّنة له، أو مكملة لما جاء به من تشريع الأحكام، وإن ما ورد بها من أحكام يجب إتباعه والعمل به متى ثبت وروده وصح نقله، قال الإمام الشافعي في الأم: لم أسمع أحدا نسبه الناس أو نسب نفسه إلى علم، يخالف في أن فرض الله عز وجل إتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتسليم لحكمه، وانه لا يلزم قول إلا بكتاب الله أو سنة رسوله، وإن ما سواهما تبع لهما.

والدليل على ذلك من عدة وجوه:

١) إن الله تعالى كما أمر الرسول بالتبليغ، فقال: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) . جعله معلما

ومبيّناً ما جاء في الذكر الحكيم ومما جاء فيه من الأحكام الشرعية. قال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون). وقال: (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة).

٢) وقد فرض الله تعالى على المسلمين في كثير من آيات القرآن إطاعة رسوله واتباع أمره، وحذرهم مخالفته، وأوجب عليهم التسليم لحكمه وجعل عصيانه ضلالا مبينا. قال تعالى:(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم، ومن يَعْصِ الله ورسولهفقد ضل ضلالا مبينا). الاحزاب. وقال: (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم) آل عمران.

وفي سورة الحشر قال تعالى:(وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا). وقال: (من يطع الرسول فقد أطاع الله)سورة النساء

فهذه الآيات ومثلها كثير في كتاب الله – صريحة في وجوب اتباع الرسول فيما شرعه بسنته،

ونشير بتكرير إيجاب الطاعة لله ولرسوله - إلى أن له أحكاما غير ما في القرآن يجب أن يطاع فيها، وليست أحكام الرسول في الواقع إلا أحكاما لله سبحانه، (وما ينطق عن الهوى).

٣) إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مراد القرآن فيما أجمله من الفرائض والاحكام، مثل الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك إذ لا سبيل إلى أدائها إلا باتباع السنة التي بنيت أوقاتها، وطريقة أدائها وأركانها وشروطها، فقد صلى عليه السلام وقال: (صلواكما رأيتموني اصلي). وحج وقال: (خذوا عني مناسككم) وهكذا في بقية العبادات والمعاملات التي لم ترد مفصلة في القرآن الكريم. فاتباع سنة الرسول الكريم أمر لازم متى وردت إلينا بالطرق الموثوق بصحتها.

٤) إن الصحابة اتفقوا في حياة الرسول، وأجموا بعد وفاته على التزام العمل بسنته، واطاعته فيما قضى به، وما افتى فيه مما ليس في كتاب الله تعالى. وكانوا يرجعون إلى السنة يبحثون فيها عن الحكم الذي يريدون الوصول اليه، إذا لم يجدوه في القرآن

الكريم، وأكبر دليل على ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه لما ولاه رسول الله قاضيا على اليمن، فإنه قال له: ((بم تقضي يا معاذ إذا عرض لك قضاء؟ قال: بكتاب الله، قال : فان لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، فقال رسول الله: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي الله))فأقره الرسول على ذلك، واعتبر هذا الحديث دستورا للقضاة والمفتين والمجتهدين.

وقد كان الصحابة الكرام وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر حينما كانوا ينشدون حكم حادثة ترفع إليهم، فإنهم يلجأون إلى كتاب الله تعالى فإذا لم يجدوا فيه مطلبهم ووجدوا في السنة تمسكوا بها، ولم يعدلوا عنها، ولم يسوغوا لأنفسهم اجتهادا ولا بحثا في غيرها.

ومنزلة السنة من القرآن الكريم منزلة الشارح والمفسر والمبين، فهي تفسر آياته وتبين مجمله، وتعين المراد من نصوصه، وتقيس على أحكامه وترجع إلى قواعده وروحه التشريعية العامة.

وهي على ثلاث منازل:

المنزلة الاولى: سنة موافقة شاهدة بنفس ما شهد به الكتاب، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها.

المنزلة الثانية: سنة تفسير الكتاب، وتبين مراد اللهمنه، وتقيدمطلقه،وهذا هو الشأن الغالب في السنة لأن رسول الله هو المبين لكتاب الله، وعليه أنزل وبه هداه الله وهو أعلم الخلق بتأويله ومراده، ولذلك لم تأت سنة صحيحة واحدة عن رسول الله تناقض كتاب الله، وتخالفه البتة.

والمنزلة الثالثة: سنة متضمنة لحكم سكت عنه الكتاب، فتبينه بيانا مبتدأ فقد توجب حكما سكت القرآن عن إيجابه،أو تحرم ما سكت عن تحريمه.

ولا تخرج السنةعن هذه الأقسام الثلاثة، فلا تعارض القرآن بوجه ما، وما جاء فيها زائدا عليه، فهو تشريع مبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم تجب طاعته فيه، ولا يجوز معصيته، وليس في هذا تقديم للسنة على الكتاب، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله.

هذه مقدمة موجزة كان لا بد منها بين يدي الحديث عن تدوين السنة وأطواره.

٣ - الدور الأول حفظ السنة في الصدور:-

لم تكن السنة في القرن الاول - عصر الصحابة وأكابر التابعين - مدونة في بطون الكتب، وإنما كانت مسطورة في صفحات القلوب، فكانت صدور الرجال مهد التشريع النبوي ومصدر الفتيا ومبعث الحكم والأخلاق.

ولم يقيدوا السنة بكتاب لما ورد من النهي عن كتابتها، روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه،وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي معتمدا فليتبوأمقعده من النار.))

قال كثير من العلماء نهاهم عن كتابة الحديث خشية اختلاطه بالقرآن وهذا لا ينافي جواز كتابته فيما بعد إذا أمن من اللبس. وبذلك يحصل الجمع بين هذا وبين قوله عليه الصلاة والسلام: (اكتبوا لأبي شاه)، واذنه لِعَبْدِ اللهابن عمرو بن العاص بتقييد العلم. وما ورد عن بعض الصحابة أنهم كتبوا بعض الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ولما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم بادر الصحابة الكرام إلى جمع ما كتب في عهده من القرآن في موضع واحد وسموا ذلك (المصحف) واقتصروا عليه ولم يتجاوزوه إلى

كتابة الحديث وجمعه في موضع واحد كما فعلوا بالقرآن، ولكن صرفوا همهم إلى نشره بطريق الرواية، إما بنفس الألفاظ التي سمعوها من النبي عليه الصلاة والسلام، أو بما يؤدي معناها، فان المقصود بالحديث هو المعنى بخلاف القرآن الكريم فإن للالفاظ مدخلا في الإعجاز فلا يجوز إبدال لفظ منه بآخر ولو كان مرادفا له خشية النسيان مع طول الزمان، فوجب ان يقيد بالكتابة .وقد جاءت روايات تدل على أن الرسول عليه الصلاةوالسلام سمح بكتابة الحديث، ففي زاد المعاد لابن القيم أثناء الكلام على قصة الفتح:

إن رجلا من الصحابة يقال له أبو شاه قام فقال: اكتبوا لي - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اكتبوا لأبي شاه)) يريد خطبته، ففيه دليل على كتابة الحديث وغيره ونسخ النهي عن كتابة الحديث. وصح عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه كان يكتب حديثه، وكان مما كتبه صحيفة تسمى الصادقة، وهي التي رواها حفيده عمرو بن شعيب عن أبيه عنه، هي من أصح الاحاديث. وقد احتج بها كثيرون، منهم الائمة الأربعة.

وروي أبو عمر يوسف بن عبد البر حافظ المغرب في

كتابه (جامع بيان العلم وفضله) عن مطرف بن طريف قال سمعت الشعبي يقول: أخبرني أبو جحيفة قال: قلت لعلي ابن أبي طالب: هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء سوى القرآن؟ فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطى الله عبدا فهما في كتابه، وما في هذه الصحيفة قلت: وما في الصحيفة؟ قال العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر». وكتب رسول الله كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره.

وعن معن قال: اخرج إلى عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود كتابا وحلف لي أنه خط أبيه بيده. وعن سعيد ابن جبير أنه كان يكون مع ابن عباس فيسمع منه الحديث فيكتبه في واسطة الرحل فإذا نزل نسخه. وعن عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن أبيه قال: كنا نكتب الحلال والحرام، وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس.

وعن هشام بن عروة عن أبيه أنه احترقت كتبه يوم الحرة في خلافة يزيد وكان يقول: لو أن عندي كتبي بأهلي ومالي.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتحرجون من رواية

الحديث، ولا سيما في زمن عمر بن الخطاب لذلك تثبتوا في رواية الحديث جد التثبت، كان كثير منهم يأبى إلا شاهدا معضدا ويمينا حاسمة تميط لثام الشك عن وجه اليقين.

روى ابن شهاب عن قبيصة أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئا، ثم سأل الناس فقام المغيرة بن شعبة فقال: كان رسول الله يعطيها السدس، فقال: له هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بذلك فانفذه لها أبو بكر رضي الله عنه، وكذلك عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان يتثبت بالنقل وربما كان يتوقف في خبر الواحد. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كنت إذا سمعت عن رسول الله حديثا نفعني الله به بما شاء منه، واذا حدثني عنه محدث استحلفته فإن حلف لي صدقته وإن أبا بكر حدثني وصدق أبو بكر.

ولقد كان كثير من أصحاب رسول الله يقلون الرواية عن رسول الله خشية أن يدخلوا في الحديث ما ليس منه سهوا أو خطأ فينالهم من وعيد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن أولئك الزبير وأبو عبيدة والعباس بن عبد المطلب وغيرهم رضي الله عنهم وكانوا ينكرون على من يكثر من

الرواية مظنة الخطأ، والخطأ في الدين عظيم الخطر فأنكروا على أبي هريرة كثرة حديثه حتى اضطر لتبرئة ساحته.

٤ - مبدأ تدوين السنة:

لما انتشر الإسلام واتسعت البلاد وشاع الاختلاف والابتداع، وتفرقت الصحابة في الاقطار، ومات الكثير منهم، وقل الضبط دعت الحاجة إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة.

فلما أن أفضت الخلافة إلى الامام العادل عمر بن عبد العزيز كتب سنة مائة من الهجرة إلى أبي بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم عامله وقاضيه على المدينة: انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية والقاسم بن محمد بن أبي بكر أحد فقهاء المدينة السبعة، وكذلك كتب إلى عماله في أمهات المدن الاسلامية بجمع الحديث. وممن كتب إليه محمد ابن مسلم بن شهاب الزهري المدني أحد الائمة الأعلام وعالم أهل الحجاز والشام. وقال عنه عمر بن عبد العزيز: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه. توفي سنة ١٢٤ هـ.

ثم شاع التدوين في الطبقة التي تلي طبقة الزهري، فكان أول من جمعه في مكة عبد الملك بن جريج، فقيه الحرم المكي، وإمام أهل الحجاز في عصره توفي سنة ١٥٠ هـ. ومالك بن أنس إمام أهل المدينة المتوفى سنة ١٧٩ هـ.

والربيع بن صبيح السعدي البصري أول من صنف بالحديث بالبصرة وكان عابدا ورعا توفي سنة ١٦٠هـ، وسعيد بن أبي عروبة بالبصرة أيضاً، توفي سنة ١٥٦ هـ وهو سعيد بن مهران بن أبي عروبة العدوي مولاهم البصري، اتفقوا على توثيقه، وحماد بن سلمة بالبصرة توفي سنة ١٧٦ هـ.

وسفيان الثورى في الكوفة، وكان يلقب بأمير المؤمنين في الحديث توفي سنة ١٦١ هـ. والإمام الاوزاعي عبد الرحمن بن عمرو، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد توفي ببيروت ومقامه معروف سنة ١٥٧ هـ، وهشيم بن بشير السلمي الواسطي، بواسط توفي سنة ١٨٣. ومعمر بن راشد الازدي بالولاء أبو عروة. فقيه حافظ للحديث ثقة من أهل البصرة وسكن اليمن، فكان أول من صنف بالحديث باليمن توفي سنة ١٥٣ هـ. وجرير بن عبد الحميد بالري، توفي سنة ١٨٨ هـ، وعبد الله بن المبارك التميمي أبو عبد

الرحمن الحافظ الامام المجاهد بخراسان توفي سنة ١٨١ هـ.

وغيرهم.

وكل هؤلاء من أهل القرن الثاني للهجرة. وكان جمعهم للحديث مختلطا باقوال الصحابة وفتاوى التابعين.

أشهر الكتب المؤلفة في القرن الثاني الهجري

من أشهر الكتب المؤلفة في المائة الثانية: الموطأ للامام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ومسند الإمام الشافعي توفي سنة ٢٠٤هـ. ومختلف الحديث له، ومعنى مختلف الحديث هي الاحاديث المعارضة بمثلها في القوة ويمكن الجمع بينها بغير تعسف.

والجامع للامام عبد الرزاق بن همام الصنعاني توفي سنة ٢١١ هـ. ومصنف شعبة بن الحجاج بن الورد الازدي بالولاء الواسطي ثم البصري وهو من ائمة رجال الحديث توفي سنة ١٦٠ هـ ومصنف سفيان بن عيينة الهلالي الكوفي محدث الحرم المكي، قال عنه الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، توفي سنة ١٩٨ هـ. ومصنف الامام الليث بن سعد الفهمي بالولاء إمام اهل مصر في عصره توفي سنة ١٧٥ هـ. ومجموعات من عاصرهم الأوزاعي والحميدي المتوفى سنة ٢١٩هـ. وهو من تلاميذ الامام الشافعي، وشيخ الامام

البخاري.

وأشهر هذه الكتب على الإطلاق، وأسْيرها ذكرا هو موطأ الامام مالك: فقد لقي قبولا كبيرا من العلماء، وجملة ما في الموطأ من الأحاديث ألف وسبعمائة وعشرون. المسند منها ٦٠٠، والمرسل ٢٢٨، والموقوف ٦١٣، ومن أقوال التابعين ٢٨٥. كما قال الامام أبو بكر الأبهري.

وللموطأ عدة روايات وفيها زيادة ونقصان كل حسب روايته،قال مالك عرضت كتابي هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة فكلهم واطأني عليه فسَميته الموطأ.

روى ابن سعد في الطبقات عن مالك بن أنس قال: لما حج المنصور قال لي: عزمت على أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها فتنسخ ثم أبعث بها الى كل مصر من امصار المسلمين منها نسخة وامرهم ان يعملوا بما فيها ولا يتعدوه الى غيره، فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا فان الناس قد سبقت اليهم اقاويل وسمعوا احاديث ورددوا روايات، واخد كل قوم بما سبق اليهم ودانوا به،فدع الناس وما اختار اهل كل بلد منهم لانفسهم.

وروى أبو نعيم في الحلية عن مالك بن أنس قال: شاورني هارون الرشيد في ان يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس

على ما فيه، فقلت: لاتفعل فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل مصيب، فقال: وفقك الله يا ابا عبد الله.

وقد شرحه عدد من كبار العلماء منهم عبد الملك ابن حبيب المالكي وأبو محمد عبد الله بن محمد النحوي البطليوسي، وأبو بكر بن العربي، وقال في وصف الموطأ: هذا أول كتاب ألف في شرائع الاسلام وهو آخره لأنه لم يؤلف مثله... وشرحه السيوطي والزرقاني، والشيخ ولي الله الدهلوي والشيخ على القاري، وعبد الحي بن محمد الهندي، والقاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الاندلسي المتوفى سنة ٤٩٤هـ. وطبع على نفقة السلطان مولاي عبد الحفيظ ملك المغرب في سبع مجلدات وسماه (المنتقى)، وشرحه العلامة مولانا محمد زكريا الكاندهلوي في اربعة عشر مجلدا وسماه (أوجز المسالك إلى موطأ مالك).

طبع على نفقة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان.

وكتب الحافظ ابو عمر بن عبد البر كتابين عن الموطأ، اولهما التقصي لحديث الموطأ، والثاني التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد، والقاضي عياض كتاب المدارك في عدة مجلدات. وغيرهم كثيرون.

٥ -إفراد الحديث بالتأليف وذلك من مبدأ القرن الثالث.

في أول هذا القرن أخذ رواة الحديث في جمعه طريقة غير التي سلفت، فبعد أن كانوا يجمعونه ممزوجا بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين أخذوا يفردون الحديث بالجمع والتأليف. ومن أئمة الحديث من جمع في مصنفه كل ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، من غير تمييز بين الصحيح وغيره، ومنهم من افرد الصحيح بالجمع.

وكان أول الراسمين لهذه الطريقة المثلى شيخ المحدثين الامام محمد بن اسماعيل البخاري فجمع في كتابه المشهور ما تبين له صحته، وكانت الكتب قبله ممزوجا فيها الصحيح بالعليل بحيث لا يتبين للناظر فيها درجة الحديث من الصحة إلا بعد البحث عن أحوال رواته، والوقوف على سلامته من العلل، وهذا يشق على من ليس له خبرة في هذا العلم. واقتفى أثر البخاري في ذلك الإمام مسلم بن الحجاج القشيري، وكان من الآخذين عنه، ثم قلدهما كثير من المحدثين.

وإن القرن الثالث الهجري لأَجَلّ عصور الحديث وأسعدها بخدمة السنة ففيه ظهر كبار المحدثين وجهابذة

المؤلفين وحذاق الناقدين، وفيه أشرقت شموس الكتب الستة التي كادت لا تغادر من صحيح الحديث إلا النزر اليسير، والتي عليها يعتمد المستنبطون، وبها يعتضد المناظرون، وبضوئها يهتدي طالبو الحديث الصحيح.

وبانتهاء القرن الثالث الهجري يكاد يتم جمع الحديث وتدوينه، ويبتدىء عصر ترتيبه وتهذيبه، وتسهيله على رواده وتقريبه للناس.

وللعلماء طريقتان في جمع الحديث وتصنيفه: إحداهما التصنيف على الأبواب وهو تخريجه على أحكام الفقه، وجمع ما ورد في كل حكم وكل نوع في باب. والذين سلكوا هذه الطريقة منهم من اقتصر على إيراد الصحيح فقط من الأحاديث مثل البخاري ومسلم، ومنهم من لم يقتصر على ذلك كأبي داود والترمذي والنسائي.

والطريقة الثانية: التصنيف على المسانيد، وذلك أن يترجم الصحابي ويجمع ما ورد عنه من الأحاديث سواء أكان صحيحا أم غير صحيح، وأهل هذه الطريقة منهم من رتب أسماء الصحابة على حروف المعجم كالطبراني في المعجم الكبير والضياء المقدسي في المختارة وهذه الطريقة أسهل.

ومنهم من رتبها على القبائل فقدم بني هاشم ثم ألاقرب

فالأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النسب، ومنهم من رتبها على السبق في الاسلام فقدم العشرة المبشرين في الجنة أولا ثم أهل بدر ثم أهل الحديبية ثم من أسلم وهاجر بين الحديبية والفتح، ثم من أسلم يوم الفتح ثم أصاغر الصحابة سنا، ثم النساء. وقد سلك ابن حبان في صحيحه طريقة ثالثة مرتبه على خمسة أقسام وهي:

الأوامر، والنواهي، والاخبار، والاباحات، وافعال النبي صلى الله عليه وسلم. ونوَّع كل واحد من هذه الخمسة الى انواع: والكشف في كتابه عسير جدا.

وقد رتبه بعض المتأخرين على ابواب الفقه، وعمل له الحافظ ابو الفضل العراقي اطرافا، ومعنى ذلك ان يذكر طرق الحديث ثم تجمع اسانيده اما مع عدم التقيد بها بكتب مخصوصة او مع التقيد بها، وجرد الحافظ ابو الحسن الهيثمي زوائذه على الصحيحين في مجلد. ولهم في جمع الحديث طرق اخرى منها: جمعه على حروف المعجم فيبدأ بحرف الالف ثم الباء الخ.......وقد جرى على هذه الطريقة ابو منصور الديلمي في مسند الفردوس. وابن طاهر في احاديث الكامل لابن عدي، والسيوطي في كتابه الجامع الصغير.

ومن اعلى المراتب في تصنيف الحديث تصنيفه معللا بان يجمع في كل حديث طرقه، واختلاف الرواة فيه. وقال بعض المشايخ انه لم يتم مسند معلل قط، فانها طريقة صعبة وتحتاج الى جهد كبير.

وهناك طرق اخرى فقد جرت عادة اهل الحديث ان يفردوا بالتأليف والجمع بعض الابواب، والشيوخ، والتراجم، وطرق بعض الاحاديث، مثل كتاب رفع اليدين في الصلاة، فقد افرده البخارى بمؤلف خاص. وباب القضاء باليمين مع الشاهد افرده الدار قطني بمؤلف، وجمع الاسماعيلي حديث الاعمش بكتاب، وجمع النسائي حديث الفضيل بن عياض بمؤلف الخ....

(كتب السنة في القرن الثالث)

من الصعب إحصاء كتب الحديث التي ألفت في القرن الثالث في هذه العجالة وانما اذكر اشهرها.

اشهر الكتب في هذا القرن صحيح البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ. وصحيح مسلم المتوفى سنة ٢٦١هـ. وسنن ابي داود المتوفي سنة ٢٧٥هـ. وسنن النسائي المتوفى سنة ٣٠٣هـ وجامع الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩هـ. وهذه الخمسة هي الاصول التي اعتمدها المحدثون وفضلوها على سائر الكتب

الى ان جاء الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي فضم سنن ابن ماجة الى الأصول الخمسة وجعلها ستة. وسأحاول ان أذكر نبذة عن هذه الأصول.

ثم مسند الامام احمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١، ثم مصنف ابن أبي شيبة سنة ٢٣٥. وكتاب تهذيب الآثار للامام محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠. وهو من عجائب كتبه ابتدأ فيه بما رواه ابو بكر الصديق ثم تكلم على كل حديث وعلته وطرقه وما فيه من الفقه واختلاف العلماء وحججه واللغة واتم بعمله هذا مسند العشرة المبشرين بالجنة وأهل البيت والموالي وقطعة من مسند ابن عباس.

والمسند الكبير لبقي بن مخلد القرطبي الأندلسي المتوفى سنة ٢٧٦ رتبه على أسماء الصحابة، روى فيه عن الف وثلاثمئة صحابي ونيف، ثم رتب احاديث كل صحابي على ابواب الفقه فجاء كتابا حافلا مع ثقة مؤلفه وضبطه واتقانه، ثم مسند الدارمي وهو عبد الله بن عبد الرحمن التميمي الدارمي السمر قندي من حفاظ الحديث توفي سنة ٢٥٥. وبعض حفاظ الحديث يفضل ان يكون هذا المسند هو السادس للاصول الخمسة.

ثم مسند أبي يعلى الموصلى ٣٠٧، ومسند احمد بن عمر الشيباني ٢٨٧ وفيه نحو خمسين الف حديث. والمسند الكبير للامام البخاري، وهو غير كتابه الجامع الصحيح. ومسند مسدد بن مسرهد ٢٢٨، وهو من مشايخ البخاري. ومسند الحميدي ٢١٩، وهو أيضا من مشايخ البخاري. والمسند المعلل لابي بكر احمد بن عمرو البزار ٢٩٢، والمسند الكبير ليعقوب بن شيبة المتوفى سنة ٢٦٢ ولم يؤلف أحسن منه ولكنه لم يتم، ومسند علي بن المديني ٢٣٤، ومسند عثمان بن ابي شيبة ٢٣٩، وغيرها مما لا يحصى، وقد اورد طائفة كبيرة منها صاحب كشف الظنون.

٦ - كتب السنة في القرن الرابع الهجري.

القرن الثالث الهجري هو اعظم القرون بخدمة السنة وتمحيصها كما تقدم وكل من اتى بعد ذلك فانه عالة على المتقدمين، الا القليل جدا.

واشهر الكتب في القرن الرابع المعاجم الثلاثة للامام سليمان بن احمد الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠، وهي المعجم الكبير والمعجم الاوسط والمعجم الصغير.

وقد رتب في المعجم الكبير الصحابة على الحروف وهو مشتمل على نحو خمساية وعشرين ألف حديث. ورتب في

الاوسط والصغير شيوخه على الحروف أيضا .

ومن المصنفات في هذا القرن سنن الدارقطني علي ابن عمر امام عصره في الحديث وله عدة مؤلفات غير هذه المعاجم.

ومنها صحيح ابن حبان وهو أبو حاتم محمد بن حبان البستي المتوفى سنة ٣٥٤ . وصحيح أبي عوانة محمد بن إسحاق المتوفى سنة ٣١٦ . وصحيح ابن خزيمة محمد بن اسحاق توفي سنة ٣١١ . وصحيح المنتقى لابن السكن سعيد بن عثمان البغدادي ٣٥٣ . والمنتقى للقاسم بن اصبغ محدث الاندلس المتوفي سنة ٣٤٠ . وله عدة مؤلفات غيره منها الصحيح على غرار صحيح مسلم.

ومنها مسند ابن جميع محمد بن احمد الغساني الصيدواي من أهل صيدا توفي سنة ٤٠٢ ومسند ابي اسحاق ابن نصر الرازي المتوفى سنة ٣٨٥ .

ولا نستطيع ان نفصل الكلام على هذه الكتب جميعها ، وانما نحاول ان نوجز القول عن الكتب الشهيرة منها بقدر ما يتسع له المقام في هذه العجالة.

٧ - لقد تكلمنا بايجاز عن موطأ مالك، وهنا نبدأ الحديث عن اصح هذه الكتب على الاطلاق وهو الجامع

الصحيح للامام محمد بن اسماعيل البخاري.

ترجمة الامام البخاري معروفة لا تحتاج الى شرح هنا ويكفي ان نقول إنه ولد ببخارى يوم الجمعة الثالث عشر من شوال سنة ١٩٤هـ، ودرس وطاف في البلاد، وخلف وراءه ثروة من التأليف يكفيه منها كتابه العظيم: الجامع الصحيح، توفي بمدينة خارتنكي سنة ٢٥٦ وعمره نحو ٦٢ سنة وخارتنكي الآن بلدة بالاتحاد السوفياتي وقبره معروف يزار.

وهو اول كتاب ألف في الصحيح المجرد من الاحاديث، وقد اتفق جمهور العلماء على انه اصح كتاب بعد القرآن الكريم، وبعده يأتي صحيح مسلم، وذلك انهما لا يخرجان من الحديث الا ما اتفق على ثقة رجاله مع كون الاسناد متصلا، (وهذا ما يسمى بشرط الشيخين)

ولقد جمع البخاري صحيحه في ست عشرة سنة، وقد ذكر الحافظ ابن حجر مافيه من الاحاديث بالمكرر ٧٣٩٧، ومجموع الاحاديث غير المكرر ٢٧٦١. وقد لقي صحيح البخاري من الإقبال من الناس مالم يلقه كتاب آخر. ولم يعتن علماء المسلمين بشيء بعد كتاب الله عنايتهم بالجامع الصحيح. وقد عدد صاحب كشف الظنون ما ينيف على اثنين وثمانين شرحا للبخاري.

وأعظم هذه الشروح على الاطلاق (فتح الباري) لشيخ الاسلام الحافظ احمد بن علي بن حجر العسقلاني، فإن شرحه لا يدانيه شرح، وله مقدمة فائقة جامعة، وان المقدمة نفسها كافية في الاشادة بذكره، والإبانة عن جلالة قدره. وهي في مجلد كبير، والشرح بنحو ٨ مجلدات.

وقد طلب من مجتهد اليمن العلامة الشوكاني ان يشرح البخاري فقال: لا هجرة بعد الفتح. ومن الشروح الجيدة شرح الامام بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي ٧٩٤. ومن الشروح الوافية العظيمة شرح العيني الحنفي المتوفى سنة ٨٥٥هـ واسمه (عمدة القاري). وشرح القسطلاني ايضا من الشروح المنسقة المنظمة الجيدة جدا.

وقد اشتغل بصحيح البخاري خلق كثير بالاختصار، ومنها مختصر الامام جمال الدين احمد بن عمر الانصاري القرطبي ٦٥٦، ومختصر بدر الدين حسن بن عمر الحلبي ٧٨٩، ومختصر الزبيدي ٨٩٣ وهو مشهور متداول، وقد شرحه صدّيق حسن خان ملك بهوبال بالهند، وكذلك شرح مختصر الزبيدي الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر سنة ١٢٠٨، توفي سنة ١٢٢٧ وكلا الشرحين مطبوع، وكتب كثيرون على رجاله...

الجامع الصحيح للامام مسلم بن الحجاج.

الامام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري عربي الأصل احد الأئمة الكبار في الحديث ولد بنيسابور سنة ٢٠٤ هـ، وطلب العلم صغيرا وكان من تلاميذ الامام البخاري، وتوفي سنة ٢٦١هـ ببلدة نيسابور وقبره معروف الى الآن.

وصحيح مسلم هو ثاني الكتب الستة وأحد الصحيحين المشهود لهما بعلو الرتبة، ويمتاز صحيح مسلم بسهولة تناول الحديث من كتابه، إذ جعل لكل حديث موضعا واحدا جمع فيه طرقه التي ارتضاها، وأورد فيه أسانيده المتعددة والفاظه المختلفة مما يسهل على الطالب النظر في وجوهه، واخذ ما يريد بسرعة وسهولة.

بعكس طريقة البخاري فإنه يستنبط من الحديث عدة وجوه فقهية ولذلك يورده في اماكن مختلفة من ابواب الفقه.

وهذه الامور غير موجودة في صحيح مسلم.

وقد كتب الامام مسلم مقدمة طويلة بأسلوب سهل تحدث فيها عن طريقته وانتقد فيها شيخه البخاري، لانه قد حصل بينهما فتور في آخر ايامه. فتعرض لطريقة شيخه البخاري في المقدمة.

قال الامام النووي في أول شرحه: إن الحسين بن علي النيسابوري قال: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم ووافقه على ذلك بعض مشايخ المغرب ولكن هذا خلاف ما عليه جمهور علماء المشرق والمغرب، ولا ينبغي الامتراء برجحان صحيح البخاري على صحيح مسلم، لأن الصفات التي تدور عليها الصحة في كتاب البخاري أتم منها في كتاب مسلم.

وعدد الاحاديث التي في صحيح مسلم ٧٢٧٥ بالمكرر، والاحاديث غير المكررة اربعة الاف حديث.

شرح صحيح مسلم عدد كبير من العلماء، ذكر صاحب كشف الظنون نحو خمسة عشر شرحا، من اشهرها شرح الامام النووي المتوفى سنة ٦٧٦، وشرح الزواوي ابي الفرج عيسى بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٣واسمه اكمال الاكمال في خمس مجلدات،وشرح الابي المالكي وهو ابو عبد الله محمد بن خلفة من اهل تونس نسبة الى (أبه) من قرى تونس، جمع في شرحه بين شرح المازري وعياض والقرطبي والنووي. توفي سنة ٧٢٨. ومنها شرح الخطيب القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣. ولم يكمله، وشرح الشيخ على القاري نزيل مكة المتوفى سنة ١٠١٦، في اربع مجلدات وغير ذلك.

وقد اختصره عدد من العلماء اشهرهم الامام المنذري المتوفى سنة ٦٥٦ طبعته دولة الكويت طبعة انيقة منسقة مفهرسة.

المستدرك على الصحيحين للحاكم:

الحاكم هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري المعروف بابن البيع، ولد بنيسابور سنة ٣٢١، واجتهد في تحصيل العلم وبلغ عدد شيوخه ما يقرب من الف رجل، وترك عددا من المؤلفات اهمها كتابه الكبير وهو المستدرك على الصحيحين في اربع مجلدات كبار، وقد طبع اكثر من مرة وكان امام اهل الحديث في زمنه،وقد تولى القضاء بنيسابور ولذلك لقب بالحاكم. توفي بنيسابور سنة ٤٠٥هـ.

والمستدرك كتاب كبير يقول الحاكم مؤلفه بانه اودع فيه ماليس في الصحيحين مما رأى انه على شرطهما او شرط احدهما، اوماأدىاجتهاده الى تصحيحه.

وقد لخص الحافظ الذهبي المتوفى سنة ٨٤٨ المستدرك، وابان ما فيه من ضعيف او منكر، وهو كثير، وجمع جزءا في الاحاديث الموضوعة التي وجدت فيه فبلغت نحو مائة حديث.

قال الذهبي في المستدرك: جملته وافرة على شرطيهما او شرط احدهما يعني البخاري ومسلما. ولعل مجموع ذلك نحو نصف الكتاب، وفيه نحو الربع مما صح سنده وفيه بعض الشيء، وما بقي وهو نحو الربع فهو مناكير واهيات لا تصح، وفي بعض ذلك موضوعات. ومعنى الحديث الموضوع (المكذوب).

وقال الحافظ ابن حجر: انما وقع للحاكم التساهل لانه سَوَّد الكتاب لينقحه فعاجلته المنيه ولم يتيسر له تحريره وتنقيحه.

المستخرجات على الصحيحين.

معنى الاستخراج: ان يعمد احد حفاظ الحديث الى احد الصحيحين فيورد احاديثه واحدا واحدا باسانيد لنفسه غير ملتزم فيه ثقة الرواة من غير طريقهما الى ان يلتقي معهما في شيخهما او فيمن فوقه. وربما ترك المستخرج احاديث لم يجد له بها سندا مرضيا.

وقد اعتنى كثير من الحفاظ بالتخريج، وقصروا ذلك في الاكثر على الصحيحين لكونهما العمدة في علم الحديث.

ومن الكتب المستخرجة على صحيح البخاري: المستخرج لأبي نعيم الاصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠ والمستخرج

لأبي بكر أحمد بن ابراهيم الاسماعيلي المتوفى سنة ٣٧١، والمستخرج لابي بكر البرقاني المتوفي سنة ٤٢٥.

ومن المستخرجات على صحيح مسلم: مستخرج أحمد بن حمدان النيسابوري المتوفى سنة ٣١١، ومستخرج أبي عوانة الاسفراييني المتوفى سنة ٣١٦، ومستخرج أبي نصر الطوسي المتوفى سنة ٣٤٤، ومستخرج الحافظ أبي نعيم الاصبهاني المارّ ذكره.

بقية الكتب الستة وهي سنن النسائي، وأبي داود والترمذي وابن ماجه ولا بد من إيراد موجز عن كل واحد منها لاستكمال البحث.

المجتبى: لأبي عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب النسائي الخراساني، طلب الحديث على أئمة هذا الفن بخراسان، وطاف في العالم الاسلامي وتوفي بالرملة بفلسطين سنة ٣٠٣ ودفن ببيت المقدس.

عندما صنف النسائي سننه الكبرى أهداها إلى أمير الرملة، فقال له: أكل ما فيها صحيح؟ فقال: فيها الصحيح والحسن وما يقاربها فقال: ميِّزلي الصحيح من غيره، فصنف له السنن الصغرى وسماه المجتبى من السنن. ودرجته في الحديث بعد الصحيحين لأنه أقل السنن بعدهما ضعيفا.

وقد شرح المجتبى شرحا وجيزا الحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ وكذلك أبو الحسن محمد ابن عبد الهادي السندي المتوفى سنة ١١٣٨ .وشرح سراج الدين ابن الملقن زوائده على الصحيحين وأبي داود والترمذي في مجلد.

سنن أبي داود:

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ولد سنة ٢٠٢ وسمع الحديث عن عدد كبير من المشايخ، روى عنه خلق كثير منهم الترمذي والنسائي. وكان إمام أهل الحديث في زمانه توفي بالبصرة سنة ٢٧٥هـ.

قال أبو سليمان الخطابي -وهو شارح سنن ابي داود في مجلدين واسمه معالم السنن والشرح مطبوع- قال: اعلموا رحمكم الله أن كتاب السنن لأبي داود كتاب شريف لم يصنف في علم الدين كتاب مثله، وقد رزق القبول من كافة الناس وعليه معول أهل العراق وأهل مصر وبلاد المغرب وكثير من اقطار الأرض. وهو أحسن وضعا وأكثر فقها من الصحيحين.

وقال الغزالي ان سنن أبي داود تكفي المجتهد في أحاديث الأحكام.

قال أبو داود رحمه الله: كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة ألف حديث، فانتخبت منها أربعة آلاف وثمانمائة حديث ضمنتها هذا الكتاب ذكرت الصحيح وما يشبهه وما يقاربه، ويكفي الانسان لدينه من ذلك أربعة احاديث: أحدها قوله صلى الله عليه وسلم: (الأعمال بالنيات). والثاني: قوله: (من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه) والثالث: قوله: (لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه). والرابع: قوله: (الحلال بين والحرام بين) الحديث.

وقال: ما ذكرت في كتابي حديثا أجمع الناس على تركه، وما كان به من حديث فيه وهن شديد فقد بينته، ومنه ما لا يصح، وما لم اذكر فيه شيئا فهو صالح وبعضها أصح من بعض. وهو كتاب لا ترد عليك سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا وهي فيه، ولا أعلم شيئا بعد القرآن ألزم للناس ان يتعلموه من هذا الكتاب.

وقد شرح سنن أبي داود كثيرون من أفاضل العلماء، أشهرها معالم السنن للخطابي المتوفى سنة ٣٢٨ المتقدم ذكره. وقطب الدين اليمني المتوفى سنة ٦٥٢ في اربع مجلدات كبار، وابو زرعة احمد بن عبد الرحيم العراقي المتوفي سنة

٨٢١ ولم يكمله. وشهاب الدين الرملي المتوفى سنة ٨٤٨، وتقدم ان ابن الملقن شرح زوائده على الصحيحين.

واختصر السنن الحافظ زكي الدين المنذري، وهذب هذا المختصر ابن قيم الجوزية الحنبلي المتوفى سنة ٧٥١.

صحيح الترمذي:

الترمذي هو أبو عيسى محمد بن سورة الترمذي ولد سنة ٢٠٠هـ وسمع الحديث من الامام البخاري وغيره من مشايخ بخارى، وكان اماما حجة، وكان ضريرا. روى الحاكم قال: مات البخاري ولم يخلف بخراسان مثل ابي عيسى الترمذي في العلم والورع والزهد وكانت وفاته بترمذ سنة ٢٧٩هـ.

قال ابو عيسى الترمذي رحمه الله: عرضت كتابي هذا على علماء الحجاز والعراق وخراسان فرضوا به واستحسنوه، وقال: ما اخرجت بكتابي هذا الا حديثا قد عمل به الفقهاء، وقد تكلم على درجة الحديث، وبين الصحيح منه والمعلول، كما ميز المعمول به من المتروك وساق اختلاف العلماء، واشار الى ما في الباب من الأحاديث وما فيها من جرح وتعديل، وفي آخره كتاب العلل جمع فيه فوائد حسنة.

فكتاب الترمذي جليل القدر جم الفوائد كما انه قليل

التكرار،وقد شرح جامع الترمذي عدد من العلماء، واشهر شرح له شرح ابي بكر بن العربي المالكي الأشبيلي المتوفى سنة ٥٤٦ وسمى شرحه: (عارضة الاحوذي في شرح الترمذي) في اربعة عشر مجلدا وهو مطبوع.

وشرحه الحافظ محمد بن محمد الشافعي المتوفى سنة ٧٣٤ شرح نحو ثلثيه في عشر مجلدات ولم يتمه، واكمله زين الدين عبد الرحيم العراقي المتوفي سنة ٨٠٤ وشرحه عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي في عشرين مجلدا وقد احترق في الفتنة، وشرحه السيوطي والسندي وشرح زوائده ابن الملقن المار ذكره.

واختصره نجم الدين محمد بن عقيل المتوفى سنة ٧٢٩ ونجم الدين سليمان ابن عبد القوي الطوفي الحنبلي المتوفى ٧١٠.

سنن ابن ماجه:

ابن ماجة؛ هو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله ابن ماجه القزويني ولد سنة ٢٠٧، وطلب علم الحديث ورحل في طلبه وطاف البلاد وسمع من أصحاب مالك والليث بن سعد، وروى عنه خلق كثير، وكان أحد الأعلام في زمانه وتوفي سنة ٢٧٥.

سنن ابن ماجه: عد الحفاظ أصول السنة خمسة وهي: البخاري ومسلم والنسائي وابو داود والترمذي، وبقي هذا معمولا به إلى القرن السادس الهجري فجاء محمد بن طاهر المقدسي المتوفى سنة ٥٠٧هـ والحافظ عبد الغني المقدسي المتوفى سنة ٦٠٠ فجعلا سنن ابن ماجه المرجع السادس وصار يقال الكتب الستة.

وقال بعض المحدثين: ينبغي أن يجعل الكتاب السادس مسند الدارمي، فإنه قليل الرجال الضعفاء نادر الأحاديث المنكرة والشاذة.

وجعل بعض كبار العلماء كرزين السرقسطي المتوفى سنة ٥٣٥ سادس الكتب موطأ مالك، وتبعه على ذلك مجد الدين ابن الاثير في كتابه جامع الاصول.

شرح سنن ابن ماجه كمال الدين محمد بن موسى الدميري الشافعي المتوفى سنة ٨٠٨ في خمس مجلدات، وسمى شرحه الديباجة، ولكنه مات قبل تحريره، وشرحها ابراهيم بن محمد الحلبي المتوفى سنة٨٤١، وكذلك جلال الدين السيوطي وسماه مصباح الزجاجة وكذلك السندي.

وقد شرح سراج الدين عمر بن الملقن زوائده على الخمسة في ثمان مجلدات وسمى شرحه «ما تمس اليه الحاجة

على سنن ابن‌ماجه ». والعمل على اعتبار الكتب الستة كان في المشرق، اما في المغرب فكان الاعتبار اوسع من هذا وابعد، ففي آخر القرن السادس كان القول يدور حول الكتب العشرة وهي علاوة على البخاري ومسلم وابي داود والنسائي والترمذي أضافوا موطأ مالك وسنن البزار ومصنف ابن ابي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي.

وجاء العالم الاندلسي احمد بن معاذ التجيبي المتوفى سنة ٥٥٠ ووضع هذه الكتب أساسا لكتابه (المجاميع المشهورة) ووضع البغوي بدلا من البيهقي.

وقد فعل بعض علماء المشرق فعل أهل المغرب فلم يقتصروا على الكتب الستة. فقد جاء العلامة شمس الدين الحسيني الدمشقي المتوفى سنة ٧٦٥ وألف كتابه (التذكرة في رجال العشرة) الذي نقد فيه رجال الكتب العشرة وهي: الكتب الستة، والموطأ، ومسند الإمام احمد بن حنبل، ومسند الشافعي، ومسند ابي حنيفة.

وجمع الحافظ ابن حجر العسقلاني الكتب العشرة هذه في كتابه (اطراف الكتب العشرة والمسند الحنبلي).

٩ - مسند الامام أحمد.

الامام احمد هو ابو عبد الله احمد بن محمد بن حنبل

الشيباني عربي صريح. ولد في بغداد سنة ١٦٤هـ وطلب الحديث وكان امام المحدثين في وقته، وكان من اصحاب الامام الشافعي وخواصه، ولازمه مدة اقامته في بغداد، وقال الامام الشافعي في حقه: خرجت من بغداد وما خلفت بها اتقى ولا أفقه من ابن حنبل. واصابته فتنة القول بخلق القرآن أيام المأمون فسجن وعذب وبقى مصرا على عدم القول بخلق القرآن، وقد أخذ عنه جماعة من كبار مشايخ المحدثين منهم الامام البخاري ومسلم توفي ببغداد سنة ٢٤١هـ. وترك نجلين من العلماء وهما صالح قاضي اصبهان، وعبد الله الذي كان يكنى به.

مسند الامام أحمد كتاب جليل من جملة أصول السنة يشتمل على أربعين ألف حديث تكرر منها عشرة الآف، ومن احاديثه ما ينيف على ثلاثمائة حديث ثلاثية الاسناد، اى بين راويها والرسول ثلاثة رواة.

درجة حديث المسند: روى أبو موسى المديني عن الامام أحمد أنه سئل عن حديث فقال: انظروه فإن كان في المسند والا فليس بحجة.

يرى الامام أحمد صحة كل ما ساقه في مسنده لكن عبارته ليست صريحة في ان كل ما فيه حجة إنما هي صريحة

في أن ما ليس فيه ليس بحجة، مع أنه يوجد احاديث في الصحيحين لا توجد فيه. والحق أن الكتاب فيه كثير من الأحاديث الضعيفة بل ذكر ابن الجوزي خمسة عشر حديثا موضوعة، في كتابه «الأحاديث الموضوعة». وذكر الحافظ العراقي تسعة ولكن أجاب عن هذه الأحاديث الحافظ ابن حجر في كتابه (القول المسدد في الذب عن المسند) وقال: ليس في المسند حديث لا أصل له إلا ثلاثة أحاديث أو أربعة.

وأحسن ما قيل في المسند ما قاله العلامة ابن تيمية في كتابه منهاج السنة: (شرط أحمد في المسند أن لايروي عن المعروفين بالكذب عنده، وان كان في ذلك ما هو ضعيف، وقال: ثم زاد ابن احمد زيادات على المسند ضمت اليه. وكذلك زاد أبو بكر القطيعي، وفي تلك الزيادات كثير من الأحاديث الموضوعة فظن من لا علم عنده ان ذلك من رواية احمد في مسنده.)

شرح المسند أبو الحسن محمد بن عبد الهادي السندي نزيل المدينة المتوفى سنة ١١٣٨هـ، واختصره الشيخ الامام سراج الدين ابن الملقن. وعلق عليه السيوطي وسماه عقود الزبرجد، وجمع غريبه ابو عمر محمد بن عبد الواحد

المعروف بغلام ثعلب المتوفى سنة ٣٤٥، واختصره الشيخ زين الدين عمر بن احمد الشماع الحلبي وسماه (در المنتقد من مسند الامام احمد).

مسند الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن التميمي الدارمي السمرقندي أبو محمد: من حفاظ الحديث توفي سنة ٢٥٥هـ.

لقد سمى كتابه بالمسند تسامحا وهو كتاب على وتيرة السنن وضعا لا نظرا ويفترق الدارمي عنها، مع وضعه ما تتطلبه علوم الفقه في نظر الحديث - إنه سعى لتدعيم هذا الغرض بالاتيان بفصول عامة في الحديث وعلومه، حيث جمع المستندات التي تقرر وتثبت وجهة نظره، كما أنه لم يتمسك مثلهم بالشروط الشديدة في جمعه للحديث كما فعل معاصروه من أهل الصحيح، وكان يسوق بعد ذكره للحديث نقدا له كأصحاب السنن، ويذكرنا فعله هذا بالبخاري عندما يسوق لنا دائما استعماله الشخصي واجتهاده في الاحاديث، كما انه دائما يمثل مهمة الدلالة على الاستعمال العملي من الحديث كقوله (فدل فعل الرسول....) وكما يذكر أن هذا الحديث لا يدل على الوجوب بل على الندب او انه من باب الادب لا من باب الوجوب. وهذه

الملاحظات كان قد القاها وسمعها منه تلامذته عند قراءة كتابه، فنجد فيه، وقد سئل ابو محمد عن هذا الحديث هل تقول به؟ أو تأخذ به؟ فيجيب بالإيجاب أوبالسلب، أو إن قوما يقولون به، كالأحاديث التي اختلف فيها اهل العراق واهل الحجاز، وكثيرا ما يسوق الأحاديث المتخالفة ويفصل فيها، مثلاً: يقول أبو محمد أن أحمد بن حنبل صحح حديث عمر ابن مرة، ولكن أخذ بحديث يزيد بن زياد.

ومن الصعوبة أن نلتمس الأسباب التي دعت علماء الاسلام إلى عدم اعتبار كتاب الدارمي الاعتبار الذي للسنن الأربعة. وقد يرجع ذلك إلى عدم التحديد وإلى التبلبل الذي يسود عند هذا المؤلف في جمعه للحديث. وناحية اخرى وهو ان هذا الكتاب ليس كاملا ففي بعض الأقسام التي ذكرها النسائي والترمذي لم يذكر حرفاً واحداً، وقد مد أكثر أبوابه إلى أبواب غير فقهية حتى سمي جامعا. وعلى كل حال فانه لم يقدر عند معاصريه، ولم يعد في زمرة هؤلاء الائمة مع ان بعض مشايخ الحديث قالوا: إنه ينبغي أن يجعل هو الكتاب السادس بدلا من سنن ابن ماجه، فإنه قليل الرجال الضعفاء، والأحاديث المنكرة والشاذة فيه نادرة.

وقد ذكر صاحب كشف الظنون نحو خمسين مسندا فأكتفى بذكر هذين المسندين. ومن أراد الزيادة فعليه بكتاب كشف الظنون.

١٠ - كتب الأطراف والجمع بين الصحيحين والكتب الستة:

كتب ألاطراف هي ما تذكر طرفا من الحديث يدل على بقيته وتجمع أسانيده إما مستوعبة، أو مقيدة بكتب مخصوصة.

من ذلك: اطراف الصحيحين للحافظ ابراهيم بن محمد ابن عبيد الدمشقي المتوفى سنة ٤٠٠. وأطراف الصحيحين لأبي محمد خلف بن محمد الواسطي المتوفي سنة ٤٠١. قال الحافظ ابن عساكر: وكتاب خلف أحسنها ترتيبا ورسما وأقلها خطأ ووهماً. وهو موجود في دار الكتب المصرية في أربع مجلدات.

وكذلك أطراف الصحيحين لأبي نعيم أحمد بن عبدالله ألاصفهاني المتوفى سنة ٥١٧، والأطراف للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢. وأطراف السنن الأربعة لأبي القاسم ابن عساكر الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١ في ثلاث مجلدات مرتبا على حروف المعجم. وسماه الاشراف على معرفة الأطراف.

وكتاب أطراف الكتب الستة للشيخ شمس الدين محمد ابن طاهر المقدسي المتوفى سنة ٥٠٧. قال ابن عساكر في مقدمة كتابه الاشراف: لماطلعت عليه زهدت فيما كنت جمعته، ثم إني سَبَرْتُهُ واختبرته فظهرت فيه إمارات النقص وألفيته مشتملا على أوهام كثيرة وترتيبه مختل راعى الحروف تارة وطرحها أخرى.

وقد لخصه الحافظ محمد بن علي الدمشقي سنة ٧٦٥، ورتبه أحسن ترتيب، وللحافظ يوسف بن عبد الرحمن المزي المتوفي سنة ٨٤٢ أطراف الكتب الستة، وفيه أيضا أوهام جمعها ابو زرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقي المتوفى سنة ٨٢٠.

وقد اختصر الحافظ شمس الدين الذهبي أطراف المزي. وكذلك الحافظ شمس الدين محمد بن علي الحسيني الدمشقي أيضا.

ولا بن الملقن: الإشراف على أطراف الستة. وللحافظ ابن حجر: اتحاف المهرة بأطراف العشرة، يعني الكتب الستة والمسانيد الأربعة، وهي موطأ مالك، ومسند أبي حنيفة، ومسند الامام الشافعي، ومسند أحمد بن حنبل، وهو في ثمان مجلدات. وقد أفرد تأليفه المسمى بأطراف

المسند المعتلي باطراف المسند الحنبلي (في مجلدين).

اهم الكتب الجامعة لمتون الحديث:

الجمع بين الصحيحين: لقد جمع كثير من العلماء الأفاضل بين صحيحي البخاري ومسلم. من هؤلاء: محمد بن عبد الله الجوزقي النيسابوري المتوفى سنة ٣٨٨هـ. واسماعيل بن أحمد المعروف بابن الفرات المتوفى سنة ٤١٤. ومحمد بن نصر الحميدي الاندلسي المتوفى سنة ٤٨٨هـ. ورتب الأحاديث على حسب فضل الصحابي الراوي، فقدم احاديث ابي بكر وباقي الخلفاء الاربعة ثم العشرة، قال العراقي في شرح الألفية أن الحميدي زاد في جمعه ألفاظ وتتمات ليست في واحد منها من غير تمييز، وهذا مما أنكر عليه لأنه جمع بين كتابين فمن أين تأتي الزيادة. ونقل البقاعي في حاشية شرح الألفيَّة عن الحميدي أنه قال وربما زدت زيادات من تتمات وشروح لبعض ألفاظ الحديث وقفت عليها في كتب من اعتنى بالصحيح كالاسماعيلي والبرقاني، قال ثم ميَّز بأن يسوق الحديث، ثم يقول الى هنا انتهت رواية البخاري مثلاً، ومن هنا زاده البرقاني وهذا واضح، ثم ميز بأخفى منه، فإنه يسوق الحديث كاملا أصلا وزيادة ثم يقول لفظ كذا زاده فلان ونحو ذلك، فقد حصل

التمييز إجمالا وتفصيلا .

قال ابن الأثير في جامع الأصول واعتمدت في النقل من الصحيحين على ما جمعه الحميدي في كتابه فانه أحسن في ذكر طرقه واستقصى في ايراد رواته وإليه المنتهى في جمع هذين الكتابين .

وله شروح منها شرح عون الدين أبي المظفر يحيى بن محمد المعروف بابن هبيرة الوزير الحنبلي الذهلي الشيباني . وكان من كبار الوزراء في الدولة العباسية . وتوفي سنة ٥٦٠ في بغداد . وقد كشف في شرحه عما في الكتب من الحكم النبوية . قال ابن شهبة في تاريخه : وسماه الايضاح عن معاني الصحاح في عدة مجلدات . ولما بلغ فيه إلى حديث (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) شرح الحديث وتكلم عن معنى الفقه وطال به الكلام إلى ذكر مسائل الفقه المتفق عليها والمختلف فيها ، فأفرده الناس من الكتاب وجعلوه مجلدا وسموه بكتاب الإفصاح وهو قطعة منه .

وشرحه أبو علي الحسن بن الخطير النعماني الظهير الفارسي المتوفى سنة ٥٩٨هـ . وسماه الحجة اختصره من كتاب الافصاح في تفسير الصحاح للوزير ابن هبيرة ، وزاد عليه أشياء . ولخصه الحافظ ابن حجر العسقلاني .

ومن جمع بين الصحيحين أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفى سنة ٥١٦، والحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي المتوفى سنة ٥٨٢. وأبو جعفر أحمد بن محمد القرطبي المعروف بابن أبي حجة المتوفي سنة ٦٤٢ وأبو مسعود ابراهيم بن محمد بن، عبيد الدمشقي رتبه على المسانيد دون الأبواب. وفي زماننا هذا استاذنا الكبير العلامة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله المتوفى سنة ١٣٦٣هـ في القاهرة ألف كتابه العظيم (زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم) في ستة أجزاء وهو مطبوع.

الجميع بين الكتب الستة: جمع بينها في تأليف العلامة عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي المعروف بابن الخراط الذي مر ذكره. وقطب الدين محمد علاء الدين المكي المتوفى سنة ٩٩٠ وكتابه مرتب مهذب.

وأبو الحسن أحمد بن رزين بن معاوية العبدي السرقسطي المتوفى سنة ٥٣٥ وسماه تجريد الصحاح الستة، ولكنه لم يحسن في ترتيبه وتهذيبه وترك بعضا من أحاديث الستة، وجاء بعده ابو السعادات مبارك بن محمد المعروف بابن الاثير الجزري المتوفى سنة ٦٠٦. فهذب الكتاب ورتب

ابوابه واضاف اليه ما أسقطه من الاصول وشرح غريبه وبين مشكل الإعراب وما خفي من المعنى، وحذف اسانيده ولم يذكر الا راوي الحديث من صحابي او تابعي، كما ذكر المخرج له من الستة، ولم يذكر اقوال التابعين والائمة الا النادر، ورتب ابوابه على حروف المعجم وسماه جامع الاصول لاحاديث الرسول، فجاء كتابا عظيما نافعا لم ينسج احد على منواله. والكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية في عشرة اجزاء.

وقد اختصر هذا الكتاب العظيم كثيرون من الافاضل منهم ابو جعفر محمد المروزي الا سترابا ذي وهو على النسق الذي وضع الكتاب عليه المتوفى سنة ٦٨٢. وشرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم بن البازي الحموي الشافعي المتوفي سنة ٧٣٨. جرده عن ما زاده على الأصول من شرح الغريب والاعراب والتكرار وسماه تحرير الأصول.

والشيخ صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي الدمشقي ثم المقدسي المتوفى سنة ٧٦١ واشتهر بتهذيب الأصول.

والشيخ عبد الرحمن بن علي الشهير بابن الديبع الشيباني اليمني المتوفى سنة ٩٤٤ وهو أحسن المختصرات وسماه (تيسير

الوصول إلى جامع الاصول) والكتاب مطبوع في ثلاثة أجزاء. وطبع مرة أخرى بمكتبة مصطفى محمد التجارية في أربعة أجزاء. وللشيخ مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي صاحب القاموس زوائد عليه سماه تسهيل طرق الوصول إلى الأحاديث الزائده على جامع الاصول، الفه للناصر الاشرف صاحب اليمن.

واختصره أيضا الشيخ أحمد بن رزق الله الانصاري الحنفي، ولمحب الدين أحمد بن عبد الله الطبري المتوفى سنة ٩٦٤. كتاب في غريبه.

١١ - **الكتب الجامعة العامة**: وهذه كثيرة جدا تفوق الحصر نذكر بعضا منها:

منها جامع المسانيد والألقاب للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ وهو كتاب كبير جمع فيه بين الصحيحين ومسند أحمد وجامع الترمذي رتبه الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله المعروف بالمحب الطبري ثم المكي المتوفي سنة ٦٩٤.

ومنها جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن للحافظ اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي المعروف بابن كثير، المتوفي سنة ٧٧٤، جمعه من الصحيحين وسنن النسائي وأبي

داود والترمذي وابن ماجة ومن مسانيد أحمد والبزار وأبي يعلى والمعجم الكبير للطبراني.

ومنها مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ ابي الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة ٨٠٧. جمع فيه زوائد مسند أحمد وأبي يعلى والبزار ومعاجم الطبراني الثلاثة، وهو مطبوع في عشرة اجزاء.

ومنها مصابيح السنة للإمام حسين بن مسعود البغوي المتوفى سنة ٥١٦. جمع فيه ٤٤٨٤ حديثاً؟ من الصحاح والحسان، ومعنى الصحاح ما أخرجه الشيخان والحسان ما أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما، وما كان فيها من ضعيف أو غريب بينه ولا يذكر ما كان منكرا أو موضوعا.

وقد اعتنى العلماء بالمصابيح عناية عظيمة. فشرحوها شروحا كثيرة ذكر عددا منها صاحب كشف الظنون في الجزء الثاني منه. وذكر عددا ممن اختصروها.

ثم قال: ثم إن الشيخ ولي الدين أبا عبد الله الخطيب أكمل المصابيح وذيل أبوابها وزاد على كل باب من صحاحه وحسانه إلا نادرا فصلا ثالثا، وذكر الصحابي الذي روى الحديث عنه وذكر الكتاب الذي أخرجه منه، فصار كتاباً

كاملا فرغ من جمعه آخر يوم الجمعة من رمضان سنة ٧٣٧. وقد طبع الكتاب طبعة جديدة منسقة. وقد شرحه جمع من أجلاء العلماء منهم: حسن بن محمد الطيبي، وعلم الدين السخاوي، وعبد العزيز الأبهري، والشيخ نور الدين علي بن سلطان الهروي المعروف بالقاري وشرحه مطبوع في أربع مجلدات. وعدد كبير غير هؤلاء من افاضل العلماء.

ومنها جمع الجوامع في الحديث للحافظ الكبير جلال الدين السيوطي جمع فيه بين الكتب الستة وغيرها، وقد قصد في كتابه جمع الاحاديث النبوية بأسرها، قال المناوي: انه مات قبل ان يتمه، ولقد اشتمل كتابه على كثير من الاحاديث الضعيفة بل الموضوعة. وقد هذبه علاء الدين علي بن حسام الهندي المتوفى بمكة سنة ٠٩٧٥. في كتابه (كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال) والكتاب مطبوع مع مسند الامام احمد.

وقد اختصر السيوطي كتابه هذا في الجامع الصغير وزوائده وهو مطبوع. ومنها اتحاف الخيرة بزوائد المسانيد العشرة لاحمد بن أبي بكر البصيري المتوفى سنة ٤٨٠، أفرد فيه زوائد مسانيد أبي داود الطيالسي، والحميدي ومسدد، وابن أبي عمرو واسحاق بن راهوية، وابن ابي شيبة واحمد

بن منيـع والحارث بن محمد بن ابي اسامة ،وأبي يعلى الموصلي ، وهو مرتب على مائة كتاب. ومنها: بحر الأسانيد للامام الحافظ الحسن بن احمد السمرقندى المتوفى سنة ٤٩٠. جمع فيه مائة ألف حديث رتبه وهذبه ويقال: إنه لم يقع في الاسلام مثله.

ومن أحسن المجاميع في عصرنا الحاضر واجلها كتاب التاج الجامع للاصول الخمسة. لمؤلفه المرحوم الشيخ منصور علي ناصـف، وقد جمع المؤلف في هذا الكتاب القيم بين صحيح البخاري ومسلم وسنن ابي داود وجامع الترمذي والمجتبى للنسائي، ويقول: وهذه هي الاصول الخمسة التي اشتهرت في الامة وارتضتها لما لها من المكانة العليا في الحديث التي فاقت كل كتاب ظهر الى الان في علم الحديث لانها جمعت من الشريعة ما عز وغلا ثمنه بل هي الشريعة كلها كما قال الامام النووي رضى الله عنه، ما شذ عن الأصول الخمسة من صحيح حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الا النزر اليسير ولا شك ففيها حاجة الانسان لسعادة الدنيا والاخرة.

وقد اعتمد المؤلف الاصول الخمسة ولم يضم اليها ابن ماجة تمشيا مع رأي القدماء من قبل المائة السادسة - ثم

يقول: ثم نظرت فيها نظرة عامة وطفقت أدمجها كلها بتمامها في مؤلف واحد، أهذب كتبه تهذيبا وأحرر أبوابه تحريرا لكي أشفي به غليلي وأتحف به عشاق علم الحديث. وقد شرحه شرحا لطيفا.

ويقول في الشرح: وقد تم لي ذلك والحمد لله فلم أترك في ظني حديثا واحدا إلا ما كان مستغنى عنه بما كتبته، وما يظهر للقارىء أني تركته فقد نقلته في باب آخر أشد له مناسبة، فمن هذا حديث النية في اول البخاري ولكني نقلته في كتاب النية والاخلاص. ومنه حديث بدء الوحي في أول البخاري ولكني نقلته في كتاب النبوة، ومنه حديث من تبع جنازة مسلم في البخاري في الإيمان ولكني وضعته في فضل تشييع الجنازة. ومنه حديث الحلال بيِّن والحرام بيِّن في البخاري في الإيمان، وقد وضعته في المعاملات. إلى أن يقول: بل وزدت على هذه الأصول من مسنديْ الشافعي واحمد وموطأ مالك وابن ماجه والحاكم وغيرها مما مست إليه الحاجة.

ورغبة في الاختصار المألوف اكتفيت من الروايات المكررة بأجمعها للاحكام كما اكتفيت من السند براوي الحديث وهو الصحابي الذي سمعه من النبي صلى الله عليه

وسلم، ومخرجه في آخره يعني اسم مؤلف الكتاب الذي اخرج الحديث

ويقول في صدر الكتاب بكلمة موجهة للهداة والولاة:

القول الفصل في هذا الكتاب... إنه يلزم لكل الناس على اختلاف طبقاتهم، ولكني أخص من بين الناس طائفة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ويعني بذلك الائمة والوعاظ والمدرسين في المساجد وغيرها.

وازيد في التخصيص بالذكر طائفة الحكام والقضاة، فكتاب التاج لهم ألزم من الظل للانسان ولا سيما في كتاب الامارة والقضاء الآتي في القسم الثاني، فهو الحصن الحصين والدواء الشافي، وقد نبهت على خصوص هاتين الطائفتين لان الاولى هدى للامة، والثانية حراس الامة وقادتها، بل هم قلب الامة ورأسها فبصلاحهم تنصلح الامة، وبفسادهم تفسد الامة، اللهم وفقنا وأصلح حالنا يا رحمن في الحال والمآل آمين، والحمد الله رب العالمين.

ومجموع ما في الكتاب من الأحاديث بلغ خمسة آلاف وثمانمائة وسبعة وثمانين حديثا. وهي كافية وافية لمن أراد ان ينهل من هذا المورد العذب الزلال تكفي للقاضي والمعلم والواعظ والدارس والمجتهد.

وقد طبع الكتاب عدة طبعات أنيقة والحديث مشكول، وله فهارس جيدة والحق إنه كتاب جامع مانع ممتع.

١٢ - الكتب الجامعة لأحاديث الأحكام.

لقد افرد بعض علماء الحديث أحاديث الأحكام بالتأليف وهي كثيرة، والمتداول منها في أيدي الناس الآن ثلاثة كتب هي: كبير، ومتوسط، وصغير.

فالكتاب الكبير في أحاديث الاحكام هو كتاب المنتقى للامام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحرّاني (٥٩٠ ٦٥٢) جدَّ شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية. وقد تضمن هذا الكتاب خمسة الاف حديث وتسعة وعشرين حديثا هي أدلة الفقه الاسلامي في أقوم مذاهبه. وهو المرجع الثاني بعد القرآن الكريم في التشريع والقضاء وآداب المجتمع. وقد جمع هذا الكتاب من الكتب الستة ومسند الامام احمد.

وقد شرحه محدث اليمن ومجتهدها القاضي محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣ - ١٢٥٠) بكتابه نيل الأوطار، وأحاط فيه بكل حديث، وجمع فيه من فقه الحديث ما لا يمكن أن تعثر عليه في كتاب آخر، وقد طبع الشرح بمصر مرتين في

ثمانية أجزاء.

والكتاب الأوسط في أحاديث الأحكام هو كتاب بلوغ المرام للحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٣٣ - ٨٥٢) وقد تضمن ألف حديث وخمسمائة وستة وسبعين حديثا. وقد شرحه علامة اليمن في القرن الثاني عشر السيد محمد بن اسماعيل الأمير الحسني الصنعاني (١٠٩٩ - ١١٨٢) بكتابه الشهير المسمى (سبل السلام) وهو شرح قيم يصدع فيه بالحق سواء خالف المذاهب أم وافقها، وقد طبع بالهند، وطبع بمصر طبعة أنيقة في أربعة أجزاء ،وقد وضعت عليه تعليقات، وقد درسناه في كلية الشريعة من جملة ما كان مقررا لنا أن ندرسه في السنوات الاربع فيها.

وقد شرح بلوغ المرام علماء كثيرون: منهم القاضي شرف الدين الحسين ابن محمد المربي وهو شرح واسع. وللسيد أحمد حسن الدهلوي حواش عليه بين فيها علل الأحاديث المعلولة وخلاصة المعنى.

أما الكتاب الثالث، وهو أوجزها، وأصحها، وأقدمها فهو كتاب (العمدة) للامام الحافظ، تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الجماعيلي ثم الدمشقي، (٥٤١ -

٦٠٠) وهو يشتمل على اربعمائة وتسعة عشر حديثا من اعلى أنواع الصحيح، مما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما فكان كتابه هذا عمدة الأحكام حقا، وهو كتاب قريب لكل إنسان ولا يستغني عنه الطالب ولا المتبحر في العلم.

وقد شرحه الامام تقي الدين محمد بن علي القشيري المعروف بابن دقيق العيد، الذي هو من مفاخر الاسلام، وقد قال عن هذا الشرح شيخ الاسلام ابن تيمية: إنه كتاب الاسلام، وانه ما عمل أحد مثله، ولا الحافظ الضياء ولا جدى أبو البركات. فابن دقيق العيد كان موفقا في هذا الشرح رحمه الله.

ثم جاء علامة اليمن ومحيي علوم السنة في وقته السيد البدر محمد بن اسماعيل الامير الحسني الصنعاني شارح كتاب بلوغ المرام المتقدم ذكره فكتب حاشية نفيسة على كتاب شرح العمدة، وقد طبع الكتاب بشرحه وحاشيته في المطبعة السلفية للمرحوم محب الدين الخطيب في أربعة اجزاء، بطبعة فاخرة سنة ١٣٧٩ هـ.

وهذه الكتب الثلاثة معروفة لدى المشتغلين في هذا العلم متداولة بين أيديهم وهي مع كتاب التاج الجامع للأصول

للشيخ منصور علي ناصف كافية وافية لمن اراد ان يذكّر او اراد شكورا.

وهناك اربعة كتب أخرى في هذا الموضوع وهي:

سنن الحافظ ابي الحسن علي بن عمر بن احمد البغدادي الشهير بالدارقطني وقد طبعت بالهند مع تعليقات عليها لشمس الحق أبي الطيب محمد بن احمد بن علي الابادي وطبعت في مصر في مجلدين أيضا.

والسنن الكـبرى للعلامـة احمد بن حسين البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨) وهو من المؤلفين المكثرين، قال عنه امام الحرمين: ما من شافعي الا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي، فان له المنة والفضل على الشافعي لكثرة تصانيفه في نصرة مذهبه وبسط موجزه وتأييد آرائه.

قال ابن الصلاح: ما تم كتاب في السنة أجمع للادلة من كتاب السنن الكبرى للبيهقي، وكأنه لم يترك في سائر اقطار الارض حديثا الا وقد وضعه في كتابه وقد طبع في عشر مجلدات. مع فهارس باسماء الصّحابة والتابعين ومسانيدهم ومروياتهم. وللبيهقي ايضا السنن الصغرى، والكتابان من مفاخر الاسلام.

والكتاب الثالث: الاحكام الصغرى للحافظ ابي محمد

عبد الحق بن عبد الرحمن المعروف بابن الخراط الازدي الاشبيلي تقدم ذكره اكثر من مرة. قال في مقدمته: جمعت هذا الكتاب متفرقا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في لوازم الشرع واحكامه وحلاله وحرامه، في ضروب من الترغيب والترهيب اخرجتها من كتب الائمة وهداة الامة: ابو عبد الله مالك بن انس، وابو عبد الله محمد ابن اسماعيل البخاري، وابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، وبقية الكتب الستة، وفيها أحاديث من كتب اخرى.

والكتاب الرابع: كتاب فتح العلام للفاضل محمد صديق خان بن حسن بن علي الحسيني البخاري القنوجي، من رجال النهضة الاسلامية المجددين (١٢٤٨ - ١٣٠٧). قال في ترجمة نفسه: (القى عصا الترحال في محروسة بهوبال، فأقام بها وتوطن وتمول، واستوزر وناب، وألف وصنف) وتزوج بملكة بهوبال، ولقب بنواب عالي الجاه أمير الملك بها. له نيف وستون مصنفا بالعربية والفارسية والهندية.

وكتاب فتح العلام: نسخة من سبل السلام تمتاز عنها بزيادات يسيرة او حذف بعض المذاهب المذكورة بالاصل كمذهب الهادوية، وقد طبع بمصر بالمطبعة الاميرية.

١٣ - ترتيب كتب الحديث حسب درجاتها من الصحة وطبقاتها.

تقدم معنا ان اصح ما روي من الحديث هو ما اشتمل عليه موطأ مالك والكتب الستة ومسند الامام احمد، وقد كتب شاه ولي الله الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦ في كتابه (حجة الله البالغة) فصلا في طبقات كتب الحديث ما ملخصه:

طبقات كتب الحديث اربع، فالطبقة الاولى منحصرة في ثلاثة كتب هي: الموطأ، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم.

والطبقة الثانية: كتب لم تبلغ مبلغ الموطأ والصحيحين ولكنها تتلوها بالصحة، ومصنفوها من المعروفين بالوقوف والعدالة والحفظ والتبحر في فنون الحديث ولم يتساهلوا فيها، وتلقاها من بعدهم بالقبول واعتنى بها المحدثون والفقهاء وذاعت بين الناس، كسنن ابي داود وجامع الترمذي ومجتبى النسائي.

وهذه الكتب من الطبقة الاولى اعتنى باحاديثها رزين ابن معاوية العبدري السرقسطي في تجريد الصحاح وابن الاثير في جامع الاصول وكاد مسند احمد يكون من هذه الطبقة.

الطبقة الثالثة: مسانيد وجوامع ومصنفات صنفت قبل البخاري ومسلم وفي زمانهما وبعدهما، جمعت بين الصحيح والحسن والضعيف والمعروف والمنكر والشاذ والخطأ والصواب والثابت وغير ذلك. ولم تشتهر عند العلماء ذلك الاشتهار وان زال عنها اسم النكارة المطلقة، ولم يتداول ما تفرد بها الفقهاء كثير تداول، ولم يفحص عن صحتها وضعفها المحدثون كبير فحص... ولا اريد المتأخرين المتعمقين، وانما كلامي في الائمة المتقدمين من اهل الحديث، فهي باقية على استتارها وخمولها كمسند ابي يعلى، ومصنف عبد الرزاق، ومصنف ابي بكر بن ابي شيبة، ومسند عبد ابن حميد، ومسند الطيالسي، وكتب البيهقي والطحاوي والطبراني، وكان قصدهم جمع ما وجدوه من الحديث لا تلخيصه وتهذيبه وتقريبه من العمل.

والطبقة الرابعة: كتب قصد مصنفوها بعد قرون متطاولة جمع ما لم يوجد في الطبقتين الاوليين وكانت في الجاميع والمسانيد المختلفة فنوهوا بأمرها، وكانت على ألسنة من لم يكتب حديثه المحدثون، وهم كثير من الوعاظ المتشدقين، وأهل الأهواء والضعفاء، أو كانت من آثار الصحابة والتابعين، او من كلام الحكماء والوعاظ خلطها الرواة

بحديث النبي صلى الله عليه وسلم سهوا او عمدا.. فرواها بالمعنى قوم صالحون لا يعرفون غوامض الرواية، فجعلوا المعاني احاديث معروفة، او كانت مفهومة من اشارات الكتاب والسنة جعلوها احاديث منفصلة برأسها عمدا، او كانت جملا شتى في احاديث مختلفة جعلوها حديثا واحدا بنسق واحد، ومظنة هذه الاحاديث كتب الضعفاء لابن حبان، والكامل لابن عدي، وكتب الخطيب، وابي نعيم والجوزقاني وابن عساكر وابن النجار والديلمي وكاد مسند الخوارزمي يكون من هذه الطبقة، واصلح هذه الطبقة ما كان ضعيفا محتملا، وأسوأها ما كان موضوعا او مقلوبا او شاذا. وهذه الطبقة مادة كتاب الموضوعات لابن الجوزي. وهو كتاب جليل القدر ولكنه غلا بعض الشيء حتى انه ذكر فيه حديثا من صحيح مسلم.

ولأبي محمد علي بن احمد بن حزم الظاهري المتوفى سنة ٤٥٦ مقالة في ترتيب كتب الحديث جرى فيها على ما ظهر له في ذلك، ذكرها في كتاب مراتب الديانة، وقد اورد الامام جلال الدين السيوطي خلاصتها في كتابه تدريب الراوي. وهي وجهة نظر خاصة لابن حزم رحمه الله تكفي الاشارة اليها. وهو صاحب مزاج خاص، وله اجتهاد في

كثير من الامور يخالف فيها غيره، وعنده استقلال برأيه ينفرد فيه.

١٤ - الترغيب والترهيب:

هذا الموضوع من مواضيع الحديث ألف فيه عدد من أفاضل العلماء ومن أجلها وأحسنها، كتاب: الترغيب والترهيب للامام الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري المتوفى سنة ٦٥٦، وهو من احسن الكتب طريقة في جمع الحديث وبيان درجته، حاويا لما تفرق في غيره من الكتب مقتصرا على ما ورد صريحا في الترغيب والترهيب، وهو يعزو الحديث الى من رواه من اصحاب الكتب المشهورة كالصحيحين والسنن الاربعة وبعض المسانيد، ثم يشير الى صحة إسناده او حسنه اوضعفه، وجعله في خمسة وعشرين كتابا على ترتيب المصابيح، وجعل في آخره بابا للرواة، ذكرهم مرتبين على الحروف، وقد طبع اكثر من مرة ولخصه الحافظ شهاب الدين ابن حجر. وعلق على الاصل برهان الدين بن محمد التاجي الدمشقي المتوفى سنة ٩٠٠.

وكتاب الترغيب والترهيب للشيخ الامام قوام السنة ابي القاسم اسماعيل بن محمد الطلحي الاصبهاني المتوفى سنة ٥٣٥.

وقد قال المنذري في مقدمة كتابه السابق الذكر:
واستوعبت جميع ما في كتاب ابي القاسم الاصبهاني مما لم يكن في الكتب المذكورة وهو قليل، وأضربت عن ذكر ما فيه من الأحاديث المتحققة الوضع. وهذا يدل على ان هذا الكتاب فيه احاديث مكذوبة.

وقد نص المنذري على ذلك وقال: ان من تقدم من العلماء اساغوا التساهل في انواع من الترغيب والترهيب حتى ان كثيرا منهم ذكر الموضوع ولم ينبهوا عليه.

وكتاب الترغيب والترهيب لأبي موسى المديني. وكتاب اخر لابن زنجويه حميد بن مخلد بن قتيبة الازدي المتوفي سنة ٢٤٨.

١٥ - الأربعينيات:

هذا الموضوع من المواضيع التي صنف فيها عدد كبير من افاضل العلماء وذلك بسبب ورود حديث من طرق كثيرة متنوعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: (من حفظ على امتي اربعين حديثا في أمر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة العلماء والفقهاء) واتفق العلماء على ان هذا الحديث ضعيف وان كثرت طرقه، وقد صنف العلماء في هذا الباب مالا يحصى في المصنفات، واختلفت مقاصدهم في تأليفها

وجمعها وترتيبها، فمنهم من اعتمد على ذكر احاديث التوحيد واثبات الصفات، ومنهم من قصد ذكر احاديث الأحكام، ومنهم من اقتصر على ما يتعلق بالعبادات، ومنهم من اختار احاديث المواعظ والرقائق، ومنهم من قصد تخريج ما صح سنده وسلم من الطعن، ومنهم قصد ما علا سنده، ومنهم من أحب تخريج ما طال متنه وظهر لسامعه حين يسمعه حسنه الى غير ذلك، وسمى كل واحد منهم كتابه بكتاب الاربعين، وقد اورد صاحب كشف الظنون نحو واحد وسبعين مؤلفا في هذا الموضوع في نحو ست صفحات من كتابه.

منها: اربعين ابي بكر البيهقي في الاخلاق وقد تقدم ذكره. ومنها: اربعين ابن البطال الامام شمس الدين محمد ابن احمد اليمني المتوفى سنة ٦٣٠ وموضوعها في اذكار المساء والصباح. ومنها اربعين ابن الجزري وهو الشيخ شمس الدين بن محمد بن محمد الجزري المتوفي سنة ٨٣٣ اختار فيه ما هو اصح وافصح واوجز. ومنها اربعين ابن طولون شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الدمشقي الصالحي الحنفي، كان من العلماء له مشاركة في سائر العلوم وترك ثروة كبيرة من المؤلفات ولم يتزوج. جمع في هذا المؤلف من مسموعاته كل

حديث منها من اربعين حديثا مفردة بالتصنيف عن اربعين صحابيا في اربعين بابا من العلم.

وكتاب اربعين ابن عساكر الحافظ ابو القاسم علي بن عساكر الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١، جمع اربعينات. ومنها الاربعون الطوال، والاربعون في الابـــــدال العوالي، والاربعون في الاجتهـاد في اقامـة الجهاد، والاربعون البلدانية.

والاربعون البلدانية: جمع فيها اربعين حديثا عن اربعين شيخا، في اربعين مدينة. عن أربعين صحابيا.

ومنها كتاب الاربعين البلدانية لشيخ الجماعة ابي طاهر احمد بن محمد السلفي الاصفهاني المتوفى سنة ٥٧٦ جمع فيه اربعين حديثا عن اربعين شيخا في اربعين مدينة، ابان فيه عن رحلة واسعة، وأظهر فيها رتبة عالية.

ومنها كتاب الاربعين في الحج لمحب الدين احمد بن عبد الله الطبري المتوفى سنة ٤٠٥. ومنها اربعينات لجلال الدين السيوطي جمع اربعينات: احدها في فضائل الجهاد، والثاني في رفع اليدين في الدعاء، والثالث من رواية مالك، والرابع الاربعين المتابينة.

ومنها كتاب الاربعين الطائية. لابي الفتوح محمد بن محمد

ابن علي الطائي الهمداني المتوفى سنة ٥٥٥. ذكر فيه انه املى اربعين حديثا من مسموعاته عن اربعين شيخا، كل حديث عن واحد من الصحابة، فذكر ترجمته وفضائله واورد عقيب كل حديث بعض ما اشتمل عليه من الفوائد وشرح غريبه وأتبعه بكلمات مستحسنة. وسماه الاربعين في ارشاد السائرين الى منازل اليقين.

ومنها كتاب اربعين العدلية: للشيخ شهاب الدين احمد ابن حجر الهيتمي المكي المتوفى سنة ٩٢٣ جمع اربعين حديثا بأسانيده فيما يتعلق بالعدل والعادل واهداها الى السلطان سليمان خان.

ومنها كتاب الاربعين عشاريات الاسناد: للقاضي جمال الدين ابراهيم القلقشندي المتوفى سنة ٩٦٠ اخرجها من عوالي مروياته.

ومنها كتاب الاربعين المختارة في فضائل الحج والزيارة: للحافظ جمال الدين ابي بكر محمد بن يوسف بن مسدى الغرناطي المتوفى سنة ٧٦٣.

وأشهر هذه الاربعينات كتاب اربعين النووي. وهو الامام محيى الدين يحيى بن شرف الدين النووي امام وقته. قال في مقدمته: من العلماء من جمع الاربعين في اصول

الدين، وبعضهم في الفروع وبعضهم في الجهاد وبعضهم في الزهد وبعضهم في الأدب وكلها مقاصد صالحة، وقد رأيت جمع اربعين اهم من هذا كله، وهي اربعون حديثا مشتملة على جميع ذلك، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين.

وقد لقي هذا الكتاب قبولا كبيرا من العلماء وقالوا عنه: ان عليه مدار الاسلام وهو نصف الاسلام او ثلثه ونحو ذلك، وقد التزم الامام النووي ان تكون الاحاديث صحيحة معظمها من صحيح البخاري ومسلم، وقد اعتنى العلماء بشرحها وحفظها وكثرت الشروح عليها، منها شرح الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، ونجم الدين سليمان بن عبد القوى الطوفي الحنبلي، وتاج الدين عمر بن علي الفاكهي، والشيخ الامام ابي العباس احمد بن فرح الاشبيلي، وابي حفص عمر البلبيسي، وبرهان الدين ابراهيم ابن احمد الخجندي، والشهاب الشيرازي، وشرح العلامة مصلح الدين محمد السعدي العبادي اللاري المتوفى سنة ٩٧٩ يقول صاحب كشف الظنون: وهو أفضل ما دونوا في بيانها، والحق انه بالنسبة اليه سائر الشروح كالابدان الخالية عن الروح، والشيخ سراج الدين عمر بن علي ابن الملقن وغيرهم

عدد كبير من أفاضل العلماء.

١٦ - غريب الحديث.

الغريب من الكلام يقال على وجهين احدهما ان يراد به بعيد المعنى غامضه بحيث لا يفهم الا بعد جهد كبير، والثاني ان يراد به كلام بعدت به الدار من شواذ قبائل العرب، وعلم غريب الحديث فن قائم بذاته الفت فيه مؤلفات عديدة.

واول من جمع في هذا الفن ابو عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ - ٢٠٩) فجمع من الفاظ غريب الحديث والاثر كتيبا صغيرا، ولم تكن قلته لجهله بغيره من غريب الحديث وانما كان ذلك لامرين: احدهما ان كل مبتدع لأمر لم يسبق اليه فانه يكون قليلا ثم يكبر. والثاني ان الناس يومئذ فيهم بقية وعندهم معرفة فلم يكن الجهل باللغة قد عم.

ثم جمع ابو الحسن النضر بن شميل المازني (١٣٢ - ٢٠٣) كتابا اكبر من كتاب ابي عبيدة بسط فيه القول على صغر حجمه.

ثم جمع عبد الملك بن قريب الأصمعي المشهور كتابا احسن فيه واجاد وكان كتابه اكبر حجما ممن سبقه ومولده ووفاته (١٢٢ - ٢١٦) وكذلك فعل محمد ابن المستنير

المعروف بقطرب (٢٠٩) وغيره من أئمة اللغة جمعوا احاديث وتكلموا على لغتها ومعناها في اوراق ذوات عدد ولم يكد احدهم ينفرد عن الآخر بكثير، واستمر الحال الى زمن ابي عبيد القاسم بن سلام(١٥٧ - ٢٢٤) وكان من كبار علماء الحديث والادب والفقه فجمع كتابه المشهور في غريب الحديث والآثار افنى فيه عمره اذ جمعه في أربعين سنة، وانه لكتاب حافل بالاحاديث والآثار الكثيرة المعاني اللطيفة والفوائد الجمة، ولقد ظن رحمه الله على كثرة تعبه انه قد اتى على معظم الغريب وما علم ان الشوط بعيد، والمنهل معين، ولقد بقي كتابه معتمد الناس الى عصر ابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣ - ٢٧٦) فصنف كتابه المشهور في غريب الحديث ولم يودعه شيئا من كتاب أبي عبيد الا ما دعت اليه الحاجة من زيادة شرح وبيان أو استدراك أو اعتراض، فجاء مثل كتاب ابي عبيد أو أكثر منه، وقال في مقدمته: ارجو ان لا يكون بقي بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال، وكان في زمان ابن قتيبة الامام ابراهيم بن اسحاق الحربي الحافظ فجمع كتابا كبيرا في خمس مجلدات بسط القول فيه واستقصى الأحاديث بطرق أسانيدها واطاله بذكر متونها،

فطال كتابه وترك وهجر وان كان كثير الفوائد، توفي ببغداد سنة ٢٨٥ .

ثم اكثر الناس من التصانيف في هذا الفن كالمبرد اللغوي المشهور، وثعلب ومحمد بن القاسم الانبارى وسلمة بن عاصم النحوي وعبد الملك بن حبيب المالكي ومحمد بن حبيب البغدادي وغيرهم ممن لا يحصون من ائمة اللغة والنحو والفقه والحديث، واستمرت الحال الى عهد الامام محمد ابن احمد الخطابي البستي المتوفي سنة ٣٧٨ فالف كتابه المشهور في غريب الحديث، وسلك فيه نهج ابي عبيد وابن قتيبة، وصرف عنايته فيه الى جمع ما لا يوجد في كتابيهما فاجتمع له من ذلك ما يداني كتاب ابي عبيد او كتاب ابن قتيبة، فكانت هذه الكتب الثلاثة في غريب الحديث والاثر امهات الكتب وهي الدائرة بين ايدي الناس وعليها يعول علماء الامصار، غير ان هذه الكتب الثلاثة وغيرها لم يكن فيها كتاب مرتب ترتيبا يستطيع الانسان ان يأخذ حاجته منه بسرعة، ويجد المراجع فيها كل تعب وعناء حتى يجد الحديث، وبقي الحال كذلك الى ان جاء ابو عبيد احمد بن محمد بن عبد الرحمن الباشاني الهروي المتوفى سنة ٤٠١ وهو من معاصري الخطابي فالف كتابه السائر جمع فيه بين غريب

القرآن والحديث ورتبه ترتيبا لم يسبق اليه، فاستخرج الكلمات اللغوية الغريبة من اماكنها واثبتها في حروفها مرتبا لها على حروف المعجم، وحذف الاسانيد وجمع فيه من غريب الحديث ما في كتب من تقدمه واربى عليه، فجاء كتابا حافلا جامعا في الحسن بين الاحاطة والوضع، الا انه جاء الحديث مفرقا في حروف كلماته.

ولقد ذاع صيت هذا الكتاب بين الناس واتخذوه عمدة في الغريب، واقتفى اثره كثيرون، واستدرك ما فاته آخرون.

وبقيت الأيام تنقضي، وتظهر تصانيف، وتبرز تآليف عديدة الى عهد الامام أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري جار الله المتوفى سنة ٥٣٨. فألف كتابه الفائق في غريب الحديث، وانه لكتاب قيم جامع رتبه على وضع اختاره مقفى على حروف المعجم، ولكن في العثور على معرفة الغريب منه مشقة وان كانت دون غيره ممن سبقه، ثم شرح ما فيه من غريب فيجيء شرح كلماته الغريبة في حرف واحد فترد الكلمة في غير حروفها، فكان لذلك كتاب الهروي اقرب منه متناولا وان كانت كلمات الحديث متفرقة في حروفها.

وقد الف ابو بكر محمد بن ابي بكر المديني الاصفهاني المتوفى سنة ٥٨١ كتابا جمع فيه على طريقة الهروي ما فاته من غريب القرآن والحديث، ورتبه كما رتبه الهروي ثم قال: واعلم انه سيبقى بعد كتابي أشياء لم تقع لي ولا وقفت عليها لان كلام العرب لم ينحصر.

والامام ابو الفرج الحافظ عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي صنف كتابا في غريب الحديث نهج فيه طريق الهروي مجردا عن غريب القرآن، ولكنه يغلب عليه الوعظ، قال فيه: قد فاتهم أشياء فرأيت ان أبذل الوسع في جمع الغريب وأرجو ان لا يشذ عني مهم من ذلك، وان يغنى كتابي عن جميع ما صنف في ذلك.

ثم جاء مجد الدين مبارك بن محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الاثير فالف كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر) وقال في مقدمته: ولقد تتبعت كتاب ابن الجوزي فرأيته مختصرا من كتاب الهروي منتزعا من ابوابه شيئا فشيئا ووضعا فوضعا، فلم يكن الا جزءا يسيرا من اجزاء كثيرة، واما ابو موسى الاصفهاني رحمه الله فانه لم يذكر في كتابه مما ذكره الهروي الا كلمة اضطر الى ذكرها اما لخلل فيها او زيادة في شرحها او وجه آخر في معناها، ومع ذلك

فان كتابه يضاهي كتاب الهروي كما سبق لان وضع كتابه استدراك لما فات الهروي.

ولما وقفت على كتابه الذي جعله مكملا لكتاب الهروي ومتمما وهو في غاية الحسن والكمال، وكان الانسان اذا اراد كلمة غريبة يحتاج الى ان يتطلبها في احد الكتابين فان وجدها فيه والا طلبها من الكتاب الآخر وهما كتابان كبيران ذوا مجلدات عدة ولا خفاء بما في ذلك من الكلفة، فرأيت ان اجمع ما فيهما من غريب الحديث مجردا من غريب القرآن، وأضيف كل كلمة الى اختها في بابها تسهيلا لكلفة الطلب الى ان قال: كم يكون قد فاتني من الكلمات الغريبة التي تشتمل عليها احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه وتابعيهم رضي الله عنهم، جعلها الله سبحانه ذخيرة لغيرى يظهرها على يده ليذكرها، ولقد صدق القائل: (كم ترك الاول للآخر) فحيث حقق الله النية في ذلك سلكت طريق الكتابين في الترتيب الذي اشتملا عليه، والوضع الذي حوياه من التقفية على حروف المعجم بالتزام الحرف الاول والثاني من كل كلمة واتباعها بالحرف الثالث والخ...... الى ان قال: ومع هذا فان المصيب في القول قليل، والفعل قليل بل عديم، ومن

الذي يأمن الغلط والسهو والزلل نسأل الله العصمة والتوفيق.

وبقي كتاب النهاية هو النهاية في هذا الفن وهو اكبر مرجع في غريب الحديث. وهناك موضوع مهم جدا وهو موضوع الاحاديث التي اشتهرت على السنة الناس، وتداولوها ومنها الصحيح وغيره.

وقد ألف في هذا الموضوع عدد كبير من المحدثين اشهرهم ثلاثة من كبار علمائنا: الاول هو الامام الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفى سنة٩٠٢، وكتابه مشهور مطبوع ونشره الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد واسمه (المقاصد الحسنة في بيان كثير من الاحاديث المشتهرة على الالسنة).

والثاني العلامة عبد الرحمن بن علي الشيباني المعروف بابن الديبع المتوفى سنة ٩٤٤ وكتابه: (تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على الألسنة من الاحاديث).

والثالث: العلامة اسماعيل بن محمد الجراحى العجلوني محدث الشام في زمانه المتوفى سنة ١١٦٢. وكتابه «كشف الخفا ومزيل الالباس فيما يدور من الاحاديث على ألسنة

الناس» مطبوع بمصر. وهو احسن الكتب الثلاثة واجمعها. ومعظم ما كتبته في غريب الحديث اخذته من مقدمة كتاب النهاية هذا رحم الله ابن الاثير.

١٧ - علم رجال الحديث والجرح والتعديل:

هذا الفن جليل القدر عظيم الاثر وقد دعت الحاجة اليه لمعرفة رواة الحديث وبيان مراتبهم والبحث عنهم، وتمييز الثقة من رجال سند الحديث من غيره. وقد الفت فيه كتب لا حصر لها، ولا يوجد أمة من الامم عندها هذا الحشد الهائل من المؤلفات في رجال الحديث، وفي ذلك اكبر برهان على ان السنة خدمها المسلمون خدمة جليلة لم تعهد لدى امة من الامم، ولا ملة من الملل، وكان ذلك ديدن المسلمين في كل عصر، حتى جاءتنا محفوظة نقية، مخدومة من جهابذة المحدثين رضي الله عنهم اجمعين.

١ - وقد ألف جماعة في الصحابة واول من عرف عنه التصنيف في الصحابة هو ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري صاحب الصحيح، فقد افرد اسماء الصحابة في مؤلف. وألف جماعة في الصحابة وغيرهم مثل خليفة بن خياط المحدث النسابة المتوفى سنة ٢٤٠، ومحمد بن سعد سنة (١٦٨ - ٢٣٠) الذي بلغ مؤلفه اثنا عشر جزءا ويعرف

بطبقات ابن سعد وقد طبع. ومن قرنائه يعقوب بن سفيان الفارسي، المتوفى سنة ٢٧٧ وله التاريخ الكبير والمشيخة فقد روى عن اكثر من الف شيخ. ومنهم ابو بكر احمد ابن زهير ابي خيثمة النسائي البغدادي ١٨٥ - ٢٧٩ الف التاريخ الكبير. قال الدار قطني: لا اعرف اغزر من فوائده.

وصنف في الصحابة خاصة جمع بعدهم كالحافظ البغوي عبد الله بن محمد بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣٣٠، وابي بكر الحافظ الكبير عبد الله بن ابي داود، وعلي بن السكن، وابي بكر عمر بن احمد المعروف بابن شاهين ابو حفص من المكثرين توفي سنة ٣٨٥ - ومنهم منصور الباوردي، وابو حاتم الرازي ابن حبان، وسليمان بن احمد الطبراني في معجمه الكبير وابن منده، والحافظ ابو نعيم.

ثم جاء بعد اولئك الافاضل ثلاثة من كبار المحدثين المؤلفين المجيدين: اولهم ابو يوسف عمر بن عبد البر حافظ المغرب فالف كتابه الاستيعاب، وقد سماه بذلك لظنه انه استوعب كتب من قبله في كتابه، وقد فاته شيء كثير، وذيل عليه أبو بكر فتحون بكتاب حافل، وذيل عليه جماعة في تصانيف لطيفة، وذيل عليه ابو موسى المديني على

ابن منده ذيلا كبيرا. وقد طبع كتاب الاستيعاب اكثر من مرة.

وما زال الناس يؤلفون الى اوائل القرن السابع الهجري، فجاء عز الدين ابن الاثير والف كتابا حافلا سماه اسد الغابة جمع فيه كثيرا من التصانيف المتقدمة الا انه خلط من ليس صحابيا بهم، واغفل كثيرا من الاوهام الواقعة في كتب السابقين.

وجاء بعد ذلك خاتمة الحفاظ العلامة الكبير الحافظ احمد بن حجر العسقلاني فألف كتابه العظيم: الاصابة في تمييز الصحابة. جمع فيه ما في الاستيعاب وما في اسد الغابة واستدرك عليهم كثيرا. وطبع اكثر من مرة.

وهذه الكتب الثلاثة كتب لها الخلود وهي المرجع الآن بين ايدي الناس

ب - الجرح والتعديل: هو علم يبحث فيه عن جرح الرواة وتعديلهم بالفاظ مخصوصة، وعن مراتب تلك الالفاظ.

والكلام في الرجال جرحا وتعديلا ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وجاز ذلك صونا للشريعة لا طعنا في الناس.

وقد تكلم في الرجال خلق لا يمكن حصرهم، وقد سرد ابن عدي المتوفى سنة ٣٦٥ في مقدمة كتابه الكامل جماعة ممن تكلموا في الرجال منهم: عبد الله بن عباس وعبادة ابن الصامت وانس بن مالك من الصحابة، ومن التابعين الشعبي، وابن سيرين وسعيد بن المسيب، وهم قليل بالنسبة لمن بعدهم وذلك لقلة الضعف في عصرهم. اذ اكثر من يروون عنهم صحابة والصحابة عدول، وغير الصحابة في ذلك العصر اكثرهم ثقات. وفي آخر عصر التابعين تكلم في التعديل والتجريح طائفة من الائمة وبدأ ذلك في حدود سنة ١٥٠ هـ منهم شعبة بن الحجاج، والامام مالك بن انس، ومعمر ابن راشد الازدي وهشام الدستوائي، وابن الماجشون، وحماد ابن سلمة، والاوزاعي، وسفيان الثوري، والليث ابن سعد.

وجاء بعد هؤلاء طبقة من الافاضل منهم عبد الله ابن المبارك، وهشيم بن بشير، وابو اسحاق الفزاري، والمعافى ابن عمران الموصلي، وسفيان بن عيينة، واسماعيل بن علية، وابن وهب، ووكيع الجراح، واشتهر في ذلك الزمان يحيى ابن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وابو داود الطيالسي، وعبد الرزاق بن همام، وابو عاصم النبيل.

ثم صنفت كتب الجرح والتعديل في ذلك الوقت وكان

من رؤساء الجرح والتعديل جماعة منهم: يحي بن معين، واحمد بن حنبل، ومحمد بن سعد. واسحاق بن راهويه.

ثم جاء بعدهم طبقة اخرى منهم اسحاق الكوسج، والدارمي، والامام البخاري، وابو زرعة، وابو حاتم الرازي،ومسلم، وابوداود ،وتلاهم جماعات وجماعات على مر العصور ممن لا يمكن حصرهم ويضيق المقام عن احصائهم. فأكتفى بهذه الاشارات الموجزة.

جـ - كتب الجرح والتعديل:

الكتب المؤلفة في الجرح والتعديل كثيرة جدا، فمنها الخاص بالثقات او الضعفاء او المدلسين، ومنها الجامع لكل أولئك، ومنها غير ذلك.

١ - الكتب الجامعة بين الثقات والضعفاء: منها كتاب طبقات ابن سعد الزهري المشهور، وهو مطبوع جمع فيه بين الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وكذلك طبقات خليفة بن خياط، ومسلم بن الحجاج وتاريخ بن ابي خيثمة ،وتواريخ الإمام البخاري وهي ثلاثة: كبير واوسط وصغير، ولعلي بن المديني المتوفي سنة ٢٣٤ تاريخ في عشرة اجزاء، ولابن حبان كتاب في اوهام اصحاب

التواريخ في عشرة اجزاء .

ولابي يعلى الخليلي المتوفى سنة ٤٤٦ الارشاد .

وللعماد ابن كثير التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل جمع فيه بين تهذيب المزي ، وميزان الذهبي مع زيادات وتحرير في العبادات وهو انفع شيء للمحدث والفقيه ، ومنها تاريخ الذهبي والتكملة في اسماء الثقات والضعفاء لاسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير الدمشقي صاحب التفسير. وطبقات المحدثين لعمر بن علي بن الملقن ، والكمال في معرفة الرجال له .

٢ - كتب الثقات - منها: كتاب الثقات للعجلي ، وكتاب الثقات لخليل ابن شاهين ،والثقات لابي حاتم ابن حبان البستي ، وكتاب الثقات الذين لم تذكر اسماؤهم في الكتب الستة لزين الدين قاسم بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ وهو كبير في اربع مجلدات ومن هذا النوع الكتب المبينة لطبقات الحفاظ وقد الف فيها جمع منهم الذهبي وابن الدباغ وابن المفضل ، وابن حجر العسقلاني والسيوطي ، وابن فهد وغيرهم.

٣ - كتب الضعفاء ، منها كتاب الضعفاء للبخاري ،

والضعفاء المتروكة للنسائي، وكتاب ابي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، وهو كبير وقد اختصره الذهبي ثم ذيله، وذيله ايضا علاء الدين مغلطاي. وكتاب الضعفاء لمحمد بن عمرو العقيلي وهو مفيد. وكتاب الضعفاء للامام حسن بن محمد الصنعاني، ولمحمد بن حبان البستي وكتابه كبير، وكتاب الكامل لابن عدي عبد الله بن عدي بن مبارك بن القطان وهو اكمل الكتب في ذلك واجلها وعليه اعتماد الائمة. وهو في ثمانية عشر جزءا مخطوط لم يطبع، ويقول في كشف الظنون: هو ستون جزءا. قال ابن السبكي طابق اسمه معناه، ووافق لفظه فحواه بصحته حكم المحكمون، وبما يقول رضي المتقدمون والمتأخرون، وله ذيل لابي العباس احمد بن محمد الأشبيلي المعروف بابن الرومية وكتاب الضعفاء للدار قطني، وللحاكم، ولعلاء الدين الماريني، وميزان الاعتدال للحافظ الذهبي وهو اجمع ما جمع طبع في الهند وفي مصر اكثر من مرة وقد ذيل عليه الحافظ زين الدين العراقي، واخذ منه الحافظ ابن حجر في كتابه المسمى لسان الميزان وهو مطبوع ايضا.

٤ - كتب المدلسين - اول من افرد التأليف عن المدلسين الامام حسين بن علي الكرابيسي، صاحب الشافعي، ثم صنف فيه النسائي ثم الدار قطني، ونظم الذهبي في ذلك ارجوزة وتبعه تلميذه احمد بن ابراهيم المقدسي فزاد عليه من جامع التحصيل العلائي شيئا كبيرا مما فاته، ثم ذيل الحافظ زين الدين العراقي.

وصنف ابراهيم بن محمد الحلبي بعدهم كتابه التبيين في اسماء المدلسين وللسيوطي رسالة في اسماء المدلسين.

٥ - وهناك كتب صنفت في رجال كتب مخصوصة، منها رجال البخاري لاحمد بن محمد الكلاباذي، ولمحمد ابن داود الكردي ايضا ورجال مسلم لاحمد بن علي المعروف بابن منجويه، ولاحمد بن علي الاصبهاني ايضا.

وممن افرد رجال السنن لابي داود حسين بن محمد الحباني، والسيوطي جمع رجال الموطأ، وابن حجر العسقلاني جمع رجال الموطأ ومسند احمد ومسند ابي حنيفة ومسند الشافعي. واحمد بن احمد الكردي جمع رجال سنن الترمذي والنسائي وابي داود وابن ماجه،

ومن جمع رجال الكتب الستة ابو محمد عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي في كتابه الكمال في معرفة الرجال، وهذبه عدد كبير من العلماء، واحسن هؤلاء جميعا تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر وقد طبع في حيدر اباد في الهند في اربعة عشر مجلدا وطبع في لبنان ايضا. وهو من انفع الكتب واجلها في موضوعه، وهناك كتاب جليل القدر في مجلد واحد اسمه الخلاصة للخزرجي. واسمها خلاصة تذهيب الكمال في اسماء الرجال لاحمد بن عبد الله الخزرجي طبع في مصر ١٣٢٢ هـ. جمع فيه جميع اسماء الرجال والنساء، ممن حدثوا او رووا الاحاديث.

وهناك كتب كثيرة جامعة لرجال المحدثين يتعرض مؤلفوها لذكر الوفيات وكتب في معرفة الأسماء والكنى والالقاب والمؤتلف والمختلف، والمتفق والمفترق والمشتبه من الاسماء والانساب.

ثم ألف كثيرون في ناسخ الحديث ومنسوخه، وفي تلفيق الحديث وذلك علم يبحث فيه عن التوفيق بين الاحاديث المتناقضة ظاهرا. وممن ألف فيه الامام الشافعي. وهناك موضوع يعالج علل الحديث، وهو موضوع دقيق جدا ومن

اشرف العلوم، وعلل الحديث عبارة عن اسباب خفية غامضة قادحة فيه، من وصل منقطع أو رفع موقوف، أو إدخال حديث في حديث أو نحو ذلك، وهذا كله يقدح في صحة الحديث.

وقد كتب في هذا الموضوع ابن المديني المتوفي سنة ٢٣٤ وابن ابي حاتم المتوفي سنة ٣٢٧ وكتابه قيم قد طبع في مجلدين، والإمام مسلم والدارقطني والحاكم وغيرهم. وأكتفى بهذا الموجز عن تدوين الحديث واطواره، وانه لموضوع كتب فيه آلاف المجلدات واعتنى به علماء المسلمين عناية فائقة رحمهم الله تعالى ونفعنا بهم، والله أسأل التوفيق، وهو الهادي الى سوء الطريق.



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

المراجع

١ - الموافقات للشاطبي - المطبعة الرحمانية مصر
٢ - الرسالة للامام الشافعي مصر
٣ - مقدمة فتح الباري لابن حجر العسقلاني مصر
٤ - تهذيب الاسماء واللغات للامام النووي مصر
٥ - ثلاثة شروح للموطأ: شرح السيوطي، وشرح الباجي، وشرح مولانا محمد زكريا الكاندهلاي.
٦ - تاج العروس من جواهر القاموس.
٧ - تدريب الراوي على تقريب النووي للسيوطي طبع مصر
٨ - الاستيعاب لابن عبد البر على هامش الاصابة طبع مصر
٩ - اسد الغابة لابن الاثير طبع مصر
١٠ - الاصابة لابن حجر العسقلاني طبع مصر
١١ - النهاية لابن الاثير المطبعة الخيرية مصر
١٢ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبع مصر
١٣ - اعلام الموقعين لابن القيم طبع مصر
١٤ - كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، طبع استانبول
١٥ - معجم الادباء لياقوت الحموي طبع مصر
١٦ - شرح العمدة لابن دقيق العيد طبع المطبعة السلفية مصر
١٧ - نيل الاوطار للامام الشوكاني دار الطباعة المنيرية مصر
١٨ - سبل السلام شرح بلوغ المرام للصنعاني دار الطباعة المنيرية مصر
١٩ - فجر الاسلام وضحى الاسلام لاحمد أمين دار الترجمة والنشر مصر
٢٠ - تاريخ التشريع للخضري طبع الحلبي مصر
٢١ - حجة الله البالغة للعلامة شاه ولي الله الدهلوي إدارة الطباعة المنيرية مصر

٢٢ - مفتاح كنوز السنة للشيخ محمد عبد العزيز الخولي طبع مصر.
٢٣ - التاج الجامع للاصول للشيخ منصور علي ناصف طبع مصر
٢٤ - معجم المطبوعات لسركيس طبع مصر ١٩٢٨
٢٥ - جامع بيان العلم وفضله لابي عمر ابن عبد البر حافظ المغرب طبع مصر
٢٦ - فقه الاسلام - الاستاذ حسن الخطيب - مطبعة سيد علي حافظ - مصر
٢٧ - نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي - الدكتور علي حسن عبد القادر - مطبعة العلام مصر
★ ومراجع اخرى في التاريخ واللغة والحديث.

المنهج العلمي

في

تدوين الحديث النبوي

لسماحة الشيخ احمد بن عبد العزيز آل مبارك

" دولة الإمارات "



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين. اما بعد:

إن الله تعالى قد جعل القرآن الكريم دستورا للمسلمين وشفاء لما في صدورهم وهدى للعالمين. وقد شرح الرسول صلى الله عليه وسلم - هذا الدستور وفصل فروعه تارة بالنص وتارة بالدلالة وتارة بالايماء والاشارة، والرسول صلى الله على وسلم أمين على شرع الله، لا يبلغ في أمر الدين إلا ما يوحى اليه، قال الله تعالى:(وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى[1]) ففهم الشريعة والإحاطة بأحكامها

(١) النجم آية: ٣

يحتاج الى الرجوع الى الحديث والسنة، ولذلك اعتنى المسلمون بالسنة النبوية ونقلها الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ورجعوا اليها في جميع أمور دينهم وعملوا بما فيها وتمسكوا بها، وحافظوا عليها.

ولكن قد أثار المستشرقون وتلاميذهم في العالم الاسلامي شبهات حول السنة، وأرادوا أن يشككوا الناس في هذا المصدر الثاني للشريعة بعد كتاب الله العزيز بما زعموا أن تدوين السنة قد بدأ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بتسعين سنة، ويقولون ان عدم تدوين السنة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أدى الى وجود الخلاف بين فرق المسلمين كما أدى الى الوضع والكذب في الحديث مما كان له أكبر الضرر في ضياع السنة الحقيقية، هذه خلاصة قولهم حول تدوين السنة، فنريد في هذا البحث الموجز الذي نقدمه الى المؤتمر الثالث للسيرة والسنة النبوية المنعقد بالدوحة في دولة قطر أن نبين أن القرآن والسنة متلازمان متعاضدان، لا يفهم القرآن في كثير من المواضع الا بالرجوع الى السنة، ولا يختلف أحد في أن السنة لم تدون رسميا كما دون القرآن الكريم، مع هذا لا يستطيع أحد أن ينكر أن السنة قد لقيت من السلف الى الخلف عناية تامة بعد كتاب الله

العزيز، واستخدمت لحفظها جميع الوسائل من الكتابة والحفظ بصورة لا نظير لها في تاريخ الأمم والحضارات حتى صار ليلها كنهارها.

واني أرجو من الله العلي الكريم أن أكون بعرض هذا الموضوع بشكل يحقق الغاية منه، فإني أوجزت البحث لاشتغالي بالأعمال الكثيرة التي أزاولها باعتباري رئيس القضاء الشرعي بدولة الامارات، وان كل ما قمت به في هذا البحث مجرد محاولة علمية لدراسة السنة وتاريخها وتدوينها في منهج علمي يسهل الرجوع اليه، والله الموفق.

الكتابة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم:

يدل التاريخ على أن العرب كانوا قبل الاسلام لا يعتمدون على الكتابة في حفظ أشعارهم وخطبهم وقصص أيامهم وأنسابهم بل كانوا يعتمدون على الذاكرة والحفظ، حتى شعرائهم كانوا يفخرون بحفظهم وقوة ذاكراتهم[١]، ولكن هذا لا يعني عدم وجود من يعرف الكتابة بينهم ذلك لأن مجتمع مكة التجاري يحتاج الى معرفة بالكتابة والحساب، ولكن الكتابة كانت قليلة في العرب[٢]، ولذلك وصف

(١) انظر كتاب الأغاني ج ١٦ ص /١١٦.

(٢ طبقات ابن سعد ص ٨٣ قسم ٣ ج ٣ و ص ٧٧ قسم ٢ ج ٣

القرآن الكريم العرب بأنهم أُمِّيُّون، فقال الله تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم)[1] وفي الحديث الشريف (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب)[2] ولا شك أن الكتابة قد انتشرت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أوسع مما كانت عليه في الجاهلية، لأن القرآن قد حثهم على التعلم واهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليم المسلمين الكتابة، ولا يفوتنا أن نذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم أذن لأسرى بدر أن يعلم كل كاتب عشرة من صبيان المدينة، ويعتبر هذا فدية عن نفسه[3].

ان الاسلام كان في حاجة الى القارئين والكاتبين والقرآن يحتاج الى الكتابة وأمور الدولة من مواعيد ومواثيق تحتاج الى الكتابة حتى صار عدد الكتاب لا بأس به في عهد النبوة، وقد ذكر بعض المؤرخين عدد كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثين[4] وذكر بعضهم عدد كتاب الوحي زهاء أربعين كاتبا[5] ناهيك عن كتاب

(١) الجمعة آية: ٢.

(٢) أخرجه مسلم ص ٧٦١ كتاب الصيام - باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال.

(٣) طبقات ابن سعد ٢٢٢ وامتاع الأسماع ص ١٠١.

(٤) التنبيه والاشراف للمسعودي ص ٢٤٦.

(٥) عيون الاثر لابن سيد الناس ١/٣١٥ - ٣١٦.

الصدقات والرسائل والعهود.

كتابة الحديث في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم:

ومع وجود عدد من الكتاب في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم نحن نرى أن الحديث لم يدون كما دون القرآن الكريم في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وما عين كتبة يكتبونه كما اهتم بتعيين الكتاب للقرآن، وهم يكتبون آياته عند نزولها وما ذلك الا لأن القرآن وحي كله بألفاظه ومعانيه نزل به الروح الأمين على قلبه، وأما السنة فألفاظها من عند الرسول صلى الله عليه وسلم وان كانت السنة كلها من الله تعالى كما نص عليه القرآن، وهذا هو السر - لاهتمامه الكبير بكتابة القرآن دون السنة لأن ألفاظ القرآن ومعانيه من الله كلها فلا يجوز ابدال لفظ مكان لفظ آخر وان كان مرادفا له، وأما الحديث فان معظم المقصود منه معرفة الحكم منه لا غير.

فلو دونت السنة كما دون القرآن الكريم وهي واسعة كثيرة النواحي شاملة لأعمال الرسول صلى الله عليه وسلم التشريعية وأقواله منذ بدء رسالته الى أن لحق بربه يلزم اكبابهم على حفظ السنة مع حفظ القرآن وفيه من الحرج ما فيه، عدا خوف اختلاط بعض أقوال النبي الموجزة الحكيمة

بالقرآن سهوا من غير عمد ولو تم ذلك لكان فيه خطر على كتاب الله، يفتح باب الشك فيه لأعداء الاسلام مما يفتح لهم ثغرة ينفذون منها الى المسلمين لحملهم على التحلل من أحكامه والتفلت من سلطانه، كل ذلك وغيره مما توسع العلماء في بيانه - من أسرار عدم تدوين السنة في عهد الرسول كما دون القرآن الكريم.

مع هذا نحن نرى من خلال الآثار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تدوين الحديث مر بمراحل منتظمة حققت حفظه وصانته من العبث وقد تضامنت الذاكرة والأقلام وكانا جنبا بجنب في خدمة الحديث الشريف.

وقد وردت أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم تنهى عن كتابة الحديث كما وردت أحاديث تسمح بالكتابة.

أحاديث النهي عن الكتابة:

(١) لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج. أخرجه مسلم [١] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) قال أبو سعيد الخدري: جهدنا بالنبي صلى الله عليه

(١) صحيح مسلم ج ١٨ ص ١٢٩ وجامع بيان العلم ج ١ ص ٦٣ وتقييد العلم ص ٣٣/٣٢

وسلم أن يأذن لنا في الكتاب فأبى[١].

(٣) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نكتب الأحاديث فقال: ما هذا الذي تكتبونه؟ قلنا: أحاديث نسمعها منك، قال: كتاب غير كتاب الله؟ أتدرون ما ضل الأمم قبلكم الا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى[٢]

وأصح ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الباب حديث أبي سعيد الذي أخرجه مسلم في صحيحه.

أحاديث السماح بالكتابة وهي كثيرة منها:

(١) قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ بأصبعه الى فيه وقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه الا حق[٣].

---

(١) تقييد العلم ص ٣٢، ٣٣

(٢) تقييد العلم ص ٣٤.

(٣) أخرجه الدارمي ج ١ ص ١٣٥.

(٢) قال أبو هريرة رضي الله عنه: ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثا عنه مني الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا أكتب[١].

(٣) حديث أبي هريرة: ان رجلا أنصاريا شكا الى النبي صلى الله عليه وسلم قلة حفظه فقال: استعن على حفظك بيمينك[٢].

(٤) طلب رجل من أهل اليمن يوم فتح مكة من الصحابة أن يكتبوا له خطبة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح ،فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فقال: اكتبوا لابي شاه[٣]

(٥) روي عن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قيدوا العلم بالكتاب[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ج ١ ص ٣٨.

(٢) تقييد العلم ص ٦٥، ٦٦. أخرجه الترمذي.

(٣) اخرجه أحمد في مسنده ص ٢٣٢ ج ١٢ وتقييد العلم ص ٨٦.

(٤) تقييد العلم ص ٦٩ وجامع بيان العلم، وقد ذكر العلامة رشيد رضا في مجلة المنار(ج ١٠ص٧٦٣) وضعف الحديث لعبد الله بن المؤمل ولكن روى الحديث بطريق اسماعيل بن محمد انظر هامش تقييد العلم ص ٦٨.

(٦) روى عن رافع بن خديج رضي الله عنه أنه قال: قلنا يا رسول الله انا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: (اكتبوا ولا حرج[١]).

(٧) كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم[٢].

(٨) قال النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي توفي فيه: إيتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده[٣].

قد اختلف العلماء في التوفيق بين أحاديث النهي عن الكتابة وبين هذه الأحاديث التي تدل على الاذن بها، والأرجح عندي أن التعارض ليس تعارضا حقيقيا بين هذه الروايات اذا فهمنا النهي على انه نهي عن التدوين الرسمي كما كان يدون القرآن، وأما الاذن فهو سماح بتدوين نصوص من السنة لظروف وملابسات خاصة أو سماح لبعض الصحابة الذين كانوا يكتبون السنة لأنفسهم، ويؤيد هذا الرأي ما رواه الخطيب عن الضحاك من قوله: لا تتخذوا للحديث

---

(١) تقييد العلم ص ٧٢، ٧٣.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/٧١.

(٣) أخرجه البخاري ج ١ ص ٢١٨ ومسلم ص ٢٥٧ و ١٢٥٩ ج ٣.

كراريس ككراريس المصاحف[1]

وذهب بعض العلماء - ورأيهم ينسجم مع ما ذكر آنفا - الى أن أحاديث السماح بالكتابة نسخت أحاديث النهي عنها[2].

لقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كتابة الحديث خشية اختلاطه بالقرآن الكريم الذي لم يكن قد جمع بعد، وكذلك خشية انشغال المسلمين بالحديث عن القرآن وهم حديثو عهد به، فلما اطمئن الى عدم خلطه بالقرآن أذن اذنا عاما لكتابة الحديث.

كتابة الحديث في عصر الصحابة رضي الله عنهم:

ان كتابة الحديث والسنن والاخبار قد بدىء بها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا قبل ذلك، وقد ازدادت في عصر الصحابة.

وقد وعى الصحابة - رضي الله عنهم - كل ما سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم أو شاهدوه وكانوا حريصين على حفظه ونشره وتبليغه حرصا لم يعرف عن أمة نبي وأصحاب ديانة. انهم كانوا يكتبون الحديث في عهد النبي

(١) جامع بيان العلم ج ١ ص ٧٢.

(٢) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٥.

صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته، ومنهم من كانت له مجموعة خاصة اشتهرت به، فقد كان لعبد الله بن عمرو بن العاص مجموعة تسمى (الصادقة) وأثر عنه أنه كان يقول: ما يرغبني في الحياة الا خصلتان، «الصادقة» و «الوهط» فأما الصادقة فصحيفة كتبها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[١].

وكان لأنس صحيفة كان يبرزها اذا اجتمع الناس[٢] ونقل الجمع والكتابة عن عبد الله بن عباس[٣] وعبد الله ابن مسعود[٤] وعن جابر بن عبدالله[٥]، وتدل صحيفة[٦] همام ابن منبة (م ١٠٣ هـ) صاحب أبي هريرة رضي الله عنه التي يرجع تأليفها الى أواسط القرن الأول (لان أبا هريرة توفي نحو سنة ٥٨ للهجرة وهي من املائه) على تقدم الجمع والكتابة. وكذلك كانت لسعد بن عبادة الانصاري

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٧٢ الوهط: بستان لعبد الله بن عمرو ابن العاص بالطائف.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري / كتاب العلم

(٣) تقييد العلم ص ٥

(٤) الترمذي كتاب العلل.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٧٢.

(٦) طبعت مع المقدسات والتعليقات في حيدر أباد - الهند عام ١٣٧٤ هـ بعناية الدكتور حميد الله.

صحيفة[١] ولعبد الله بن أبي أوْفى صحيفة[٢].. ولسمرة بن جندب نسخة جمع فيها أحاديث كثيرة[٣].

ان هذه الصحف والمجاميع قد اندمجت وذابت في المؤلفات المتأخرة، ولكن اذا جمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليه من الأحاديث لكونت العدد الأكبر من الأحاديث التي جمعت في الجوامع والمسانيد في القرن الثالث، وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله - من غير نظام وترتيب - في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم.

ربما يتعجب الانسان من هذا الرأي اذ يقرأ في الكتب ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال ان أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبع مائة ألف حديث، وكذلك يقال عن أبي زرعة، ويروى عن الامام البخاري أنه كان يحفظ مائتي ألف من الأحاديث الضعيفة، ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة، ويروى عن الامام مسلم أنه قال: جمعت كتابي هذا من ثلاث مائة ألف حديث.

---

(٧) الترمذي باب اليمين مع الشاهد.
(٢) البخاري - كتاب الجهاد - أبواب الصبر عند القتال
(٣) تهذيب التهذيب ٤/ ٢٣٦.

والحقيقة أن كثيرا من المتعلمين - فضلا عن عامة الناس لا يعرفون أن هذا العــدد الضخم هو كثرة المتابعات و لشواهد التي عني بها المحدّثون، فحديث (انما الأعمال بالنيات) مثلا يروى من سبع مائة طريق، فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقي عدد قليل من الأحاديث، فالجامع الصحيح للامام البخاري لا يزيد الأحاديث التي رويت بالسنة الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحديثين، وأحاديث مسلم يبلغ عددها أربعة ألاف حديث،وهذاولا يبلغ عدد الأحاديث المروية في كتب السنة خمسين ألف حديث منها الصحيح ومنها السقيم، ومنها المتفق عليه ومنها المتكلم فيه، وقد صرح الحاكم أبو عبد الله النيسابوري الذي يعد من المتساهلين في أخذ الحديث - ان الأحاديث التي في الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة ألاف[1].

فبعد هذا يمكن أن يقال: ان ما ثبت من الأحاديث الصحاح واحتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودُوِّن في عصر النبوة وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم، قبل أن يدون الموطأ والصحاح الستة بكثير.

---

(١) انظر توجيه النظر ج / ص ٩٣.

كتابة الحديث في عصر التابعين:

ومن أعظم الخطأ في تاريخ تدوين الحديث دعوى بعض الناس أنه بدأ بعد المائة وذلك تبعا لخطئهم في تحديد زمن التابعين، فانه لما بلغهم أن التدوين بدأ في عهد التابعين وهم يعلمون أن بعض الصحابة امتد العمر بهم الى أواخر المائة الأولى للهجرة، ظنوا أن عهد التابعين يبدأ بعد انقضاء زمن الصحابة، فذهبوا الى ان تدوين السنة بدأ بعد المائة وهذا كله خطأ، والحق أن لقب التابعين أطلق على الذين لم يدركوا النبي صلى الله عليه وسلم أو ولدوا في أواخر عهده فلم يروه، وانما رأوا أصحابه، أو ولدوا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم (ربيع الأول سنة ١١ هـ) كلهم داخلون في طبقة التابعين[١]، فأعمال التابعين ومنها البدء بتدوين الحديث - ينبغي أن ينسب الى زمنهم الذي يبدأ من بعد سنة ١١هـ التي انتقل فيها النبي صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى.

ان التابعين رضي الله عنه جمعوا جميع المرويات في عهد الصحابة، وكتبوا في حياتهم ما وصل الى علمهم من الأخبار والشئون، وبذلوا فيه جهودهم وسافروا له وطرقوا أبواب العلماء والمحدثين، حتى لقد كانوا يطوون لاجل الحديث

(١) الرسالة المحمدية ص/٥٥

الواحد مسافة طويلة وشقة بعيدة.

هذا سعيد بن جبير (٩٥هـ) كان يقول: كنت أسير بين ابن عمر وابن عباس، فكنت أسمع الحديث منهما، فأكتبه على واسطة الرحل حتى أنزل فأكتبه[١]، ورخص سعيد بن المسيب (- ٩٤ هـ) لعبد الرحمن بن حرملة بالكتابة حينما شكا اليه سوء حفظه[٢]، ونرى عامراً الشعبي يردد قوله: الكتاب قيد العلم[٣] وكان يحض على الكتابة ويقول: اذا سمعتم مني شيئا فاكتبوه ولو في حائط[٤].

وقد انتشرت الكتب حتى قال الحسن البصري (١٠٠ هـ) - (ان لنا كتبا كنا نتعاهدها)[٥]، كان مجاهد بن جبر (١٠٣ هـ) يسمح لبعض أصحابه أن يصعدوا الى غرفته فيخرج اليهم كتبه فينسخون منه[٦].

كان نافع مولى ابن عمر (١١٧ هـ) يملي العلم على طلابه وطلابه يكتبون العلم بين يديه[٧]، ويصور لنا قتادة بن دعامة

---

(١) تقييد العلم ص/ ١٠٢ ونحوه في جامع بيان العلم ج ١ / ص ٧٢.

(٢) تقييد العلم ص/٩٩ وجامع بيان العلم ج ١ /ص/٧٣.

(٣) جامع بيان العلم ج ١ ص/٧٥.

(٤) تقييد العلم ص/١٠٠.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص/٧٤.

(٦) انظر سنن الدارمي ج١ ص/١٢٨ وتقييد العلم ص/١٠٥.

(٧) انظر سنن الدارمي ص/ ١٢٩، ص ١٢٦ ج١.

السدوسي (١١٨ هـ) باجابته لمن يسأله عن كتابة الحديث موقف هذا الجليل من التابعين من الكتابة، بعد أن فشت فيهم وانتشرت وأصبحت من ضروريات كل طالب علم، فيقول: ومـا يمنعك أن تكتب وأخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب (قال علمها عند ربي في كتاب، لا يضل ربي ولا ينسى)[1].

وقد حملت كراهية بعض التابعين للكتابة على أنهم كرهوا تدوين آرائهم وفتاويهم مع الحديث، وكذلك خوفهم من الاعتماد على الكراريس واهمال الحفظ.

أمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بجمع السنن:

وبالجملة مضى القرن الأول ولم يدون الحديث كما دون القرآن ومَنْ دَوَّنَ فانما كان دون لنفسه، وليس من المعقول أن يترك الحديث فوضى لا يدون في كتاب وان الاسلام قد عم البلاد ودخل فيه طوائف من الأمم ومات معظم الصحابة وتفرق أصحابهم وتلاميذهم في البلدان، وقد ذهب عذر اختلاط القرآن بالحديث، وكانت أشد حاجة أن تجمع السنن وتكتب في كتاب تحت اشراف الحكومة الاسلامية خوفا

---

(١) تقييد العلم ص/ ١٠٣ والآية/٥٢ من سورة طه وانظر طبقات ابن سعد ص/ ٢ قسم ٢ / ج٧

عليها من الضياع وصيانة لها من التزيد والنقصان. فكان أول من فكر في الجمع والتدوين هو الامام العادل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فكتب الى الآفاق: (انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه[1]).

وكان فيما كتب الى أهل المدينة: (انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبوه فاني خفت دروس العلم وذهاب أهله[2]).

وقد كتب الى أحد كبار علماء الحديث وأوعية العلم في عصره أبي بكر بن محمد بن حزم المتوفى (١١٧هـ) (انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء)[3].

وأشار عليه بالعناية الخاصة بمجاميع عمرة بنت عبد الرحمن المتوفاة سنة ٩٨ هـ، والقاسم بن محمد ابن أبي بكر المتوفى ١٠٧ هـ، فكتبه له [4].

---

(١) فتح الباري ج١ ص/٢٠٤.

(٢) سنن الدارمي ج ١/ص/١٢٦.

(٣) انظر سنن الدارمي ج ١ ص/١٢٦ وتقييد العلم ص/١٠٥.

(٤) تقدمة الجرح والتعديل ص /٢١، قاسم بن محمد تلقى علمه عن عمته عائشة، رضي الله عنها وكان عالم أهل زمانه وأحد الفقهاء السبعة.

وفي رواية: (فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا يقبل الا حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا[1]. كما أمر ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ وغيره بجمع السنن[2].

كان محمد بن شهاب الزهري أحد أعلام عصره كان قد كتب السنن وما جاء عن الصحابة أثناء طلبه للعلم، فقد روي عن أبي الزناد انه قال: كنا نكتب الحلال والحرام وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع فلما احتيج اليه علمت أنه أعلم الناس[3].

قد توفي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز قبل أن يرى الكتب التي جمعها أبو بكر بن حزم كما يذكر ذلك بعض العلماء[4]، ولكن لم تفته أولى ثمار جهوده التي حققها ابن شهاب الزهري الذي يقول: (أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترا دفترا، فبعث الى كل أرض له عليها

---

(١) فتح الباري ج ١، ص ٢٠٤.

(٢) انظر جامع بيان العلم وفضله.

(٣) جامع بيان العلم ج ١ ص /٧٣.

(٤) انظر قواعد التحديث

سلطان دفترا[1]، ولذلك قال كثير من المؤرخين والعلماء: ان أول من دون الحديث ابن شهاب[2].

وقد اعتبر علماء الحديث تدوين عمر بن عبد العزيز هذا أول تدوين للحديث وذكروا في مؤلفاتهم هذه العبارة: (وأما ابتداء تدوين الحديث فانه وقع على رأس المائة في خلافة عمر بن عبد العزيز)[3] أو نحوها.

فغرض هؤلاء العلماء بيان أن التدوين الرسمي كان في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه،أما تقييد الحديث وحفظه في الصحف والرقاع والعظام فقد مارسه الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينقطع تقييد الحديث بعد وفاته عليه الصلاة والسلام بل بقي جنبا الى جنب مع الحفظ حتى قيض للحديث من جمعه في المدونات الكبرى.

ولم ينتصف القرن الثاني حتى نشطت حركة تدوين الحديث وكان من سبق اليها من رجال هذا القرن ابن جريج المكي (م ١٥٠) هـ وابن اسحاق (م ١٥١) ومعمر ابن

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص/٧٦.

(٢) حلية الأولياء ج ٣ ص/٣٦٣

(٣) قواعد التحديث ص /٤٦ وتدريب الراوي ص/٤٠.

المثنى (م ١٥٣ هـ) وسعيد بن أبي عروبة المدني (م ١٥٦) وربيع بن صبيح (م ١٦٠) وسفيان الثوري (م١٦١) ومالك ابن أنس (م ١٧٩ هـ) والليث بن سعد (١٧٥) وابن المبارك (م ١٨١هـ) ثم تتابع الناس[١].

ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النَّسْج على منوالهم، وقد كان هذا التصنيف بالنسبة الى جمع الأبواب وضمها الى بعضها في مؤلف أو جامع، وأما جمع الحديث الى مثله في باب واحد فقد سبق اليه التابعي الجليل عامر الشعبي المتوفى ١٠٣ هـ[٢].

وكان معظم هذه المصنفات والمجاميع يضم الحديث الشريف وفتاوى الصحابة والتابعين كما يتجلى لنا هذا في موطأ الامام مالك بن أنس[٣].

ثم رأى بعضهم أن تفرد أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في مؤلفات خاصة، فألفت المسانيد وهي كتب تضم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بأسانيدها خالية من فتاوى الصحابة والتابعين تجمع فيها أحاديث كل صحابي-

---

(١) تذكرة الحفاظ ج ١ ص/٢٢٩.

(٢) تدريب الراوي ص /٤٠.

(٣) في موطأ مالك ثلاثة آلاف مسألة وسبعمائة حديث، انظر الرسالة المستطرفة ص /١١

ولو كانت في مواضيع مختلفة- تحت اسم مسند فلان، ومسند فلان وهكذا، وأول من ألف المسانيد أبو داود سليمان ابن الجارود الطيالسي المتوفى ٢٠٤ هـ- وتبعه آخرون، وصنف أسد بن موسى الأموي المتوفى ٢٠٢ هـ وعبيد الله بن موسى العبسي المتوفي ٢١٣ هـ ومسدد البصري المتوفى ٢٢٨ ونعيم ابن حماد الخزاعي المصري المتوفي ٢٢٨ هـ، واقتفى الأئمة آثارهم كأحمد بن حنبل المتوفى ٢٤١ هـ واسحق بن راهويه المتوفي ٣٣٨ هـ وعثمان بن أبي شبية المتوفى ٢٣٩ هـ وغيرهم[١].

ويعتبر مسند الامام أحمد - وهو من أتباع التابعين - أوْفى المسانيد وأوسعها، ان هذه المسانيد لم تقتصر على جمع الحديث الصحيح بل احتوت على الاحاديث الضعيفة أيضا مما يجعل من الصعوبة الافادة منها الا من قبل العلماء المتعمقين في الحديث وعلومه، وكذلك فان طريقة الترتيب تجعل من الصعوبة الوقف على أحاديث لحكم معين لانها لم ترتب على أبواب الفقه مما حدا بالامام محمد بن اسماعيل البخاري المتوفى ٢٥٦ هـ الى تصنيف كتابه (الصحيح) الذي يقتصر على الأحاديث الصحيحة، دون أن يستوعبها

(١) انظر تدريب الراوي ص/٤٠ والرسالة المستطرفة ص/٣٦ - ٤٧.

جميعا،وجرى على منواله الامام مسلم بن الحجاج النيسابوري المتوفى ٢٦١ هـ في صحيحه، وقد تابعهما في الترتيب على أبواب الفقـه الامام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى ٢٧٥ هـ في السنن، والامام ابن ماجه (محمد بن يزيد) المتوفى ٢٧٣ هـ في سننه، والامام محمـد بن عيسى الترمذي المتوفى ٢٧٩ هـ في جامعه والامام أبو عبد الرحمن أحمد بن علي النسائي المتوفى ٣٠٣ هـ في سننه.

وقد خدمت هذه الكتب بالشرح والتهذيب والاختصار والاستخراج عليها من العلماء الذين جاءوا بعدهم.

هذا ما أردنا ايراده في هذا البحث الموجز والله ولي التوفيق،

أحمد عبد العزيز آل مبارك

رئيس القضاء الشرعي

بدولة

الامارات العربية المتحدة

مراجع البحث

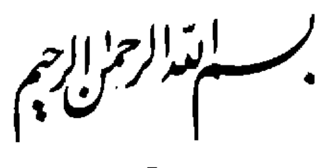
(١) الأغاني لابي الفرج الاصبهاني- مصر/ ١٣٢٢.
(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة- مصر /١٣٢٦.
(٣) توجيه النظر- طاهر الجزائري- مصر /١٣٢٠.
(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني- حيدر أباد- الهند /١٣٢٤.
(٥) تقدمة الجرح والتعديل لعبد الرحمن الرازي- الهند/١٩٥٢.
(٦) تذكرة الحفاظ- للامام الذهبي- الهند/١٣٣٣ هـ
(٧) تدريب الراوي للسبوطي /١٣٧٩ هـ.
(٨) التنبيه والاشراف لابي الحسن المسعودي/١٣٥٧ هـ
(٩) تقييد العلم للبغدادي- بيروت/ ١٣٩٥ هـ.
(١٠) الجامع الصحيح للامام البخاري القاهرة.
(١١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر المالكي /القاهرة.
(١٢) الجامع الصحيح للامام مسلم / القاهرة (١٣٧٥ و ١٣٤٩).
(١٣) جامع الترمذي /القاهرة.
(١٤) حليـة الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم

/مصر ١٣٥١ .
(١٥) الرسالة المحمدية - القاهرة ١٣٨٥ هـ
(١٦) الرسالة المستطرفة، لمحمد بن جعفر الكتاني بيروت / ١٣٣٣ هـ.
(١٧) سنن الدارمي / دمشق ١٣٤٩ .
(١٨) صحيفة همام بن منبه /دمشق ١٣٧٢ .
(١٩) طبقات ابن سعد - ليدن / ١٣٢٢ .
(٢٠) عيون الاثر لابن سيد الناس/ القاهرة / ١٣٤٣ هـ .
(٢١) فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني / القاهرة/ ١٣٧٨ هـ.
(٢٢) كتاب العلل للامام الترمذي / القاهرة.
(٢٣) مسند الامام أحمد بن حنبل / القاهرة.

المنهج العلميّ
في
تدوين السّنة النبويّة المطهّرة

للدكتور حسن عيسى عبد الظاهر
« مصر »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



« مقدمة البحث »

الحمد لله يقول الحق وهو يهدي السبيل ،والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واتبع هداه باحسان الى يوم الدين.

وبعد.

فهذا بحث مقدم للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، المنعقد بدولة قطر في مطلع العام الهجري ١٤٠٠ هـ في الفترة من ٥ محرم ١٤٠٠ هـ الى ١١ محرم سنة ١٤٠٠ هـ.

وعنوان البحث: «المنهج العلمي في تدوين السنة النبوية المطهرة» ويتضمن البحث النقاط التالية:

١) بيان مكانة السنة ومنزلتها من القرآن الكريم
٢) ما هي السنة؟
٣) بدء تدوين السنة.
٤) من مناهجهم في النقل والتوثيق.

٥) تقسيم السنة من حيث حقيقتها.
٦) سنته صلى الله عليه وسلم في الترك.
٧) ما ليس تشريعا من السنة.
٨) بين محكم الحديث ومختلفه.
٩) حجية السنة.

وأسأل الله سبحانه أن يكتب له القبول عنده وأن يوفقنا لخدمة سنة رسولنا صلى الله عليه وسلم والاقتداء به آمين.

مكانة السنة ومنزلتها من القرآن الكريم:

اتفق العلماء على حجية السنة، ووجوب اتباعها والعمل بها سواء منها ما كان على سبيل البيان أو على سبيل الاستقلال،، فهي الأصل الثاني بعد القرآن الكريم.

يقول الامام الشوكاني [١]: ان ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يخالف في ذلك الا من لا حظ له في الاسلام. يقول الله تعالى: (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم)[٢] ويقول: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه

(١) ارشاد الفحول ص ٢٢
(٢) سورة آل عمران ٣١

فانتهوا)[1].

ويقول صلى الله عليه وسلم: (ألا انني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يقول: عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد الا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فان لم يقروه فعليه أن يعقبهم - أن يأخذ من أموالهم بقدر قراه)[2]

ويقول الامام الشافعي: لم أعلم من أهل العلم مخالفا في أن سنن النبي صلى الله عليه وسلم من ثلاثة وجوه:

★ أحدها: ما أنزل الله عز وجل فيه نص كتاب، فسن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلما نص الكتاب.

★ وثانيها: ما أنزل الله عز وجل فيه جملة فبين عن الله معنى ما أراد.

★ وثالثها: ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس فيه نص كتاب.

وبناء على ذلك فالسنة اما:

---

(١) سورة الحشر ٧

(٢) رواه أبو داود

١ - مقررة ومؤكدة حكما جاء في القرآن الكريم، وبذلك يكون هذا الحكم له مصدران: القرآن والسنة، مثل: الأمر باقامة الصلاة، وايتاء الزكاة، وحج البيت، والنهي عن الشرك وغير ذلك من المأمورات والمنهيات، كقوله صلى الله عليه وسلم (صوموا لرؤيته) فهو مؤكد ومقرر لمعنى قوله تعالى: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه).

٢ - مفصلة ومفسرة لما جاء في القرآن الكريم مجملا، أو مقيدة لما جاء فيه مطلقا، أو مخصصة لما جاء فيه عاما، فيكون هذا التفسير، أو التقييد، أو التخصيص تبيينا للمراد، لأن الله سبحانه منح نبيه صلى الله عليه وسلم حق البيان لما أنزل عليه من القرآن فقال تعالى: (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم).

مثال ذلك: اقام الصلاة، وايتاء الزكاة، وحج البيت، فالقرآن الكريم أمر باقامة الصلاة ولم يفصل عدد ركعاتها، ولا مقادير الزكاة، وجاءت السنن القولية، والعملية فبينت هذا الإجمال، فقال صلى الله عليه وسلم: (صلوا كما رأيتموني أصلى).

وقال في الزكاة: (هاتوا ربع عشر أموالكم).

ومثل (القرؤ) في قوله تعالى: (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) فالقروء جمع قرء، والقرء يحتمل أن يكون هو (الطهر) أو (الحيض) فبينت السنة أن المراد به هو (الحيض).

٣ - مثبتة ومنشئة حكما سكت عنه القرآن الكريم:

وهي قسمان:

★ احدهما: أن تكون الأحكام التي جاءت بها السنة زائدة، ولكن لها أصل في القرآن الكريم، وهي متممة له، وفي هذا يتضح تبعية السنة للقرآن الكريم من ذلك: تحريم الجمع بين محرمين في النكاح كالجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، فان هذا الحكم ثابت بالسنة، لما رواه مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها).

فهذا حكم متمم للتحريم في النص القرآني، ولا معارضة بينه وبين نص القرآن الكريم (وأحل لكم ما وراء ذلكم)، لأن الاحلال هو ما يكون لذاته،

فالمرأة كخالة للزوجة أو عمة لها هي في (ذاتها) حلال،

ولكن (الجمع) بينهما هو الحرام، فالتحريم هنا من حيث المعنى الاضافي، وهو (الجمع).

ومن ذلك تحريم سباع البهائم (أكل ذي ناب من السباع حرام)، فان التحريم ثبت زائدا على النص القرآني الكريم (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أُهِلَّ لغير الله به)[1] ولا تعارض بين نص القرآن والسنة، لأن النص القرآني وارد فيما كان أكله متعارفا بين العرب، ثم تمم النبي صلى الله عليه وسلم بوحي من الله تعالى بذلك الحديث تحريم ما جاء فيه مما لا يدخل في عموم ما اشتملت عليه الآية الكريمة.

★ ثانيهما: أن تأتي السنة بأحكام لا تعد متممة بل جديدة، وهذا القسم نادر في الاستقراء، ومن الممكن أن يرد الى نص قرآني، من ذلك بعض أحكام البيوع، مثل: (السلم، وبيع الكالىء بالكالىء - أي الدين بالدين - وزيارة القبور - النهي عنها ثم اباحتها)

فاحكام البيوع المذكورة ترجع الى النهي عن أكل أموال النـاس بالباطـل الا أن تكون تجارة عن تراضٍ بين

(١) سورة الأنعام ١٤٥

المتعاقدين، واباحة زيارة القبور ترجع الى (أصل الاعتبار) الذي دعا اليه القرآن الكريم في كثير من آياته، والى الأمر بالمشي في مساكن من قبلنا وآثارهم، وبالأولى نعتبر بقبورهم، ولذلك أنكر بعض العلماء أن تأتي السنة بحكم جديد ليس له أصل في القرآن الكريم، وليس معنى ذلك ألا تقبل السنة الا اذا وجد نص من القرآن يوافقها، بل معناه: أن تقبل السنة الصحيحة مطلقا.

ولكن الاستقراء انتهى الى أن كل سنة لا بد أن يكون لها أصل في القرآن الكريم تتممه أو تبينه.

يقول ابن حزم: كل أبواب الفقه ليس فيها باب الا وله أصل في الكتاب، والسنة تعلنه).

ويقول الشاطبي: القرآن على اختصاره جامع، ولا يكون جامعا الا والمجموع فيه أمور كليات الشريعة تمت بتمام نزوله بقوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم).

ويقول: السنة راجعة في معناها الى الكتاب فهي تفصيل مجمله، وبيان مشكله، وبسط مختصره، وذلك لأنها بيان له، وهو الذي دل عليه قوله تعالى: (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) فلا تجد في السنة أمرا الا والقرآن دل على معناه دلالة اجمالية أو تفصيلية، وأيضا دل على أن

القرآن هو كلي هذه الشريعة وينبوع لها، ولأن الله تعالى قال: (وانك لعلى خلق عظيم)، وفسرت عائشة رضي الله عنها خلق النبي صلى الله عليه وسلم بأن خلقه القرآن، واقتصرت في بيان خلقه على ذلك فدل ذلك على أن (قوله، وفعله، واقراره) راجع الى القرآن لأن الخلق محصور في هذه الأشياء.

وهذا كله يبين عن معنى التعاون في الدلالة بين القرآن والسنة، يقول صلى الله عليه وسلم: (ما من نبي من الأنبياء الا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة).

والذي أوتيه هو القرآن، والسنة التي تبينه. هذا وما عرف من سنته بكونه (بيانا) للقرآن كقطعه يد السارق من الكوع بيانا لقوله تعالى: (فاقطعوا أيديهما)، فحكم الاقتداء به في هذا البيان هو نفسه حكم الأمر المبين من وجوب أو استحباب.

٢ - «ما هي السنة»؟

لفظ (السنة) معناه في اللغة العربية: الطريقة، ومنه قوله تعالى: (ولن تجد لسنة الله تبديلا).

وكما تطلق على الطريقة (المحمودة) تطلق على الطريقة (المذمومة)، وقد جاء في الحديث الشريف: (من سن سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها الى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة).

وكانت (السنة) تطلق في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم على (طريقته) المتبعة في الدين، أو على ما هو أعم من ذلك وهو (البيان) بمعنى:

ان أريد بها طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما كان عليه في حياته فهي:

«كل ما صدر عنه من قول، أو فعل، أو تقرير».

★ السنة بعد التدوين:

لها تعريفات كثيرة باعتبارات مختلفة فهي:

في اصطلاح المحدثين:

(كل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وهيئته، وصفاته الخلقية، وشمائله، وكل ما نسب الى الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة أو بعدها، سواء أثبتت حكما شرعيا، أم لم تثبت) وذاك لأن موضوع علمهم هو:

(اثبات كل ما يتصل بالرسول صلى الله عليه وسلم)

في اصطلاح الأصوليين:

هي ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول، أو فعل، أو تقرير، مما ليس قرآنا بمعنى: ان أريد بها (المصدر التشريعي) الذي هو حجة على المسلمين وقانون واجب اتباعه، فهي: (ما صدر عن الرسول صلى الله عليه بوصف أنه رسول من قول، أو فعل، أو تقرير، مقصود به التشريع، واقتداء الناس به لا اهتدائهم).

فهي تطلق على ما يقابل القرآن الكريم ويراد بها: قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله و(القول) عند الأصوليين: يسمى (الحديث أو الخبر) أما (الاشارة المفهمة) (والهم المصحوب) بالقرائن فيلحقان بالفعل.

وقال بعض العلماء: يمكن الاقتصار على (الأفعال) لشمولها (الأقوال) باعتبار أن (الاقوال) من أفعال اللسان.

وكذلك (التقرير) لأنه فعل. كما أن (الهمّ) فعل القلب، و(الاشارة المفهمة) فعل الجوارح. لكن يعارض هذا بأن العرف يفرق بين الأقوال، وبين التقريرات والأفعال، ويؤيده قول الله تعالى: (كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) فقد تخلف القول عن الفعل، وبهذا اختلفا

في التسمية.

وانما عرف (الأصوليون) (السنة) بهذا التعريف لأن موضوع (علم الاصول)[1] عندهم هو (الدليل)، ومن الدليل (السنة) التي هي طريقته صلى الله عليه وسلم في الدين والبيان له، وأمرنا باتباعها.

ومن هنا جاء قولهم: هذا الحكم ثابت بالسنة: أي دليله السنة،

في اصطلاح الفقهاء

ويطلق الفقهاء (السنة) على ما يثاب على فعله، ولا يعاقب على تركه مما فعله النبي صلى الله عليه وسلم وواظب عليه، ويعرفونه بأنه:

(ما ترجح جانب وجوده على جانب عدمه ترجيحا ليس معه المنع من النقيض) كسنن الصلاة، وسنن الوضوء يترجح جانب فعلها بالحث عليها، وليس في دليل ترجيح فعلها ما يحرم تركها.

أي أن الفاعل لها يثاب على فعلها، ولا يعاقب على تركها،

---

(١) (علم اصول الفقه) هو العلم بالقواعد والبحوث التي يتوصل بها الى استفادة الاحكام الشرعية العملية من ادلتها التفصيلية، أو هو مجموعة القواعد والبحوث التي يتوصل بها الى استفادة الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية.

فهم ان قالوا: هذا الأمر سنة، فانما يقولون باعتبار: أن الفعل له صفة شرعية طلبها الشارع من المكلفين طلبا غير جازم، أي ليس (فرضا ولا واجبا).

وبنوا تعريفهم هذا بناء على موضوع (علم الفقه)[1]، وهو (الحكم الشرعي).

بدء تدوين الحديث: - (في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم):

يقول الإمام الحافظ ابن حجر: (اعلم - علمني الله واياك - أن آثار النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن في عصر الصحابة، وكبار تابعيهم مدونة في الجوامع، ولا مرتبة لأمرين:

أحدها: أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك، كما ثبت في صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم.

وثانيها: لسعة حفظهم، وسيلان أذهانهم، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة)[2]

---

(١) (علم الفقه) هو العلم بالأحكام الشرعية المكتسبة من أدلتها التفصيلية. أو هو مجموعة الاحكام الشرعية العملية المستفادة من أدلتها التفصيلية.

(٢) هدى الساري ج١ ص ١٧ ط الحلبي.

وهو يشير بذلك إلى أن كتابه الحديث وتدوينه بالصورة التي بدا عليها إنما كان في عصر التابعين.

ولا يناقض هذا ما ثبت من أن بعض الصحابة كان يكتب الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وان لم يكن ذلك عاما، إذ كانت الكتابة في صحائف خاصة ولبعض الصحابة، وذلك مثل ما كان للصحابي (عبد الله بن عمرو)، فقد كانت له صحيفة عرفت بالصادقة[١] يدون فيها الحديث، وقد احتج بها الأئمة الأربعة، وغيرهم، يقول (عبد الله بن عمرو) رضي الله عنهما: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه، فنهتني قريش عن ذلك وقالوا: تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا،؟ فأمسكت عن الكتابة حتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأومأ بأصبعه الى فيه فقال: أكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج منه الا حق)[٢]

وفي هذه يقول الصحابي (ابو هريرة) رضي الله عنه: ما

---

(١) المحدث الفاصل للرامهرمزي، وتقييد العلم، وجامع بيان العلم وفضله.
(٢) مسند الامام أحمد ١٦٢، ١٦٣ وسنن ابي داود ٢٢/٢ وجامع بيان العلم ١ / ٧١

من أحد أحفظ مني لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أكثر مني رواية له غير (عبد الله بن عمرو ابن العاص) لأنه كان يكتب كل ما يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم ولم أكن أكتب)[1] وقد سمى (عبد الله بن عمرو) صحيفته هذه (الصادقة) ويقول عنها: وأما الصادقة فهي صحيفة ما كتبت فيها الا ما سمعت أذناي من رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] ويقول مجاهد: رأيت عند (عبد الله بن عمرو) كتابا فسألته: ما هذا؟ فقال: هذه الصادقة فيها ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليس في ذلك بيني وبين رسول الله أحد.

وقد جمعها (عبد الله) باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما كان يسمعه منه، وكان الناس يقصدونه ليروها فيطلعهم عليها[3].

وبقيت صحيفة (عبد الله) (الصادقة) موجودة عند حفيده (عمرو بن شعيب)[4]، وكانوا يضعفون (عمرو بن شعيب)

---

(١) صحيح البخاري باب كتابة العلم،
(٢) طبقات ابن سعد ٢/٢/١٢٥-
(٣) سنن الترمذي ٥٨٦
(٤) سنن الترمذي ٦١، ١١٣-

لأنه يروى من (الصحيفة)- وكان ينبغي له أن يروى من حفظه..

وكان (جابر بن عبد الله الأنصاري) صحيفة[1]

و(لأنس بن مالك) صحيفة كان يبرزها اذا اجتمع الناس[2]،

الكتابة بين النهي والاباحة:-

علل الحافظ ابن حجر أولا عدم تدوين آثار النبي صلى الله عليه وسلم في عصر الصحابة وكبار تابعيهم بأنهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك كما ثبت في صحيح مسلم، وهو ما رواه الامام مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي - قال همام: أحسبه قال: متعمدا - فليتبوأ مقعده من النار)[3].

ومع أن هذا النهي صريح نتساءل: كيف تسنى لبعض الصحابة مثل ابن عمرو، وجابر، وأنس، أن يدونوا عن رسول الله

---

(١) جامع بيان العلم، وتدوين السنة.

(٢) تقييد العلم.

(٣) صحيح مسلم رقم ٣٠٠٤.

صلى الله عليه وسلم في صحائف لهم؟ مع وجود هذا النهي الصريح في حديث صحيح؟

والجواب عن ذلك: أنه يمكن التوفيق في ذلك على الوجه التالي:

أولا: أن النهي كان في صدر الدعوة المحمدية ووسطها، وكان يخشى من الخلط بين السنة والقرآن عند التدوين فكان النهي لذلك، ولكن لما كثر نزول القرآن حتى نزل أكثره وأشرب المؤمنون حبه وأسلوبه، وسمعوا كلام النبي يصلى الله عليه وسلم وعرفوا مرتبته لم يكن احتمال الخلط بين الأسلوبين متوقعا، وبخاصة وأن الآيات كانت تنزل فتتلى في الصلاة، وتحفظ في الصدور فضلا عن كثرة الحفاظ، فصارت - بهذا - حماية القرآن الكريم من الخلط متيقنة لا بالكتابة فقط، بل بالكتابة، والتلاوة، والترتيل، ويزكي هذا الوجه للتوفيق أن (عبد الله بن عمرو) رضي الله عنهما كان اتصاله بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد صلح الحديبية سنة ست من الهجرة أي في أواخر عهده صلى الله عليه وسلم فكان تدوينه الحديث في الفترة الأخيرة من

حياة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه لما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم (مكة) قام في الناس فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، فقام أبو شاه - رجل من اليمن - فقال: اكتبوا لي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اكتبوا لأبي شاه (يريد خطبته).

يقول ابن القيم في زاد المعاد: فيه دليل على كتابة العلم، ونسخ النهي عن كتابة الحديث[1].

ثالثا: كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصدقات، والديات، والفرائض، والسنن، لعمرو ابن حزم[2] وغيره.

وقد اشتهر (ابن عباس) رضي الله عنهما بطلب العلم، وكان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم يسأل الصحابة، ويكتب عنهم.

رابعا: يمكن أن يكون النهي بالنسبة لكتاب الوحي

---

(١) زاد المعاد ج ٤ ص ١٨٢ ط دار الكتب العلمية بيروت

(٢) السنة قبل التدوين ص ٣٥٦.

خاصة حتى يتفرغوا لمهمة كتابة القرآن اذ كانوا قليليـن فلما توفر عددهم بعد أَذِنَ لهم.

في عهد التابعين: كان لهمام بن منبه صحيفة تسمى (الصحيحة) وهو من أعلام التابعين، وقد رواها عن الصحابي الجليل (أبي هريرة) رضي الله عنه، (وقد وصلتنا كاملة كما دونها عن أبي هريرة، وعثر عليها الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي في مخطوطتين متماثلتين)[1] ويقول الأستاذ أبو الحسن النـدوى: إن تأليف هذه الصحيفة يرجع إلى أواسط القرن الأول لأن أبا هريرة رضي الله عنه توفي سنة ٥٨ هـ وهي من إملائه، ... ...

ويقرر هو والعلامة (مناظر أحسن الكيلاني): بأنه إذا جمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليـه من الأحاديـث كونت العدد الأكبر من الأحاديث التي جمعت في الجوامع والمسانيد والسنن في القرن الثالث،.

وهكذا يتبين أن المجموع الأكبر من الأحاديث سبق تسجيله وكتابته من غير نظام ولا ترتيب في عصر الرسول

---

(١) السنة قبل التدوين ص ٣٥٦

صلى الله عليه وسلم، وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم، وأنه بذلك قد انتقل إلينا محفوظا في الصدور أولا ثم مدونا في الصحف ثانيا،.

ثم يقول الحافظ ابن حجر[1]: ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار، وتبويب الأخبار، لما انتشر العلماء في الأمصار، وكثر الابتداع من الخوارج، والروافض ومفكري الأقدار، فأول من جمع ذلك (الربيع بن صبيح)، و (سعيد ابن أبي عروبة) وغيرهما، وكانوا يصنفون كل باب على حدة.

إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة فدونوا الأحكام، فصنف الامام (مالك) الموطأ، وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز، ومزجه بأقوال الصحابة، وفتاوى التابعين، ومن بعدهم

وصنف (أبو محمد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج) بمكة،. و (أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي)

---

١) هدي الساري ج ١ ص ١٧

(٢) لما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم (عمرو بن حزم) اليمن وبعثه اليها، أعطاه أحكاما مكتوبة من الفرائض والصدقات والديات (كنز العمال ١٨٦/٣) وكتب عمر ابن عبد العزيز في خلافته الى المدينة يسأل عن كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحكام الصدقات فوجدت نسخته عند آل (عمرو بن حزم) الدار قطني ٤٥١.

بالشام، و(أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري) بالكوفة،.
و (أبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار) بالبصرة.
ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج على منوالهم،
ومن أشهر الكتب المؤلفة في المائة الثانية:
الموطأ: للامام (مالك بن أنس) المدني إمام دار الهجرة والمتوفى سنة ١٧٩ هـ، ومسند الإمام (الشافعي) و (مختلف الأحاديث[٣]) له كذلك وقد توفي سنة ٢٠٤ هـ و(الجامع للإمام (عبد الرزاق بن همام الصنعاني) المتوفى سنة ٢١١ هـ، وكثير غيرهم

التعريف بالموطأ:

يقول الحافظ ابن حجر: إن كتاب مالك صحيح عنده، وعند من يقلده على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل، والمنقطع، وغيرها[٢]

ويقول صاحب كتاب (حجة الله البالغة): أما على رأي غيره

---

(١) مختلف الأحاديث: يطلق على الأحاديث المعارضة بمثلها في القوة، ويمكن الجمع بينها بغير تعسف،.

(٢) المرسل من الحديث ما سقط من سنده الصحابي بأن يرويه التابعي عن الرسول مباشرة، و(المنقطع): ما سقط من سنده راوٍ أو أكثر مع عدم التوالي. فان كان مع التوالي فذلك (المعضل)،.

فليس فيه (مرسل) ولا (منقطع) الا قد اتصل السند به من طرق أخرى، فلا جرم كانت صحيحة من هذا الوجه،وقد صنف (ابن عبد البر) كتابا في (وصل) ما في الموطأ من المرسل، والمنقطع والمعضل،. قال: وجميع ما فيه من قوله (بلغني)، ومن قوله (عن الثقة) عنده مما لم يسنده (واحد وستون) حديثا كلها مسندة من غير طريق مالك الا أربعة لا تعرف، أحدها: حديث (لا أنسى ولكن أنسى لأسن).

الثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم أري أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر.

الثالث: قول معاذ: (آخر ما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغرزان[1]

قال: (حسن خلقك للناس).

الرابع: اذا أنشأت بحرية - أي سحابة بحرية - فتشاءمت فتلك عين غديقة - أي كثيرة الماء،.

بل ان هذه الأحاديث الأربعة ثبت ما يشهد بوصلها أيضا،

---

(١) الغرزان: مفرده غرز وهو ركاب كور الجمل اذا كان من جلد أو خشب وقيل هو الكور مطلقا مثل الركاب للسرج..

وقد صنف في زمان الامام (مالك) موطآت كثيرة في تخريج أحاديثه، ووصل منقطعه مثل كتاب ابن ابي ذئب، وابن عيينة، والثوري وغيرهم ممن شارك (مالكا) في الشيوخ،

عدد أحاديث الموطأ:

ذكر ابن الهباب أن مالكا روى (مائة ألف) حديث جمع منها في الموطأ (عشرة آلاف) حديث ثم لم يزل يعرضها على الكتاب والسنة ويختبرها بالآثار حتى رجعت الى (خمسمائة)،.

قال الأبهري أبو بكر: جملة ما في الموطأ من الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين (١٧٢٠) حديثاً:

المسند منها (٦٠٠)، والمرسل (٢٢٨)، والموقوف (٦١٣)، ومن قول التابعين (٢٨٥)،.

روايات الموطأ:

ذكر القاضي عياض: أن الذي اشتهر من نسخ الموطأ نحو (عشرين) نسخة، وقال أبو القاسم بن محمد بن حسين الشافعي: الموطآت المعروفة عن (مالك) (أحد عشر) معناها متقارب، والمستعمل منها أربعة هي:

١) موطأ يحيى بن يحيى.

٢) موطأ ابن بكير.
٣) موطأ أبي مصعب.
٤) موطأ ابن وهب.

ثم ضعف الاستعمال في الأخيرين، وبين الروايات اختلاف كبير من تقديم وتأخير، وزيادة، ونقص، ومن أكبرها وأكثرها زيادات رواية (أبي مصعب)، فقد قال ابن حزم: انها تزيد على سائر الموطآت نحو (مائة حديث).

ومن الموطآت المشهورة المشروحة (موطأ) الامام محمد ابن الحسن الشيباني.

شروح الموطأ ومختصراته:

ممن شرح الموطأ (أبو مروان بن عبد الملك بن حبيب المالكي) المتوفى سنة ٢٣٩ هـ. وصنف الحافظ أبو عمرو يوسف بن عبد البر - المتوفى سنة ٣٦٤ هـ كتابا سماه: (التقصي لحديث الموطأ)، وله كتاب (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)، قال ابن حزم :هو كتاب في الفقه والحديث، ولا أعلم نظيره،

وللموطأ مختصرات كثيرة:

منها: مختصر الامام الخطابي (أحمد بن محمد البستي) المتوفى سنة ٢٨٨ هـ

ومن ألف في شرح غريبه :(البرقي)،
ومن ألف في رجاله (السيوطي)،
ومن ألف في اختلافاته (الدار قطني)،

روى (السيوطي) في مقدمته لشرح الموطأ عن الأوزاعي أنه قال: عرضنا على مالك الموطأ في أربعين يوما، فقال:(كتاب ألفته في أربعين سنة أخذتموه في أربعين يوما!!! ما أقل ما تفقهون فيه).

ومن عادة الامام مالك في الموطأ: ان يذكر في مقدمة الموضوع ما جاء فيه من الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ما ورد فيه من الآثار عن الصحابة والتابعين - وندر أن يكونوا من غير أهل المدينة - لأن مالكا لم يرحل عنها - وأحيانا يذكر ما عليه العمل، أو الأمر المجتمع عليه في المدينة، وأحيانا يتبع الحديث بتفسير كلمة لغوية، أو بيان المراد من بعض الجمل.

وقد بين العلماء - سلفا وخلفا - أن أحاديث الموطأ كلها صحيحة، وأن أسانيده وردت جميعها متصلة،.

تدوين الحديث من مبتدأ القرن الثالث الهجري

في أول هذا القرن أخذ رواة الحديث في جمعه بطريقة غير التي سلفت، فبعد أن كانوا يجمعونه

ممزوجا بأقوال الصحابة والتابعين أخذوا يفردونه بالجمع والتأليف.

ثم من أئمة الحديث من جمع في مصنفه كل ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم من غير تمييز بين صحيح وسقيم، ومنهم من أفرد الصحيح بالجمع ليخلص طالب الحديث عن عناء السؤال والبحث، وكان أول الراسمين لهذه الطريقة الامام (أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري) اذ جمع في كتابه ما تبين له صحته.

ثم كان للعلماء في تصنيف الحديث وجمعه طريقتان:

احداهما: التصنيف على الأبواب، وهو تخريجه على أحكام الفقه، وغيره، وتنويعه أنواعا، وجمع ما ورد في كل حكم، وكل نوع في باب بحيث يتميز ما يتعلق بالصلاة مثلا عما يتعلق بالصيام.

وأهل هذه الطريقة: منهم من اقتصر على ايراد ما صح فقط كالشيخين، ومنهم من لم يقتصر على ذلك كأبي داود، والترمذي، والنسائي.

الثانية: التصنيف على المسانيد، وهو أن يجمع في ترجمة كل صحابي ما عنده من حديث سواء كان صحيحا أم غير صحيح، ويجعله على حدة، وإن اختلفت

أنواعه، ومن أهم ما ألف في ذلك مسند (الامام احمد ابن حنبل).

وأهل هذه الطريقة: منهم من رتب أسماء الصحابة على حروف المعجم كالطبراني في المعجم الكبير، والضياء المقدسي في المختارة، وهذا أسهل تناولا. ومنهم من رتبها على القبائل، فقدم بني هاشم، ثم الأقرب فالأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النسب، ومنهم من رتبها على السبق في الإسلام فقدم العشرة، ثم أهل بدر.. الخ، وقد سلك (ابن حبان) في صحيحه طريقة ثالثة مرتبة على خمسة أقسام وهي: الأوامر والنواهي، والأخبار، والإباحات، وأفعال النبي صلى الله عليه وسلم، ونوع كل واحد من هذه الخمسة إلى أنواع.

ولهم في جمع الحديث طرق أخرى: -

منها جمعه على حروف المعجم، فيقدم حرف الألف، ثم الباء، وهكذا، وقد جرى على ذلك (أبو منصور الديلمي) في (مسند الفردوس) و (السيوطي) في الجامع الصغير، ومنها: جمعه على الأطراف، وذلك بأن يذكر طرف الحديث ثم تجمع أسانيده اما مع عدم التقيد بكتب مخصوصة، أو مع التقيد بها، وذلك مثل ما فعل (أبو العباس أحمد بن ثابت

العراقي) في أطراف الكتب الخمسة.

ومن أعلى المراتب في تصنيف الحديث تصنيفه معللا بأن يجمع في كل حديث طرقه واختلاف الرواة فيه، فان معرفة العلل أجل أنواع علم الحديث، وبها يظهر (ارسال) بعض ما عدّ (متصلا) أو (وقف) ما ظن (مرفوعا) وغير ذلك من الأمور.

هذا وقد جرت عادة أهل الحديث أن يفردوا بالجمع والتأليف بعض الأبواب والشيوخ والتراجم والطرق.

هذا وكتب (المسانيد) دون كتب (السنن) في الرتبة، اذ جرت عادة مصنفي (المسانيد) أن يجمعوا في (مسند) كل صحابي ما يقع لهم من حديثه صحيحا كان أو سقيما ولذلك لا يسوغ الاحتجاج بما يورد فيها مطلقا.

واستثنى بعض المحدثين منها (مسند الامام احمد ابن حنبل)،.

بين السنة الثابتة وغيرها: -

هذه السنة التي نقلت إلينا منسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنواعها، وطرق نقلها، وتدوينها، اما أن تكون قد نقلت الينا منسوبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطرق (قطعية) الثبوت، وإما بطرق (رجحان) الثبوت، أو

(مرجوحيته)، أما ما يكون قد نقل بطريق تفيد (قطعية) عدم الثبوت، فهذا لا يصح نسبته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولعلماء هذا الفن في هذا النقل بطرقه المختلفة وتمحيصها، وتحديد معالمها والتثبت من الرجال المنقول عنهم، وتبين صفاتهم، وتوثيق النص المنقول بواسطتهم، لهم في ذلك كله جهود فاقت كل مأثور عن أي أمة من الأمم في حفظ أقوال أنبيائها ورسلها، فضلا عن أهل العلم والحكمة والرأي فيهم.

٤ - من مناهجهم في النقل والتوثيق:

وقد تحرى العلماء في جهودهم في النقل والرواية والتوثيق جانبين قسموا علم الحديث باعتبارهما وهذان الجانبان هما:

جانب السند.

وجانب المتن.

أما (السند) فهو سلسلة الرواة المتلقى عنهم.

وسموا دراسة هذا الجانب (علم الحديث دراية)، وهو المراد عند الاطلاق ويسمى (مصطلح الحديث)، وعرفوه بأنه:

(العلم الذي يعرف به حال الراوي، والمروي، من حيث القبول، والرد، وما يتبع ذلك من كيفية التحمل، والأداء، والضبط).

وأما (المتن) فهو النص المنقول نفسه.

وسموا ذلك الجانب (علم الحديث رواية).

وعرفوه بأنه:

(العلم المشتمل على نقل ما اضيف الى النبي صلى الله عليه وسلم قولا، أو فعلا، أو تقريرا، أو صفة).

وازاء هذين الجانبين - جانب السند، وجانب المتن - تنوعت تقسيمات العلماء لها تنوعا كثيرا.

ذلك أن الرواة، وصفاتهم واحوالهم، وكذا المتون وصفاتها، واحوالها، لا تكاد تنحصر أو تحصى، وقد أدمجوا بعضها في بعض، ورغم هذا الادماج، فقد ذكر (ابن الصلاح) منها (خمسة وستين) نوعا، وهي نفس جملة ما ذكره (النووي في (التقريب)، و(السيوطي) في (التدريب)،..

وقال ابن الصلاح: وليس ذلك بآخر الممكن في ذلك فانه قابل للتنويع الى مالا يحصى،.

لكن على أي أساس واعتبار يقوم هذا التنويع والتقسيم؟.

جواب ذلك: أن هذا التنويع، والتقسيم مبني على اعتبارات

شتى منها: ما هو باعتبار (التعريف) و(الأسماء) و (الصفات) كتنويعهم الى:

حديث، خبر، أثر، سنة، متن، سند، الخ.

ومنها: ما هو باعتبار القبول والرد.

ومدار هذا الاعتبار على توفر شروط القبول، وعدمها، وعلى وجود أصل تلك الشروط، وعلى كمالها.

وأصل صفة القبول: هو ثبوت صدق الناقل.

وأصل صفة الرد: هو ثبوت كذب الناقل.

ثم قسموا (المقبول) من حيث المعارضة وعدمها الى أقسام:

فما سلم من المعارضة فإنه يعمل به، وسموه: (محكماً).

وما عورض بمثله، وأمكن الجمع بينهما بدون تعسف فإنه أيضا يعمل به وسموه: (مختلف الحديث)،

ثم قسموا الحديث (المقبول) بأنواعه الى:

صحيح لذاته: صحيح لغيره، حسن لذاته، حسن لغيره، ولكل منها حده ورسمه.

ومنها: ما هو باعتبار نهاية السند:

فما انتهى سنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول، أو فعل، أو تقرير، تصريحا أو حكما، سواء اتصل سنده أم لا، وسواء أضافه إلى النبي صلى الله عليه وسلم صحابي أو

تابعي، أو غيرها سموه (مرفوعا)،.
وما انتهى سنده مضافا الى الصحابي من قول أو فعل أو تقرير، وخلا عن قرينة (الرفع) سواء اتصل سنده أم لا سموه (موقوفا).
فإن وجدت فيه قرينة (الرفع) فهو (المرفوع حكما) وليس بموقوف، وما انتهى سنده مضافا الى التابعي فمن دونه من قول، أو فعل، أو تقرير، وكان للرأي فيه مجال سموه (مقطوعا).
أما ما ليس للرأي فيه مجال فهو (المرفوع حكما)، وهكذا.. الخ.

شروط الرواية المقبولة:-

هذه السنة المطهرة بأنواعها تلك وردت لنا عن رسولنا صلى الله عليه وسلم قولا، وفعلا، وتقريرا، وصفة، من طرق كثيرة، وقد وضع المحدثون شروطا كثيرة للروايات المقبولة بحيث تكفل هذه الشروط الضمانات الكافية لصدق الرواة، وسلامتهم من الكذب، والخطأ والغفلة في النقل.
وهذه الشروط هي.
١) الإسلام ٢) التكليف، ٣) العدالة: وهي ملكة تحمل على ملازمة التقوى والمروءة.

والمراد من (العدل) عند المحدثين:
عدل الرواة: فيدخل فيه الذكر والأنثى، والحر والعبد، والمبصر والكفيف، ٤) الضبط: وهو قسمان:
أ - ضبط صدر: وهو أن يحفظ ما سمعه من شيخه بحيث يتمكن من استحضاره والتحديث به، متى شاء من حين سماعه إلى حين أدائه.
ب - ضبط كتاب: وهو محافظته على كتابه الذي كتب فيه الأحاديث، وصيانته عن أن يتطرق اليه تغيير ما منذ سماعه فيه، وتصحيحه إلى حين الأداء منه، ولا يعيره إلا لمن يثق فيه، ويتأكد من أنه لا يغير فيه. هذا عن جانب السند.

وعنوا كذلك بنقد المتون فجعلوا من أمارة الحديث الموضوع مخالفته للعقل، أو المشاهدة، والحس، مع عدم إمكان تأويله تأويلا قريبا محتملا، وأنهم كثيرا ما يروون الحديث لمخالفته للقرآن، أو السنة المشهورة الصحيحة،أوالتاريخ المعروف مع تعذر التوفيق.
مثال للسند والمتن:
إذا قرأنا حديثا هكذا:[١]

---

(١) صحيح الترمذي جـ١ ص ٩٨ باب ما جاء في الاغتسال يوم الجمعة.

روى أبو عبد الله محمد بن عيسى الترمذي في صحيحه قال: حدثنا أحمد بن منيع حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن سالم عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من أتى الجمعة فليغتسل...) الخ.

فنحن في هذا المثال أمام شيئين:

الأول: عدة من الرواة المذكورين بأسمائهم، نسب اليهم نقل الحديث نقلا أخذ فيه المتأخر منهم عن المتقدم عليه.

وهذه المجموعة من الرواة تسمى (سندا) للحديث، فاذا تعددت المجموعات تعدد السند بعددهم، ويسمى الواحد من هذه الأسانيد أيضا (طريقاً)

الثاني: القول المنقول والمنسوب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو: (من أتى الجمعة فليغتسل).

هذا القول يسمى (متنا) و (حديثا)، و (سنة) و (خبرا).

لكن هل هناك تلازم بين السند والمتن في الصحة أو الحسن أو عدمها؟ الجواب عن ذلك: أنه لا تلازم اذ قد يصح السند أو يحسن لاستجاع شروطه من الاتصال، أو العدالة، والضبط، دون (المتن) لشذوذ أو علة قادحة فيه، وقد لا يصح السند، ويصح المتن من طريق آخر

تقسيم السنة باعتبار ورودها: -

هذه السنة المطهرة بأنواعها، وردت الينا عن رسولنا صلى الله عليه وسلم قولا، وفعلا، وتقريرا، وصفة، من طرق كثيرة.

وللعلماء إزاء هذه الطرق تقسيمان أساسيان: -

الأول: تقسيم ثنائي على الوجه الآتي:

أ - فالسنة إما أن ترد إلينا عن طريق متواتر.

ب - وإما أن ترد إلينا عن طريق غير متواتر وهي: أخبار (الآحاد) ولا وسط بينهما.

وهذا التقسيم الثنائي هو لعلماء هذا الفن (المحدثين) فالسنة عندهم (المحدثين) - من حيث طرق ورودها - قسمان؛ وعلى هذه القسمة الثنائية أكثر علماء هذا الفن.

الثاني: تقسيم ثلاثي على الوجه الآتي:

أ - آحاد
- ب - مشهورة
- جـ - متواترة

وهذا التقسيم لعلماء الأصول من (الأحناف)، وهم بذلك قد اعتبروا قسما وسطا بين الآحاد والمتواتر وهو (المشهور أو المستفيض).

فالسنة عندهم - من حيث طرق ورودها - أقسام ثلاثة، واعتبر فقهاؤهم (المشهورة) في حكم السنة (المتواترة).

ما هو التواتر؟:

التواتر في لغة القرآن والعرب: التتابع مطلقا قل أو كثر،

وفي اصطلاح علماء هذا الفن هو: (أن يروي الحديث في كل طبقة من الطبقات كثير تحيل العادة اتفاقهم على الكذب، وأخبروا عن شيء مسموع، أو مبصر، أو مشموم، أو مذاق، أو ملموس.

فهو لا بد أن يجمع الأمور التالية:

١ - أن يكون الرواة جمعا، وأن يكون هذا الجمع كثيرا، اذ الكثرة أحد شروط التواتر اذ وردت بلا حصر عدد معين.

٢ - أن يكون هذا العدد الكثير بحيث تحيل العادة أن يتواطأ أفراده على كذب، وكذا وقوعه منهم اتفاقا من غير قصد، وذلك لكثرتهم وأمانتهم واختلاف وجهاتهم وبيئاتهم.

٣ - أن يرووا ذلك عن مثلهم من الابتداء الى الانتهاء، والمراد (مثلهم) في كون العادة تحيل تواطؤهم على الكذب، وإن لم يبلغوا عددهم، بحيث يروي عن هذا الجمع جمع مثله حتى يصل الينا بسند كل طبقة من رواته جمع لا يتفقون على كذب من مبدأ التلقي

عن الرسول صلى الله عليه وسلم الى نهاية الوصول الينا.

٤ - أن يكون مستند انتهائهم الحس من سماع وغيره، لا ما يثبت بالعقل الصرف كوجود الصانع، لأن العقل الصرف يمكنه أن يخطىء فلا يفيد اليقين، ألا ترى الفلاسفة كثيرين ويقولون: بقدم العالم مع أنه باطل.

٥ - يضاف إلى ذلك أن يصحب خبرهم إفادة العلم لسامعه، وما تخلفت إفادة العلم عنه لم يسم (متواترا) بل هو (مشهور)،

فكل (متواتر) (مشهور) من غير عكس.

وقد يقال: إن هذه الشروط الأربعة إذا حصلت استلزمت حصول العلم وهو كذلك في الغالب.

ولكن هل يشترط (الاسلام) في المتواتر؟:

الجواب: وقع في كلام النووي في شرح مسلم في المتواتر أنه لا يشترط في المخبرين به الاسلام.

وكذا قال الأصوليون، ولا يخفى أن هذا اصطلاح للأصوليين.

والا فاصطلاح المحدثين فيه: أن يرويه عدد من المسلمين، لأنهم اشترطوا فيمن يحتج بروايته أن

يكون (عدلا، ضابطا) بأن يكون (مسلما، بالغا) فلا تقبل رواية الكافر في باب الأخبار وان بلغ في الكثرة ما بلغ.

وعبارة جمع الجوامع مع شرحه: (ولا تقبل رواية كافر، وان عرف بالصدق لعلو منصب الرواية عن الكفار).

نعم يقبل من الكافر ما تحمله في كفره اذا أسلم.

ومما تقدم يتبين أن ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ثبوتا لا مجال لإنكاره لمؤمن، ولا يسع مسلما أن يجهله، ككون الصلوات خمسا، وعدد ركعاتها وصفاتها، والوضوء، والتيمم، والمناسك الأصلية للحج، وأموال الزكاة، وغير ذلك، مما يقول العلماء عنه،: (إنه علم من الدين بالضرورة)، ويسميه الشافعي: (علم العامة) أي العلم الذي يجب على كل مسلم أن يعلمه لا فرق بين عالم وجاهل، بل الكل في العلم به على سواء، ويسمي العلماء هذا النوع: (الأخبار المتواترة)، أو (الاحاديث المتواترة).

ومن هذا القسم أيضا (السنن العملية) في العبادات وغيرها من شعائر الدين التي تلقاها المسلمون عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالمشاهدة أو السماع جموعا عن جموع من

غير اختلاف في عصر عن عصر، أو قطر عن قطر.

التواتر في (السنة القولية)

أما عن التواتر في السنة القولية فقد ذكر (ابن الصلاح): أن مثال التواتر على التفسير المتقدم يعز وجوده الا أن يدَّعي ذلك في حديث:

(من كذب علي معتمدا فليتبوأ مقعده من النار).

وذلك لدقة شروط التواتر، وتعسر توفرها، وبخاصة اذا بالغنا في العدد، وأخذنا بقول من حددوه بالمائة أو بالسبعين أو نحوها.

وقد رد (ابن حجر) على (ابن الصلاح) قائلا: (وما ادعاه من العزة ممنوع، وكذا ما ادعاه غيره من العدم، لأن ذلك نشأ عن قلة الاطلاع على كثرة الطرق، واحوال الرجال، وصفاتهم المقتضية لابعاد العادة أن يتواطأوا على كذب أو يحصل منهم اتفاقا) اهـ

ثم، قال ابن حجر: ومن أحسن ما يقرر به كون المتواتر موجودا وجود كثرة في الاحاديث أن الكتب المشهورة المتداولة بأيدي أهل العلم شرقا وغربا المقطوع عندهم بصحة نسبتها الى مصنفيها إذا اجتمعت على إخراج حديث وتعددت طرقه تعددا تحيل العادة تواطؤهم على الكذب -

الى آخر الشروط - أفاد العلم اليقيني بصحته الى قائله، ومثل ذلك في الكتب المشهورة كثير..

هل المتواتر بكيفيته - من الشروط - من مباحث علم الاسناد؟: -

والجواب: لا، فليس من مباحث علم الاسناد، إذ علم الاسناد يبحث فيه عن صحة الحديث أو ضعفه ليعمل به أو يترك، من حيث صفات الرجال، وصيغ الأداء والمتواتر لا يبحث عن رجاله، بل يجب العمل به من غير بحث.

أقسام المتواتر: -

المتواتر قسمان: -

١) لفظي: وهو ما تواتر لفظه،

٢) معنوي: وهو ما تواتر القدر المشترك فيه.

والمراد بالتواتر هنا - في هذه الدراسة - التواتر اللفظي.

لكن ما معنى كونه لفظيا؟:

إن أريد به تواترا لفظيا مثل القرآن الكريم كلمة كلمة، وحرفا حرفا، فهذا لا يكاد يوجد في الحديث، بل ينفرد به القرآن الكريم.

وان أريد به اتحاد الواقعة والموضوع ولو اختلفت الأساليب

فهذا واقع في الحديث.

أما المتواتر المعنوي فهو ما اذا تعددت الوقائع والقصص والمواضع، واشتركت في الدلالة على أمر بالتضمن أو الالتزام فيكون ما دلت عليه كذلك متواترا معنويا، وذلك مثل أحاديث رفع الأيدي في الدعاء فانها دلت على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه في الدعاء، لكن في وقائع شتى.

ومثاله في دلالة الالتزام: شجاعته صلى الله عليه وسلم، وسخاؤه، وفطانته وبلاغته، وغضبه للحق، فذلك مأخوذ من وقائع مختلفة، والقدر المشترك فيها هو المتواتر، وكل واقعة منها بمفردها قد لا تتواتر.... ... ...

هل للتواتر عدد معين؟: -

الصحيح أنه لا ينحصر في عدد معين، وفاقا للجمهور، لأن القوة البشرية قاصرة عن ضبط عدد يحصل عنده ذلك.

وبعضهم ضبط العدد: بخمسة، وبسبعة، وبعشرة، وباثني عشر، وبعشرين، وبأربعين، وبسبعين، وبثلاثمائة وبضعة عشر - عدد أهل بدر - وبغير ذلك،

يقول الحافظ ابن حجر: ولا معنى لتعيين العدد على

الصحيح .

أقل عدد للتواتر، وأكثر عدد:

أقله فيما قيل: خمسة، فلا يكفي أربعة لاحتياجهم الى التزكية فيما لو شهدوا بالزنى، وما زاد عليها صالح من غير ضبط بعدد معين.

هذا ومن حكم المتواتر أنه: مقبول، وصادق، ومفيد للعلم، ويجب العمل به، بخلاف غيره من أخبار الآحاد فانها اما أن يوجد فيها أصل صفة القبول أَوْلا . . .

هل المتواتر لا يكون إلا صحيحاً؟:

توهم بعضهم من قولهم في تعريف المتواتر (أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب) الخ أنه لا يكون إلا صحيحا، وليس كذلك في الاصطلاح.

بل منه ما يكون صحيحا اصطلاحا بأن يرويه عدول عن مثلهم من ابتدائه إلى انتهائه، ومنه ما يكون ضعيفا كما إذا كان في بعض طبقاته غير عدول فهذا ليس بصحيح اصطلاحا وإن كان هو يعد صحيحا بمعنى أنه مطابق للواقع باعتبار أمن تواطىء نقلته على الكذب.

مثال المتواتر:

١ - حديث: (من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده

من النار)

فقد روي عن أكثر من مائة صحابي، ورواه في كل طبقة من طبقاته جمع كثير تحيل العادة اتفاقهم على الكذب مع استنادهم الى حاسة السمع فيما نقلوه.

ويكاد لا يعرف حديث اجتمع على روايته العشرة المبشرون بالجنة الا هذا، وقليل غيره، وعني جماعة من الحفاظ بجمع طرقه: منهم: أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد، وجمع طرقه ابن الجوزي في مقدمة كتاب (الموضوعات) فجاوز التسعين.

قال الحافظ في هذا الحديث: أخرجه البخاري من حديث المغيرة، وعبد الله بن عمرو، وواثلة

واتفق مسلم معه على تخريجه عن علي، وأنس، وأبي هريرة، والمغيرة، وأخرجه مسلم من حديث أبي سعيد أيضا،

وصح في غير الصحيحين من حديث ثلاثين من الصحابة.

وورد أيضا عن نحو خمسين من غيرهم بأسانيد ضعيفة، وعن نحو من عشرين بأسانيد ساقطة.

ثم بين رحمه الله من عني بجمعه، فالحديث في غاية الصحة، ونهاية القوة.

لكن نوزع بأن شرط التواتر استواء طرفيه وما بينهما في الكثرة، وليست موجودة في كل طريق بمفردها.

وأجيب بأن المراد من اطلاق كونه (متواترا): رواية المجموع عن المجموع من ابتدائه الى انتهائه، في كل عصر، وهذا كافٍ في افادة العلم.

٢ - حديث المسح على الخفين: - [١]

قال النووي في شرح مسلم: وقد روى المسح على الخفين خلائق لا يحصون من الصحابة، وقال الحسن: حدثني سبعون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يمسح على الخفين: وأخرجه عنه ابن أبي شيبة.

وقال الحافظ في الفتح: وقد صرح جمع من الحفاظ بأن المسح على الخفين متواتر، وجمع بعضهم رواته فجاوز الثمانين منهم العشرة.

وقال الامام أحمد: فيه أربعون حديثا عن الصحابة مرفوعة.

وقد نسب القول بمسح الخفين إلى جميع الصحابة كما نقل عن ابن المبارك.

وما روي عن عائشة، وابن عباس، وأبي هريرة من

---

(١) انظر نيل الأوطارج ١ ص ١٥

إنكار المسح فقد قال ابن عبد البر: لا يثبت.

وقال أحمد: لا يصح حديث أبي هريرة في إنكار المسح وهو باطل.

وقد روى الدار قطني عن عائشة القول بالمسح.

السنة المشهورة: -

عرفنا أن جمهور علماء هذا الفن يقررون أن السَّنة اما أن تكون متواترة، وإما أن تكون أخبار آحاد ولا وسط بينهما،.

والحنفية يقولون: إن بين أخبار الآحاد، والأخبار المتواترة قسما وسطا وهو (المشهورة) أو (المستفيضة).

فالسنة عندهم أقسام ثلاثة: متواترة، ومشهورة، وآحاد.

ماهي السنة المشهورة؟

والمشهورة عندهم: هي التي تروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بطريق الآحاد، ولكن تشتهر في عصر التابعين، أو تابعي التابعين، لأن اشتهارها في هذا العهد وهو قريب من عهد النبوة يجعل لها منزلة في الثبوت، فهي اذا ماروواها عن الرسول واحد أو اثنان ثم رواها بعد جمع من جموع التواتر فهي قطعية الورود عن الصحابي أو الصحابة الذين

تلقوها عن الرسول صلى الله عليه وسلم، لتواتر النقل عنهم، ولكنها ليست قطعية الورود عن الرسول صلى الله عليه وسلم لأن أول من تلقى عنه ليس جمع التواتر.

حكم السنة المشهورة: -

وقد جعلها فقهاء الحنفية في حكم السنة المتواترة فيخصص بها عام القرآن، ويقيد بها مطلقه لأنها مقطوع ورودها عن الصحابة، والصحابي حجة وثقة في نقله عن الرسول صلى الله عليه وسلم فمن أجل هذا كانت مرتبتها في مذهبهم بين المتواتر وخبر الآحاد.

مثال السنة المشهورة:

من السنة المشهورة: بعض الأحاد ث التي رواها عن الرسول صلى الله عليه وسلم عمر أو ابن مسعود ثم رواها عن أحدهما جمع لا يتفق أفراده على كذب مثل حديث (انما الأعمال بالنيات) فقد تفرد به من الصحابة (عمر) لكن معناه متواتر بلا شك، فهو من الحقائق الثابتة التي لا يستطيع أحد إنكارها.

الفرق بين السنة المتواترة، والسنة المشهور:

السنة المتواترة كل حلقة في سلسلة سندها جمع التواتر

من مبدأ التلقي عن الرسول صلى الله عليه وسلم الى وصولها الينا .

أما المشهورة فالحلقة الاولى في سندها ليست جمعا من جموع التواتر بل الذي تلقاها عن الرسول صلى الله عليه وسلم واحد ، أو اثنان ، أو جمع لم يبلغ جمع التواتر وسائر الحلقات جموع التواتر .

ضابط الاشتهار والاعتبار : -

الاشتهار والاعتبار يكون في القرن الثاني والثالث لا القرون التي بعدها ، فان عامة أخبار الآحاد اشتهرت في هذه القرون ولا تسمى مشهورة .

فالمشهور عندهم ما كان مشهورا في عصر الصحابة أو عصر التابعين ، أو عصر أتباع التابعين خاصة وإن صار متواترا أو آحاداً فيما بعد ذلك .

حكم المشهور عند الأحناف : -

هو عندهم يثبت به الأحكام العملية كالبيوع والنكاح وغيرها .

وعلوه عن أخبار الآحاد في أنه يخصص عام القرآن ، واذا تعارضت ظواهر القرآن مع المشهور من الاحاديث فسرت ظواهر القرآن على مقتضاه ولا ترتفع أخبار الآحاد

إلى هذه الرتبة.

هذا وقد سبق لنا بيان أن القسمة عند جمهور علماء هذا الفن ثنائية فقط: أى متواترة وآحاد، وأن كل حديث لم يبلغ رواته في جميع الطبقات حد التواتر فهو من الآحاد وعلى ذلك فالمشهور عندهم من الآحاد.

تعريف المشهور عند المحدثين:

هو الحديث الذي رواه ثلاثة فأكثر في كل طبقة من الطبقات مثل حديث (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) فقد رواه في كل طبقة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم أكثر من ثلاثة.

وجمهور الفقهاء - غير الأحناف - لا يفرقون بين مشهور وغير مشهور - ما دامت الرواية ليست متواترة، وان كانت الا ستفاضة والشهرة قد تكون سببا من اسباب التقديم وان لم تكن نوعا قائما بذاته.

على أن للمشهور إطلاقا بمعنى آخر وهو: الحديث الذي يشتهر ويدور على الألسنة، والشهرة أمر نسبي، وعلى هذا فهو يشمل المتواتر والآحاد بأقسامه كما يشمل الموضوع ومالا إسناد له أصلا كحديث (ربيع أمتي العنب والبطيخ)،

وقد روي عن الامام أحمد أنه قال: أربعة أحاديث

تدور بين الناس في الأسواق لا أصل لها وهي:

١ - (من بشرني بخروج(آذار) بشرته بالجنة) آذار شهر معروف.

٢ - (من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة) وهو بهذا اللفظ لا أصل له كما قال الامام أحمد لكن ورد معناه بأسانيد لا بأس بها [١]

٣ - نحركم يوم صومكم

٤ - (للسائل حق وان جاء على فرس) وتعقب على الامام في هذا الحديث.

هل يوجد ما هو أقوى من المتواتر؟

نعم: عن القاضي الماوردي: أن (المستفيض) أقوى من المتواتر، وهذا اصطلاح منه[٢]

والشهرة أمر نسبي فقد يشتهر عند أهل الحديث أو يتواتر عند غيرهم بالكلية، ثم قد يكون المشهور متواتراً أو مستفيضا وهو ما زاد نقلته على ثلاثة[٣].

---

(١) انظر الكلام عليه في كشف الخفاء ج ٢

(٢) انظر الباعث الحثيث هامش ص ١٩٩

(٣) الباعث الحثيث ص ١٩٧ - ١٩٨

ما هو المستفيض؟

١ - هو المشهور على رأى جماعة من أئمة الفقهاء

ب - أوهو: ما يكون في ابتدائه وانتهائه سواء، والمشهور أعم من ذلك

ح - أوهو غير ذلك.

وليس من مباحث هذا الفن

قال في حاشية الدر المستفيض: ما تلقته الأمة دون اعتبار عدد

ولهذا قال أبو بكر الصيرفي: انه هو والمتواتر بمعنى واحد،

وقال السيوطي في شرح التقريب: ومنهم من عكس - أي جعل المشهور هو ما يكون في ابتدائه وانتهائه سواء، والمستفيض أعم من ذلك، [١]

قال الأجهوري: قوله: (يكون في ابتدائه وانتهائه سواء) أي بأن لا ينقص فيها ثلاثة وكذا فيما بين ذلك.

وقوله: (والمشهور أعم) الخ يشمل ما أوله منقول عن الواحد.

---

(١) المراد بالاستواء أن لا تنقص الكثرة في بعض المواضع لا ان تزيد اذ الزيادة المطلوبة

أما (ابن الصلاح) فقال: إن معنى الشهرة مفهوم، وقسمه الى صحيح، وإلى غير صحيح وقسمه من وجه آخر: الى ما هو مشهور بين أهل الحديث خاصة دون غيرهم وجعل المتواتر قسما من المشهور فقال: ومن المشهور المتواتر الذي يذكره أهل الفقه وأصوله وأهل الحديث لا يذكرونه باسمه الخاص المشعر بمعناه الخاص،

قال: وإن كان الخطيب الحافظ قد ذكره، ففي كلامه ما يشعر بأنه اتبع فيه غير أهل الحديث ولعل ذلك لكونه لا تشمله صناعتهم، ولا يكاد يوجد في رواياتهم فإنه عبارة عن الخبر الذي ينقله من يحصل العلم بصدقه ضرورة، ولا بد في اسناده من استمرار هذا الشرط في روايته من أوله إلى منتهاه، ومثّل لكل ما ذكره.

وقال العراقي: في قوله: (لم يذكروه باسمه الخاص) بل وقع في كلامهم: تواتر عنه صلى الله عليه وسلم كذا، وان الحديث الفلاني متواتر.

وفي كتب الأصول: المشهور، ويقال له: المستفيض الذي تزيد نقلته على ثلاثة.

قال الأسنوي: كما جزم به الآمدي، وابن الحاجب.

وذهب الاستاذ أبو اسحاق الاسفراييني، وابن فورك:

الى انه واسطة بين المتواتر المفيد للعلم الضروري، والآحاد المفيد للظن.

وقالوا: المستفيض يفيد علما نظريا، غير أن الاستاذ مَثَّله بما يتفق عليه أئمة الحديث لا بما قاله أئمة الحديث كما قاله الجلال على جمع الجوامع [1]

ما ألّف في المتواتر: -

قال السيوطي: قد ألفت في هذا النوع كتابا لم أسبق الى مثله سميته (الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة) مرتبا على الابواب.

ثم قال: انه لخصه في جزء سماه (قطف الأزهار) ثم ساق أمثلة مما أودعه فيه.

الآحاد:

الآحاد هو قسيم المتواتر في التقسيم الثنائي.

وقد عرفنا أن المتواتر هو الحديث الذي يرويه في كل طبقة من طبقاته جمع كثير يؤمن تواطؤهم على الكذب، وأخبروا عن شيء محسوس،

أما الآحاد فهو دون ذلك من حيث عدد الرواة، وله

(١) انظر المنهج ص ٢٦٧ للساحي

مسميات تبعا لذلك فهو:

الغريب: فإن رواه واحد عن واحد في جميع الاسناد أو في طبقة منه أو أكثر بأن انفرد به راوٍ واحد ولو في طبقة واحدة فذلك هو (الغريب)

يقول ابن حجر: الغريب هو ما ينفرد بروايته شخص واحد في أي موضع وقع التفرد به من السند، أي في طرف السند الأعلى أو من وسطه أو من آخره، فحيث جاء التفرد في طبقة من طبقات السند كان السند غريبا، وكان الحديث الذي روي بهذا السند غريبا.

أما (الغرابة): فقد تكون في المتن، بأن يتفرد بروايته راو واحد، وفي بعضه كما اذا زاد فيه واحد زيادة لم يقلها غيره.

وقد تكون الغرابة في الاسناد، كما إذا كان أصل الحديث محفوظا من وجه آخر أو وجوه، ولكنه بهذا الاسناد غريب.

فالغريب ما تفرد به واحد، وقد يكون ثقة، وقد يكون ضعيفا، ولكل حكمه.

مثال الغريب: حديث (انما الأعمال بالنيات)

قيل: تفرد به من الصحابة (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه.

وتفرد به من التابعين (علقمة)

وتفرد به (محمد بن ابراهيم التيمي) عن (علقمة)،

وتفرد به(يحيى بن سعيد) عن (علقمة)، ثم رواه عن (يحيى)عدد كثير في كل طبقة.

فالشهرة طرأت عليه من عند (يحيى بن سعيد) الآخذ عن (محمد بن ابراهيم التيمي)

العزيز:

وإن رواه اثنان ولو في طبقة واحدة بشرط أن لا يقل الباقي عن اثنين فهو العزيز، وقيل: هو ما اشترك اثنان أو ثلاثة في روايته، ولو رواه بعد ذلك عن هذين الاثنين، أو الثلاثة (مائة).

مثل العزيز:-

حديث (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده)

فقد رواه من الصحابة أنس وأبو هريرة

ورواه عن (أنس) اثنان من التابعين: قتادة وعبد العزيز بن صهيب.

ورواه عن (قتادة) اثنان شعبة وسعيد.

ورواه عن (عبد العزيز) اثنان: اسماعيل بن علية، وعبد الوارث

ورواه عن كل من (اسماعيل) ، (عبد الوارث) جماعة.

وينفرد العزيز عن الغريب بكونه لا يرويه أقل من اثنين عن اثنين بخلاف الغريب، وسمي (عزيزا) لقلة وجوده،أو لكونه قوي بمجيئه من طريق أخرى.

المشهور: وان رواه ثلاثة فأكثر في كل طبقة من طبقاته فهو (المشهور)

وقيل: هو ما رواه جماعة- أي يبلغوا حد التواتر في كل طبقاته- ولم يقلوا عن ثلاثة فى باقي الطبقات

مثال المشهور: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)، فقد رواه فى كل طبقة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم أكثر من ثلاثة ولم يبلغوا حد التواتر، هذه الثلاثة (الغريب ،والعزيز، والمشهور) تسمى (احادا) وهي المقابلة للمتواتر فى التقسيم الثنائي

وقال ابن حجر: وكلها - أى الغريب والعزيز والمشهور- سوى الأول- أي المتواتر- آحاد، ويقال لكل منها: خبر واحد

وخبر الواحد في اللغة: ما يرويه شخص واحد.

وفى الاصلاح: ما لم يجمع شروط المتواتر

وفيها المقبول: وهو ما يجب العمل به عند الجمهور،

وهو ما توافرت فيه جميع شروط القول وفيها: المردود وهو:

ا- ما فقد فيه شرط أو أكثر من شروط القبول

ب- ما حصل فيه التردد فى وجود شرط أو أكثر من شروط القبول

تقسيم الحديث باعتبار القبول والرد:

١- فحيث توافرت شروط القبول يكون الحديث مقبولا

٢- وحيث لم تتوفر فهو المردود

وقد قسموه بهذا الاعتبار- سواء كان غريبا أو عزيزا أو مشهورا- الى:

١- صحيح

٢- حسن

٣ - ضعيف

فما وجدت فيه شروط القبول فهو صحيح، أو (حسن) حسب توافر تلك الشروط، وما لم توجد فيه فهو (ضعيف) اذا لم يتابع بحديث آخر

ثم ان الصحيح ينقسم إلى: صحيح لذاته وصحيح لغيره

وكذلك (الحسن) ينقسم الى حسن لذاته وحسن لغيره ولكل من هذه الأقسام دراساته

الضعيف

أما الضعيف فهو ما فقد العدالة، أو فقد الضبط، أو فقد اتصال السند، أو وجد فيه الشذوذ أو العلة

قال النووى: الضعيف ما لم يوجد فيه شروط الصحة ولا شروط الحسن

وأنواع الضعيف كثيرة، ويتفاوت ضعف الضعيف بحسب شدة ضعف رواته، وخفته، وفى الأخذ بالضعيف مذاهب

منها ما يقول: لا يعمل به مطلقا

ومنها ما يقول: يعمل به مطلقا

ومنها ما يقول: يعمل به فى الفضائل بشروط، وهذا هو المعتمد عند الأئمة ولكل من هذه المذاهب تفريعاته وشروطه وأدلته والضعيف لا يُعَلُّ به الصحيح كما قال الحافظ ابن حجر.

الموضوع: أما الموضوع فهو: الكذب المختلق المصنوع- أي كذب الراوي في الحديث النبوى بأن يروي عنه صلى الله عليه وسلم ما لم يقله متعمداً لذلك، وعلى ذلك شواهد كثيرة واتفقوا على تحريم روايته مع العلم بوضعه.

والواضعون أقسام كثيرة: منهم زنادقة، ومنهم متعبدون.

وقد انتقد الأئمة كل شيء فعلوه في ذلك وسطروه عليهم في كتبهم، وقد قيض الله للسنّة المطهرة من صفوة أهل العلم الأعلام من تصدوا لهذا الزيف وكشفوه وحذروا الأمة منه، واستقصى المصنفون في الموضوعات ايراد الامثلة المتوافرة وذكر المحدثون أمورا كلية يعرف بها كون الحديث موضوعا:

منها: اشتماله على مجازفات في الوعد والوعيد

ومنها: سماجة الحديث وكونه مما يسخر منه

ومنها: مناقضته لماجاءت به السنة الصحيحة الصريحة

ومنها: أن يكون باطلا فى نفسه فيدل بطلانه على وضعه

ومنها أن لا يشبه كلام الانبياء بل لا يشبه كلام الصحابة

ومنها: أن يشتمل على تواريخ الايام المستقبلة

ومنها: أن يكون بكلام الاطباء أشبه

ومنها: أن تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه

ومنها: مخالفته لصريح القرآن.

ومنها: احاديث صلوات الأيام والليالي

ومنها: اقترانه بقرائن يعلم بها أنه باطل

حكم العمل بالحديث من حيث القبول والرد:-

١- مقبول يعمل به: كثبوت صدق الناقل وافادته القطع

وهذا هو المتواتر

٢- وغيره من الآحاد اما أن يوجد فيه أصل صفة القبول أوْلا وهو كالآتي:

أ- مقبول: يظن صدقه فيعمل به لثبوت صدق الناقل

ب- وإمامردود: يظن كذبه فيطرح لثبوت كذب الناقل

ج- وإما ما توجد به قرينة تلحقه بأحد القسمين السابقين التحق به

د- وإما ملحق بالمردود لكونه لم توجد فيه صفة توجب القبول- لا لثبوت صفة الرد- وهو لا يعمل به.

تقسيم السنة من حيث حقيقتها:

تنقسم السنة من حيث حقيقتها إلى: قولية، وفعلية، وتقريرية.

السنة القولية:

هي أحاديثه صلى الله عليه وسلم التي قالها فى مختلف الاغراض والمناسبات، مثل قوله صلى الله عليه وسلم عن البحر: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته)، (صلوا كما رأيتموني أصلي)،(خذوا عني مناسككم)

ودلالة قول الرسول صلى الله عليه وسلم على أن الأمر مشروع واضحة، ولا شأن للمجتهد في صيغ الأوامر، ولا

أن يتفقه فيها حتى يحملها على (الوجوب أو الندب) ويتدبر أمرها فيما اذا عارضها دليل آخر ليقضي بترجيح أحدهما على الآخر ، أو يفصل في أن هذا ناسخ لذاك وطرق الترجيح ، أو الحكم بالنسخ مقررة في كتب الاحكام.

السنة الفعلية:

هي أفعاله صلى الله عليه وسلم ، مثل أدائه الصلوات الخمس بأركانها وهيئاتها .. الخ مما نقل بالتواتر العملي من صلاته صلى الله عليه وسلم ، وكيفية حجه وغير ذلك من العبادات التي واظب عليها ، فأفادت الايجاب بالفعل الذى نقل الينا بالتواتر العملي الذى يفيد العلم الضروري ، وقلما يوجد له فعل- صلى الله عليه وسلم- الا كان له مع الفعل قول: مثل: (صلوا كما رأيتموني أصلي) (خذوا عني مناسككم).

السنة التقريرية:

هي ما أقره الرسول صلى الله عليه وسلم مما صدر عن بعض الصحابة من أقوال وأفعال بسكوته وعدم انكاره ، أو بموافقته ، واظهار استحسانه ، فيعتبر بهذا الاقرار والموافقة عليه صادرا عن الرسول نفسه.

مثال ذلك: ما روي أن صحابيين خرجا في سفر فحضرتهما الصلاة ، ولم يجدا ماء فتيمما وصليا ، ثم وجدا الماء في الوقت ،

فأعاد أحدهما ، ولم يعد الآخر فلما قصا أمرهما على الرسول صلى الله عليه وسلم أقر كلا منهما على ما فعل ، فقال للذي لم يعد : أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ، وقال للذي أعاد : لك الأجر مرتين ، ومنه : اقراره صلى الله عليه وسلم لاجتهاد الصحابة في اداء صلاة العصر يوم غزوة بني قريظة إذ قال لهم يومئذ : (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)ففهم جماعة منهم أن النهي على حقيقته فلم يصلوا العصر في وقتها ، وفهم آخرون أن المقصود منه الاسراع وعدم التواني في الغزو والهجوم ، فصلوها في وقتها ، وحين بلغه صلى الله عليه وسلم فعل الفريقين أقرهما على فهمها ولم ينكر ذلك لأنه من مقتضى ما تقرر من عصمته صلى الله عليه وسلم ، وأمانته في التبليغ ، أنه لا يقر أحدا على أمر غير مأذون فيه شرعا ، فيكون اقراره للأمر دليلا على انه لا حرج في فعله سواء شاهد بنفسه فسكت ، أو بلغه فلم ينكر ، وما لا حرج فيه يشمل (الواجب ، والمندوب ، والمباح) ، فيحمل على أقل مراتبه وهو (الجواز) ، حتى يقوم الدليل على (الندب) أو الوجوب

ولا يدل الاقرار على جواز الفعل فى حق من أقره النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، بل يكون الجوار حكما شاملا

لجميع المكلفين أخذا بالاصل الذي هو استواء الناس في أحكام الشريعة، فليس لأحد أن يعد اللعب في المسجد بالسلاح تمريناً على الحرب أمراً مخالفاً للسنة بعد أن ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أقر الحبشة على اللعب في مسجده بالحراب، وليس لأحد أن ينكر على (المعتدة عدة وفاة اذا خرجت للاستسقاء) بعد أن ثبت أن (فريعة بنت مالك) خرجت بعد وفاة زوجها تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في موضع العدة فقال لها: (امكثي حتى تنقضي عدتك) ولم يتعرض لخروجها بانكار.

سنته صلى الله عليه وسلم في الترك:

تركه صلى الله عليه وسلم لشيء ان لم يكن من ناحية الجبلة، ولم يثبت أنه كان لمنع يختص به فحكمه كالآتي:

١ - ان على حكم هذا الترك في حقه عليه الصلاة والسلام من (حرمة)أو (كراهة) كانت الحرمة أو الكراهة شاملة لأمته بحجة أن الاصل عدم الخصوصية

٢ - فان ترك صلى الله عليه وسلم أمرا ولم يعلم حكم هذا الترك: دل ذلك على عدم الاذن في الفعل، وأقل مراتب عدم الاذن (الكراهة)، فيحمل عليها حتى يقوم الدليل على ما فوقها وهو (التحريم).

٣ - وإذا ترك صلى الله عليه وسلم الأمر لمانع من الفعل يصرح به، أو يفهمه المجتهد بطريق الاستنباط ثم يزول هذا المانع فانه يصح النظر بعد في أمر المتروك، ويجري حكمه على ما تقتضيه أصول الشريعة، كما ترك صلى الله عليه وسلم صلاة القيام في رمضان جماعة، وذكر أن المانع من استمراره عليها خوف افتراضها عليهم، ولما انقطع الوحي بانتقاله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى ارتفع المانع من صلاة التراويح جماعة وهو خوف الافتراض، فلم يبق في تركها موضع للتأسي، ولذلك رجع بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى الاصل الذي هو فعل النبي صلى الله عليه وسلم لها في جماعة.

ومن هذا الباب تركه صلى الله عليه وسلم لقتل (حاطب بن أبي بلتعة) حين اطلع له على كتاب أرسله الى قريش يخبرهم فيه ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال ردا على عمر بن الخطاب اذ قال له: دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال عليه الصلاة والسلام: (انه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال: اعملوا ما شئتم فقد

غفرت لكم) (صحيح البخاري).

ففي ظاهر الحديث تعليل عدم قتله بشهوده واقعة بدر، فمن لم يتحقق فيه هذه المزية ممن يتجسسون على المسلمين ويبلغون أخبارهم للمحاربين يبقى أمره موكولا لاجتهاد الامام ليجازيه بما تقتضيه المصلحة ولو بالاعدام، وهذا ما يقوله الامام مالك رضي الله عنه.

٤ - واذا ترك صلى الله عليه وسلم أمرا لم يظهر في عهده ما يقتضي فعله، ثم طرأ حال يجعل المصلحة في الفعل ارتفع طلب التأسي في الترك، واصبح ذلك الأمر مجالا لنظر المجتهد حتى يفصل له حكما على قدر المصلحة الداعية الى فعله.

ومثال هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجمع القرآن الكريم في مصحف اذ لم يظهر في عهده ما يدعو الى هذا الجمع، ولكن كثرة من قتل في حرب أهل الردة من القراء أثارت الخوف على القرآن من الضياع ورأى الخليفة الأول صحة الجمع لهذا المقتضي الذي لم يكن في عهد الوحي قائما.

٥ - ولا يدخل في الترك الذي نتحدث عنه عدم فعله

صلى الله عليه وسلم لأمور لم تكن وسائلها قد تهيأت، ولا الفنون التي يتوقف عليها إنشاؤها قد ظهرت فلا يخطر على البال أن نمنع من وضع آلات تعرف بها الأوقات في المساجد ونستند في هذا المنع الى ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعل هذا في مسجده الشريف.

وليس من الفقه أن نرد الخبر بثبوت شهر رمضان يأتي على طريق البرق أو غيره بدعوى أن الأخذ به مخالف للسنة إذ لم يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم في اثبات الشهر إلا بشهادة يؤديها من في حضرته، وانما بعد مثل هذا من قبيل المسكوت عنه، فلأهل العلم أن يتناولوه بالاجتهاد، ويلحقوه بالأصل الذي يصح تطبيقه عليه

٦ - والترك الذي يدل على عدم الاذن هو ما يروى في لفظ صريح، كتركه عليه الصلاة والسلام الأذان والاقامة ليوم العيد، وتركه غسل شهداء أحد، ويلحق بهذا تركه الذى لم ينقل بلفظ صريح، ولكنه يفهم من عدم نقلهم للفعل الذى شأنه أن تتوفر الدواعي على نقله لو وقع فيصح لنا أن نقول: من السنة ترك رفع الأصوات بالذكر أمام الجنازة، ويكفي في

الاستشهاد على أن السنة ترك هذا الرفع عدم نقلهم لفعله ،وهو من الأمور التي لو فعلت لتوفرت الدواعي على نقلها .

٧ - وقد وردت أحاديث دلت على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتركون الأمر لمجرد ترك النبي صلى الله عليه وسلم له ، كما ورد أنه عليه الصلاة والسلام خلع نعله في صلاة فخلعوا نعالهم حتى أخبرهم بعد بأنه علم من طريق الوحي أن بالنعل نجاسة - رواه أحمد وأبو داود . ومن شواهده : أنه كان عليه الصلاة والسلام اتخذ خاتما من ذهب ، فاتخذوا خواتيم من ذهب ، ثم نبذه ، وقال : إني لن البسه أبدا ، فنبذوا خواتمهم ؛ البخاري .

ومن عرف مسابقة الصحابة رضي الله عنهم الى الاقتداء برسول الله صلى الله عليهم وسلم حتى في ترك المكروه لم يجد في أمثال هذا الحديث دليلا كافيا على أن تركه عليه الصلاة والسلام للشيء يحمل على أشد مراتب النهي وهو التحريم .

وحرمة استعمال خاتم الذهب مأخوذة من الأحاديث الدالة على حرمة استعمال الذهب زينة للرجال .

ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم...؟

أما حكم ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل مما ليس بيانا، ولا أمرا جبليا، ولا خاصا به فحكمه كالآتي:

١ - اذا علمت صيغة ما صدر عنه في حقه صلى الله عليه وسلم من (وجوب) أو (ندب)أو (اباحة) فأمته تابعة له في الحكم، اذ الأصل تساوي المكلفين في الأحكام.

٢ - فان فعل صلى الله عليه وسلم أمرا ولم يقم دليل خاص على أنه فعله على سبيل (الوجوب) أو (الندب) أو (الاباحة فحكمه كالآتي:

أ - اما أن يظهر فيه معنى (القربة) كافتتاحه الرسائل بكلمة (بسم الله الرحمن الرحيم) فحكمه أنه يحمل على أقل مراتب القرب، وهو (الندب)

ب - وإما أن لا يظهر فيه معنى (القربة) فيدل على أنه (مأذون فيه)، ومن أهل العلم من يذهب به مذهب (المندوب إليه) نظرا إلى أنه عليه الصلاة والسلام مشرع، والاصل في أفعاله التشريع. ومثال هذا: إرساله عليه الصلاة والسلام (شعر رأسه) الشريف إلى شحمة الأذن، وهو عمل لا يظهر فيه معنى (القربة).

ولكن بعض أهل العلم - كالقاضي أبي بكر ابن

العربي، وأبي بكر الطرطوشي - جعلوه من مواضع الاقتداء.

ورأى آخرون: أن هذا محمول على العادة، فاذا جرت عادة قوم بنحو الحلق فلا يوصفون بأنهم تركوا ما هو سنة.

ومما يشبه إرسال الشعر إلى الأذن: إرساله عليه الصلاة والسلام (ذؤابة) من العمامة وهي المسماة بالعذبة، وقد ورد فى حديث عمرو بن حريث في فتح مكة (كأنني أنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلَيه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه) أخرجه مسلم.واذا كان ارسال (ذؤابة) من العمامة مما لايظهر فيه معنى (القربة) فانه يكون موضعا لاختلاف أهل العلم.

★ فمنهم: من يجعله من قبيل ما يتأسى به، وإلى هذا يجنح أبو بكر ابن العربي، وقد روى الترمذي عن ابن عمر وسالم والقاسم: أنهم كانوا يفعلونه.

★ ومنهم: من يراه من قبيل العادة، فلا يعد المتعمم من غير عذبة تاركا لسنة، وهذه وجهة نظر من لم يكن يرسل العذبة من السلف.

قال الامام مالك: انه لم ير أحدا يفعله الا (عامر بن عبد الله بن الزبير)

- انظر باب العمائم في فتح الباري.

٣) وقد يتقارب الحال في بعض الافعال، فلا يظهر جليا أهو عادة أم شريعة؟ فتتردد فيه أنظار المجتهدين، نحو جلسة الاستراحة عند قيامه للثانية أو الرابعة، فذهب بعضهم: الى أنه لم يفعلها على وجه (القربة) فلا تدخل في قبيل السنة، وعدها طائفة: فيما يستحب من أعمال الصلاة.

٤) ومما لم يظهر فيه معنى (القربة) تقديم اسمه عليه الصلاة والسلام في الرسائل على اسم المرسل اليه، ولهذا لم يحافظ عليه بعض السلف محافظتهم على ما يفهمون فيه معنى القربة فأجازوا تأخير اسم (المرسل) على اسم (المرسل اليه)،

وسئل الامام مالك عن ذلك فقال: لا بأس به - بل روي أن ابن عمر وهو من أشد الناس محافظة على السنة قد كتب إلى معاوية، ثم إلى عبد الملك بن مروان، وقدم اسميهما على اسمه - رواه البخاري في الأدب المفرد بسندٍ صحيح.

٥) ما يقوم الدليل على أنه (سنة) ثم يتهاون فيه الناس، ولا يحتفظ به الا فريق عرفوا باسم (المبتدعة) من

ناحية اعتقاد أو عمل.

وقد ذهب بعض الفقهاء الى ترك هذه السنة احتراسا من التشبه بالمبتدعة، والحق:أن محافظة بعض المبتدعة على سنة حتى تصبح شعارا لهم لايخرجها عن حقيقة (السنة)ولا يزال خطاب الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فيها متوجها الى أولئك الذين تركوا السنة حتى يعودوا اليها.

٦) ما يخشى من فعله اعتقاد العامة لوجوبه:

أ - فقد راعى بعض الأئمة مفسدة اعتقاد العامة لوجوب ما هو مندوب اليه، كما ذهب الامام مالك الى كراهة صوم ستة ايام من شوال مع صحة الحديث الوارد في فضله خشية أن يعتقد العامة وجوبها.

قال أبو اسحاق الشاطبي: والذي خشي منه مالك وقع في العجم فصاروا يتركون المسحرين على عادتهم والبواقين، أي في الأيام الستة من شوال كالعهد بأيام رمضان، وكذلك قال أبو اسحاق المروزي من أصحاب الامام الشافعي: لا أحب أن يداوم الامام على مثل أن يقرأ كل يوم جمعة بسورة الجمعةونحوها، لئلا يعتقد العامة وجوبه.

ب - والجمهور لا يقيمون للخوف من اعتقاد العامة وزنا، والتبعة في مثل هذا على أهل العلم اذ هم المطالبون بتعليم الناس آداب دينهم وهدايتهم إلى سبيل ربهم، وانظر الى صنيع عمر حين قبل الحجر الأسود وقال: (إني أعلم أنك لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك) فقد جمع بين الأخذ بالسنة ودفع ما عساه يخطر في أذهان العامة من اعتقاد فاسد.

ما ليس تشريعا من السنة:

ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال إنما يكون حجة على المسلمين واجبا اتباعه إذا صدر عنه بوصف أنه رسول الله، وكان مقصودا به التشريع ولنا فيه أسوة حسنة، وسنة قائمة.

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنسان اصطفاه الله رسولا كما قال تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي).

١ - فما صدر عنه صلى الله عليه وسلم بمقتضى طبيعته الانسانية أي عن وجه الجبلة أو العادة كالقيام والقعود، والاضطجاع، والأكل والشرب،

واللبس، وغير ذلك مما ليس مصدره رسالته، ولكن مصدره انسانيته، فإن هذا الضرب غير داخل فيما يطلب فيه التأسي ،وغاية ما يفيده فعله صلى الله عليه وسلم لمثل هذه الأشياء هو حكم (الاباحة).

فاذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو قام في مكان أو زمان، أو ركب نوعا من الدواب، أو تناول لوناً من الأطعمة، أو لبس صنفا من الثياب فلا يقال فيمن لم يفعل شيئا من ذلك إنه تارك للسنة.

كذلك تركه صلى الله عليه وسلم: فما يتركه من أجل كراهته له جبلة كما امتنع من أكل الضب ولما قال له خالد بن الوليد: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: لا، ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه.

وليس تركه صلى الله عليه وسلم للشيء على هذا الوجه من مواضع التأسي، وشاهده أن خالدا رضي الله عنه سمع هذا الجواب وما لبث أن جر اليه الضب فأكله.

٢ - وما صدر عنه صلى الله عليه وسلم، وعلم اختصاصه به كالوصال في الصوم والزيادة في النكاح على أربع، فلا نزاع في أن مثل هذا ليس محلا للتأسي وما كان

لأحد أن يقتدي به فيما هو من خصائصه.

كذلك ما يتركه صلى الله عليه وسلم لتحريم يختص به كتركه أكل الثوم وما شاكله من كل ذي رائحة كريهة فلغيره من المسلمين تناوله ولا يكون بتناوله هذا خارجا عن حدود قوله تعالى:

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة).

٣ - وما صدر عنه بمقتضى الخبرة الانسانية، والحذق، والتجربة، في الشئون الدنيوية من اتجار أو زراعة أو تنظيم جيش، أو تدبير حربي، أو وصف دواء لمرض، فليس تشريعا أيضا.

ولهذا لما رأى في بعض غزواته أن ينزل الجند في مكان معين قال له بعض أصحابه أهذا منزل أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة فقال الصحابي: ليس هذا بمنزل، وأشار بانزال الجند في مكان آخر لأسباب حربية بينها وأقره الرسول صلى الله عليه وسلم على ما رأى، وكذلك لما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أهل المدينة يؤبرون النخل أشار عليهم أن لا يؤبروا فتركوا التأبير، وتلف التمر فقال لهم: أبروا، أنتم أعلم

بأمور دنياكم.

هذا ومن المعلوم أن (قضاء)الرسول صلى الله عليه وسلم في خصومة يشتمل على أمرين:

أحدهما: إثباته وقائع

ثانيهما: حكمه على تقدير ثبوت الوقائع.

فالأول: وهو اثبات الوقائع أمر تقديري، وليس بتشريع

والثاني: وهو حكمه بعد تقدير ثبوت الوقائع فهو تشريع.

وقد روى البخاري ومسلم عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع خصومة بباب حجرته فخرج اليهم فقال: إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصوم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها.

بين محكم الحديث ومختلفه: إذا عورض حديث بمثله فكيف يمكن التوفيق بينهما؟ أولا: ينظر في(المسند)، فالمتصل سنده يقدم على (المرسل) أو (المنقطع)،وإذا كانا بسندين متصلين فإنه يكون الترجيح برواة

السند في أحدهما ما دون الآخر فإن رجال الحديث ليسوا في درجة واحدة من الضبط، والثقة، والعدالة.

أ) مثال ذلك: ما روي عن جرير عن الشيباني عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه عن عائشة رضي الله عنه قالت:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا في فوح حيضنا - أي أوله ومعظمه - أن نأتزر ثم يباشرنا، وأيكم يملك إربه كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملكه؟

ب) ثم روى عن عبد العزيز بن محمد، عن أبي اليمان، عن أم ذرة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت اذا حضت نزلت عن المثال - أي الفراش - إلى الحصيرة، فلم نقرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ندن منه حتى نطهر

والجواب عن التعارض الظاهر بين هذين الحديثين: هو أن الحديث الأول هو الصحيح وقد رواه شعبة عن منصور عن ابراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يأمر إحدانا إذا كانت حائضا أن تتزر، ثم يضاجعها، وهذه الطريقة خلاف أبي اليمان عن أم ذرة عن عائشة رضي الله عنها في الطريقة الثانية

ثانيا: ينظر الى تاريخ الحديثين بأن يكون أحدهما ناسخا للآخر.

مثال ذلك: حديث(كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها)

ففيه بيان أن العمل بالحديث الأول الناهي قد انتهى.

ثالثا: ينظر في التوفيق بينهما بأن يكون الحديث الثاني مؤولا للأول ومقيدا له بحال من الاحوال وليس على عمومه

مثال ذلك: أولا

١-أ) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس فيما دون خمسة أو سق من تمر ولا حب صدقة)

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس فيما دون خمسة اوسق صدقة)رواه أحمد والبيهقي بسند جيد.

ب) قال صلى الله عليه وسلم: (فيما سقت السماء العشر وفيما سقى بالنضح نصف العشر).

(وما)بمعنى(الذي)و(الذي)من ألفاظ العموم

قال ابن القيم: وقد وردت السنة الصحيحة الصريحة المحكمة في تقدير نصاب المعشرات بخمسة أوسق بالمتشابه من قوله: (فيما سقت السماء العشر وما سقى بنضح أو غرب فنصف العشر)

قالوا: وهذا يعم القليل والكثير، وقد عارضه الخاص، ودلالة العام قطعية كالخاص، واذا تعارضا قدم الأحوط وهو الوجوب

فيقال: يجب العمل بكلا الحديثين، ولا يجوز معارضة أحدهما بالآخر والغاء احدهما بالكلية فان طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فرض في هذا وفي هذا، ولا تعارض بينهما بحمد الله تعالى بوجه من الوجوه فان قوله: (فيما سقت السماء العشر)انما أريد به التميز بين ما يجب فيه العشر، وما يجب فيه نصفه، فذكر النوعين مفرقا بينهما في مقدار الواجب، وأما مقدار النصاب فسكت عنه في هذا الحديث، وبينه نصاً في الحديث الآخر، فكيف يجوز العدول عن النص الصحيح الصريح المحكم الذي لا يحتمل غير ما أول عليه البتة الى المحمل المتشابه الذي غايته أن يتعلق

فيه بعموم لم بقصدوا بيانه بالخاص المحكم المبين
كسبان سائر العمومات بما يخصها من النصوص.

٢ - قال صلى الله عليه وسلم:(لا يغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم ألا وانها العشاء وإنهم يسمونها العتمة)

وصح عنه أنه قال : (لو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولوْ حبوا)

فقيل:هذا ناسخ للمنع

وقيل: بالعكس

والصواب: خلاف القولين، فان العلم بالتاريخ متعذر، ولا تعارض بين الحديثين فانه لم ينه عن اطلاق اسم (العتمة) بالكلية، وانما نهى عن أن يهجر اسم (العشاء) وهو الاسم الذي سماها الله به في كتابه، ويغلب عـيها اسم (القمة) فإذا سميت (العشاء) وأطلق عليها احيانا (العتمة) فلا بأس والله أعلم.

وهذا محافظة منه صلى الله عليه وسلم على الأسماء التى سمى الله تعالى بها العبادات فلا تهجر ويؤثر عليها غيرها كما فعله المتأخرون في هجران ألفاظ النصوص وايثار المصطلحات الحادثة عليها ونشأ بهذا من الفساد ما الله به عليم، وهذا كما كان يحافظ على تقديم ما قدمه الله وتأخير ما أخره كما بدأ

بالصفا وقال:ابدؤا بما بدأ الله به الخ «١»

٣ - ما ورد في الأضحية(ادخروا لثلاث، وتصدقوا بما بقي) فدل هذا على تحريم ادخار لحوم الاضحية أو شيء منها بعد ثلاث، والتزم الصحابة حكم التحريم، ثم شكوا من بعض الحرج في تطبيقه، فقال قائلهم: كان الناس ينتفعون بضحاياهم، ثم شكوا من بعض الحرج في تطبيقه، فقال قائلهم. كان الناس ينتفعون بضحاياهم يجملون منها الودك ويتخذون الأسقية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما ذاك؟ فقالوا: يا رسول الله نهيتنا عن امساك لحوم الضحايا بعد ثلاث.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (انما نهيتكم من أجل الدَّافة التي دفت حضرة الأضحى، فكلوا وتصدقوا وادخروا)فانه يفهم من هذا الحديث أن النهي الأول كان مقيدا، ولا تعارض بين الحديثين لأن الثاني مخصص للأول بحال خاصة فيعمل بهذا التخصيص.

رابعا: ان كان التعارض بين الحديثين مع اتحادهما في قوة السند ورتبته وليس أحدهما ناسخا للآخر ولا مخصصا

---

(١) انظر زاد المعاد ج ٢ ص ١٠ س ١٠ وما بعده.

فالعلماء ينظرون الى (متن) الحديث في كل منهما:
فالحديث الذي يشهد له شاهد من كتاب الله تعالى، أو تدل عليه دلالة ولو من بعد أوْلى بالقبول.

ولذلك يرجح الحديث الذي يكون له شواهد من أحاديث أخرى كثيرة، أو تلقى العلماء معنى أحد الحديثين بالقبول

واذا لم يكن واحد من الحديثين المتعارضين له هذا الشاهد فكيف يكون العمل؟

يقول أكثر العلماء: ان الاستقراء أثبت أنه لا يمكن أن يوجد خبران متعارضان لا يمكن الترجيح بينهما بواحد من هذه المرجحات

وعلى رأس القائلين بذلك الامام الشافعي رضى الله عنـــه اذ يقول: (ولم نجد عنه صلى الله عليه وسلم حديثين مختلفين إلاّ ولهما مخرج، أو لأحدهما دلالة بأحد ما وضعت، اما بموافقة كتاب الله أو غيره من بعض الدلائل)

وبعض العلماء يفرض التعارض بين حديْثين، ولا يمكن الترجيح بينهما بالسند أو بالتاريخ أو بدلالة من الكتاب أو السنة المجمع عليها أو سنة أخرى

مؤيدة لأحدهما.

ويقول آخرون: - وهم أقرب الى الحق - انه يعمل بالحديث المانع دون الحديث المبيح للاحتياط والله أعلم

حجيّة السنة

يقول ابن عبد البر[1] تنقسم السنة قسمين:

أحدهما: اجماع تنقله الكافة عن الكافة فهذا من الحجج القاطعة للأعذار إذا لم يوجد هناك خلاف، ومن رد إجماعهم فقد رَدَّ نصا من نصوص، ويجب استتابته عليه واراقة دمه ان لم يتب لخروجه عما أجمع عليه المسلمون وسلوكه غير سبيل جميعهم.

والضرب الثاني من السنة: خبر(الآحاد) الثقات الاثبات المتصل الاسناد، فهذا يوجب العمل عند جماعة علماء الامة الذين هم الحجة والقدوة ومنهم من يقول: انه يوجب العلم والعمل جميعا

ومما تقدم يتبين أن كل سنة من أقسام السنن االثلاثة:

(المتواترة - المشهورة - الآحاد)

حجة واجب اتباعها والعمل بها.

---

(١) جامع البيان العلم وفضله ج ٢ ص ٣٣، ٣٤

أما (المتواترة): فلأنها مقطوع بصدورها وورودها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي تفيد العلم الضروري [١] االذي لا يكون فيه مجال للتكذيب فمن ذا الذي يستطيع أن يكذب ان الصلوات خمس الخ؟

ولذلك يقرر العلماء: أن العلم بطريق التواتر يشبه العلم بطريق الحس من حيث انه لا مجال فيه للمخالفة، علما بان افادة المتواتر العلم الضرورى ليس موضع اتفاق بين العلماء فمن العلماء من قال: انه يفيد العلم القطعي ولكن لا بالضرورة كالحس بل بالنظر والاستدلال.

ومنهم من قال: انه مفيد الاطمئنان.

والحق في هذه المسألة أن التواتر قسمان:

أ - تواتر فيما علم من الدين بالضرورة كأصول الفرائض التي بني عليها الاسلام كالصلاة والزكاة، فان العلم بهذه

---

(١) الضروري هو الذي يضطر الانسان اليه بحيث لا يمكنه دفعه. وقيل: لا يفيد العلم الا نظريا وليس بشيء لان العلم بالتواتر حاصل لمن ليس له أهلية النظر كالعامى والنظر ترتيب أمور معلومة أو مظنونة يتوصل بها الى علوم أو ظنون وليس في العامى أهلية ذلك فلو كان نظريا لما حصل لهمْ. والضروري: يفيد العلم بلا استدلال والمتواتر: بخروج رواته عن العد ابتداء وانتهاء صار بمنزله المسموع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتكذيب الرسول كفر، بخلاف (المشهور) لان تكذيب (المشهور) تخطئة جماعة العلماء وهي ليست بكفر.

المتواترات كعلم الضرورة الذي لا يحتاج الى نظر واستدلال، ولذلك طولب به العامة والخاصة،

وقال الشافعي: ان هذه المتواترات لا يسع مسلما أن يجهلها.

ب - أما غير هذه الاصول التي بني عليها الاسلام فان العلم الناجم عن التواتر فيها من قبيل علم الخاصة فيحتاج الى نظر واستدلال

وقيل :انه مفيد للعلم اليقيني بشروطه[١]

على أن المعتمد: هو أن الخبر المتواتر يفيد العلم الضروري.

وأما (المشهورة) أو (سنة الآحاد): فلانها وان كانت ظنية الورود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، الا ان هذا الظن ترجح بما توافر في الرواة من العدالة وتمام الضبط والاتقان، ورجحان الظن كاف في وجوب العمل، لهذا يقضي القاضي بشهادة الشاهد وهي انما تفيد غلبة الظن وكثير من الاحكام مبنية على الظن ولو التزم القطع واليقين في كل أمر عملي لنال الناس الحرج[٢]

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد خاتم النبيين

---

(١) اليقين هو الاعتقاد الجازم المطابق.

(٢) انظر أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ص ٤٣

والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين

والله ولي التوفيق

دكتور حسن عيسى عبد الظاهر

جامعة قطر



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

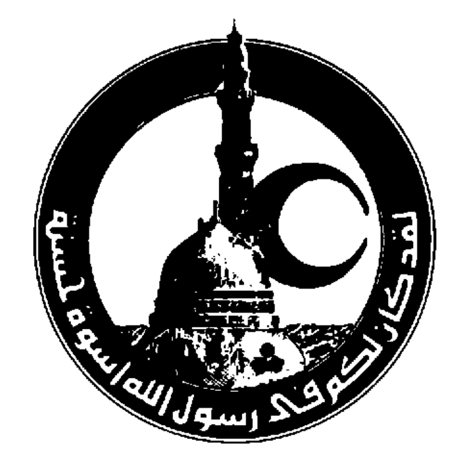
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

دراسة

لكتب السيرة القديمة

ومصادرها الأولى

للدكتور تقي الدين الندوي
« الهند »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة
لكتب السيرة القديمة
ومصادرها الأولى

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وأصحابه أجمعين

أما بعد..

إن الله تعالى قد اختار محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أمينا ومعلما مبينا.. واختار له دينا قويما وهداه في كتابه صراطا مستقيما، ارتضاه لجميع البشر إماما وجعله للشرائع النبوية ختاما، فانتهت اليه سلسلة النبوات، فقال تعالى: «ما كان محمد ابا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شيء عليما[١]».

والشريعة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي شريعة تصلح لكل زمان ومكان، وصرح القرآن بأن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال والوفاء بحاجات

---

(١) سورة الأحزاب - آية ٤٠

البشر والصلاحية للبقاء والاستمرار فقال: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » [1]

وكذلك وصف القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ختم به النبوة بصفات تشير إشارة بليغة إلى خلود رسالته،وكونه قدوة صالحة وأسوة حسنة في كل عصر وجيل ولكل طبقة من الناس من غير تقييد بزمان ومكان ، فقال: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » [2].

إن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم هي السيرة الكاملة الشاملة لجميع أطوار الحياة ولا يمكن أن تكون حياة أحد كائنا من كان - مثالا يقتدى ونموذجا يحتذى إلا إذا توفر لها عنصران ، أولهما: الدقة والصحة في نقل تفاصيل تلك الحياة ، والآخر أن يكون صاحبها متصفا بالكمال في جميع جوانب حياته.

وهذان الأمران لم يتوفرا لأحد في التاريخ البشري المدوّن كما توفرا لنبي الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم..

---

(١) المائدة - آية ٣
(٢) الأحزاب - ٢١

وحياة رسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم من ميلاده الى ساعة وفاته معلومة للذين عاصروه وشاهدوه وحفظها التاريخ عنهم لمن بعدهم ومعلومة تفاصيل حياته صلى الله عليه وسلم، ليلها كنهارها.

نحن معشر المسلمين - نؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين، ونعظمهم بلا استثناء مع علمنا بأنهم متفاضلون (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)[1].

ولكن التدوين الكامل ما قدره الله إلا لسيرة آخر المرسلين وخاتم النبيين محمد صلى الله عيه وسلم، أما غيره من الانبياء فلم تكن سيرتهم خالدة ولا محفوظة لأنهم قد أرسلوا الى أممهم في عهدهم، والذي سجل في القرآن والسنة من ذلك قليل من كثير.

لقد حاولت في هذا البحث الموجز دراسة كتب السيرة القديمة ومصادرها الأولى دراسة جامعة وشاملة لتكون نبراسا لمن يريد أن يؤلف في هذا الموضوع أو يريد الاستفادة من هذه المصادر، وجعلته فصلين:

الأول: مصادر السيرة والمؤلفون القدماء في هذا الموضوع.

---

(١) البقرة - آية: ٢٥٣

والثاني: كتب السيرة في ميزان العلم والتاريخ.

أدعو الله العلي الكريم أن يكون قد وفقني لعرض هذا الموضوع باسلوب مناسب حتى تتحقق الغاية منه. والله ولي التوفيق.

مصادر السيرة النبوية

إن سيرة محمد رسول الله صلى الله عيه وسلم أكمل السير كما كانت أجملها، وهي مؤسسة على نصوص قرآنية ووثائق تاريخية ودقائق في الْخَلْقِ والْخُلُق، وتفاصيل في العادات والعبادات والأخلاق والمعاملات، لا يتصور فوق ذلك.

ونريد أن نذكر المصادر التي أخذت عنها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وهَدْيه:

(١) المصدر الأول «القرآن الكريم»:

إن أهم ما في سيرته صلى الله عليه وسلم وأوثقه وأكثرها صحة هو ما اقتبس من القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. تنزيل من حكيم حميد.. هذا هو الذي لا يشك فيه أحد، وإن القرآن يقص علينا جميع شئون حياته. أحيانا بالتفصيل وأحيانا بالاجمال حتى ذكر لنا طرفا من شئونه قبل النبوة، يتمه وفقره وتحنثه بغار حراء كما ذكر لنا شئون حياته بعد النبوة من نزول الوحي عليه

وتبليغه إياه وشرحه وتبيينه والاسراء به وكيفية عداوة المشركين له وهجرته ومغازيه، وقد ذكر القرآن الكريم أخلاقه صلى الله عليه وسلم، « وانك لعلى خلق عظيم »[1].

(٢) المصدر الثاني « كتب الحديث والسنة »:

وهي كتب حفظت لنا من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله، حتى لو أراد إنسان أن يعرف كيف كانت حياته صلى الله عليه وسلم لوجب عليه أن يقرأ في هذه الكتب التي ترينا كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيش في هذه الحياة وكيف كان يقضي ليله ونهاره، وبفضل هذه الثروة الحديثة نحن نعرف عنه صلى الله عليه وسلم من دقائق الأخلاق والعادات والميول والرغبات والقول والعمل مالا نعرف عن كثير من الشخصيات التي عاشت قريبا، بل عن الشخصيات المعاصرة أيضا.

حسب القارىء أن يقرأ قصة حجة الوداع في كتب الحديث، فقد حفظ الرواة فيها كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة، وكل حادثة من حوادثها التي لا تسترعي الانتباه، وليست لها قيمة تاريخية كبيرة، وذلك كله بفضل الحديث الذي سجل لنا هذه الحياة المباركة العظيمة، وقد ألف

---

(١) سورة القلم - آية: ٤

المؤلفون سيرة محمد صلى الله عليه وسلم في مختلف العصور والبقاع مستمدين من هذه الكتب. وهي مجموعة خص الله بها هذه الأمة، فلا نعرف أمة من أمم الرسل سعدت بمثل هذه المجموعة الناطقة، وقد نالت اهتماما كبيرا من علماء المسلمين، مالم ينله تراث بشر في الأولين والآخرين.

وقد وضع علماء الحديث قواعد دقيقة لكل ما نسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ونقل عنه، وجهدهم في هذا المجال جدير بكل احترام وتقدير.

المعروف أن المسلمين أولوا الكتب الستة المشهورة مكانة خاصة، واذا كان الصحيحان يقتعدان مكانة مرموقة فان الكتب الأربعة الأخرى تليها في المنزلة، ويتلوها كتب المسانيد ومن أعظمها مسند الامام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ ثم غيرها من كتب السنة كما هو مذكور في كتب أصول الحديث.

(٣) المصدر الثالث «كتب دلائل النبوة»:

اهتم بها العلماء والمحدثون، ففي كتب الصحاح نجد أبوابا مفردة تجمع بعض معجزات الرسول وتشير إلى دلائل صدقه، ومن ذلك ما نجده في صحيح البخاري «باب

علامات النبوة في الاسلام »[1] ثم روايته لبعض المعجزات في كتاب السيرة من صحيحه مثل معجزة انشقاق القمر، ونبع الماء وتكثير الطعام.

وكذلك صنع مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحه في باب معجزات الرسول، وكذلك ورد في مسند أحمد أيضا هذه الدلائل منثورة في مسند كل صحابي.

أما افراد موضوع دلائل النبوة بالتأليف، فمن أقدم ما وصل الينا:

(١) دلائل النبوة للامام ابو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني صاحب حلية الأولياء المتوفى سنة ٤٣٠هـ.

وقد طبع مختصر لهذا الكتاب في حيدر آبار - الهند للمرة الثانية ١٣٦٩ - ١٩٥٠، وفي هذا الكتاب يعرض أبو نعيم لفضائل الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يتناول ذكره في الكتب المتقدمة، ثم يستعرض حياة الرسول مشيرا الى جانب المعجزة أو حجة التصديق في كل موقف، والكتاب تختلط فيه

---

(١) البخاري ٢/ ١٤٠ط الاميرية.

الأخبار الصحيحة بالواهية والمنقطعة على عادة جامعي الحديث والأثر.

(٢) دلائل النبوة لمحمد بن يوسف بن واقد الفريابي المتوفى سنة ٢١٢هـ، قال الذهبى انه ثقة ثبت [١].

(٣) دلائل النبوة للحافظ أبي العباس جعفر بن محمد المعتز المستغفري المتوفى ٤٣٢ - قال ابن منده: إذا وجدت في اسناد زاهدا فاغسل يدك من ذلك الحديث [٢].

(٤) دلائل النبوة للبيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ، وهو يعرض للمعجزات الحسية بتفصيل كثير يمتلىء بالأخبار الواهية والمكذوبة إلى جانب عرضه للسيرة في بداية كتابه - قد طبع الكتاب عدة مرات - وطبع أخيرا بالقاهرة بتحقيق السيد أحمد صقر.

(٥) اعلام النبوة لأبي الحسن على بن محمد الماوردي الشافعي المتوفى سنة ٥٠٠هـ - وطبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٣١٩هـ. ويمتاز هذا الكتاب باعتماده

---

(١) تذكرة الحافظ ١/ ٣٧٦

(٢) كشف الظنون ٣/ ٢٣٧، وطبقات السيوطي ٤٢٥ - وشذرات الذهب ٣/ ٢٤٩ - وتاريخ الأدب العربي ٥/٢٢٧.

على الحجة العقلية الى جوار ما ينقله من آثار.

(٦) دلائل النبوة «لأبي القاسم اسماعيل الأصفهاني المتوفى سنة ٥٣٥هـ،وهو امام كبير في الحديث واللغة والأدب.[١]

(٧) الخصائص الكبرى (طبع بالهند) للامام جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة ٩١١هـ، ويشتمل هذا الكتاب على السيرة والدلائل والشمائل.

(٤) المصدر الرابع - «كتب الشمائل»:

هي الكتب التي تتضمن على ذكر أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وعاداته وفضائله وما كان يعمل من الصباح الى المساء وفي ليله من المساء الى الصباح، وهو موضوع اهتم به علماء الاسلام منذ القدم، وألفوا فيه كتبا كثيرة منها:

١ - الشمائل النبوية والخصائل المصطفوية «لأبي عيسى محمد بن أبي سورة الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩هـ من اجمع ما صنف في صفاته صلى الله عليه وسلم وهديه، طبع في جزء وسط في دار الطباعة العامرة بدمشق، وقد صنف محمود السامي (المختصر في الشمائل المحمدية وشرحها) على (شمائل الترمذي) طبع سنة

---

(١) الرسالة المستطرفة ص ٥٧.

١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م بالقاهرة.

٢ - أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه: للحافظ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ المتوفى سنة ٣٦٩هـ، جمع فيه جميع صفات الرسول عليه الصلاة والسلام في خلقه وأخلاقه وهديه وحاجاته، وجل ما يتصل به، طبع الكتاب في مجلد وسط بتحقيق عبد الله محمد الصديق الغماري في سنة (١٣٧٨هـ - ١٩٥٩) بالقاهرة

٣ - كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (٤٧٩ - ٥٤٤هـ) - هو كتاب قيم يحتاج اليه كل مسلم، طبع هذا الكتاب في جزأين لطيفين سنة ١٢٩٠هـ بمطبعة خليل أفندي في الخلافة العثمانية وطبع بعد ذلك مرارا. وطبع بدمشق ١٣٩٠هـ طبعة جيدة بتعليق عبد الفتاح السيد واخوانه. وللسيوطي كتاب (مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا) وقد طبع بالقاهرة سنة ١٢٧٦هـ.

وقد تصدى بعض العلماء لشرح (الشفاء) ومن هذه الشروح (شرح الشفا) للشيخ علي بن سلطان القاري المتوفي ١٠١٤هـ، طبع في جزأين كبيرين سنة ١٣١٦هـ و(نسيم الرياض في

شرح الشفاء للقاضي عياض) لشهاب الدين أحمد بن محمد عمر الخفاجي المصري المتوفى ١٠٦٩هـ وهو شرح واف جامع، طبع في أربعة أجزاء كبيرة سنة ١٢٦٧هـ في دار الطباعة العامرة بدمشق، وصنف في هذا الموضوع علماء آخرون، منها (كتاب شمائل النبي) صلى الله عليه وسلم لأبي العباس المستغفري المتوفى سنة ٤٣٢و (النور الساطع) لابن المقرىء الغرناطي المتوفي سنة ٥٥٢و (سفر السعادة) بالفارسية لمجد الدين الفيروز آبادي المتوفى سنة ٨١٢هـ و (شمائل الرسول) للامام ابي الفداء اسماعيل بن كثير (٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

وطبع هذا الكتاب بتحقيق مصطفى عبد الواحد بالقاهرة سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٧م).

(٥) المصدر الخامس «كتب المغازي وكتب السيرة»:

ومعظم ما ذكر فيها الغزوات النبوية وقد تتضمن أمورا أخرى.

وقد اعتنى عمر بن عبد العزيز رحمه الله بفن المغازي اعتناء تاما، وكان عمر بن قتادة الأنصاري المتوفى ١٢٠هـ له علم بالمغازي والسيرة أمره أن يجلس بمسجد دمشق فيحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة [1].

---

(١) قد ظهرت سيرة الرسول بالمعنى الدقيق للكلمة في كتب كبيرة نسبيا باسم «المغازي»، وقد عرفت هذه الكتب في وقت مبكر باسم السيرة، ولذا قالوا مغازي ابن =

ويبدو من كتب التاريخ أن عددا من المؤلفين في القرن الأول الهجري قد اهتم بالتأليف فيها.

نريد أن نقدم قائمة أسماء المؤلفين في السيرة والمغازي ومؤلفاتهم بالاختصار ولو كانت كتب أكثرهم لا توجد الآن لكنها اندمجت وذابت في مؤلفات المتأخرين في السيرة، ونستطيع أن نعرف مكانة كل رواية بهذا الطريق:

١ - ابان بن عثمان بن عفان المتوفى ١٠٥ هـ.. ويعد من فقهاء المدينة الذي كتب صحفا عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم[١].

٢ - الشعبي - هو أبو عمرو عامر بن شراحيل الشعبي، ولد بالكوفة سنة ١٩ هـ ادرك خمسمائة من الصحابة.. قال عبد الملك بن عمير: مر ابن عمر على الشعبي وهو يحدث بالمغازي، كان محدثا عالما في الفقه والمغازي توفي سنة ١٠٣ هـ وذكر من مؤلفاته الخطيب

= هشام أيضا ولو كان الكتاب معروفا بسيرة ابن هشام. وان الحافظ ابن حجر العسقلاني استعمل كلا الاسمين في كتابه فتح الباري... وقد عقد كثير من المحدثين والفقهاء في مؤلفاتهم كتاب الجهاد والسير ويريدون بلفظ الجهاد أحكامه وبلفظ السير غزوات النبي صلى الله عليه وسلم حتى صار فن المغازي والسيرة فنا مستقلا عند المحدثين. انظر: فتح الباري ج٧ ص٣٣٢.

(١) أنظر ترجمته في تهذيب الأسماء واللغات ١/٩٧ وتهذيب التهذيب ١/٩٧.

«المغازي»[1].

٣ - عروة بن الزبير بن العوام المتوفى سنة ٩٤ هـ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث فقيها عالما ثبتا مأمونا..

- عن ابن عيينة كان أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة: عروة وعمرة والقاسم..

- قال الذهبي: كان عالما بالسيرة، قيل هو أول من صنف في المغازي[2]

٤ - وهب بن منبه: المتوفى ١١٤هـ هو تابعي جليل من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية واتفقوا على توثيقه[3].

٥ - عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى المتوفى ١٢٠هـ... قال ابن سعد كان راوية للعلم وله علم بالمغازي والسيرة، أمره عمر بن العزيز أن يجلس في مسجد

---

(١) له ترجمة في طبقات السيوطي ٣٢ وتذكرة الحفاظ ١/٧٨ وتهذيب التهذيب ٧/٢٣ وطبقات ابن سعد ٥/١٨٥ وتاريخ بغداد ١٢/٢٣٠.

(٢) انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ١/٦٢ وتهذيب التهذيب ٧/١٨٠ وحلية الأولياء ٢/١٧٦والاعلام للزركلي ٥/١٧ وكشف الظنون: ١٧٤٧.

(٣) له ترجمة في تهذيب الأسماء واللغات للنووي جـ٢ ص ١٤٩ وتهذيب التهذيب ١١/١٦٦ وطبقات ابن سعد ٥/٣٩٥ ووفيات الاعيان ٢/١٨٠ وشذرات الذهب ١/١٥٠.

دمشق فيحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة ففعل وكان ثقة كثير الحديث عالما..

- وذكره ابن حبان في الثقات[1].

٦ - محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري المتوفى ١٢٤ هـ يقولون تارة الزهري - وتارة ابن شهاب ينسبونه الى جد جده، روى عنه خلائق من كبار التابعين وصغارهم ومن اتباع التابعين ومن شيوخه، قال الليث: ما رأيت عالما قط اجمع من ابن شهاب ولا أكثر علما منه، وكان ابن شهاب يقول: ما استودعت قلبي شيئا قط فنسيته.. وعن ابراهيم بن سعد بن ابراهيم قال: قلت لابي: بم فاقكم الزهري؟ قال: كان يأتي المجالس من صدورها ولا يأتيها من خلفها ولا يبقى في المجلس شابا الا سأله ولا كهلة الا سألها حتى ربات الحجال[2].

وقال السخاوي: إن الزهري روى المغازي عن عروة (الاعلان بالتوبيخ ص٨٨) - ويبدو أن البخاري قد أفاد من هذا الكتاب برواية موسى بن عقبة

---

(١) تهذيب التهذيب ٥/٥٣ و ٥٤.

(٢) طبقات السيوطي ٤٢ وتهذيب الأسماء واللغات ١/٩١.

(انظر صحيح البخاري ٥/ ٨٦).

وتوجد له مخطوطة في مجموعة محفوظة بالظاهرية مجموع ٩٢، ١١٧٤[١].

٧ - السبيعي: هو أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني المتوفى ١٢٧ هـ عاش في الكوفة وروى عن ٣٨ صحابيا وكان مشهورا بمعرفة المغازي[٢].

٨ - يعقوب بن عتبة بن المغيرة المدني المتوفى ١٢٨ هـ، كان معاصرا للزهري عارفا بسيرة الرسول[٣].

٩ - عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم المدني المتوفى ١٣٠ هـ كان محدثا ومؤرخا وقد ألف بدوره المغازي[٤].

١٠- يزيد بن رومان الاسدي المدني المتوفى ١٣٠ هـ، كان محدثا ومؤلفا في المغازي وكان يعتمد في المقام الأول على عروة والزهري وروى عنه محمد بن اسحاق ومالك بن أنس وهشام بن عروة وغيرهم[٥].

---

(١) تاريخ التراث العربي: جـ١ ص ٤٥٣.

(٢) التهذيب لابن حجر ٦٣/٨ - ٦٨ والمعارف لابن قتيبة ٢٢٩ والاعلام للزركلي ٢٥١/٥.

(٣) تهذيب التهذيب ٣٩٢/١١.

(٤) الفهرست لابن النديم ٢٢٦ وتاريخ التراث العربي جـ٢ ص ٤٥٥

(٥) التهذيب لابن حجر ٢٢٥/٩ والاعلام للزركلي ٢٣٤/٩.

١١- داود بن الحسين هو أبو سليمان داود بن الحسين الأموي المتوفى ١٣٥ هـ، كان تلميذ عكرمة ونافع وغيرهما، وهو شيخ مالك وابن اسحاق وقد ضعف بعض المحدثين رواياته واعتبرها بعضهم جديرة بالثقة، ويبدو انه قصر اهتمامه على حياة الرسول وصحابته[١].

١٢- ابو المعتمر سليمان بن طرخان التميمي المتوفى بالبصرة سنة ١٤٣هـ،روى عن أنس بن مالك وعدد من قدامى التابعين مثل الحسن البصري وكان بصفة عامة موضع ثناء لدقة مروياته، من آثاره كتاب المغازي..

حصل الخطيب البغدادي في دمشق على حق روايته (انظر: مشيخة الخطيب البغدادي في الظاهرية، مجموع ١٨، ١٢٦ ب).

وهناك مقتبسات في كتاب المغازي من صحيح البخاري[٢].

١٣- موسى بن عقبة بن أبي عياش أبو محمد الأسدي المتوفى

---

(١) تاريخ التراث العربي جـ٢ ص ٤٥٦ وتهذيب التهذيب ١٨١/٣

(٢) أنظر تاريخ التراث العربي ٤٥٧/٢

١٤١ هـ.

كان لآل الزبير رقيقا وقد رأى عبد الله بن عمر، وكان تلميذ الزهري وعاش في المدينة، وكانت له في مسجد الرسول حلقة علم يمنح فيها كذلك اجازاته العلميـة، وكان جل اهتمامه ينصرف الى مغازي الرسول والخلفاء الراشدين، وقد ألف كتابا في المغازي، وصار هذا الكتاب من أهم المراجع في هذا..

كان مالك اذا سئل عن المغازي يقول: عليكم بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة فإنها أصح المغازي[1]

ويبدو ان اصل الكتاب قد ضاع، ولم تبق منه نسخ...

وهناك قطعة من نص منه هذبه يوسف بن محمدابن عمر بن قاضي شهبةالمتوفى ٧٨٩ واختصر بعنوان: كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير، ليوسفابن عبد الله بن عبد البر النمرى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ[2].

١٤- محمد بن اسحاق بن يسار ابو عبد الله المدني المتوفى سنة

---

(١) تذكرة الحفاظ ١٤٨/١ وتهذيب التهذيب ٣٦٠/١٠ وشذرات الذهب ٢٠٩/١ والنجوم الزاهرة ٣٤٥/١ ومعجم البلدان ١٠٠٨/٤ وطبقات ابن سعد ٣١٠/٥.

(٢) تاريخ التراث العربي جـ٢ ص ٤٥٨.

١٥٠ هـ، هو ثبت في الحديث عند أكثر العلماء، ولا تجهل إمامته في المغازي والسير، قال ابن شهاب الزهري: من أراد المغازي فعليه بابن اسحاق، قال أحمد بن حنبل: حسن الحديث..

وقال الشافعي: من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد ابن اسحاق، واكثر ما عيب به التدليس، وقال شعبة بن الحجاج: ابن اسحاق أمير المؤمنين أي في الحديث وذكر الساجي: إن أصحاب الزهري كانوا يلجئون الى محمد بن اسحاق فيما شكوا فيه من حديث الزهري ثقة منهم بحفظه، وحكى عن يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان انهم احتجوا بحديثه...

قال المرزباني: محمد بن اسحاق أول من جمع من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألفها وقد طعن فيه مالك ثم رجع عن ذلك[1].

روى عنه البخاري في جزء القراءة وأخذ عنه روايات كثيرة في التاريخ ومن آثاره «كتاب

---

(١) انظر ترجمته في الطبقات لابن سعد ٦٧/٢/٧. الفهرست لابن النديم ٩٢ - التهذيب لابن حجر ٣٨/٩ والاعلام للزركلي ٣٥٢/٦.

المغازي »..

وينقسم إلى ثلاثة أقسام هي: المبتدأ والمبعث، والمغازي..

ومن رواة هذا الكتاب يونس بن بكير الشيباني المتوفى سنة ١٩٩ هـ. وتوجد منه نسخة حديثة في الرباط ١٧١٢ كما توجد قطعة أخرى منه في الظاهرية مجموع ١١٠[١].

وقد هذب هذا الكتاب ابن هشام بعد أن أخذ اجازة روايته من زياد بن عبد الله البكائي المتوفى سنة ١٨٣ هـ.

١٥- معمر بن راشد الأزدي المتوفى ١٥٠، انه من تلاميذ الزهري وكان من أركان علم الحديث وألف كتابا في « المغازي »[٢]

١٦- أبو محمد عبد الرحمن بن عبد العزيز الحنيفي المتوفى سنة ١٦٢هـ، روى عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر بن حزم وغيرهما،

---

(١) انظر تاريخ التراث العربي جـ٢ ص ٤٦١.

(٢) السيرة النبوية للعلامة السيد سليمان الندوي جـ١ ص ٢٩ نقلا عن الفهرست لابن النديم.

وروى عنه الواقدي وسعيد بن أبي مريم وغيرهما، وكان في عصره عالما بالسيرة مشهورا بها،[1].
وكتابه السيرة أحد المصادر الأساسية للواقدي.

١٧- محمد بن صالح بن دينار المتوفى ١٦٨ هـ إنه روى عن الزهري وروى عنه الواقدي، قال ابن سعد انه كان عالما بالسيرة والمغازي، وثقه كثير من المحدثين، وقال ابو الزناد- وهو من كبار المحدثين-: من أراد أن يتعلم المغازي فعليه بمحمد بن صالح[2].

١٨- أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي المتوفى سنة ١٧٠هـ، انه روى عن هشام بن عروة وغيره وروى عنه الثوري والواقدي، كان مؤرخا ذا مكانة أرفع من ابن اسحاق (انظر التهذيب لابن حجر ٤٢٢/١٠) ولكن روايته للحديث كانت ضعيفة (انظر: الطبقات لابن سعد ٣٠٩/٥).
ذكر ابن النديم ان له كتابا في المغازي[3].

---

(١) التاريخ الكبير للبخاري ٣١٨/١/٣ والجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي ٢٦٠/٢/٢.

(٢) السيرة النبوية جـ١ ص ٣٠

(٣) الفهرست لابن النديم ٩٣، تاريخ بغداد ٤٥٧/١٣، التهذيب لابن حجر ٤١٩/١٠، والاعلام للزركلي ٣٢٨/٨.

حصل الخطيب البغدادي في دمشق على اجازة روايته (انظر مشيخة الظاهرية، مجموع ١٨، ١٢٦ب). وقد وصل الينا قسم من هذا الكتاب في كتاب الواقدي المعنون بنفس الاسم وكذلك في كتاب الطبقات الكبير لابن سعد، وكذلك عند الطبري[١].

١٩- عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن المخرمي أبو محمد المدني المتوفى ١٧٠ هـ قال ابن سعد: كان من رجال أهل المدينة علما بالمغازي والفتوى ولم يزل يؤمل فيه أن يلي القضاء حتى مات، ومات بالمدينة، وقال الترمذي: ثقة عند أهل الحديث[٢].

٢٠- عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم الأنصارى المتوفى ١٧٧ هـ روى عنه ابن اسحاق، ذكره ابن حبان في الثقات، كان جليلا من أهل العلم والسير والحديث، وقال حاتم بن الليث عن الشريح ابن نعمان كتبنا عنه المغازي[٣].

٢١- علي بن مجاهد الكابلي المتوفى ١٨٠ هـ روى عن أبي

---

(١) تاريخ التراث العربي ٢/٤٤٦

(٢) تهذيب التهذيب ٥/١٧٣

(٣) تهذيب التهذيب ٦/٣٨٨

معشر نجيح المدني ، وقال أبو داود عن أحمد كتبت عنه ما ارى به بأسا ، قال صالح ابن محمد سمعت يحيى ابن معين سئل عن علي بن مجاهد فقال:

كان يضع الحديث ، وكان صنف كتاب المغازي فكان يضع للكل اسنادا ولم يسمع من ابن اسحاق[١] .

٢٢- زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي أبو محمد المتوفى ١٨٣ هـ ، عن ابن معين: ليس بشيء وكان عندي في المغازي لا بأس له ، وقال ابو داود عن ابن معين: زياد البكائي عن ابن اسحاق ثقة كأنه يضعفه في غيره ، مات في ١٨٣ ، عن ابن ادريس: ما أحد أثبت في ابن اسحاق منه لأنه أملى عليه إملاء مرتين ، وقال صالح ابن محمد: ليس كتاب المغازي عند أحد أصح منه عند زياد، وزياد في نفسه ضعيف ولكن هو أثبت الناس في هذا الكتاب ، وذلك انه باع داره وخرج به مع ابن اسحاق حتى سمع منه الكتاب ، روى له البخاري حديثا مقرونا بغيره[٢] .

٢٣- سلمة بن الفضل الأبرش الأنصاري المتوفى ١٩١ هـ ،

---

(١) تهذيب التهذيب ٣٧٨/٧

(٢) تهذيب التهذيب ٥٣/٥ .

هو من رواة سيرة ابن اسحاق تولى القضاء في ري، وهو ضعيف عند المحدثين ولكن ابن معين يوثقه في المغازي ويرى كتابه كتابا حسنا في السيرة، وروى عنه الطبري روايات كثيرة[1].

٢٤- يحيى بن سعيد بن أبان الأموي الكوفي المتوفي سنة ١٩٤ هـ.

روى عن هشام بن عروة ومحمد بن اسحاق وغيرهما، قال ابن سعد: انه قليل الرواية ولكنه ثقة، وذكر حاجي خليفة انه من الذين صنفوا المغازي[2].

٢٥- أبو العباس الوليد بن مسلم الأموي الدمشقي المتوفي سنة ١٩٥ هـ- روى عن الأوزاعي وابن جريج وغيرهما، وكان مؤرخا مرموق المكانة، ومحدثا مشهورا كذلك ويلقب «بعالم الشام»، ألف حوالي ٧٠ كتابا منها: «كتاب المغازي»[3].

٢٦- يونس بن بكير الشيباني الكوفي المتوفى سنة ١٩٩ هـ،

---

(١) السيرة النبوية ١/٣٢ وخلاصة تذهيب الكمال ١٤٩.

(٢) الطبقات لابن سعد ٦/٣٩٨، تهذيب التهذيب ١١/٢١٣ وخلاصة تذهيب الكمال ٣٦٣، والسيرة النبوية ١/٣٢.

(٣) الفهرست لابن النديم: ١٠٩، ٢٢٨ وميزان الاعتدال للذهبي ٣/٢٧٥، وطبقات ابن سعد جـ٧ ق ٢ ص ٢٠٥

روي عن هشام بـن عروة وابن اسحق، وثقه كثير من المحدثين، قال الذهبي في تذكرة الحفاظ: صاحب المغازي وانه الف ذيلا على مغازي ابن اسحاق[1].

٢٧- ابو حذيفة اسحاق بن بشير بن محمد البخاري المتوفى ٢٠٦هـ، روى عن مالك والثوري وغيرهما ويعد محدثا ضعيفا، ذكر له ابن النديم في الفهرست ٩٤: كتـاب المبتـدأ، وصـل الينـا منه قسمان: الرابع والخامس حول سيرة محمـد صـلى الله عليه وسلم: الظاهرية، مجموع ٧١ (الأوراق من ١٥٠- ١٦٢، في القرن الخامس الهجري) وكذلك حديث ٣٥٩ (من ١١٤، أ- ١٣٤، أ، في القرن السادس الهجري).

انظر العش ٣١٤، وبروكلمان، ٦٦٣/٢[2].

٢٨- الواقدي: هو محمد بن عمر بن واقد الواقدي أبو عبد اللهالمدني الأصل بغدادي السكن والوفاة، المتوفى سنة ٢٠٧ هـ،كـان عالما محدثا اخباريا، ومن أقدم المؤرخـين في الاسلام ومن اشهرهم ومن حفـاظ

(١) انظر شرح الزرقاني على المواهب ١٠/٣ وتذكرة الحفاظ ٣٢٦/١

(٢) تاريخ التراث العربي ٤٧/٢.

الحديث وأشهر من روى عنه كاتبه محمد بن سعد صاحب كتاب الطبقات الكبرى.

وله مؤلفات كثيرة منها أخبار مكة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم والتاريخ الكبير والمبعث والمغازي وفتوح الشام وفتوح العراق وكتاب السيرة وكتاب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك[١].

وطبع المغازي النبوية بمصر سنة (١٣٦٧ هـ-١٩٤٨م) ذكر في كتابه غزوات النبي صلى الله عليه وسلم الى وفاته، وسيأتي الكلام على الواقدي في الباب الثاني.

٢٩- يعقوب بن ابراهيم بن سعد الزهري المتوفي ٢٠٨هـ، روى عنه الزهري وابن معين روايات عن المغازي[٢].

٣٠- عبد الرزاق بن همام الحميري المتوفى ٢١١هـ كان محدثا مفسرا أحد الأعلام.

قال أحمد: أتيناه قبل المائة وهو صحيح البصر، ومن سمع منه بعد ما ذهب بصره فهو ضعيف السماع، كان

(١) الطبقات لابن سعد (بيروت) ٤٢٥/٥ - ٤٣٣، والبداية والنهاية لابن كثير والاعلام للزركلي ٢٠٠/٧ - ٢٠١ الفهرست لابن النديم ٩٨ - ٩٩.
(٢) طبقات السيوطي ١٤١ وطبقات ابن سعد جـ٧ ق ٢ ص ٨٢.

له تأليف في المغازي[1].

٣١- ابن هشام، هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفى ٢١٨هـ أو ٢١٣ هـ مؤرخ ونسابة ونحوي، ولد في البصرة، وعاش في مصر.

وقال السيوطي: وثقة أبو سعد بن يونس[2].

ومن آثاره:

سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، لخص ابن هشام في كتابه السيرة التي صنفها محمد بن اسحاق وهذبها ونبه إلى أشياء كثيرة تتضح لمطالع السيرة، إنه قد روى عن زياد بن محمد البكائي المتوفى ١٨٣ هـ وهو اتقن من روى السيرة عن ابن اسحاق، وتعد سيرة ابن هشام من أقدم واجمع ما دون في السيرة، طبع الكتاب في أربعة أجزاء كبيرة بتحقيق الاستاذ محمد محي الدين عبد الحميد بمصر سنة (١٣٥٦- ١٩٣٧) كما طبع عدة مرات ومنها طبعة بتحقيق مصطفى السقا واخوانه.

---

(١) الفهرست لابن النديم ٢٢٨ والرسالة المستطرفة ص ٤٠ وتهذيب التهذيب ٣١٠/٦ وتهذيب الأسماء واللغات ١٩١/١ والبداية والنهاية ٢٦٥/١٠.

(٢) بغية الوعاة ص ٣١٥ وشذرات الذهب ٤٥/٢ والاعلام للزركلي ٣١٤/٤.

وهذب الاستاذ عبد السلام هارون سيرة ابن هشام تهذيبا جيدا وطبع التهذيب الطبعة الثانية سنة ١٩٦٤ في القاهرة.

ولخص سيرة ابن هشام الامام محمد بن عبد الوهاب وطبع عدة مرات.

٣٢- محمد بن سعيد بن منيع البصري الحافظ كاتب الواقدي نزيل بغداد المتوفى ٢٣٠هـ، روى عن ابي داود الطيالسي والواقدي وغيرهم، وقال الخطيب: كان من أهل العلم والفضل وصنف كتابا كبيرا في طبقات الصحابة والتابعين ومن بعدهم الى وقته فأجاد وأحسن[١].

ويعتمد أكثر كتابه في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم على كتاب الواقدي، يهدف هذا الكتاب أساسا الى تدوين سيرة مفصلة للرسول صلى الله عليه وسلم، وقد يكون هذا سبب تسمية الكتاب: أخبار النبي (انظر: الفهرست لابن النديم ٩٩)، وطبع هذا الكتاب في اثني عشر مجلدا عدة مرات في القاهرة وبيروت

(١) التاريخ الكبير للبخاري ١/١/٢٠٧ والرسالة المستطرفة ١٣٨ والاعلام للزركلي ٧/٤٨ والتهذيب لابن حجر ٩/٢٤١.

وخص المؤلف الجزء الأول وجل الجزء الثاني من الكتاب للسيرة النبوية بأخبار مسندة ويعد هذا الكتاب من أوثق ما دون في هذا العلم

٣٣- أبو عبد الله محمد بن عائذ الدمشقي الكاتب المتوفي سنة ٢٣٣ هـ صاحب المغازي وغيرها، وثقه ابن معين وغيره[١] وكتابه المغازي أحد المصادر الرئيسية لكتاب: عيون الأثر لابن سيد الناس.

٣٤- أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة البغدادي المتوفي ٢٩٩ هـ، روى عن أحمد بن حنبل وابن معين وروى عنه الطبري وغيره، كان عارفا بعلم الحديث والأدب والتاريخ والسير، وله التاريخ الكبير ويشتمل الجزء الكبير من هذا الكتاب على السيرة النبوية[٢].

٣٥- الامام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير أبو جعفر الطبري المتوفى ٣١٦ هـ أحد الاعلام، صاحب التصانيف، قال الخطيب: كان أحد الأئمة يحكم بقوله ويرجع الى رأيه لمعرفته وفضله، جمع من العلوم مالم

---

(١) طبقات السيوطي ٢٠٦ - وشذرات الذهب ٢/٧٨.

(٢) الفهرست لابن النديم ٢٣ وشذرات الذهب ٢/١٧٤ والاعلام للزركلي ١/١٢٣ ومعجم المؤلفين لكحالة ١/٢٢٧ والمنتظم لابن الجوزي ٥/١٣٩.

يشاركه فيه أحد من أهل عصره ،فكان حافظا لكتاب الله،بصيرا بالمعاني ،فقيها في أحكام القرآن ،عالما بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها ، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين.

بصيرا بأيام الناس وأخبارهم، له تاريخ الاسلام والتفسير الذي لم يصنف مثله ، وقد استوعب المجلد الثاني من تاريخه السيرة النبوية وهي من أوثق ما دون في السيرة لما عرف به الامام الطبري من الدقة والتحقيق وسعة الاطلاع[1] .

وكتابه جامع للكتب التي أتيحت للطبري والتي كانت قد ألفت في القرنين السابقين عليه أي في الفترة ما بين سنة ٥٠ هـ ، ٢٥٠ هـ على وجه التقريب ، وقد قدم الأستاذ جواد علي دراسة حول مصادر تاريخ الطبري وعرف أن الطبري قد استقى مادته من مصادر مدونة[2] .

وطبع الكتاب في سنة ١٣٥٨هـ/١٣٥٩هـ بمصر في ثلاثة عشر مجلدا .

---

(١) الفهرست لابن النديم ٢٣٤ وتاريخ بغداد ١٦٢/٢ والاعلام للزركلي ٢٩٤/٦
(٢) تاريخ التراث العربي ٥٢١/٢ .

هذه لمحة موجزة عن مصادرة السيرة القديمة ونريد بعد ذلك أسماء كتب المتأخرين الذين ألفوا في السيرة واندمجت وذابت فيها كتب المتقدمين، منها:

(١) الروض الأنف للإمام المحدث عبد الرحمن السهيلي المتوفي ٥٨١هـ، هو إيضاح ما وقع في سيرة - رسول الله صلى الله عليه وسلم - التي سبق الى تأليفها محمد ابن اسحاق المطلبي ولخصها عبد الملك بن هشام المعافري المصري النسابة النحوي مما بلغني علمه ويسر لي فهمه: تحصل في هذا الكتاب من فوائد العلوم والآداب وأسماء الرجال والأنساب ومن الفقه الباطن اللباب، وتعليل النحو وصنعة الاعراب ما هو مستخرج من نيف ومائة وعشرين ديوانا سوى ما أنتجه صدري[١]، وطبع الكتاب بالقاهرة بتحقيق عبد الرحمن الوكيل.

(٢) المختصر في سيرة خير البشر: للدمياطي هو الحافظ الحجة الفقيه النسابة شيخ المحدثين شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن الشافعي المتوفى سنة ٧٠٥هـ.

---

(١) الروض الأنف جـ١ ص ٣٥.

له نسخة خطية في مكتبة بتنة بالهند، وطبع في القاهرة.

(٣) السيرة النبوية: للامام المحدث المؤرخ المفسر عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير المتوفى ٧٧٤هـ، طبعت في أربعة أجزاء سنة ١٩٦٥ بالقاهرة.

(٤) جوامع السيرة، للامام ابي محمد علي بن احمد (ابن حزم) الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦هـ، أوجز فيه ابن حزم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، طبع في مجلد مع عدة رسائل بتحقيق الدكتور احسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد في دار المعارف بمصر.

(٥) زاد المعاد في هدى خير العباد: للامام الحافظ أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر المشهور بابن القيم الجوزية المتوفى ٧٥٣ هـ، يعد هذا من أقدم ما صنف في فقه السيرة اذ لم يكتف المؤلف بسرد سيرته صلى الله عليه وسلم في جميع مراحل حياته، بل استنبط منها الأحكام وذكر أقوال العلماء في مسائل فقهية كثيرة، وتعرض لدراسات حديثية قيمة لاثبات بعض الأحكام ورد بعض الآراء فلم يكن يترك مجالا لتعليق أو استنباط أو ايضاح الا استفاد منه.

فعد كتابه فريدا فيما صنف قبله وبعده، وهذا الى جوانب فوائد علمية يقف عليها مطالع الكتاب، والتحقيقات الدقيقة التي تدل على سعة علم ابن القيم وقوة حفظه، ويعظم ذلك كله اذا عرفنا انه ألف هذا الكتاب من حفظه وهو في طريقه الى حج بيت الله الحرام كما ذكر في مقدمته - رحمه الله - طبع الكتاب عدة مرات في الهند والقاهرة.

(٦) شرح المواهب اللدنية، لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني المتوفى ١١٢٢هـ طبع في القاهرة في ثماني مجلدات كبار.

(٧) السيرة الحلبية، المسماة (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) للشيخ الفقيه المؤرخ على بن ابراهيم الحلبي الشافعي المتوفى ١٠٤٤هـ صنف فيه سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مجردة عن الأسانيد واكتفى بذكر راوي الخبر فقط، وشرح بعض الغريب وعلق على بعض الحوادث باسلوب لطيف، لقي القبول عند العامة والخاصة.

طبع الكتاب في مجلدين كبيرين سنة ١٣٤٩ هـ بمصر.

(٦) المصدر السادس - «من مصادر السيرة»:

الكتب التي صنفها بعض العلماء المتقدمين في أحوال مكة المعظمة والمدينة المنورة وذكروا فيها ما في هذين البلدين الطيبين من بقاع وأماكن وأودية وجبال وخطط، وذكروا من تولى امارتها بادئين بكل ما له علاقة بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومن أقدم الكتب في هذا الموضوع كتاب محمد ابن الحسن ابن زبالة المخزومي المتوفى في أواخر القرن الثاني الهجري، كان كتابه حول المدينة وذكر اسمه صاحب كشف الظنون «اخبار المدينة» وابن زبالة كان من أصحاب مالك[١] وقد اطلع عليه السخاوي، ويقال: انه كان في مجلد ضخم[٢].

وأخبار مكة المشرفة أو كتاب فضائل الكعبة: لابي الوليد الأزرقي أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق المتوفى ٢٢٢هـ، كان محدثا روى عن ابن سعد وأحمد بن حنبل وغيرهما، وقد هذب كتابه حفيده أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي المتوفى ٢٥٠ هـ.

طبع الكتاب في مكة المكرمة سنة ١٣٥٢ هـ.

---

(١) كشف الظنون ١٢٢٩هـ

(٢) تاريخ التراث العربي - جـ٢ ص ٤٥٦.

★- وأخبار المدينة لعمر بن شبة المتوفى ٢٦٤ هـ كان مؤرخا ومحدثا ذكر الزركلي ان قسما منها قد وصل الينا[1].

★- والعقد الثمين في أخبار البلد الأمين للتقي الفاسي، تحقيق فؤاد سيد، طبع في القاهرة سنة ١٩٦٢ في مطبعة السنة المحمدية.

★- وتاريخ مكة لمحمد بن اسحاق الفاكهي وطبع مصورا في بيروت ١٩٦٤[2].

كتب السيرة في ميزان العلم والتاريخ

ان كتب الحديث منها الصحاح الستة والموطأ للامام مالك والمسند للامام أحمد معروفة وموثوق بها لدى المسلمين، وكذلك توجد كتب كثيرة أخرى من كتب السنة ولكن المحدثين قد وضعوا قواعد دقيقة لمعرفة صحيحها من سقيمها والراجح منها من المرجوح، وقد تحرى علماء السنة في هذا الأمر الحق وحده، وتمسكوا فيه بالمحجة البيضاء، وكل ما يؤدي اليه الصدق، فكان عملهم هذا من مفاخر الاسلام، وعلى هذه القواعد يستطيع من تمكن وقويت معرفته أن يحكم

---

(١) الاعلام للزركلي ٥/٢٠٦

(٢) انظر في تاريخ التراث العربي ٢/٥٥٧.

بالصحة والضعف اذا لم يجد الحكم على الحديث في مصنفات أئمة الحديث المعتمدة المشهورة.

أما كتب السيرة والمغازي فانها تشتمل على الروايات الصحيحة والضعيفة والواهية، كما قال الحافظ زين الدين العراقي المتوفى ٨٠٦ هـ:

وليعلم الطالب أن السيرا

تجمع ما صح وما قد أنكرا

ولا شك أن هذه الكتب تحتاج الى بحث وتنقيح وتحقيق على القواعد التي وضعها علماء المسلمين لمعرفة الأخبار،وأن هذه القواعد يسرت لكل من شاء حتى في زماننا هذا وفي كل زمان أن يميز بها بين الصحيح والسقيم والغث والثمين والراجح والمرجوح والقوي والضعيف.

ان كتب السيرة كثيرة ولكن يعتبر من أهم المراجع مؤلفات ابن اسحاق والواقدي وابن سعد والطبري، وكل من ألف بعد هؤلاء اقتبس من كتبهم،أما ابن اسحاق فهو حسن الحديث عند أحمد بن حنبل وغيره ووثقه المحدثون خاصة في المغازي.

وأما الواقدي فقد انتقد عليه المحدثون، قال النسائي: كان يضع الحديث، وقال ابن ماجة: ثنا ابن ابي شيبة ثنا

شيخ ثنا عبد الحميد بن جعفر فذكر حديثا في لباس الجمعة، وحسبك بمن لا يجسر أن يسميه ابن ماجة[1]

قلت ان الواقدي جمع في كتابه كل رطب ويابس ومع ذلك لخص كتابه الحافظ ابن حجر العسقلاني، ويوجد لهذا المختصر مخطوط في دار الكتب بالقاهرة ١٤٣/٥[2].

ومكانة ابن حجر العسقلاني في الحديث والجرح والتعديل معروفة عند العلماء، ويرى ابراهيم الحربي ان الواقدي كان أفضل عارف بالتاريخ الاسلامي ولكنه لم يكن يعلم شيئا عن الجاهلية[3].

ثم نحن نرى أن ابن سعد يعتمد اكثر كتابه في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم على كتب الواقدي، ولذلك لا نستطيع أن نرد كل ما روى الواقدي في السيرة، بل نحن نرجع لمعرفة روايات الواقدي أيضا الى قواعد المحدثين، ونحكم على ضوئها من صحيح وضعيف وواهي، والله أعلم بالصواب.

أما الطبري وابن سعد فهما من الثقات عند المحدثين، مع

---

(١) المغنى في الضعفاء جـ٢ ص ٦١٩

(٢) تاريخ التراث العربي جـ٢ ص ٤٧٢

(٣) تهذيب التهذيب ٣٦٥/٩.

ذلك نحن نجد في مؤلفاتها بعض الروايات الضعيفة والموضوعة.

كذلك كتاب ابن اسحاق ليس بموجود عندنا ولكن تلخيصه سيرة ابن هشام مطبوع ومعروف بين أهل العلم، كان ابن هشام اماما في اللغة والنحو كما كان راوية للشعر والاخبار، وقد اتجه الى تهذيب سيرة ابن اسحق التي تلقاها عن رجلين جليلين هما: زياد البكائي ويونس بن بكير، وكان عمل ابن هشام في هذه السيرة ان هذبها واختصرها ويسر للناس الانتفاع بها ،وأصبحت هذه السيرة منذ عرفت بين الناس موضع التقدير والعناية وأقبل عليها العلماء يشرحونها أو يختصرونها أو ينظمونها مما أفاد علم السيرة النبوية فائدة جليلة، وبقيت فيها بعض الروايات الضعيفة والواهية.

ومع هذا أنت تجد لكل رواية إسنادا فلذا سهل على الباحث أن ينظر في السند ويتفقد الرواية.

وخلاصة القول يجب أن نختار طريقا وسطا في اخذ روايات كتب السيرة ولا ينبغي أن نقبل كل ما ورد فيها على الاطلاق.

كذلك ليس من المعقول ان نرمي جميع الروايات برمتها

بسبب وجود الروايات الضعيفة فيها ونتغاضى عن هذه الكتب كلها، لأن فيها خسارة علمية لا تعوض.

ثم نحن نهتم بكتب التفاسير ونستفيد منها ونحقق الروايات الصحيحة من الضعيفة ولا غنى عن كتب التفاسير أبدا، وكذلك يجب أن نختار هذه الخطة لكتب السيرة.

فقد انتقد بعض الناس على كتب السيرة وخاصة على سيرة ابن هشام وأراد أن يهدم هذا الصرح العظيم من كتب السيرة ويرى بذلك أنه يخدم الاسلام.

يقول: اني راجعت جميع المراجع فما وجدت أحدا من المحدثين وثَّق ابن هشام[١]، واعتقد أن هذا القول مبني على قلة معرفته والا قد ذكرت في هذا البحث ان الامام السيوطي نقل عن بعض المحدثين توثيقه، ومر الكلام على زياد البكائي وانه ثقة في ابن اسحق خاصة في رواية كتاب المغازي،وكذلك يونس ابن بكير، قال ابن معين: ثقة وقال أبو حاتم: محله الصدق[٢].

---

(١) انظر: مجلة الجامعة السلفية في العدد العاشر والحادي والثاني عشر وفيا بعده سنة ١٣٩٨هـ.

(٢) انظر خلاصة تذهيب الكمال وهامشه ص ٤٤٠.

ثم كتاب ابن هشام كان موضع تقدير في كل قرن حتى لخصه الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب، ولا شك أن المؤرخين في السيرة قد تساهلوا في أخذ الروايات في السيرة، حتى إن المحدثين أيضا كان اعتناؤهم بالأحاديث التي تستنبط منها الأحكام الفقهية اكثر من المغازي والفضائل، قال ابن مهدي: اذا روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحرام والحلال والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا في الرجال، واذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب سهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال.

قال أحمد بن حنبل: ابن اسحاق رجل تكتب عنده هذه الأحاديث - يعنى في المغازي ونحوها - واذا جاء الحلال والحرام أردنا قوما هكذا وقبض أصابع يديه الأربع[1].

واما ما نقل عن الامام أحمد أنه قال: ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي، وفي رواية ثلاثة كتب لا أصل لها، المغازي والملاحم والتفسير، فالكلام عن هذه العبارة من وجوه:

أولا: ان في النفس من صحتها شيئا، فان الامام أحمد

---

(١) فتح المغيث جـ١ ص ٢٦٧.

ذكر في مسنده أحاديث كثيرة في التفسير والمغازي والملاحم فهذا يناقض قوله.

ثانيا: إن نفي الصحة لا يستلزم الوضع والضعف، قال القاري في «تذكرة الموضوعات» لا يلزم من عدم الثبوت وجود الوضع، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الاذكار المسمى بنتائج الأفكار» ثبت عن أحمد أنه قال: لا أعلم في التسمية (أي في الوضوء) حديثا ثابتا، قلت: لا يلزم من نفى العلم ثبوت العدم - وعلى التنزل لا يلزم من نفي الثبوت ثبوت الضعف لاحتمال أن يراد بالثبوت الصحة فلا ينتفى الحسن[1].

ثالثا: إن الامام أحمد لم يقل: انه لم يصح في التفسير شيء: انما قال: ثلاثة ليس لها أصل، والظاهر أن مراده نفي كتب خاصة بهذه العلوم الثلاثة كما وَرَدَ في رواية أخرى

رابعا: ويحتمل أن يكون مراد الامام أحمد أن ماصح من هذه العلوم الثلاثة قليل بالنسبة لما لا يصح وعلى هذا المعنى حملها كثير من أهل العلم.

---

(١) انظر الرفع والتكميل ص ٨٦

قال الزركشي في «البرهان» مراده أن الغالب ليس لها أسانيد صحاح متصلة وإلا صحَّ من ذلك كثير[1].

على كل حال ان كتب السيرة والمغازي بحاجة الى تنقيح وتحقيق رواتها ومتونها على قواعد المحدثين لمعرفة الأحاديث والآثار،وهذا عمل عظيم لا يتحمله الا من كان متضلعا في علوم الحديث والتاريخ الاسلامي مع الورع والتقوى.

والله ولي التوفيق،،،

الدكتور تقي الدين الندوي

رئاسة القضاء الشرعي

ص. ب (٧) أبو ظبي

(١) السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ١٨٣ - ١٨٤ باختصار وبتغيير يسير

ثبت بالمراجع

(١)	الاعلام للزركلي	القاهرة	١٩٥٤م
(٢)	البداية والنهاية لابن كثير	القاهرة	١٣٤٨هـ
(٣)	بغية الوعاة للسيوطي		١٩٦٦م
(٤)	تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان	القاهرة	
(٥)	تاريخ التراث العربي لفؤاد سركين	القاهرة	
(٦)	تذكرة الحفاظ للذهبي	حيدرآباد/الهند	١٣٧٤هـ
(٧)	التاريخ الكبير للبخاري	الهند	١٣٦٢هـ
(٨)	تهذيب الأسماء واللغات للنووي	القاهرة	
(٩)	تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني	حيدر آباد	١٣٢٥هـ
(١٠)	تاريخ بغداد للخطيب البغدادي	بيروت	١٩٥٤م
(١١)	الجامع الصحيح للامام البخاري- ط- القاهرة الأميرية		
(١٢)	الجرح والتعديل لابن ابي حاتم الرازي الهند		
(١٣)	حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لابي نعيم الأصفهاني		١٣٥١هـ
(١٤)	خلاصة تذهيب الكمال للخزرجي	القاهرة	١٣٧٢هـ
(١٥)	الروض الانف للسهيلي دار الكتب الحديثة القاهرة		
(١٦)	الرفع والتكميل لمولانا عبد الحي اللكنوي حلب		١٣٨٣هـ
(١٧)	الرسالة المستطرفة للكتاني	دمشق	١٩٦٤م

(١٨) السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي القاهرة ١٩٦١م

(١٩) سيرة ابن هشام القاهرة ١٣٥٦هـ

(٢٠) السيرة النبوية للعلامة سليمان الندوي الهند

(٢١) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ١٣٥٠هـ

(٢٢) شرح الزرقاني على المواهب القاهرة

(٢٣) طبقات ابن سعد- مطبعة بريل بليدن ١٣٢٢هـ

(٢٤) طبقات الحفاظ للسيوطي القاهرة ١٣٩٣هـ

(٢٥) الفهرست لابن النديم القاهرة

(٢٦) فتح الباري لابن الحجر العسقلاني القاهرة

(٢٧) فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسيوطي ١٩٦٨م

(٢٨) كشف الظنون لحاجي خليفة استانبول ١٩٥١م

(٢٩) معجم البلدان لياقوت الحموي ١٣٢٣هـ

(٣٠) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة دمشق ١٣٧٦هـ

(٣١) المنتظم لابن الجوزي الهند ١٣٥٩هـ

(٣٢) المغني في الضعفاء للذهبي القاهرة ١٣٩١هـ

(٣٣) ميزان الاعتدال للذهبي ١٩٦٣ م

(٣٤) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي القاهرة

(٣٥) وفيات الأعيان لابن خلكان القاهرة


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

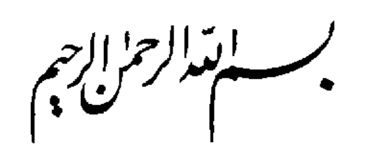
البخاري والجامع الصحيح

للدكتور حسن عيسى عبد الظاهر
" مصر "



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهده دراسة عن (الامام البخاري وكتابه الجامع الصحيح).

مقدمة إلى (المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوة) على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. المنعقد في دولة قطر في مطلع العام الهجري ١٤٠٠ في الفترة من ٥ محرم سنة ١٤٠٠ إلى ١١ محرم سنة ١٤٠٠.

وتتضمن هذه الدراسة بيان الآتي: -

١ - سبب تصنيف البخاري للجامع الصحيح.
٢ - تعريف بالامام البخاري وانتاجه العلمي.
٣ - الجامع الصحيح.
٤ - شروط البخاري فيمن يروي عنهم.
٥ - منزلة أحاديث الجامع ورأي العلماء فيها.
٦ - التعاليق.
٧ - التبويب والترجمة.
٨ - شبهتان وردها.

ونسأل الله سبحانه ان يجعله خالصا لوجهه الكريم وان ينفع به آمين وهو ولي التوفيق.

الامام البخاري والجامع الصحيح

مرحلة جديدة في التدوين والتصنيف: -

في أول القرن الثالث الهجري أخذ رواة الحديث في جمعه بطريقةٍ غير التي سلفت في القرنين الأول والثاني، فبعد أن كانوا يجمعونه في هذين القرنين الأول والثاني ممزوجا بأقوال الصحابة والتابعين، أخذوا يفردونه وحده بالجمع والتأليف.

أ - ثم إن من أئمة الحديث من جمع في مصنفه كل ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم من غير تمييز بين صحيح وسقيم.

ب - ومنهم من أفرد الصحيح بالجمع ليخلص طالب الحديث من عناء السؤال والبحث وكان أول الراسمين لهذه الطريقة الامام (ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري) إذ جمع في كتابه ما تبين له صحته.

سبب تصنيف الجامع الصحيح: (١) -

من أجل افراد (الصحيح) من الحديث بالتأليف كان

كتاب (الجامع) للبخاري، ذلك أن الامام البخاري رضي الله عنه لما رأى التصانيف قبله [١] ورواها وجدها بحسب الوضع جامعة بين ما يدخل تحت التصحيح والتحسين، والكثير منها يشمله التضعيف، فلا يقال لغثه سمين، فحرك ذلك همته لجمع الحديث الصحيح الذي لا يرتاب فيه. وقوى عزمه ما سمعه من استاذه أمير المؤمنين في الحديث والفقه (اسحاق بن ابراهيم الحنظلي المعروف بابن راهويه)،

يقول (البخاري): كنا عند (اسحاق بن راهويه) فقال: لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول الله صلى عليه وسلم، قال البخاري: فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع الجامع الصحيح، ويقول أيضا - في صدد بيان الدافع له - رأيت النبي صلى الله عليه وسلم - أي في المنام - وكأنني واقف بين يديه، وبيدي مروحة أذب بها عنه، فسألت بعض المعبرين فقال لي: أنت تذب عنه الكذب، فهذا الذي حملني على اخراج الجامع الصحيح، [٢]

فمن هو هذا الامام البخاري؟ وما خصائصه؟

وما هو كتابه الجامع؟ وما خصائصه؟

---

(١) هدى الساري ج١ ص ١٨ ط الحلبي

(٢) هدى الساري ١ ص ١٨

هـذا ما نحاول بتوفيق الله تعالى - أن نستقبله في الصفحات التالية: -

تمهيد للتعرف على الامام البخاري: (٢) -

يلخص لنا الحافظ ابن حجر تعريفه بهذا الامام الفذ وهو يترجم له ويسوق ثناء الأمة وثناء مشايخه ومن عاصره، وتتلمذ عليه فيقول: (ولو فتحت باب ثناء الأمة عليه ممن تأخر عن عصره لفني القرطاس، ونفدت الأنفاس، فذاك بحر لاساحل له.)نعم كان البخاري بحرا لا ساحل له: -

١ - فهو في (حفظ الحديث، وانتخابه، وجمعه) إمام أهل هذا الفن بلا منازع، يقول الحاكم أبو عبد الله النيسابوري: (البخاري هو إمام أهل الحديث بلا خلاف بين أئمة النقل)، ويقول ابو بكر محمد بن اسحاق: (مارأيت تحت أديم هذه السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل البخاري)، وصار في حكم المقرر والمعلوم عند القوم أن الحديث إذا انتخبه (محمد بن اسماعيل) اتسم بالصحة حتى ليقول: (عمرو بن علي): حديث لا يعرفه محمد بن اسماعيل ليس بحديث،.

ب - وهو في (علوم الحديث) كما يصفه تلميذه الامام (أبو عيسى الترمذي) صاحب الصحيح: (لم أر أحداً بالعراق، ولا بخراسان في معنى العلل، والتاريخ، والاسانيد، أعلم من

محمد بن اسماعيل)، ويقول له تلميذه (مسلم بن الحجاج) صاحب الصحيح يوما وهو يقبله بين عينيه: (دعني أقبل رجلك يا أستاذ الاساتذة، وسيد المحدثين، ويا طبيب الحديث في علله)،

ج - وهو في (فقه الحديث) إمام مقدم، حتى ليقول (أبو مصعب أحمد بن أبي بكر المديني): محمد بن اسماعيل أفقه عندنا، وأبصر من (ابن حنبل)، فقال له رجل من جلسائه: جاوزت الحد! فقال أبو صعب: لو أدركت مالكا ونظرت إلى وجهه ووجه محمد بن إسماعيل لقلت: كلاهما واحد في الفقه والحديث. ويقول يعقوب بن ابراهيم الدورقي: (محمد بن إسماعيل فقيه هذه الامة).

د - وهو في العمل بما علم وفي التقوى والصلاح إمام يهتدى بهداه حتى ليقول عبد الله بن محمد بن سعيد بن جعفر (سمعت العلماء بمصر يقولون: مافي الدنيا مثل محمد بن اسماعيل في المعرفة والصلاح).

ويقول الحسن بن محمد عنه: (ديِّنا فاضلا يحسن كل شيء).

وقد جمع الى هذا حسن استعداد، وبلاء في الجهاد في سبيل الله، فكان يحسن الرمي، وكان يرابط في الثغور، يقول ورّاقه محمد بن أبي حاتم: (رأيته استلقى على قفاه يوما

ونحن - بفربر - في تصنيف كتاب التفسير وكان أتعب نفسه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث، فقلت له: ياأبا عبد الله سمعتك تقول: ما أتيت شيئا بغير علم قط منذ عقلت فأي علم في هذا الاستلقاء؟ فقال: أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم. وهذا ثغر خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو فأحببت ان أستريح وآخذ أهبة ذلك فان عافصنا العدو كان بنا حراك.

لقد كان رضي الله عنه أمة ويصور لنا هذا المعنى فيه قول قتيبة عنه حين سئل عن طلاق السكران فدخل البخاري حين السؤال، فقال قتيبة للسائل: (هذا: أحمد بن حنبل، واسحاق بن راهويه، وعلي بن المديني قد ساقهم الله إليك وأشار إلى البخاري).

ولقد عرف العلماء منزلته هذه حتى كانوا يفضلونه على أنفسهم، وعرفها له معاصروه حتى ليكتب له أهل بغداد:

المسلمون بخير ما بقيت لهم
وليس بعدك خير حين تفتقد

ويجتمع عليه الألوف في مجلسه يتزاحمون للانتفاع منه، حتى في الطرقات يعدون خلفه انتظارا لمجلسه، يقول حاشد بن اسماعيل: (كان أهل المعرفة من أهل البصرة يعدون خلف

البخاري في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويجلسوه في بعض الطريق ويجتمع عليه الوف أكثرهم ممن يكتب عنه، وكان البخاري اذ ذاك شابًّا لم يخرج شعر وجهه) لقد أرادوا له مثلا في الرجال فكان كما قال قتيبة بن سعيد: (جالست الفقهاء والزهاد والعباد فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن اسماعيل البخاري وهو في زمانه كعمر في الصحابة).

ولعل من خير الشهادات له ما يقوله وراقه محمد بن أبي حاتم :(رأيت محمد بن اسماعيل البخاري في المنام يمشي خلف النبي صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم يمشي، فكلما رفع النبي صلى الله عليه وسلم قدمه وضع البخاري قدمه في ذلك الموضع) ويقول الفربري: سمعت نجم ابن فضيل وكان من أهل الفهم يذكر نحو هذا المنام أنه رآه أيضا.

فمن هو البخاري هذا الذي ملأ التاريخ والفكر والعلم وامتلأت بحياته الغنية الصفحات الطوال في كتب التراجم بما لم يتوفر لغيره امتلاء تمثل في إجماع الأمة في عصره على تقديمه والشهادة بفضله وعلى رأسهم الأعلام أئمة المسلمين أولو الورع والدين والحفاظ النقاد المتقنون.

اسمه ونسبه:

هو امام الائمة وشيخ حفاظ الامة، ابو عبد الله، محمدابن ابي الحسن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه [1]، الجعفي نسبا بالولاء، الفارسي أصلا. كان جد أبيه (المغيرة) أول من شرف بالاسلام وشرح الله به صدره من هذه الشجرة، وكان اسلامه على يد (اليمان الجعفي) والي خراسان، لذلك انتمى اليه بالولاء، وصارت نسبة الجعفي لقبا له ولذريته من بعده، اما أبوه: فهو اسماعيل بن ابراهيم أول من شارك من هذه الاسرة في الميدان العلمي، مختارا منه أهم الجوانب التي كانت تشغل عصره وهو خدمة الحديث النبوي الشريف، ورحل في طلبه ونال ثقة النقاد بما كان له من منهج دقيق امين في الرواية. فروى بالسماع عن مالك بن انس وصحب عبد الله بن المبارك، وروى عنه العراقيون.

ترجم له ابنه (محمد) في كتابه (التاريخ الكبير)، ووثقه ابن حبان، وترجم له أيضاً مع رجال الطبقة الرابعة في كتابه (الثقات).

أما أمه فكانت على منهج أبيه صلاحا وورعا. حصلت

---

(١) بردزبه: معناها في لغة البخاريين: الزراع والفلاح أو البستاني.

عبء تربيته طفلا صغيرا يتيماً فارقه أبوه في مرحلة الطفولة، فكانت نعم الأم والمربى سهرت عليه الليالي تسلكه في طريق أبيه، فوجهته الى حفظ القرآن الكريم، ودارسة الحديث النبوي الشريف حتى شب عن الطوق.

ورحلت به وهو في السادسة عشرة من عمره رحلة الحج. وهناك أسلمته لرحلة الحياة الطويلة العامرة في سبيل الحديث الشريف اذ عادت وتركته على الدرب يسير.

مولد البخاري. ووفاته. وعمره:

كان مولد امامنا هذا في بلدة (بخارى) فيما وراء النهر (نهر جيحون) على بعد ثمانية أيام من سمرقند من بلاد فارس وهي مدينة كبيرة من بلاد التركستان تقع على المجرى الاسفل لنهر زرافستان، فتحها المسلمون بعد منصف القرن الاول الهجري، وصارت من حواضر العالم الاسلامي ومركزا علميا هاما. وهي الآن تابعة لدولة الاتحاد السوفيتي بولاية ازبيكستان في آسيا الوسطى.

وكان مولده يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة ١٩٤هـ. ويذكر المستنير بن عتيق ان البخاري اخرج له هذا التاريخ مكتوبا بخط والده اسماعيل. كما كانت وفاته ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين

ومائتين (٢٥٦هـ). (بخرتنك) قرب سمرقند بعد أن عاش من العمر اثنتين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوما [١] . ملأها بالعلم والعمل وأبقى الله له لسان صدق ورضوان في الآخرين رضي الله عنه وأرضاه.

نشأته العلمية: -

لما بلغ العاشرة ظهرت عليه أمارات الاستعداد الفطري النادر، وألهم حفظ الحديث، فيقول عن نفسه: (ألهمت حفظ الحديث وانا في «الكتاب» قيل له: كم أتى عليك إذ ذاك؟ قال: عشر سنين أو أقل) وظل يختلف إلى المشايخ يتلقى الحديث والفقه وعرف منهم الكثير حتى بلغ السادسة عشرة من عمره، فابتدأ أولى رحلاته إلى الحج وإلى طلب العلم، ثم أقام بالمدينة سنة، وتوالى بعد ذلك ارتحاله في طلب الحديث يتنقل في البلاد، فدخل إلى الشام، ومصر، والجزيرة مرتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقام بالحجاز ستة أعوام، ودخل مع المحدثين إلى الكوفة وبغداد مالا يحصى من المرات، وبذلك طوف بأهم المراكز العلمية في العالم الاسلامي آنذاك.

وتسنى له اللقاء بشيوخ لم يقاربه فيهم محدث قبله أو بعده

(١) هدي الساري ص ٢٠٦

يقول: (كتبت عن ألف وثمانين نفسا ليس منهم الا صاحب حديث[1]).

نضوجه العلمي المبكر: -

وقد أخذ الناس في تلقي العلم عنه ولما يبلغ الثامنة عشرة من عمره، ثم ظل ينضج مع الايام والاحداث حتى عد من الائمة المجتهدين.

من سماته الخلقية في الدأب على العلم: -

يقول عنه وراقه محمد بن أبي حاتم: (كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ فكنت أراه يقوم في الليلة الواحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، كل ذلك يأخذ القداحة فيوري نارا بيده ويسرج ويخرج أحاديث فيعلم عليها، ثم يضع رأسه، فقلت له: إنك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقظني قال: أنت شاب فلا أحب أن أفسد عليك نومك[2].

وما رؤي رضوان الله عليه طول عمره - فيما عدا نومه القليل - إلا وهو على حال من ثلاث:

إما جالسا إلى شيخ يسمع منه ويتلقى عنه.

---

(١) هدى الساري

(٢) هدى الساري ٢/١٦٦

أو متصدرا للحديث على الملتفين حوله من الطلاب.

أو منقطعا إلى القلم والقرطاس يقيد شوارد ما جمع ليحفظها بالتدوين وليعدها بالتصنيف. هذا فضلا عن عبادته، واشتغاله بالقرآن، فكان من الافذاذ النادرين. وكان يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة يوتر منها بواحدة.

وقد انعكس أثر علمه على سلوكه وأثر سلوكه على علمه فامتزجا تماما حتى ليقول: (ما أتيت شيئا بغير علم قط منذ عقلت).

انتاجه العلمي: -

كان من نعم الله الوافرة على البخاري ان وهب له استعدادا فطريا ومواهب فذة ويسر له اسباب الافادة منها بأقصى طاقاته، فضلا عن جده ومثابرته وسهره الليالي الطوال في تحصيل الحديث ومعالجة علومه.

وما ان بلغ الثامنة عشرة من عمره حتى بلغ من النضج حدا أهّله لان يبدأ تسجيل ما حصل وأفاد بالتدوين والتصنيف والتأليف، وكان باكورة عمله في هذه السن:

١ - كتاب «قضايا الصحابة والتابعين»

يقول البخاري: (فلما طعنت في ثماني عشرة سنة صنفت

(قضايا الصحابة) ذكره عنه وراقه محمد بن ابي حاتم [١] وقد تابع فيه بالدراسة والتدوين كل من له قضاء في احكام الشريعة من الصحابة والتابعين.

وقد كثرت المصنفات في اخبار الرواة واحوالهم، واختلفت مناهجها، فمنها مارتب على ترتيب السنين، ومنها ما هو حسب البلدان، ومنها ما رتب على الحروف، ومنها ما رتب على طبقات وأجيال، وقد أسهم البخاري في هذا الجانب فكان فيه ثاني انتاجه العلمي مؤلفه في تاريخ الرواة من الصحابة فمن بعدهم إلى طبقة شيوخه وهو كتابه الذي حاول فيه استيعاب الرواة وذلك هو:

٢ - التاريخ الكبير في تاريخ الرواة واخبارهم: -

وهو كاسمه كبير يضم بين دفتيه تراجم قرابة أربعين الفا بين رجل وامرأة وضعيف وثقة وكلهم ممن روي عنه الحديث، بل انه ليقول: «قلَّ اسم في التاريخ الا وله عندي قصة الا أني كرهت أن يطول ثم صنفت التاريخ الكبير في المدينة عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم في الليالي المقمرة[٢]».

---

(١) انظر هدى الساري ١٩٣/٢

(٢) هدى الساري

وهو وان كان ألفه مبكرا قبل أن يبدأ في جامعه الصحيح إلا أنه زاد [1] عليه مرتين في أواخر حياته.

منهجه:

رتبه على حروف المعجم، وبدأه بـ (المحمدين) تبركا باسم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ثم جعل لكل (اسم) بابا، وفي كل باب من هذه الابواب رتب (الأسماء) فيه على حروف المعجم وراعى هذا حتى في الحرف الاول من أسماء الآباء أيضا، إلا أنه لم يراع ترتيب أبواب (الأسماء) حسب حروف المعجم فنجده يذكر: (باب ابراهيم، ثم باب اسماعيل، ثم باب اسحاق، ثم باب أيوب، ثم باب اشعث، ثم باب اياس) وهكذا.

وهو يذكر اسم المترجم له، وبعض من روى عنهم، وبعض من روى عنه، وقد يذكر حديثا له، وإذا كان صحابيا أشار إلى ذلك، وقلما يذكر جرحا أو تعديلا ولعله إستغنى عن ذلك بكتابه (الضعفاء والمتروكين) وقد جمع الحاكم من ظهر جرحه ممن ذكرهم فكانوا نحوا من (١٢٦) رجلا.،

موقفه من رجال التاريخ: -

هو وان كان روى عنهم الا انه من المعروف عنه انه لم

---

(١) بروكلمان ج ١٦٣/٣

يستوعب في (جامعه الصحيح المختصر) الرواة الذين توافرت فيهم صفات القبول والصحة وهم خلائق كثيرون يبلغ عددهم نيفا وثلاثين ألفا ومن خرج لهم في جامعه دون ألفين[١]

منزلة (التاريخ الكبير): -

كما كان البخاري حامل لواء التصنيف، في الصحيح فقد كان كذلك بكتابه (التاريخ) حامل لواء التاريخ للرواة كفن حتى عصره، ومؤصلا لقواعده. يقول الحاكم: (وكتاب محمد بن اسماعيل في التاريخ كتاب لم يسبق اليه، ومن ألف بعده شيئا في(التاريخ) او (الاسماء) او(الكنى)لم يستغن عنه، فمنهم من نسبه الى نفسه مثل ابي زرعة وابي حاتم ومسلم، ومنهم من حكاه عنه ،فالله يرحمه فانه الذي اصل الاصول).

وقد تلقاه العلماء بالقبول، من شيوخ البخاري وطبقتهم ومن بعدهم، حتى ان شيخه الإمام اسحاق بن ابراهيم (ابن راهويه) لما رأى التاريخ لاول مرة فرح به كثيرا ودخل به على الأمير عبد الله بن طاهر فقال: أيها الامير: الا أريك سحرا؟؟) ويقول التاج السبكي: (إنه لم يسبق إليه، ومن ألف بعده في التاريخ او الأسماء أو الكنى فعيال عليه).

---

(١) شروط الائمة للحافظ الحازمي.

رواة التاريخ الكبير: -

من رواته:

أبو الحسن محمد بن سهل بن كردي البصري الفسوي عنه.
وابو أحمد عبد الوهاب بن محمد بن موسى الغندجاني عنه.
والشيخ الجليل ابو الحسين عبد الحق بن عبد الخالق بن احمد
ابن عبد القادر بن محمد بن يوسف عنه.

نسخ الكتاب: -

يذكر (برو كلمان) من نسخه ما يأتي:[1]

في: آياصوفيا ٣٠٦٩ - ٧١

ومنه: مصور بالقاهرة ثاني ٥: ١٠٢

باريس أول ٥٩٠٨، مكتبة القرويين بفاس، آصفية ١: ٧٧٥ رقم ٦٣ المكتبة السندية ويوجد في مكتبة (يس باش أعيان العباسي) بالبصرة.

ويوجد ايضا في (الظاهرية) بدمشق ٢٠٢.

مطبوعاته: -

وقد طبع في الهند بمطبعة حيدر أباد الدكن بالهند، طبعته جمعية دائرة المعارف العثمانية ١٣٦١هـ ١٣٦٢هـ في

(١) بروكلمان الجزء الثالث قسم الحديث.

أربع مجلدات ضخمة تضم ثمانية أجزاء. (رواها عن البخاري ثلاثة من تلاميذه وهم: البصري الفسوي، والغندجاني، وابن يوسف) ويوجد في دار الكتب المصرية منه الآتي: -

١ - الجزء الأول مطبوعا في مجلدين فيهما (٢٨٩٤) ترجمة تحت رقم (ج. ١٠٣٤٠)

٢ - الأجزاء: ١، ٢، ٣، مصورة في ست مجلدات عن النسخة المخطوطة بمكتبة (أيا صوفيا) بالآستانة ينتهي الجزء الاول والثاني منها في آخر باب (الظاء)، ويبتدىء الرابع (من ترجمة(عباس) الى آخر الكتاب تحت رقم (تاريخ: ١٨٩٠).

ما أُخذ على كتاب (التاريخ الكبير):

نظرا لطبيعة الكتاب وما تقتضيه بحوثه من جرح وتعديل للرواة فقد ادعى بعض من ينفس على البخاري ان كتابه هذا اغتياب للناس. ويبلغه وراقه ابن ابي حاتم هذه التهمة فيدفعها عن نفسه بأنه لم يقل ما به من عند نفسه، وانما نقله ورواه فيقول: (انما روينا ذلك رواية ولم نقله من عند انفسنا، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «بئس أخو العشيرة»[١])وانه يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم في

(١) انظر هدى الساري ٢/١٩٥

عيب المعيب

وقد كان من خلقه رضي الله عنه عفة اللسان، فكان لا يذكر غائبا بسوء، وقد سمعه محمد بن أبي حاتم يقول: «ما اغتبت أحداً قط منذ علمت ان الغيبة حرام[1]» ويقول: (اني لأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدا). وقد أثر خلقه هذا على منهجه في الجرح والتعديل فكانت العفة طابعه، يستغني فيه بالكناية والتلميح. فكان أكثر ما يقول في الرجل المتروك أو الساقط: (سكتوا عنه، أو فيه نظر يعني بالكذب)[2] وأبلغ صيغ التضعيف عنده قوله في المجروح: (منكر الحديث).

ويروي ابن القطان عنه أنه يقول: (كل من قلت فيه (منكر الحديث) فلا تحل الرواية عنه [3]

التاريخ الاوسط:

واذا كان البخاري قد رتب (الكبير) على حروف المعجم فانه رتب (الأوسط) على السنين ويورد ابن حجر ذكره كثيرا في (التهذيب) وينقل عنه.

نسخه: توجد منه قطعة في بنكيبور ١٢ : ٦٨٧

---

(١) المصدر السابق

(٢) هدي الساري ٢/ ١٩٥

(٣) طبقات الشافعية ٢/ ٢٢٤

وحصلت منه نسخة في حيدر آباد سنة ١٩٣٧ عن كرنكو

التاريخ الصغير:

هو كما عرفه البخاري: كتاب مختصر من تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والانصار وطبقات التابعين لهم باحسان ومن بعدهم، ووفاتهم، وبعض نسبهم، وكناهم، ومن رغب في حديثه.

منهجه: ابتدأ الجزء الاول بالتحدث عن أخبار مهاجري الحبشة، وختمه بمن مات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والانصار ممن حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم من مات في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

أما الجزء الثاني: فذكر فيه من مات في خلافة عثمان رضي الله عنه، وهكذا الى نهاية الجزء السادس حيث ذكر فيه من مات في سنة ٢٥٦هـ.

مطبوعاته: طبع في (فاس) دون تاريخ، وعليه شرح لحمدون بن عبد الرحمن الحاج بعنوان (بهجة المسك الداري)

رواته: وهو من رواية أبي ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الهروي، والحافظ قال: أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد

الفقيه السرخسي بهاقراءةً عليه سنة ٣٨٩هـ،قال أخبرنا أبو محمد بن محمد النيسابوري.

قال: حدثنا محمد بن اسماعيل البخاري.

نسخه:

يذكر (بروكلمان) عن نسخه الآتي:

باتنه ٢ : ٣٠٤ رقم ٢٤١١ ، ٣٧١ رقم ٢٥٥٧ برلين ٩٩١٤ بنكيبور ١٢ : ٦٨٨ - ٦٨٩ ، رامبور ٦٢٣ بوهار ٢٢١ وطبع على الحجر في مدينة (الله آباد) ١٣٢٤ ، وفي مدينة (أحد آباد) ١٣٢٥هـ وتقرر نشره في « حيدر أباد »

والكتاب بمكتبة الازهر رقم ٣٥٠ تاريخ ، وتوجد منه عدة نسخ في (دار الكتب المصرية) منها تحت رقم ٤٠٢ و ٢٧٠٧ . وهو ثمانية أجزاء صغيرة في مجلدٍ واحد.

-كتاب (أسامي الصحابة)

ذكره أبو القاسم بن منده ، وذكر انه يرويه عن طريق ابن فارس سماعا عن البخاري، ونقل منه أيضا في كتابه (المعرفة) وقد نقل منه أيضا أبو القاسم البغوي الكبير في كتابه (معجم الصحابة).

٥ - كتاب (الوحدان) (١)

---

(١) انظر هدي الساري ٢/ ١٩٥

في أسماء الوحدان: أى الصحابة الذين ليس لهم الا حديث واحد، وقد نقل منه (ابن منده) في كتابه (المعرفة).

٦ - كتاب (الكنى)

ذكره الحاكم أبو أحمد، ونقل منه، وقد طبعته جمعية (دائرة المعارف العثمانية) بالهند سنة ١٣٦٠هـ. أرخ فيه البخاري للرواة الذين لم يعرف من أسمائهم إلا الكنية، والذين اشتهروا بكناهم حتى غلبت على أسمائهم. ورتبه على حروف المعجم.

٧ - كتاب (الضعفاء الكبير)

ذكر عنه بروكلمان (باتنه) ١ : ٥٥٧ رقم ٢٩٣٢ - ٢٩٣٧

٨ - كتاب (الضعفاء الصغير)

باتنه (١ : ٥٥٨ رقم ٢٨٩٧، لاللى ٢٠٨٩، بنكيبور ١٢ : ٦٩٠ ونشر مع كتاب (المنفردات) و (الوحدان) لمسلم في مدينة (أجرا) سنة ١٣٢٣ هـ. وطبع ايضا في مدينة (الله آباد) سنة ١٣٢٥هـ. وقد رتبه على حروف المعجم وتناول فيه الضعفاء بعبارة عفّة كمنهجه في الجرح والتعديل من حيث التوقي الزائد والتحري الدقيق في العبارة على نحو ما

قرره ابن حجر في حديثه عنه [1]: (كتابه في الضعفاء دون سبعمائة نفس).

٩ - وله كتاب (الضعفاء) غير ما ذكره ابن حجر فقد أورده مجردا عن الوصف وهو الكبير

١٠ - كتاب (الثلاثيات) [2]

برلين ١٦٢٠ - ١٦٢١، باتنه ١ : ٤٢ رقم ٤٣٥، بطرسبرج ثالث ٣٣٣ بشاور ٤٣٩

١١ - كتاب (الفوائد)

ذكره الترمذي في اثناء كتاب (المناقب) من كتابه (الجامع)

١٢ - كتاب الأدب المفرد

الظاهرية بدمشق ٨٤ عمومية ٨٨، ٩٥، بنكيبور ٥ : ٢، ٣٧٠ وطبع في استامبول سنة ١٣٠٩هـ وبهامشه مسند الامام ابي حنيفة رضي الله عنه، وفي (اجرا) سنة ١٩٠٦م وطبع ايضا في القاهرة مرتين أخراها سنة ١٣٧٥هـ. ويرويه عنه: أحمد بن محمد بن الجليل البزار. ويشتمل على أحاديث زائدة عما في (الجامع الصحيح) وفيه قليل من

---

(١) مفتاح السنةص ١٤٦

(٢) انظر كشف الظنون ط١، ٢ وشروحه

الآثار الموقوفة، يقول ابن حجر عنه: انه عظيم الفائدة، وفائدته تظهر في تقويم الاخلاق وتربية السلوك المستقيم.

١٣ - كتاب (بر الوالدين)

ويرويه عنه محمد بن دلويه الوراق. ويظهر انه قطعة من كتاب (الادب المفرد)

١٤ - كتاب (سنن الفقهاء)

ذكره ابن النديم في (الفهرست)، ولم يذكره ابن حجر.

١٥ - كتاب (المبسوط)

ذكره الخليلي في كتابه (الارشاد) وذكر ان مهيب ابن سليم رواه عن البخاري.

١٦ - كتاب (العلل)

ذكره أبو القاسم بن منده، وانه يرويه عن محمد بن عبد الله بن حمدون عن ابي عبد الله بن الشرقي عن البخاري.

١٧ - كتاب (خلق أفعال العباد)

ونشره محمد شمس الحق عظيم أبادي في (دهلي) سنة ١٣٠٦هـ. وانظر في هذا الكتاب: باتنه ٢: ٤٣٨

١٨ - كتاب (الاشربة)

ذكره الدار قطني في (المؤتلف والمختلف) كما يقول ابن حجر.

١٩ - كتاب (تنوير العينين برفع اليدين في الصلاة)

آصفيه ١ : ٦٠٤ رقم ٣٠٧ وطبع مع ترجمة أوردية في كلكتا سنة ١٢٥٦هـ، وفي (دهلي) ٢٩٩ . وطبع بعنوان (قرة العينين على هامش الكتاب السابق).

٢٠ - كتاب (خير الكلام في القراءة خلف الامام)

طبع مع ترجمة أوردية في (دهلي) سنة ١٢٩٩هـ.

٢١ - تفسير القرآن الكريم

اسكوريال أول ١٢٥٥، وجاء في اسكوريال ثان ١٢٦٠: ان هذا الكتاب قطعة من تفسير مجهول مؤلفه. على حين توجد نسخة من تفسير القرآن للبخاري في (باريس) أول ٢٤٢ - ٢٤٥ ويوجد تفسير سورتي: الانبياء والفتح، الجزائر في أول ١٦٨٨، ٣، وقد ذكر (الفربري) أنه كان مع البخاري وهو يؤلف (التفسير الكبير) أثناء اقامته في (فربر) وتوجد منه نسخة خطية في مكتبة (الجزائر) كما في دائرة المعارف الاسلامية. ويسميه ابن حجر (التفسير الكبير)، وذكره (الفربري) بدون وصف الكبير.

٢٢ - كتاب (الهبة)

يقول محمد بن أبي حاتم ورَّاق البخاري عن هذاالكتاب: (عمل كتابا في الهبة فيه نحو خمسمائة حديث) وقال: (ليس

في كتاب وكيع في الهبة الا حديثان مسندان أو ثلاثة، وفي كتاب ابن المبارك خمسة أو نحوها) (١).

٢٣ - الجامع الكبير

ذكره ابن طاهر كما يقول ابن حجر

٢٤ - المسند الكبير

لم يبق من آثار هذا الكتاب، وكتاب (الجامع الكبير) حتى زمن ابن حجر غير ما يرد من تسميتها في الكتب أو على ألسنة الشيوخ. وقد استحوذ (الجامع الصحيح) على اهتمام الناس دونها حتى أخملها. والظاهر أنها قد اشتملا على كل الاحاديث الصحيحة التي قال البخاري إنه يحفظها والتي انتخب منها كتابه (الجامع المسند الصحيح). ويقوي دلك انه يسميه (المختصر) فكأنه المختصر منها.

لقد كان لممارسة البخاري للحديث وعلومه تحصيلا وتدريسا وتصنيفا على هذا النحو اثره الكبير فيه فتوفر له بذلك أمور منها:

١ - مادة علمية غزيرة بمتون الاحاديث واسانيدها.

٢ - المام واسع بتاريخ الرجال ومروياتهم، وخبرة بثقتهم

---

(١) هدي الساري ٢/ ٢٠١

وضعيفهم مما هيأ له أسباب الانتخاب والاختيار من مروياتهم.

فضلا عن التقائه بشيوخ عصره في مختلف الامصار الاسلامية وافادته منهم بالتحصيل والمراجعة والاختبار، وتهيأ له بهذا كله بعد توفيق الله تعالى ان يقدم للامة تراثا اصيلا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه (الجامع الصحيح) الذي اتفقت كلمة العلماء على انه اصح كتاب بعد القرآن الكريم وتلقته الامة بالقبول[1]

«الجامع الصحيح»

تمهيد: تبين لنا ان البخاري حين أقدم على تأليف كتابه (الجامع الصحيح المختصر) كان قد توفرت له وسائل النضج العلمي.

ا - من حيث مادة التأليف وجمعه لها من صدور الرجال في وطنه وفي أقطار العالم الاسلامي التي طوف بها شرقا وغربا.

ب - ومن حيث مادة الافادة من مناهج التأليف ممن سبقه في هذا الفن بحيث لم يجيء تكرارا وانما ابتكارا

---

(١) انظر النووي في مقدمة شرحه لمسلم

وزائدا أَوْفى فيه على الغاية.

جـ - ومن حيث الانتخاب والاختيار فكانت عنايته بالكيف أكثر منها بالكم سواء فيما يتعلق بمتون الاحاديث أو بأسانيدها.

وحسبنا ان نعلم ان مجموع ما اختاره في صحيحه من المتون لا يبلغ ٣٪ مما يحفظ هو من الصحيح، وان مجموع من روى لهم من رجال الصحيح الثقات لا يتجاوز ٥٪ ممن أجمع العلماء على تصحيح حديثهم. وتعتبر مؤلفاته قبل (الجامع) تمهيدا ووسيلة أهلته (للجامع) ولذلك لم يبدأ فيه الا بعد رحلة واسعة في رحاب العلم وأقطاره والتأليف فيه تدل على ثبات قدم ومعرفة بالحديث ورجاله.

اسم الجامع:

هو (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) هكذا ذكره ابن حجر في كتابه هدي الساري[1] بدون لفظ (المختصر) التي استدركها في كتاب له آخر[2]، فأثبتها بعد كلمة المسند فصار التعريف

---

(١) هدي الساري ١/٥

(٢) كتاب النكت الذي أراده مختصرا لكتابه (فتح الباري) ولكنه مات قبل أن يفرغ منه

للكتاب عند ابن حجر هكذا.

(الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه)، وعند ابن الصلاح[1] هو: (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) وليس بين الروايتين كبير اختلاف.

الا ان الاسم على كلتا الروايتين فيه طول غير مألوف في أسماء الكتب، ولذلك كان البخاري نفسه يجتزىء ببعض الفاظ الاسم تحاشيا للطول، فأحيانا يسميه (الجامع الصحيح) كما ورد في قوله: كنا عند اسحاق بن راهويه فقال: (لو جمعتم الخ)، وأحيانا يسميه (الجامع) كما جاء في قوله: ما ادخلت في كتابي (الجامع) الخ وربما اقتصر في التسمية على كلمة الصحيح، وأحيانا يسميه (البخاري) على ان هذا الاسم وان كان غير مألوف كعنوان لطوله الا ان جعله بهذا الطول عنوانا دقيقا شاملا لكل مزايا الكتاب وخصائصه وموضحا لمنهجه في تأليفه كما يتضح في السطور الاتية:

فهو (جامع): لأنه لم يقتصر منه على أحاديث موضوع واحد كما كان يصنع كثير من المؤلفين.

---

(١) في مقدمته ٤

وهو (صحيح): في كل ما أورده من أحاديثه الاصول: وهي التي اخرجها في متون الابواب موصولة السند الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأفردها بطابع يميزها وينبه اليها وهو التصريح بقوله: (حدثنا) وما يقوم مقامها، والعنعنة بشرطها الذي التزمه وتشدد فيه فكل حديث ورد في كتابه على هذا النحو فهو صحيح عنده.

واذا كان الكتاب قد اشتمل على أحاديث أخرى ليست من شرط صاحبه فان ذلك لا يضيره ما دام قد أعطى كل نوع ما يميزه عن الآخر، وعلى هذا يفسر قوله: (ما أدخلت في كتابي الجامع إلا ما صح)[1] بأن المراد أنه لم يدخله على هذا النحو وبهذا الطابع الخاص المشروط من وصله على الطريقة المعينة فمعناه انه لم يورده على غرار ما التزمه في أحاديثه الاصول

وهو مسند): بالنظر إلى أحاديثه الأصول أيضا. فهو لم يورد في الكتاب شيئا من (المراسيل و (المنقطعات) و (البلاغات) الا ما كان في

---

(١) هدي الساري ١/ ١٨

غير الاصل كالتعليقات والتراجم.
وقصر متون الابواب وأصول أحاديثها على ما اتصل سنده بأحد الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا كان أو فعلا أو تقريرا.

وهو مختصر): لأن البخاري لم يستوعب فيه كل الاحاديث التي صحت عنده على شرطه بل اقتصر فيه على مقدار يسير مما كان يحفظه من الصحاح التي بلغ حفظه منها مائة ألف حديث، وذلك خشية التطويل فلم يبلغ ما أورده فيه الا قرابة عشر المعاشر بالنظر إلى ما يحفظه

بيان مجموع أحاديث الكتاب: خرج البخاري كتابه الجامع من ستمائة الف حديث ظل يختار منها على مدى ست عشرة سنة دأبا ليل نهار ولم يختر الا الصحيح.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر[1] انه عده فبلغت عدته كالآتي: -

غير المكرر من المتون الموصولة	٢٦٠٢ حديث

---

(١) في مقدمة هدي الساري ٢/١٨٣

متون معلقة[1] مرفوعة لم يصلها في موضع آخر منه	١٥٩	
اذن يكون مجموع غير المكرر	٢٧٦١	حديث
مجموع المكرر	٤٦٣٦	حديث
مجموع ما فيه كله بالمكرر سوى المعلقات	٧٣٩٧	حديث

والمتابعات والموقوفات ليس فيه من المتون التي لم تخرج في الكتاب ولو من طريق اخرى الا ١٦٠ حديث علقها

ابن حجر ، وجملة ما فيه من المعلقات ١٣٤١ حديث ، أكثرها مكرر انظر هدي الساري ج ٢ ص ٢٤٢ مخرج في الكتاب اصول متونة

فيه من المتابعات والتنبيه على اختلاف الروايات	٣٤١	حديث

(١) المعلق من الحديث ما كان في سنده سقط من اوله كأن يقول البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

اذن يكون جملة ما فيه بالمكرر

سوى الموقوف والمقطوع هو: ٩٠٨٢ حديث عدا الموقوفات على الصحابة والمقطوعات عن التابعين ومن بعدهم

ولم يذكر عدد (الموقوفات) على الصحابة و (المقطوعات) الواردة عن التابعين فمن بعدهم، وما ذكره البخاري في كتابه من (الموقوف) و (المعلق) و (فتاوى الصحابة والتابعين) و(آراء العلماء) انما كان عرضا لقصد الاستئناس به فقط وليس من موضوع الكتاب المقصور على الصحيح المسند. ولذلك غاير في السياق بين الاصل والعرض.

النص الذي بين ايدينا الآن للكتاب:

يقول بروكلمان[1](ونص صحيح البخاري الذي بين أيدينا الآن هو النص الذي حرره شرف الدين علي ابن محمد اليونيني (المتوفى ٧٠١ هـ/١٣٠٢م)

التعريف باليونيني: الحافظ شرف الدين أبو الحسن على ابن

---

(١) تاريخ الادب العربي ١٦٥/٣.

شيخ الاسلام ومحدث الشام تقي الدين ابن محمد بن أبو الحسن أحمد بن عبد الله اليونيني الحنبلي، علم من اعلام الحديث في القرن السابع الهجري.

عمله في هذه لنسخة: اعتنى بضبط الرواية، وقابل أصله بأصل مسموع على الحافظ أبي ذر عبد الله بن احمد الهروي. وبأصل مسموع على الحافظ ابي محمد عبد الله بن ابراهيم الاصيلي. وبأصل الحافظ أبي القاسم بن عساكر. وباصل مسموع على أبي الوقت.

وقد حضر معه في هذه المقابلة الامام النحوي (جمال الدين بن مالك) فكان اذا مر في الالفاظ ما يتراءى أنه مخالف لقوانين العربية المشهورة قال ابن مالك للشرف اليونيني: هل الرواية فيه كذلك؟ فان اجابه بأنه منها شرع ابن مالك في توجيهها حسب إمكانه، وقد جمع هذه التوجيهات في كتابه (التوضيح في حل مشكلات الجامع الصحيح).

وقد قصد اليونيني ان يجمع تلك الروايات من هذه الاصول في صعيد واحد تيسيرا للانتفاع وحقق ما قصد اليه

بالاستعانة بالرموز اختصارا، وبذلك ضبط رواياتهم مجتمعة بأخصر طريق وحرر ألفاظ الكتاب على نحو ما هو ثابت عند اصحاب الاصول الاربعة التي قابل عليها اصله، وقد أكبر العلماء هذا العمل من (اليونيني) فاصبح هو العماد لكل من تعرضوا بعده لضبط روايات الجامع الصحيح.

غير أن التزام طريقة الرمز في التحقيق قد أصبحت صعبة تحتاج لمهارة وجهود من القارىء لا يتيسران الا للمتخصصين.

منزلة الجامع الصحيح: ارتبط اسم البخاري وذكره بهذا العمل العظيم الخالد وهو تأليف كتابه (الجامع الصحيح) الذي ضمنه أصح ما صح عنده من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي عرف المسلمون له عالي قدره فعظموه واعتبروه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى.

وكما يقول بروكلمان: بلغ في وقت متأخر منزلة تكاد تضاهي[1] منزلة القرآن، وكان يقرأ على الناس في المحافل

(١) بروكلمان ٣/١٦٥.

العامة بالقاهرة في شهر رمضان زمن المماليك وتقام احتفالات كبيرة عند ختام قراءته، وفي صعيد مصر يحلف الناس به ويتباركون، وكان الناس في الجزائر يحلفون بالبخاري، وكانت فرق الجند التي تستحلف على صحيح البخاري عند الخدمة في الجيش ببلدان (المغرب) تسمى البخارية.

ويقول الخطابي: أصبح هذا الكتاب كنزاً للدين، وركازاً للعلم، وصار بجودة نقده وشدة سبكه حكماً بين الأمة فيما يراد أن يعلم من صحيح الحديث وسقيمه وفيما يجب أن يعتمد ويعوَّل عليه.

ويقول الكرماني: (إن الجامع الصحيح أجل الكتب الصحيحة نقلاً ورواية وفهماً ودراية وأكثرها تعديلاً وتصحيحاً وضبطاً وتنقيحاً)

ويقول ابن خلدون: (إن الإجماع قد اتصل في الامة على تلقِّيها (البخاري ومسلم) بالقبول والعمل فيها وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن دفع)

منهج البخاري في جامعه:

المتابع بالدراسة والفحص لهذا الكتاب يتضح له أنه قد توفر له من التوثيق العلمي أقصى مدى- بعد القرآن الكريم- وصل إليه الفكر الإنساني في توثيق النصوص،

وأجمعت الأمة خاصتها وعامتها عبر الأجيال والقرون على تلقيه بالقبول والتقديم.

وقد شمل التوثيق كل جوانبه بحيث ألهث المغرضين وأهل الأهواء وأعياهم أن يجدوا فيه ثغرة، وما فتقوا حوله فتقاً إلا وقذف باطلهم بالحق الأبلج، وخلص للأمة هذا الكنز كما يخلص الذهب ويمحص على شدة الاختبار والاحتكاك.

وبمقاييس التوثيق التي تعارف عليها الفكر البشري قديماً وحديثاً وتطبيقها على كتابنا هذا نجده في الذروة في توفرها فيه أوفر ما تكون منهجاً وتطبيقا.

وسنرى- إن شاء الله تعالى- فيما نستقبل من سطور- عناصر هذا التوثيق منهجاً علمياً سليماً، وتطبيقاً سليماً، مادة وتأليفاً، وسنتناول من ذلك جانبين:

الأول: جانب الاسناد. والثاني: جانب المتن.

فأما أولهما وهو جانب الاسناد: فانه يحق لنا بادىء ذي بدء أن نسوق هذه الحقيقة التي يقررها المستشرق الألماني سبر نجر فيقول: (لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة، كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطير الذي

يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشئونهم) وجدير أن نقرر أن البخاري قد كان إمام هذا الفن ورائده بشهادة أئمة عصره في هذا الفن ومن أتى بعدهم على مر الأجيال التي تتلمذت عليه، وها هو ذا مؤلفه في هذا الجانب (التاريخ الكبير وغيره) يبلغ اعجاب شيخه به الإمام اسحاق ابن راهويه حدَّ أن يحمله للأمير عبد الله بن طاهر ويقول له: أيها الأمير ألا أريك سحراً! ويقول فيه بلسان الأجيال من بعده التاج السبكي: (انه لم يسبق إليه، وكل من ألف بعده في التاريخ والأسماء والكنى فعيال عليه).

وهو قد صار الامام والحجة والحكم يؤخذ بتوثيقه ويرد برده، نجده حين يخرج للامة جامعه الصحيح يختاره من بين مرويات رجال - هو بهم خبير - لا يتجاوز الخمسة في المائة من مجموع من وثقتهم الامة، وفي هذا دلالة على مدى التمحيص الدقيق في الانتخاب والاختيار مما يضع هؤلاء الذين اختارهم في امانة هذا الفن؛ ان ألفين من الرجال هم عدة رواة صحيح البخاري يختارون من بين ٣٧ سبعة وثلاثين ألفا من الموثقين، والذي يختارهم هو امام هذا الفن الذي حرر بيده تراجم اربعين ألفا من الرواة من عهد الصحابة رضوان الله عليهم حتى طبقة شيوخه تحرير المدقق

الملم بأحوال من يترجم لهم ويروى عنهم حتى ليقول: (قَلَّ اسم في التاريخ الا وله عندي قصة) ان هذا العدد من الرجال لهم الصفوة بحق التدقيق المنهجي في الاختيار، وان الائمة في عصره وبعد عصره اذ يوثقون من وثقه ويقدمون من قدمه انما كان منهم عن اختيار وتمحيص ومتابعة بالدراسة لكل رجاله متابعة يحددها الدافع الديني والمنهج العلمي.

شروط البخاري فيمن يروى عنهم [1]:

لم ينقل عن البخاري أو غيره من الستة أنه قال شرطت أن أخرج في كتابي ما يكون على الشرط الفلاني - سوى اشتراط اللقاء عند البخاري، والاكتفاء بالمعاصرة عند مسلم كما هو مشهور، وانما عرفت شروطهم من تتبع كتبهم وسبرها، فعلم بذلك شروط كل واحد منهم.

يقول الحافظ المقدسي: فاعلم أن شرط (البخاري ومسلم)[2] ان يخرجا الحديث.

١ - المتفق على ثقة نقلته الى الصحابي المشهور من غير اختلاف بين الثقات الاثبات

---

(١) انظر شروط الائمة الستة ص ١٠ للحافظ المقدسي

(٢) قول المحققين: على شرطهما. أو على شرط أحدهما ان يكون رجال الإسناد في كتابيهما أو في كتاب احدهما لانهما ليس لهما شرط في كتابيهما ولا في غيرهما (مفتاح السنة ص٧١).

٢ - وان يكون اسناده متصلا غير مقطوع فان كان للصحابي راويان فصاعدا فحسن، وان لم يكن له الا راو واحد اذا صح الطريق الى ذلك الراوي أخرجاه.

٣ - ثم عدالة الرجل في نفسه واجماع ائمة النقل على ثقته وامامته.

رجال البخاري المتكلم فيهم:

اذا كانت وجهات النظر الانساني في تقدير الرجال لا تسلم من الاختلاف لاعتبارات شتى فان من اختلف فيهم على البخاري انحصر في عدة من الرجال بلغت ثمانين رجلاً هم كل من كان موضع نظر أو استدراك في رجال الصحيح من مجموع الفين من الرجال ولم يتعد الأمر فيهم حد اختلاف وجهات النظر ممن ضعفوهم تضعيفا مرجوحا يتجلى فيه- بعد البحث والتدقيق - رجاحه وجهة نظر البخاري عن وجهة نظر مخالفيه.

وقد عقد الامام ابن حجر (١) بابا في سياق أسماء جميع من طعن فيه من رجال البخاري على ترتيب الحروف والجواب عن ذلك الطعن بطريق الانصاف والعدل والاعتذار عن المصنف في التخريج لبعضهم ممن يقوى

(١) انظر الباب التاسع من المقدمة هدى الساري من ص ٣٨١ - ٤٦٥

جانب القدح فيه إما لكونه تجنب ما طعن فيه بسببه، واما لكونه اخرج ما وافقه عليه من هو أقوى منه واما لغير ذلك من الاسباب.

فقد ساق ابن حجر تراجم هؤلاء الثمانين وما قيل فيهم من مدح وقدح، وما أخرجه لهم البخاري فذكر في أولهم ممن اسمه (أحمد) تسعة نفر اختلف فيهم وغالبهم من شيوخ البخاري الذين لقيهم واختبرهم، فثلاثة منهم اتضح انهم ثقات

وثلاثة: فيهم كلام، وانما أخرج لكل واحد منهم حديثا واحدا (متابعة) يروى البخاري الحديث عن ثقة أو أكثر ويرويه مع ذلك عن ذاك (المتكلم فيه).

واثنان: روى عن كل منهما احاديث يسيرة (متابعة أيضا).

والتاسع: احمد بن عاصم البلخي ليس له في (الصحيح نفسه شيء)، ولكن (المستملي) أحد رواة الصحيح عن (الفربري) عن البخاري ادرج في باب رفع الامانة من الرقاق قوله: (قال الفربرى) قال أبو جعفر: حدثت أبا عبد الله (البخاري) فقال: سمعت أبا جعفر- أحمد بن عاصم يقول: سمعت أبا عبيد يقول: قال الاصمعى وأبو عمرو وغيرهما: (جذر

قلوب الرجال) الخ الحديث.

وهكذا سار (ابن حجر) في دراسة أحوال الثمانين حتى خرج بالحكم الآتي بعد أن قدم لذلك بقاعدة عادلة في اعتمادها انصاف لأكثر المطعون عليهم. يقول الامام الحافظ ابن حجر:

(ينبغي لكل منصف أن يعلم أن تخريج صاحب الصحيح لأي راو كان مقتض لعدالته عنده وصحة ضبطه وعدم غفلته ولا سيما ما انضاف الى ذلك من اطباق جمهور الأئمة على تسمية الكتابين بالصحيحين (البخاري ومسلم) وهذا معنى لم يحصل لغير من خرَّج عنه في الصحيح فهو بمثابة اطباق الجمهور على تعديل من ذكر فيهما هذا اذا خرج له في الاصول. فإما ان خرج له ي المتابعات والشواهد والتعاليق فهنا تتفاوت درجات من أخرج له منهم في الضبط وغيره مع حصول اسم الصدق لهم، وحينئذ اذا وجدنا لغيره في احد منهم طعنا فذلك الطعن مقابل لتعديل هذا الامام فلا يقبل الا مبيِّن السبب مفسرا بقادح يقدح في عدالة هذا الراوي وفي ضبطه مطلقا أو في ضبطه لخبر بعينه لان الاسباب الحاملة للائمة على الجرح متفاوتة منها ما يقدح ومنها ما لا يقدح.

ونتيجة لهذه القاعدة كما قررها ابن حجر انه لا يقبل الطعن في واحد منهم الا بقادح واضح من أسباب الجرح المختلفة وهي: البدعة، والمخالفة، والغلط، وجهالة الحال، ودعوى الانقطاع: بأن يدعى ان الراوي كان يدلس أو يرسل،وقد شرح ابن حجر هذه الاسباب مبينا درجات كل منها وطريقة تطبيقه وذكر نتيجة مجملة لهذا التطبيق على رجال البخاري في عمومهم. ثم أتبع ذلك بحديث مفصّل عن المتكلم فيهم ممن أخرج البخاري احاديثهم فتحدث عن كل واحد منهم مع حكاية الطعن الموجه اليه والتنقيب عن سببه والقيام بجوابه والتنبيه على وجه ردّه ثم قال: (قد وضح من تفاصيل احوالهم ما فيه غنى للمتأمل ولاح من تمييز المقالات فيهم ومقدار ما أخرج المؤلف لكل منهم ما ينفي عنه وجوه الطعن للمتعنت).

وجهة نظر الامام الحازمي[1]:

يقول الحازمي: فان قيل إن الشيخين (البخاري ومسلما) لم يلتزما استيعاب جميع ما صح، بل لم يودعا كتابيهما الا ما صح، فما بالهما أخرجا حديث جماعة تكلم فيهم نحو:

فليح بن سليمان، وعبد الرحمن بن عبد الله بن دينار،

(١) انظر كتاب (شروط الائمة الخمسة) ص ٥٦ وما بعدها

واسماعيل بن أبي أويس عند البخاري.

ومحمد بن اسحاق بن يسار وذويه عند مسلم؟

قلت: أما ايداع البخاري ومسلم كتابيهما حديث نفر نسبوا الى نوع من الضعف فظاهر، غير انه لم يبلغ ضعفهم حدّا يرد به حديثهم، مع أنا لا نقر بأن البخاري كان يرى تخريج حديث من ينسب الى نوع من أنواع الضعف. ولو كان ضعف هؤلاء قد ثبت عنده لما خرج حديثهم.

ثم ينبغي ان يعلم أن جهات الضعف متباينة متعددة، واهل العلم مختلفون في اسبابه.

أما الفقهاء فمدارك الضعف عندهم محصورة. وجلها منوط بمراعاة ظاهر الشرع وعند أئمة النقل أسباب أخرى مرعية عندهم وهي عند الفقهاء غير معتبرة، ثم أئمة النقل أيضا على اختلاف مذاهبهم وتباين أحوالهم في تعاطي اصطلاحاتهم يختلفون في أكثرها، فرب راو هو موثوق به عند عبد الرحمن بن مهدي، ومجروح عند يحيى بن اسماعيل القطان وبالعكس. وهما إمامان عليهما مدار النقد في النقل ومن عندهما يتلقى معظم شأن الحديث.

وأما البخاري فكان وحيد دهره وقريع عصره **اتقانا**

وانتقادا وبحثا وسبرا، ويعد احاطة العلم بمكانته من هذا الشأن لا سبيل الى الاعتراض عليه في هذا الباب.

ثم له-أي للبخاري-أن يقول: هذا السؤال لا يلزمني لاني قلت: لم أخرج الا حديثا متفقا على صحته ولم أقل: لا أخرج إلا حديث من اتفق على عدالته لان ذلك يتعذر لاختلاف الناس في الاسباب المؤثرة في الضعف، ثم قد يكون الحديث عند البخاري ثابتا وله طرق بعضها أرفع من بعض غير أنه يحيد أحيانا عن الطريق الاصح لنزوله أو يسأم تكرار الطرق الى غير ذلك من الاعذار، وقد صرح مسلم بنحو ذلك

وللبدر العيني[1] وجهة نظره اذ يقول: في (الصحيح) جماعة جرحهم بعض المتقدمين، وهو محمول على انه لم يثبت جرحهم بشرطه فان الجرح لا يثبت الا مفسرا مبين السبب عند الجمهور.

رجال المعلقات[2] عند البخاري وكذا الموقوفات:

ولم يكتف (ابن حجر) بتخليص رجال الصحيح مما علق

---

(١) الكوثرى ص ٢٥

(٢) المراد بالتعليق. ما حذف من مبتدأ اسناده واحد فأكثر ولو الى اخر الاسناد وتارة يجزم به كقال وتارة لا يجزم به كيذكر.

بهم وانصافهم بل انه سلك نفس المسلك وبايجاز فيمن طعن عليهم ممن علق البخاري شيئا من أحاديثهم ولو ان الطعن عليهم لا يضر البخاري شيئا ما داموا بعيدين عن اصل الصحيح الا ان ابن حجر لم يشأ أن يتركهم نهبا للطعون، وبعد أن فرغ من وزنه وانصافه لهؤلاء وأولئك.

ومن حديثه عنهم واحدا فواحدا وبيان ماله وما عليه سرد أسماء المضعفين منهم دون حق بسبب الاعتقاد وأسماء المضعفين بأمر مردود كالتحامل أو التعنت أو عدم الاعتماد على المضعف لكونه من غير أهل النقد أو لكونه قليل الخبرة بحديث من تكلم فيه أو بحاله أو لتأخر عصره.. الخ.

ثم عقب على ذلك بقوله: فجميع من ذكر في هذين الفصلين ممن احتج به البخاري لا يلحقه في ذلك عيب لما فسرناه وأما من عدا من ذكر فيهما ممن وصف بسوء الضبط أوالوهم أو الغلط ونحو ذلك فلم يخرج لهم الا ما توبعوا عليه عنده أو عند غيره).

ولذلك خلصت للبخاري أسانيده بميزان الحق والمنهج العلمي وليس بعد ذلك مطعن لطاعن الا الهوى والجهل وموجز الكلام في رجاله كالاتي:

١- الذين انفرد البخاري بالاخراج لهم - دون مسلم -

أربعمائة وبضع وثلاثون رجلا والمتكلم فيه بالضعف منهم ثمانون رجلا وقد تبين انصافهم بالمنهج العلمي في نقد الرجال.

٢ - الذين انفرد بهم البخاري - ممن تكلم فيه - لم يكثر من تخريج احاديثهم وليس لواحد منهم نسخة كبيرة اخرجها كلها أو أكثرها الا ترجمة عكرمة عن ابن عباس.

٣ - ان أكثرهم من شيوخه الذين لقيهم وجالسهم وعرف أحوالهم واطلع على أحاديثهم وسبر جيدها من موهومها. ولا شك ان المحدث أعرف بحديث شيوخه من غيره.

٤ - يخرج البخاري من أحاديث الطبقة الثانية انتقاء لا أصولا.

قول البخاري في بيان منهجه في اختبار الرواة:

يقول[1]: لم يكن كتابتي الحديث كما كتب هؤلاء، كنت اذا كتبت عن رجل سألته عن: اسمه، وكنيته، ونسبته وحمل الحديث ان كان رجلا فهما فان لم يكن سألته ان يخرج الى اصله ونسخته .

---

(١) هدى الساري ١٧٨/٢ - ١٨٠ - ١٨٣.

على أن على فرض التسليم جدلا بثبوت ضعف الراوي فلن يتأثر المتن بذلك اذ انه ثابت روايته من طرق اخرى صحيحة غير طريق الراوي المتكلم فيه.

وبذلك يكون النقد الذي توجه الى بعض الرواة مردودا وغير مؤثر في المتن ولا في الكتاب وما كان الا بالنسبة الى الحكم عليهم والتعريف بهم.

هذا وقد عني رجال الحديث والنقاد بالتأليف في رجال البخاري ومن ذلك:

كتاب (رجال البخاري) لاحمد بن محمد الكلاباذي المتوفى (٣٩٨ هـ)

كتاب (رجال البخاري) لمحمد بن داود الكردي المتوفى (٩٢٥هـ).

كتاب (بلغة القانع في طرق الصحيح الجامع) للحافظ شمس الدين بن طولون الدمشقي.

كتاب (عمدة القارىء والسامع في ختم الصحيح الجامع) للسخاوي.

وممن جمع بين رجال البخاري ورجال مسلم بالتأليف (محمد بن طاهر المقدسي المتوفى (٥٠٧ هـ) جمع بين كتابي (ابن منجويه) و (الكلاباذي) وأحسن في ترتيبه على الحروف واستدرك عليها، وكذلك جمع بينهما هبة الله

المعروف باللالكائي المتوفى (٤١٨ هـ)[١]، وقد عقد[٢] ابن حجر الباب السابع من هدي الساري للتعريف بشيوخ البخاري الذين أهمل نسبهم اذا كانت يكثر اشتراكها كمحمد لا من يقل اشتراكه كمسدد وفيه الكلام كذلك على جميع ما فيه من مهمل على سياق الكتاب مختصرا.

هدى السارى ١ ص ١٩: تقرر أنه التزم فيه الصحة، وانه لا يورد فيه الا حديثا صحيحا هذا أصل موضوعه وهو مستفاد من تسميته اياه الجامع الصحيح المسند الخ.

جانب المتن:

تبين لنا مما سبق مدى جهد الإمام البخاري في جانب السند، وفيما نستقبل من سطور نتبين جهده في جانب المتن.

لقد بلغ كثير من أهل الحديث في الحفظ حدا يفوق الوصف وبارك الله لهم في هذه الموهبة صونا لحديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحفظا له. وكان البخاري رضي الله عنه آية من آيات الله في هذه الموهبة شهد له بها معاصروه بعد طول اختبار وتمحيص وتعرض لامتحان ومحن في هذا الشأن.

---

(١) شروط الائمة الستة ص ٥

(٢) هدى السارى ص ٣ ومن ص ٢١٦ - ٤٤٣

يروى صاحب طبقات الشافعية[1]. عن احمد بن الحسن الرازي قال:(سمعت أبا احمد بن عدي يقول: سمعت عدة مشايخ يحكون ان محمد بن اسماعيل البخاري قدم بغداد، فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر واسناد هذا المتن لمتن اخر ودفعوا الى عشرة أنفس، الى كل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم اذا حضروا المجلس ان يلقوا ذلك على البخاري، وأخذوا العدة للمجلس، فحضر المجلس جماعة أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ومن البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب اليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الاحاديث فقال البخاري: لاأعرفه، فسأله عن آخر فقال: لا أعرفه فما زال يلقي عليه واجدا بعد واحد حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لا أعرفه، فكان الفقهاء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم الى بعض ويقولون: الرجل فهم، ومن كان منهم غير ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الفهم، ثم انتدب آخر من العشرة فسأله عن حديث من تلك الاحاديث المقلوبة فقال البخاري: لا

---

(١) ج ٢ ص ٦

أعرفه، فسأله عن آخر فقال: لاأعرفه، فلم يزل يلقى عليه واحدا بعد الاخر حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول: لا أعرفه، ثم انتدب اليه الثالث والرابع الى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الاحاديث المقلوبة والبخاري لا يزيدهم على (لا أعرفه) فلما علم البخاري أنهم قد فرغوا التفت الى الاول منهم فقال: أما حديثك الاول فهو كذا، والثاني فهو كذا والثالث والرابع على الولاء حتى اتى على تمام العشرة فرد كل متن الى اسناده، وكل اسناد الى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك ورد متون الاحاديث كلها إلى أسانيدها، وأسانيدها الى متونها، فأقر له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل) ويعقب ابن حجر على ذلك بقوله: (وهنا يخضع للبخاري! فما العجب من رده الخطأ الى الصواب فانه كان حافظا، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه من مرة واحدة) وقد جرى هذا الامتحان للبخاري من علماء بغداد في عصرها الذهبي وهم من هم آنذاك منزلة في العالم الاسلامي.

من منهجه في الحفظ:

عن سليم بن مجاهد[1] يقول: كنت عند محمد بن سلام

---

(١) طبقات السبكي ج ٢

البيكندي فقال لي: لو جئت قبل.. لرأيت صبيا يحفظ سبعين ألف حديث!!فخرجت في طلبه حتى لقيته فقلت له: انت الذي تقول: أنا أحفظ سبعين ألف حديث؟ قال: نعم وأكثر منه، ولا أجيئك بحديث عن الصحابة والتابعين الا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم، ولست أروى حديثا من أحاديث الصحابة والتابعين الا وله أصل، أحفظ ذلك عن كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويقول:(احفظ مائة ألف حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح)

ويقول عن جامعه: (جعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى، وما أدخلت فيه إلا صحيحا، وما تركت من الصحيح أكثر حتى لا يطول) فالأصل أنه التزم فيه أن يكون من الصحيح وطبعا لم يستوعب الصحيح كله في جامعه اذ ان ما تركه من الصحيح أكثر وإنما كان يختار حسب موازين حددها لنفسه، كما أن ما جمعه في صحيحه ليس هو كل ما يحفظه من الصحيح،وبالاولى لم يدون فيه كل ما حكم عليه بالصحيح هو أو غيره فقد صحح احاديث ليست في كتابه كما نقل عنه الترمذي تصحيح أحاديث ليست عنده بل في السنن وغيرها.

هذا عن الحفظ ومنزلته فيه ؛أما عن التدوين وعنايته به فقد كان قدوة يفتقد عند غيابه ، يقول عمر بن[1] حفص الاشقر: (كنا مع محمد بن اسماعيل بالبصرة نكتب الحديث ففقدناه أياما فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان، وقد نفد ما عنده ولم يبق شيء ، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوباوكسوناه ، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث)، ولقد بدأ في تدوين جامعه الصحيح بعد أن تهيأت له مادته من الحفظ والتدوين ولقاء الشيوخ وصارت لديه ثروة ضخمة من الحديث. فخرجه من ستمائة ألف حديث على مدى ست عشرة سنة لم يختر فيه الا الصحيح.

مدار الحديث الصحيح: هو كما يقول ابن حجر على ثلاثة أصول هي:

١ - اتصال السند

٢ - اتقان الرجال

٣ - عدم العلة

أما (اتصال السند) فقد تشدد البخاري في تحريه الى حد لم يبلغه غيره ،ويظهر ذلك في نظره الى الاسناد (المعنعن) فهو لا يعطيه حكم الاتصال الا اذا ثبت عنده اجتماع (المعنعن)

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٣ .

ومن عنعن عنه ولو مرة، وقد أظهر هذا المذهب في تاريخه وجرى عليه في صحيحه وأكثر منه، واتصال اللقاء من الامور الخاصة بالبخاري كما هو معروف، والحق ان الصحة والاسناد متلازمان وقد جاءت متون أبوابه وأصولها جميعا مسندة.

و(اتقان الرواة) فكان من الامور التي يتحراها جهده في الرجال والمتكلم فيهم من رواته قلة بالنسبة الى جملة من روى عنهم في الكتاب، ومع ذلك لم يكثر من تخريج احاديثهم وسبقت الاشارة الى ذلك.

وإزاء اتصال السند وإتقان الرواة فلقد جهد البخاري في تحصيل الحديث وتنقيته ولم يبعد الزمن بينه وبين المنبع الزاخر اذ كان في حساب الزمن قرنان، وفي حساب طبقات الرجال فان البخاري معدود من اتباع التابعين فبينه وبين المصطفى صلى الله عليه وسلم ثلاثة رجال فقط في اسناده العالي كما في (ثلاثيات البخاري) التي هي أعلى اسناد البخاري، ليس بينه فيها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة رجال هم المحدثون له أتباع التابعين الذين بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم التابعون فالصحابة مباشرة الذين تلقوا السنة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقد

اعانه ذلك على تمحيص الحديث بالنظر الثاقب الدقيق والموثق لشيوخه، ومنهم يتعرف الى احوال من اخذوا عنهم من التابعين الذين اخذوا عن الصحابة المعدلين.

ويقول: إنه لم يذكر فيه -(الجامع)- حديثا إلا بعدان يتيقن من صحته، وقد صرح بأنه يروى عن الثقات بقوله: (كتبت عن ألف ثقة من العلماء وزيادة، وليس عندي حديث لا أذكر اسناده).

غير الموصول عنده[1]:

والواقع ان فيما اورده غير موصول أحاديث صحيحة على شرطه وأخرى لا تعد عنده من الصحيح، أما ما كان منها صحيحا على شرطه فهو يورده بغير اسناد لواحد من امور:

إما قصدا إلى التخفيف لأنه ذكره في موضع آخر موصولا، اذ من قاعدته انه لا يكرر الا لفائدة، واما للاستغناء عن وصله بوصل غيره، وايراده معلقا لافادة الاشارة اليه وتجنب اهماله، واما لانه لم يسمعه من شيخه، او سمعه مذاكرة، أو شك في سماعه ولذلك لم يستسغ ان يسوقه مساق الاصول.

---

(١) هدى الساري ١/١١/

وكذلك فعل بالاحاديث التي لا تكتسب وصف الصحة على شرطه، فقد تعمد ترك اسنادها لينبه على أنها خارجة عن موضوع كتابه.

أما عن (عدم العلة) فيستبين ذلك مما سيلي ان شاء الله تعالى.

يقول ابو جعفر محمود بن عمر العقيلي[1]: لما ألف البخاري كتاب (الصحيح) عرضه على أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلي بن المديني وغيرهم، فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة الا في أربعة أحاديث، قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة.

منزلة احاديث (الجامع) ورأى العلماء فيها:

١ - من المعلوم ان الجامع الصحيح هو أول كتاب الف في الصحيح المجرد، وقد اتفق جمهور العلماء على أنه أصح الكتب بعد القرآن الكريم، وذلك أنه لا يخرج من الحديث الا ما اتفق على ثقة ناقليه الى الصحابي المشهور مع كون الاسناد اليه متصلا غير مقطوع.

ويقاربه في ذلك (صحيح مسلم) - وذلك ما يسمى بشرط الشيخين -

---

(١) هدى الساري ١١/١

اذا علمنا ان هذا رأي الجمهور فهل ينطبق هذا الرأي على كل ما في الصحيح؟

وهل هناك نزاع في ذلك؟

يقرر ابن الصلاح وغيره الاجماع على تلقي هذا الجامع بالقبول والتسليم لصحة جميع ما فيه

ثم يحترز فيقول: إلا مواضيع يسيرة انتقدها عليه الدار-قطني وغيره.

ثم يبين هذا الاستثناء من الاجماع - مع اعتماده - فيقول في مقدمة شرحه لمسلم: «ما أخذ عليهما - أي البخاري ومسلم - وقدح فيه معتمد من الحفاظ، فهو مستثنى مما ذكرناه لعدم الاجماع على تلقيه بالقبول».

أما (الدار قطني) فقد وجه نقده الى أحاديث انفرد بها (البخاري) وبعضها اتفق فيها معه (مسلم)، وقد أشار النووي الى هذه الاحاديث فقال في مقدمة شرح مسلم مانصه: (فصل: قد استدرك على البخاري ومسلم أحاديث أخلاّ بشرطها فيها ونزلت عن درجة ما التزماه. فقد ألف الامام الحافظ أبو الحسن علي بن عمر الدار قطني في بيان ذلك كتابه المسمى (الاستدراكات والتتبع) وذلك في مائتي حديث مما في الكتابين).

ولابي مسعود الدمشقي ايضا عليها استدراك.

ولابي على الغساني الجياتي في كتابه (تقييد المهمل) في جزء العلل استدراك أكثره على الرواة عندهما، ثم يقول النووي: وقد أجيب عن كل ذلك أو أكثره.

موضوع هذه المآخذ ومناقشتها:

وقبل الخوض في هذه الاحاديث (المتكلم فيها) ينبغي لكل منصف ان يعلم بادىء ذي بدء أن هذه الاحاديث وان كان أكثرها لا يقدح في اصل موضوع الكتاب فان جميعها وارد من وجهة اخرى، وهذا تفسير لدعوى ابن الصلاح وغيره الاجماع على تلقي هذا الكتاب بالقبول والتسليم لصحة جميع ما فيه.

ذلك أن هذه المواضع متنازع في صحتها فلم يحصل لها من التلقي ما حصل لمعظم الكتاب واحترز لذلك كما سبق.

وقال (النووي) في مقدمة شرحه للبخاري (فصل: قد استدرك الدار قطني على البخاري ومسلم أحاديث فطعن في بعضها، وذلك الطعن مبني على قواعد لبعض المحدثين ضعيفة جدا مخالفة لما عليه الجمهور من أهل الفقه والاصول وغيرهم فلا تغتر بذلك إهـ.

ثم يحصر ابن حجر هذه الاحاديث - موضع النزاع -

فيقول: (وعدة ما اجتمع من ذلك في كتاب (البخاري) وان شاركه مسلم في بعضه - (١١٠) عشرة ومائة حديث، منها ما وافقه مسلم على تخريجه وهو (٣٢) اثنان وثلاثون حديثا، ومنها ما انفرد - أي البخاري - بتخريجه وهو (٧٨) ثمانية وسبعون حديثا).

غير أن هنا تنبيها لا بد منه؛ فقد علمنا أن (البخاري) جمع في صحيحه بجانب المتون الموصولة الأحاديث (المعلقة) و(الموقوفة) و(المقطوعة) وعلى هذا فيمكن تقسيم المآخذ الى قسمين:

قسم وُجِّه الى أصل الكتاب.

وقسم وجه الى غيره من التعاليق و(الموقوفات) و(المقطوعات) الخ.

أولا:

أما ما جمعه البخاري في صحيحه من المعلقات والموقوفات والمقطوعات فليست من موضوع كتابه الذي جرده للصحيح، وانما جمعها بجانب الصحيح قصد الاستئناس - والاستشهاد بها فحسب، ولذلك غاير في سياقها عن سياق الأصل، وبذلك لا ينهض الاعتراض عليها اعتراضا على الكتاب ذاته فهي ليست من موضوعه، ولهذا لم

يتعرض الدار قطني في نقده الى الاحاديث المعلقة التي لم توصل في موضع آخر لعلمه انها ليست من موضوع الكتاب.

على ان (ابن حجر) قام بجهد مشكور بوصل جميع المعلقات من الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة والمتابعات الموجودة في الصحيح وذكرها باسناده الى المكان المعلق في مؤلف خاص سماه (تغليق التعليق) وعقد في مقدمته فصلا يقول فيه: (ذكرت فيه جميع احاديثه المرفوعة وآثاره الموقوفة، وذكرت من وصلها باسانيدي الى المكان المعلق).

ثانيا:

أما ما انتقد على (البخاري) وكان من الاحاديث المسندة فإما ان يكون الطعن فيه مبنيا على قواعد ضعيفة لبعض المحدثين فلا يقبل نقده لضعف مبناه، واما ان يكون مبنيا على قواعد قوية فحينئذ يكون قد تعارض تصحيحها أو تصحيح أحدهما مع كلام المعترض. ولا ريب في تقدمهما (البخاري ومسلم) في باب التصحيح والتضعيف على غيرهما.

يقول الحافظ ابن حجر: (وعدَّة ما انتقد عليهما من الاحاديث المسندة (٢١٠) عشرة ومائتا حديث: اشتركا في (٣٢) اثنين وثلاثين حديثا، واختص (البخاري) ب(٧٨) بثمانية وسبعين حديثا، ومسلم بـ (١٠٠) بمائة حديث.

ثم قال: والجواب عن ذلك على سبيل الاجمال أن نقول: لا ريب في تقديم البخاري ثم مسلم على اهل عصرهما ومن بعده من أئمة هذا الفن في معرفة الصحيح والمعلل.

ثم قال: فاذا عرف وتقرر انهما لا يخرجان من الحديث الا مالا علة له، الا انها غير مؤثرة عندهما فبتقدير توجيه كلام المنتقد عليهما يكون قوله معارضا لتصحيحهما، ولا ريب في تقدمهما في ذلك على غيرهما فيندفع الاعتراض من حيث الجملة.

ثم أجاب الحافظ عن النقد جوابا تفصيليا قسم فيه الاحاديث التي انتقدت عليهما الى ستة أقسام:

الأول: ما تختلف الرواة فيه بالزيادة والنقص من رجال الاسناد، فإن أخرج صاحب الصحيح الطريق المزيدة وعلله الناقد بالطريق الناقصة فهو تعليل مردود كما صرح به الدار قطني لان الراوي ان كان سمعه فالزيادة لا تضر لانه قد يكون سمعه بواسطة عن شيخه ثم لقيه فسمعه منه، وان كان لم يسمعه في الطريق الناقصة فهو منقطع، والمنقطع من قسم الضعيف، والضعيف لا يعل الصحيح، وان اخرج صاحب الصحيح الطريق الناقصة

وعلله الناقد بالطريق المزيدة تضمن اعتراضه دعوى انقطاع فيما صححه المصنف، فينظر ان كان ذلك الراوي صحابيا أو ثقة غير مدلس قد أدرك من روى عنه ادراكا مبينا، أو صرح بالسماع ان كان مدلسا من طريق اخرى فان وجد ذلك اندفع الاعتراض بذلك... الخ.

الثاني: ما تختلف الرواة فيه بتغيير رجال بعض الاسناد... الخ.

الثالث ما تفرد بعض الرواة بزيادة فيه دون من هو أكثر عددا أو أضبط ممن لم يذكرها، فهذا لا يؤثر التعليل به الا ان كانت الزيادة منافية بحيث يتعذر الجمع.. الخ.

الرابع: ما تفرد به بعض الرواة ممن ضعف من الرواة وليس في هذا الصحيح من هذا القبيل غير حديثين.

الخامس: ما حكم فيه بالوهم على بعض رجاله، فمنه ما يؤثر ذلك الوهم قدحا ومنه مالا يؤثر.

السادس: ما اختلف فيه بتغيير بعض الفاظ المتن فهذا أكثره لا يترتب عليه قدح لإمكان الجمع.

فهذه جملة اقسام ما انتقده الائمة على الصحيح وقد حررتها وحققتها وقسمتها وفصلتها ،لا يظهر منها ما يؤثر في أصل موضوع الكتاب بحمد الله الا النادر، وهذا حين الشروع في ايرادها على ترتيب ما وقع في الاصل لتسهل مراجعتها ان شاء الله تعالى ،ثم يمضي ابن حجر في الحديث عنها في مواطنها من الاصل مع الاجابة والافادة.

وقد عقد رحمه الله تعالى الباب الثامن[1] في سياق الاحاديث التي انتقدها عليه حافظ عصره ابو الحسن الدار قطني وغيره من النقاد، والجواب عنها حديثاً حديثاً، وايضاح انه ليس فيها ما يخل بشرطه الذي حققه ابن حجر.

نماذج مما انتقد على البخاري ومناقشتها:

١ - قال الدار قطني: أخرج البخاري ومسلم حديث:

مالك عن الزهري عن أنس قال: كنا نصلى العصر، ثم يذهب الذاهب منا الى قباء فيأتيهم والشمس مرتفعة).

وهذا مما ينتقد به مالك لأنه رفعه، وقال فيه (الى قباء).

وخالفه عدد كثير، منهم: شعيب بن ابي حمزة، وصالح

(١) انظر هدى الساري ٣٤٤ - ٣٨٠

ابن كيسان، وعمرو بن الحارث، ويونس بن يزيد، ومعمر، والليث بن سعد، وابن ابي ذئب، وآخرون اهـ، وقد تعقبه النسائي ايضا على مالك. وموضع التعقيب منه (الى قباء)، والجماعة كلهم قالوا (الى العوالي) قال ابن حجر مجيبا على ذلك:

ومثل هذا الوهم اليسير لا يلزم منه القدح في صحة الحديث لا سيما وقد أخرجا الرواية المحفوظة.

٢ - قال الدار قطني: أخرج البخاري حديث:

محمد بن طلحة عن ابيه عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد أن له فضلا على من دونه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم) وهذا حديث مرسل:

قال ابن حجر مجيبا: صورته صورة المرسل الا انه موصول في الاصل معروف من رواية مصعب بن سعد عن أبيه. وقد اعتمد البخاري كثيرا من أمثال هذا السياق فاخرجه على انه موصول اذا كان الراوي معروفا بالرواية عمن ذكره. وقد رويناه في سنن النسائي، وفي مستخرجي الاسماعيلي وابي نعيم، وفي الحلية لابي نعيم، وفي الجزء السادس من حديث ابي

محمد بن صاعد من حديث مصعب بن سعد عن ابيه انه رأى الخ[1].

رأى معاصر

أما السيد رشيد رضا فبعد أن عرض للاحاديث المنتقدة على البخاري قال:(واذا قرأت ما قاله الحافظ فيها رأيتها كلها في صناعة الفن، ولكنك اذا قرأت الشرح نفسه (فتح الباري) رأيت له في أحاديث كثيرة إشكالات في معانيها أو تعارضها مع غيرها مع محاولة الجمع بين المختلفات وحل المشكلات بما يرضيك بعضه دون بعضه).

ويعقب السيد عبد الرحمن[2] بقوله: السيد رشيد رضا وغيره يعلمون ان في القرآن الكريم آيات يشكل بعضها على الكثير من الناس وآيات يتراءى فيها التعارض. والذين فسروا القرآن - ومنهم السيد رشيد - يحاولون حل ما يتراءى اشكاله والجمع بين ما يتراءى تعارضه (بما يرضيك بعضه دون بعض) والقرآن كله حق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فثبت بهذا ان ما ذكره السيد رشيد رضا في تلك الاحاديث لا تصلح دليلا

---

(١) انظر هدى الساري ٣٤٤ - ٣٨٠ وانظر مفتاح السنة ص ٤٠

(٢) هدى الساري

على البطلان.

التعاليق:

ما هو التعليق؟ هو أن يحذف من مبتدأ اسناده واحد فأكثر ولو الى آخر الاسناد وتارة يجزم به كقال، وتارة لا يجزم به كيذكر، وقد أخلى البخاري كثيرا من الابواب عن اسناد الحديث واقتصر على قوله فيه فلان الصحابي عن النبي صلى الله عليه وسلم أو: فيه حديث فلان ونحو ذلك، وقد يذكر متن الحديث بغير اسناد. وقد يحذف من أول الاسناد واحد فاكثر، وهذان النوعان يسميان (تعليقا).

لماذا التعليق عند البخاري؟

وانما يفعل هذا لانه أراد الاحتجاج للمسألة التي ترجمها واستغنى عن ذكر الحديث أو عن اسناده ومتنه وأشار اليه لكونه معلوما، وقد يكون مما تقدم وربما تقدم قريبا، ذلك انه ليس مقصوده بهذا الكتاب الاقتصار على الحديث وتكثير المتون بل مراده الاستنباط منها والاستدلال لابواب ارادها من الاصول والفروع.

وقد عقد ابن حجر الباب[1] الرابع في بيان السبب في ايراده الاحاديث المعلقة والاثار الموقوفة مع انها تباين أصل

(١) هدى الساري ٢/١٠٢

موضوع الكتاب، وألحق ابن حجر فيه سياق الاحاديث المرفوعة المعلقة والاشارة لمن وصلها على سبيل الانتصار، ثم انه في فتح الباري بعد أن يشرح الحديث يصل ما انقطع من معلقاته وموقوفاته، كما انه في مؤلفه (تغليق التعليق) ساق فيه رجال من علق البخاري شيئا من حديثهم وتكلم فيهم ثم قال: وما يعلقه البخاري من احاديث هؤلاء انما يورده في مقام الاستشهاد وتكثير الطرق فلو كان ما قيل فيهم قادحا ما ضر ذلك.

على ان هذه التعاليق التي لم يجعلها البخاري من أصل موضوع كتابه لا لشيء الا انه اشترط الاتصال وألزم به نفسه في موضوع كتابه هي عند غيره من (الصحيح) الذي هو أصل الكتاب. وهذا اصطلاح (مالك) حيث جعلها من موضوع كتابه فاعتبرها من الصحيح عامة، فاذا اضيف الى ذلك وصل ابن حجر لها في كتابه (تغليق التعليق) وان البخاري ما أوردها إلا استئناسا واستشهادا فإنه لا يبقى بعد ذلك مجال للاعتراض عليها.

يقول ابن حجر بعد ان فصل أقسام التعاليق: وان جميع ما فيه صحيح باعتبار انه كله مقبول ليس فيه ما يرد مطلقا الا النادر فهذا حكم المرفوعات.

وأما الموقوفات - فانه يجزم منها بما صح عنده ولو لم يكن على شرطه ولا يجزم بما كان في اسناده ضعف أو انقطاع الا حيث يكون منجبرا اما بمجيئه من وجه آخر واما بشهرته عمن قاله.

وانما يورد ما يورد من الموقوفات من فتاوى الصحابة والتابعين ومن تفاسيرهم لكثير من الآيات على طريق الاستئناس والتقوية لما يختاره من المذاهب في المسائل التي فيها الخلاف بين الأئمة.

أقسام المعلق: -

وقد قسم ابن حجر المعلق من المرفوعات على قسمين: -

أحدها: - ما يوجد في موضع آخر من كتابه (الجامع) هذا موصولا.

وثانيها: - مالا يوجد فيه الا معلقا.

أما الاول: - فانه يورده معلقا حيث يضيق مخرج الحديث اذ من قاعدته انه لا يكرر الا لفائدة، فمتى ضاق المخرج واشتمل المتن على أحكام فاحتاج الى تكريره فانه يتصرف في الاسناد بالاختصار خشية التطويل.

وأما الثاني: - وهو مالا يوجد فيه إلا معلقا فإنه على صورتين:

إما ان يورده بصيغة الجزم، واما ان يورده بصيغة التمريض.

فالصيغة الاولى يستفاد منها الصحة الى من علق عنه، لكن يبقى النظر فيمن أبرز من رجال ذلك الحديث فمنه ما يلتحق بشرطه، ومنه مالا يلتحق.

أما ما يلتحق فالسبب في كونه لم يوصل اسناده اما لكونه أخرج ما يقوم مقامه فاستغنى عن ايراد هذا مستوفى السياق ولم يهمله بل أورده بصيغة التعليق طلبا للاختصار.

واما لكونه لم يحصل عنده مسموعا، او سمعه، وشك في سماعه له من شيخه او سمعه من شيخه مذاكرة فما رأى انه يسوقه مساق الاصل. وغالب هذا فيما أورده عن مشايخه.

وأما ما لا يلتحق بشرطه فقد يكون صحيحا على شرط غيره، وقد يكون حسنا صالحا للحجة، وقد يكون ضعيفا لا من جهة قدح في رجاله بل من جهة انقطاع يسير في اسناده. والسبب فيه انه اراد ان لا يسوقه مساق الاصل.

وقد بين ابن حجر حكم جميع ما في الكتاب من التعاليق المرفوعة بصيغتي الجزم والتمريض وقال: وهاتان الصيغتان

قد نقل النووي اتفاق محققي المحدثين وغيرهم على اعتبارها، وانه لا ينبغي الجزم بشيء ضعيف لانها صيغة تقتضي صحته عن المضاف اليه فلا ينبغي ان تطلق الا فيما صح. قال: وقد أهمل ذلك كثير من المصنفين من الفقهاء وغيرهم. واشتد انكار البيهقي على من خالف ذلك، وهو تساهل قبيح جدا من فاعله اذ يقول في (الصحيح): يذكر ويروى، وفي الضعيف: قال وروى، وهذا قلب للمعاني وحيد عن الصواب. قال: وقد اعتنى البخاري رحمه الله باعتبار هاتين الصيغتين واعطائها حكمها في صحيحه. فيقول في الترجمة الواحدة بعض كلامه بتمريض، وبعضه بجزم مراعيا ما ذكرنا وهذا مشعر بتحريه وورعه. وعلى هذا فيحمل قوله: (ما أدخلت في الجامع الا ما صح) أي مما سقت اسناده والله تعالى أعلم.

الاعتبار والمتابعة والشواهد: -

أكثر البخاري رضي الله عنه من ذكر (المتابعة) في كتابه: فاذا روى حماد مثلا حديثا عن أيوب عن ابن سيرين عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نظرنا: هل تابعه ثقة فرواه عن أيوب؟ فان لم نجد فثقة غير أيوب عن ابن سيرين؟

والا فثقة غير ابن سيرين عن ابي هريرة رضي الله عنه، والا فصحابي عن غير ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فأي ذلك وجد علم ان له اصلا يرجع اليه، والا فلا فهذا النظر هو الاعتبار.

(فالمتابعة) ان يرويه عن (أيوب) غير حماد

او عن (ابن سيرين) غير أيوب

او عن (ابي هريرة) غير ابن سيرين

او عن (النبي صلى الله تعالى عليه وسلم) غير ابي هريرة، فكل نوع من هذه يسمى (متابعة)، وافضلها الاولى ثم على الترتيب، وسببه انها تقويه، والمتأخر الى التقوية أحوج.

واما (الشاهد) فان يروى حديث آخر بمعناه وتسمى (المتابعة) شاهدا ولا ينعكس. ويدخل في (المتابعات) و (الشواهد) بعض من لا يحتج به ولا يصلح لذلك كل ضعيف ولهذا يقول الدار قطني وغيره: فلان يعتبر به وفلان لا.

(٧)

التبويب والترجمة:

رأى البخاري أن لا يخلي كتابه من الفوائد الفقهية والنكت الحكمية، فاستخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة

فرقها في أبواب الكتاب بحسب تناسبها، واعتنى فيه بآيات الاحكام فانتزع منها الدلالات البديعة وسلك في الاشارة الى تفسيرها السبل الواسعة.

يقول النووي: ليس مقصود البخاري الاقتصار على الاحاديث فقط بل مراده الاستنباط منها والاستدلال لأبواب أرادها، ولهذا المعنى أخلى كثيرا من الأبواب عن إسناد الحديث واقتصر فيه على قوله: فلان عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أو نحو ذلك، وقد يذكر المتن بغير اسناد، وقد يورده معلقا...

ويقع في كثير من ابوابه الاحاديث الكثيرة وفي بعضها ما فيه حديث واحد، وفي بعضها ما فيه آية من كتاب الله تعالى وبعضها لا شيء فيه البتة.

وقد ادعى بعضهم انه صنع ذلك عمدا وغرضه ان يبين انه لم يثبت عنده حديث بشرطه في المعنى الذي ترجم عليه، ومن ثمة وقع من بعض من نسخ الكتاب ضم باب لم يذكر فيه حديث الى حديث لم يذكر فيه باب فأشكل فهمه على الناظر فيه[١].

---

(١) أوضح السبب في ذلك الامام الباجي المالكي في مقدمة كتابه في أسماء رجال البخاري

ويقول ابن حجر [1] ثم ظهر لي ان البخاري فيما يورده من تراجم الابواب على أطوار: -

١ - ان وجد حديثا يناسب ذلك الباب - ولو على وجه خفي - ووافق شرطه أورده فيه بالصيغة التي جعلها مصطلحة لموضوع كتابه وهي: حدثنا، وما قام مقام ذلك، والعنعنة بشرطها عنده.

٢ - وان لم يجد فيه الا حديثا لا يوافق شرطه مع صلاحيته للحجة كتبه في الباب مغايرا للصيغة التي يسوق بها ما هو من شرطه. ومن ثَمَّة أورد التعاليق.

٣ - وان لم يجد فيه حديثا صحيحا لا على شرطه ولا على شرط غيره وكان مما يستأنس به ويقدمه قوم على القياس استعمل لفظ ذلك الحديث او معناه ترجمة باب، ثم أورد في ذلك اما آية من كتاب الله تشهد له أو حديثا يؤيد لعموم ما دل عليه ذلك الخبر.

وقد ذكر في تراجم الابواب آيات كثيرة من القرآن العزيز وربما اقتصر في بعض الابواب عليها ولا يذكر معها شيئا اصلا، وذكر ايضا في تراجم الابواب أشياء كثيرة جدا من فتاوى الصحابة والتابعين فمن بعدهم تحقيقا لمقصده، وبهذا

---

(١) هدي الساري ١/١٩.

فلا حجر عليه في اعادة الحديث كثيرة لائقة به.

يقول المقدسي: كان البخاري رحمه الله تعالى يذكر الحديث في مواضع يستخرج منه بحسن استنباطه وغزارة فقهه معنى يقتضيه الباب، وقل ما يورد حديثا في موضعين باسناد واحد ولفظ واحد بل يورده ثانيا من طريق صحابي آخر او تابعي أو غيره ليقوي الحديث بكثرة طرقه او مختلف لفظه او مختلف الروايــة في وصلــه اوزيــادة راوٍ في الاسناد او نقصه او يكون في الاسناد الاول مدلس او غيره لم يذكر لفظ السماع فيعيده بطريق فيه التصريح بالسماع او غير ذلك.

منهجه الفقهي:

يعد البخاري من الائمة المجتهدين ومن اختياراته:

إن الغسل من التقاء الختانين دون إنزال لا يجب وانما هو أحوط.

وجواز غسل المنى وفركه، وإن الماء لا ينجس بوقوع الرجس فيه إلا بالتغيير. وإن الجنب لا بأس بقراءته القرآن الكريم، وإن الجنب إذا خاف المرض من الماء البارد تيمم وصلى، وان الفخذ ليس بعورة، وإن للمصلي في السفينة أن يدور معها حيث دارت، وسقوط الجمعة عمن صلى العيد

وهو مذهب أحمد.

ويرى أن أمر البيوع مردها إلى ما يتعارف الناس به منها. واختار مذهب ابن عباس أن الطلاق عن وطر - اي نية وقَصْدِ اليه، الى غير ذلك من الاستنباطات.

(٨)

شبهتان وردها: -

أما الأولى: فما يقوله بعض المعاصرين[١] من ان البخاري كان يروى بالمعنى وليس بذلك على القارىء، اهـ.

والجواب: ان اصل الموضوع ان (ابن حجر) كان قد ذكر[٢] انه (من نوادر ما وقع في البخاري انه يخرج الحديث تاما باسناد واحد بلفظين كما في حديث سحر النبي صلى الله عليه وسلم)

وإن الخطيب البغدادي روى في تاريخه[٣] عن البخاري انه قال: (رب حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام، ورب حديث سمعته بالشام كتبته بمصر، قيل له: يا ابا عبد الله بكماله؟ فسكت)

---

(١) ابو رية في أضواء على السنة ص ٢٧٤.
(٢) الجزء العاشر/ ١٩٣
(٣) (تاريخ بغداد).

والبخاري وان كان يرى جواز الرواية بالمعنى، ولكن ليس فيما نقل عنه دلالة قط على روايته بالمعنى. وكل ما فيه انه كان يسمع الشيء ولا يكتبه حتى اذا وجد له مناسبة كتبه. وسكوته فيما ذكر البغدادي - لا يدل على انه رواه بالمعنى. ولا على انه كتبه ناقصا اكتفاء.

وما نقل عن الحافظ كذلك أبعد ما يكون عن الدلالة المرادة للمستشكل. وانما يسوق الحافظ كلامه في معرض الكلام عن حديث سحر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وان البخاري رواه مرة عن شيخه ابراهيم بن موسى بلفظ (حتى اذا كان ذات يوم أو ذات ليلة - بالشك).

وفي موضع آخر عن شيخه هذا ذاته بلفظ (حتى كان ذات يوم - من غير شك) وقد ظن الحافظ اولا ان الشك من البخاري، ثم ظهر له ان الشك من شيخ شيخه عيسى ابن يونس، فقال ابن حجر بعد ان ذكر الروايتين وتحقق ان الشك ليس من البخاري: (فيحمل الجزم الماضي على ان ابراهيم بن موسى شيخ البخاري حدثه به تارة بالجزم وتارة بالشك، ويؤيده ما سأذكره من الاختلاف عنه وهذا من نوادر ما وقع في البخاري ان يخرج الحديث تاما باسناد واحد بلفظين) وتبين بذلك ان اختلاف اللفظ وقع ممن فوق

البخاري لا من البخاري.

وبعد: فهذا صحيحه فيه آلاف الاحاديث وقل حديث منها إلا وقد رواه جماعة غيره عن شيخه وعن شيخ شيخه وقد تتبع ذلك المستخرجون عليه وشراحه.

أما الثانية: - فهي ما طعن على البخاري بانه مات قبل ان يبيض كتابه. فيقول أبورية[1]:

يظهر ان البخاري مات قبل ان يتم تبييض كتابه، فقد ذكر ابن حجر أن (المستملي) قال[2]: انتسخت كتاب البخاري من أصله الذي كان عند صاحبه (محمد بن يوسف الفربري) فرأيت فيه أشياء لم تتم، وأشياء مبيضة، منها تراجم لم يثبت بعدها شيئا، ومنها أحاديث لم يترجم لها، فأضفنا بعض ذلك الى بعض الخ.

ويرد (المعلمي اليمني)[3] فيقول: (إن قول أبي رية: (قبل ان يبيض) يوهم احتمال أن يكون في النسخة مالم يكن البخاري مطمئنا إليه على عادة المصنفين يستعجل أحدهم

---

(١) أضواء على السنة ص ١٨٧

(٢) هدى الساري ج ١ ص ١٩.

(٣) الانوار الكاشفة.

في التسويد على ان يعود فينقح، وهذا باطل هنا، فان البخاري حدث بتلك النسخة، وسمع الناس منه منها، واخذوا لانفسهم نسخا من حياته، كما عرضه على شيوخه، فثبت بذلك انه مطمئن الى جميع ما أثبته فيها)، ويقول العقيلي: لما ألف (البخاري) كتاب الصحيح عرضه على (أحمد بن حنبل) و (يحيى بن معين) و(علي بن المديني) وغيرهم فاستحسنوه، وشهدوا له بالصحة الا في اربعة أحاديث يقول العقيلي: والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة[1].

وأما ما أشار اليه من ان أشياء لم تتم، وتراجم لم يثبت بعدها شيئا[2] فذلك غفلة وجهل من المعترض بأسلوب البخاري في التبويب والترجمة، وقد سبقت الاشارة الى منهجه في ذلك، وقد استفاض واشتهر ان البخاري لم يمت إلا بعد أن حدث بصحيحه الكثيرين من تلاميذه، وانهم تسابقوا في كتابة أصله الذي بالغ في التحري في جمع أحاديثه حتى وصل إلينا كما تركه، وقد رواه عنه نحو من مائة ألف، منهم كثير من ائمة الحديث كمسلم، وأبي زرعة،

---

(١) هدى الساري

(٢) دفاع عن السنة ص ٢٧٥

والترمذي، وابن خزيمة.

يبقى أن ننوه إلى أن من منهجه بعد ذلك - فضلا عن هذا المسلك العلمي - حسن مراقبته لربه، وأخذه هذا العلم دينا، فيقول[1]: (ما كتبت في كتاب الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين).

ويقول الاسماعيلي: (نظرت في كتاب الجامع الذي ألفه أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري فرأيته جامعا كما سمى لكثير من السنن الصحيحة، ودالا على جمل من المعاني الحسنة المستنبطة التي لا يكمل لمثلها إلا من جمع إلى معرفة الحديث ونقلته والعلم بالروايات وعللها، علما بالفقه واللغة وتمكنا منها كلها وتبحرا فيها، وكان رحمه الله الرجل الذي قصر زمانه على ذلك فبرع وبلغ الغاية فحاز السبق، وجمع إلى ذلك حسن النية، والقصد للخير فنفعه الله ونفع به)[2] رضي الله عنه وأرضاه منا ومنه، ونفعنا بسنة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم في الدنيا والآخرة. آمين، آمين

دكتور/ حسن عيسى عبد الظاهر

جامعة قطر - كلية الشريعة والدراسات الاسلامية

---

(١) هدى الساري ج ١ ص ١٨

(٢) هدى الساري ج ١ ص ٨، ١٩.

مشروع

لجمع السنة الشريفة وتصنيفها

بواسطة الحاسب الآلي

للدكتور عبد العظيم الديب
" مصر "


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم الله وحده، ولا شيء معه دائما وأبدا.

(إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) (يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا)(ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله، وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم، ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما)

وبعد

فهذا (مشروع)لاستخدام (الحاسب الآلي) في جمع السنة النبوية المطهرة، وتصنيفها وتبويبها، أتقدم به إلى المؤتمر الموقر، آملا أن يكون خطوة على طريق خدمة سنة نبينا صلى الله عليه وسلم وأن يكتب لنا التوفيق فيما نقول

ونكتب ونعمل ، والله من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم النصير.

الدكتور/ عبد العظيم الديب

جامعة قطـر

كليــة الشريعـة

أولا:

تمهيد

كان من فضل الله على الأمة الاسلامية أن هداها (للاسناد)ووفقها له، وأعانها عليه، حفظا لسنة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، تلك السنة التي هي الأصل الثاني للدين ولا يقوم الدين إلا بها.

وإن من ينظر - منصفا - إلى الجهود الصادقة التي بذلت في سبيل جمع السنة، وحفظها ، ونقدها، ونفي الزيف عنها، من ينظر الى ذلك يدرك أن توفيق الله وعونه وإلهامه كان وراء هذه الثمار التي ورثتها أجيالنا، علما كامل الأصول والقواعد، والفروع والجزئيات مسجلا بكل دقة تروع من يعرف، ويقدر ويفهم.

وإذا كان الله قد أعطى لأسلافنا من الأئمة العظام، القدرة على السعي والدأب في سبيل السنة، ووهبهم الذاكرة الحافظة اللاقطة، التى تدخل أخبارها الآن في عداد العجائب والغرائب، وإذا كنا قد كتب علينا أن نعيش في هذا الزمان ، هذا النمط من الحياة، الذي يطير بالألباب كل مطير، ويفجؤنا كل ساعة بما يقلق ويزعج من الأخبار، حتى توترت الاعصاب، وسقمت النفوس، وأصبح الحفظ

والوعي شيئا نادرا، وإن وجد، فهو لساعات أو أيام، ولجزئيات ونثار من العلوم.

وإذا كانت أمتنا الآن قد تنحت عن الركب، ووقفت مدحورة، فلا يصح أن تقف مبهورة ذاهلة.

علينا أن ننظر فيمن حولنا، وفيما حولنا، ونستثمر منجزات العصر في كل مناحي حياتنا، على أن يكون وقوفناأمام هذه المنجزات (التقنية) كوقوف أسلافنا العظام، عندما وقفوا أمام حضارة اليونان والرومان، وتراث الهنود والفرس. لم يرفضوها وفي نفس الوقت لم يخضعوا لها، وإنما أخضعوها لأنفسهم، وتناولوها من منظور إسلامي فأعطوها من روحهم، وصبغوها بلونهم، وكانوا أمامها منتصرين آسرين، لا مدحورين مبهورين.

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نتعامل مع حضارة العصر، نركبهاولا تركبنا، نملكها ولا تملكنا، نمهرها أموالنا ثمنا لها، ولا نعطيها، أنفسنا الخناءً لها.

وعلى ذلك يمكن أن نستفيد من (الكمبيوتر) أو (العقل الالكتروني) أو (الحاسب الآلي) في ترجمة أخرى، يمكن أن نستفيد من ذلك في مجال جمع السنة وحفظها، وتيسير الوصول اليها، بل في سبيل تصنيفها ودراستها. وسأحاول

أن أضع تصويراً مبدئيا، أو تخطيطا أوليا للمشروع كما أتصوره. والأمر بعد في حاجة الى مجموعة خبرات لتضعه في صورته التنفيذية.

ثانيا:

إن الباحث عادة يتعرض لسؤال من مثل الأسئلة الآتية، أو لأكثر من سؤال منها، وربما لها جميعا. وهذه هي الأسئلة:

١ - ما الأحاديث النبوية الشريفة في موضوع (كذا)؟

٢ - ما درجة كل حديث منها؟

٣ - كيف الجمع بين المختلف منها؟

٤ - كيف تفسير المشكل منها

٥ - ما المراد بغريب الألفاظ فيها؟

٦ - ما مجموع الطرق التي ورد بها حديث (كذا)؟

٧ - كيف أصل إلى الحديث إذا كنت أعرف منه (طرفا)؟

٨ - كيف أصل الى الحديث إذا كنت لا أعرف إلا راويه؟

٩ - ما السبيل إلى الحديث إذا كنت أعرف معناه فقط، ولا أحفظ لفظا منه، ولا أعرف من رواه؟

١٠ - ماذا قيل في كل رجل من رجال هذا الحديث؟

١١ - كيف الفصل حينما يختلف رجال الجرح والتعديل في شأن رجل من الرجال؟

١٢ - بل. كيف الفصل لو اختلف في شأن رجل من الرجال، ثم تبادل المختلفون المواقع، بمعنى أن يقول ابن حبان(مثلا) عن أحد رجال الحديث: ثقة، ويقول عنه أبو حاتم الرازي: مجهول، وعن رجل آخر من رجال نفس الحديث يقول أبو حاتم: ثقة، ويقول ابن حبان مجهول؟؟

مثال:

وأضرب مثالا عمليا لهذه الصعوبات: كان أحد الباحثين يقرأ ذات يوم فى مخطوطة لأحد أئمة الأصول فى القرن الخامس الهجري، فوجده يستشهد قائلا: كقوله صلى الله عليه وسلم: «المسافر، وماله على قلت الا ما وقى الله» وراح يبحث عن الحديث ليخرجه، فلم يهتد له للآن، لم يسعفه (مفتاح كنوز. السنة) ولا (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث) ولا كتب السنن ولا الصحاح ولا كتب الأطراف، ولا الجوامع. والحديث موجود يقينا، فلا يظن بمثل هذا الامام أن يبلغ به الوهم هذه الدرجة، ثم ان ابن الأثير أورده

فى النهاية (مادة قلت) هذا مثال يبين صعوبة الوصول الى الحديث. وهذا أقل ألوان المصاعب.

أهداف أخرى:

ونستطيع بواسطة (الحاسب الآلي) أن نحقق أهدافاً أخرى مثل جمع كل الأحاديث، وترتيبها بحسب درجتها، فنجمع الأحاديث الصحيحة كلها (فمعلوم أن الصحيحين لم يستوعبا كل الصحيح)، ونبوبها. ثم نجمع الحسن والضعيف .... الخ

ثالثا:

تعريف وبيان:

إن أجهزة الحاسب الآلي تقوم بوظيفتين في وقت واحد، وهما: -

١ - اختزان المعلومات وحفظها، وتقديمها وقت الحاجة، في سهولة ويسر والمثال على ذلك أجهزة مكاتب شركات الطيران، التي تقوم بحفظ أسماء المسافرين ورقم الرحلة وتاريخها، وساعتها، والمحطات التي يمر بها، وربما ثمن التذكرة، وطريقة الدفع، والوكيل السياحي الذي كان الواسطة بين الراكب وشركة الطيران.

ونرى موظفا محدود الخبرة، يلمس عدة مفاتيح لمسات

خفيفة، فيسجل الجهازكل هذه المعلومات، ويعود الراكب بعد شهور ليسأل عن (الحجز) فيلمس الموظف المفاتيح لمسات أخرى، فتظهر أمامه المعلومات بكل وضوح ودقة، بدون تقليب أوراق، أو بحث عن أرقام أو أي عناء يعرض للخطأ.

والعجيب أن هذه المعلومات تظل مختزنة آماداً متطاولة، إلى ما شاء الله، في هذا الجهاز الصغير الحجم.

٢ - تحليل المعلومات وتصنيفها والاستنتاج منها.

هذه هي الوظيفة الثانية والخطيرة لهذه الأجهزة، وقد أتت فيها بالعجائب، ونظرة الى الأجهزة الصغيرة البالغة الصغر في أيدي الناس، تريك العجب، فكيف بهذه الآلة التي لا تزيد في سمكها عن نصف سم، وفي طولها وعرضها ٦×١٠ سم كيف تستطيع هذه الآلة أن تقوم بضرب الأرقام الكبيرة، وقسمتها، ومعرفة جذرها، في ثوان. وهي أرقام لو حاول الانسان كتابتها، مجرد كتابتها، لاضطربت واختلطت عليه. بل إن من هذه الآلات الصغيرة ما يقوم بخزن المعلومات في نفس الوقت.

وعندما تتعقد هذه الآلات، وتتركب، يكون منها نماذج خرافية في قدرتها، فهي الآن تقوم بدور المرجع الهندسي

للمصانع الكبرى التي تحوى ملايين الملايين من العمليات الميكانيكية والالكترونية، وتقوم بتحليل نتائج التجارب المعقدة في المعامل الكبرى، وتصل الى نتائج يعجز عنها البشر فعلا.

ولقد تطورت هذه الآلات في السنتين الأخيرتين حتى صار استعمالها ميسورا، والحصول على النتائج منها متاحا بأقل تدريب. وهي تعطي النتيجة على ثلاث هيآت اما مكتوبة، واما على (شاشة) الجهاز، أو هما معا.

ثم ان هذه الأجهزة تستطيع أن تكتشف الخطأ في النتيجة، أو في السؤال المقدم اليها، وترشد اليه، وفي لمحة يطلب الباحث ان يعطيه الجهاز الفقرة مكان الخطأ، فتخرج اليه مكتوبة مع رفع أصبعه من لمسة الزر.

رابعاً:

تصور وتخطيط

إن لهذه الأجهزة متخصصون، يسمونهم (مبرمجين) أي صانعي برامج. ولا على صاحب العمل الا أن يطلب منهم الأسئلة التي يريد الاجابة عليها، أو التي ينتظر أن يحصل عليها من هذا الجهاز، وحينئذ تكون مهمة الأخصائي:

١ - تحديد المعلومات اللازمة والمطلوبة ليقدمها للجهاز.

٢ - (برمجة) المعلومات، وفق نظام ورموز يبتكرها الاخصائي.

٣ - تقديم هذه المعلومات، وتسجيلها في الجهاز، أو تغذية الجهاز بها حسب تعبيرهم.

صورة أخرى

وفي حالة أخرى يتقدم صاحب العمل إلى المختص في الحاسب الآلي، ويعرض عليه المعلومات التي عنده، ويترك له أن يتصور المعطيات التي يمكن أن تعطيها هذه المعلومات. وفي هذه الحالة غالبا ما يتقدم المتخصص في الحاسب الآلي بمعطيات (اجابات) أضعاف ما كان ينتظرها صاحب العمل من المعلومات التي قدمها، ثم ان الجهاز قادر على استخلاص أي اجابات من المعلومات التي عنده، ولو لم ترد بالخاطر عند تغذيته بهذه المعلومات.

وعلى ذلك يكون التصور كالآتي

أ - تكوّن مجموعة عمل من رجال الحديث المشهود لهم بالكفاءة والمقدرة وسعة الاطلاع، ومعهم جماعة من المتخصصين في العلوم الاسلامية المختلفة مثل التفسير، والفقه والأصول وعلم الكلام، وجماعة من علماء اللغة

والتاريخ، وخبراء المخطوطات والتراث.

ب - يكون فريق من رجال الحاسب الآلي ذوي خبرة ومقدرة في المجالات القريبة من هذه المجالات، على أن يكونوا أولا: معروفين بالأمانة، وسلامة الدين. وتكون مهمة الفريق الأول ما يلي:

(١) حصر كتب السنة المختلفة، وما هو مثل كتب السنة في اعتماده على الأحاديث والآثار وجمع ما يمكن أن يكون منسوبا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لأحد من الصحابة. بحيث لا تترك شاردة ولا واردة مهما كانت درجتها من الصحة.

(٢) حصر كل كتب الرجال، وكل ما ورد على لسان أهل الجرح والتعديل، من مظانه المختلفة، حيث وجد.

(٣) حصر الكتب التي عنيت بغريب الحديث والأثر، مثل النهاية، والغريبين، بل كل ما روي في هذا المجال من مظانه حيث كان، وان لم يكن في تآليف مفردة.

(٤) إحصاء كل ما كتب في مختلف الحديث ومشكله، مثل: ما كتبه ابن قتيبة والطحاوي، بل حصر كل ما روي في هذا الشأن في المجالات المتفرقة.

(٥) التأكد من سلامة هذه الأصول المجموعة من التصحيف والتحريف، والأخطاء المطبعية.

(٦) وضع ألقاب الرواة في ترتيب حسب درجتهم، بدءا من أمير المؤمنين في الحديث ونزولا الى أحط الرتب.

(٧) وضع ألقاب الحديث بحسب كل تقسيم من تقاسيمه المختلفة في ترتيب بحسب درجته.

- وتكون مهمة الفريق الثاني هي:

١ - متابعة عمل الفريق الأول، والاحاطة بأبعاده، حتى يساعدهم ذلك على فهم خصائص العمل وطبيعته.

٢ - وضع رموز (كود) كما يسمونها، للألقاب والرتب - ووضع تصور للخطة التي (سيغذون) الجهاز على أساسها.

٣ - مناقشة هذه الخطة والأفكار مع الفريق الأول.

ثم بعد

يعمل الفريقان معا في أثناء (تغذية) الجهاز، ليضمن الفريق الأول، سلامة نطق الاسماء، وضبط الألفاظ، وعدم تحريف أي كلمة، أو سقوط أي عبارة، أو اختلاف أي رقم. بحيث نصل إلى تسجيل ما يأتي:

١ - كل حديث منسوب الى الرسول صلى الله عليه وسلم، بكل رواياته، وكذا كل أثر عن صحابي.
٢ - سند الحديث بكل طرقه.
٣ - نسب وتاريخ كل راوٍ من رجال الحديث.
٤ - ما قيل في كل راو من جرح أو تعديل، اتفق المعدّلون أو اختلفوا
٥ - ما ورد في تفسير غريب الحديث.
٦ - ما جاء في توجيه مشكل الحديث حيث يوجد الاشكال.
٧ - ما ورد في التوفيق والجمع عند التعارض.
٨ - ما قيل عن الناسخ والمنسوخ.

خامسا:

مراحل العمل

حتى لا ننتظر تكوين اللجنة، والانتهاء من عملها يمكن أن نبدأ بالآتي:

١ - تحديد نوع الجهاز وحجمه، ومن حسن الحظ أنه سيكون من النوع المتوسط أو أقل من المتوسط، فهناك الآن من الأجهزة المتوسطة ما تسع ذاكرته ملايين الكلمات.
٢ - الاتفاق مع أحد (المبرمجين) ذوي الخبرة في هذا المجال،

ومع واحد أو أكثر من رجال الحديث أو الدراسات الاسلامية وأحد المساعدين الفنيين، ليتعلم الكتابة على (حروف الجهاز) وهي تشبه آلة الطباعة تماما.

٣ - يبدأ تغذية الجهاز بالصحيحين، ثم باقي الكتب الستة، ويبدأ استخدامه في الاجابة على الاسئلة البسيطة، ويكون الجهاز في هذه الحالة كرجل يحفظ الكتب الستة بسندها عن ظهر قلب، ويستطيع أن يقدم إحصاء عن عدد أي لفظة، أو أي موضوع.... وهكذا.

٤ - بتوالي تغذية الجهاز نستطيع أن نحصل منه على كل ما يريد الباحث من معلومات وهاك نماذج لما نتوقعه.

سادسا:

نتائج وآمال

واتوقع - اذا تم هذا العمل - أن نصل الى النتائج الآتية:

١ - إجابة الأسئلة البسيطة التي قدمت نماذج لها بسهولة ويسر، ودقة في نفس الوقت

٢ - فتح المجال أمام دراسات واحتمالات أخرى، يساعد عليها هذا الجهاز العجيب فهو يستطيع أن يعطينا

نتائج احصائية يستحيل على الانسان بجهده العادي أن يصل اليها. مثل: -

أ - الأحاديث التي رواها أهل مدينة أو اقليم (شامّيون - عراقيون - مدنيون - مكيون...)

ب - الاحاديث التي نقلها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، صحابي واحد ثم اثنان ثم ثلاثة وهكذا.

جـ - احصاء الاحاديث التي اشترك فيها أبو هريرة مع ابن عباس مثلا، ثم التي اشترك مع ابن عباس وابن عمر.........

د - هل تميز بعض الرواة برواية أحاديث معينة، في موضوع معين؟

هـ - إحصاء كامل لألفاظ الأحاديث الصحيحة، وعدد دوران كل كلمة منها، وهل يمكن بواسطة ذلك كشف الأحاديث الموضوعة عن طريق الموازنة بين معجم الألفاظ فيها وفي الصحيحة.

والواقع أن الأفكار لا يمكن أن تقع تحت حصر، ويستطيع الباحثون حين يجدون الحصول على مثل هذه الاجابات سريعا، وميسورا أن يفتنوا في ابحاثهم وتصوراتهم.

سابعا : -

محاذير ومخاوف

يمكن أن يرفع في وجه هذا المشروع من المخاوف ما يلي :

١ - ان هذا المشروع سيصرف الهمم عن الدرس والتحصيل ، ويقطعها عن الكتب الأصيلة ، ويجعلها تعيش على الجذاذات التي يقدمها لهم الحاسب الآلي .

٢ - إن هذا المشروع سيكون قليل الفائدة ، حيث ينحصر أثره في الجامعة ، أو الهيئة التي يوجد فيها ، وعلى أحسن تقدير المدينة التي يوجد بها .

٣ - إن هذا العمل عرضة للخطأ ، وان أي غلطة ستظل تتكرر ، ويترتب عليها ما يترتب ، ولا تتاح الفرصة لكشفها .

- والجواب عن التخوف الأول : ان الجهاز لن يصرف الهمم عن الدرس والتحصيل ، بل العكس هو المتوقع ، سيجد الباحث طريق البحث والدرس معبدا ، كما أنه لن يغني عن الكتب والمراجع الأصلية ، بل سيفتح الطريق اليها ، حين يعطى الحديث بالباب والرقم أو بالصفحة والجزء .

وأما الانصراف عن الحفظ ، فقد كان - ولا حول ولا

قوة الا بالله - والا فخبروني بربكم: كم من علماء المسلمين الآن يحوز لقب (محدّث) بله (حافظ)؟؟ كم من علماء المسلمين يحوز هذا اللقب، على نحو ما وضعه أئمة علوم الحديث؟

- وأما الجواب عن التخوف الثاني، فأمره سهل ميسور، ذلك أن هذه الأجهزة (الآن) صارت تسجل المعلومات التي لديها، على أشرطة (كاسيت) عادية جدا ورخيصة جدا، ويمكن أن تؤخذ جاهزة لتوضع في جهاز آخر، في أي مكان فيصير قادرا على اعطاء نفس الاجابات بل يمكن لأي باحث أن يقتني (شريطا) وعندما يحتاج الى أي استفسار يذهب إلى أي جهة تملك جهازا ويستخدمه كأي جهاز تسجيل عادي.

- والجواب عن التخوف الأخير أكثر سهولة ويسرا، وذلك أن لهذا العمل ضوابط، وطرق مراجعة سهلة جدا، بل يمكن علاج أي خطأ، ولو بعد حين، ثم أن ما يقدم الى الجهاز ممكن أن يسترجع على (شاشته) جزءا. ويصوّب أي خطأ فيه، وهذه في الواقع من أخطر مهات اللجنة التي ستقدم المعلومات (للمبرمج).

وبعد،

فاذا كانت الأيام قد حرمتنا الذاكرة الطبيعية، فلا

يصح أن نحرم أنفسنا من الذاكرة الالكترونية.

وإني إذ أتقدم بهذا المشروع راجيا من الله سبحانه أن يوفق إلى تنفيذه فأسأله سبحانه أن يعيننا على طهارة القلب، وإخلاص القصد، ويوفقنا لما يحبه ويرضاه.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

الدكتور / عبد العظيم الديب

جامعة قطر

محاولة

لوضع أطلس

للسيرة النبوية الشريفة

والعصر النبوي

للدكتور حسين مؤنس
« مصر »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

محاولة لوضع اطلس للسيرة النبوية الشريفة والعصر النبوي

كتب المسلمون في السيرة النبوية الشريفة كما لم يكتبوا في أي موضوع آخر، ومن بين كتاباتهم مطولات يقع كل منها في مجلدات كثيرة مثل مغازي الواقدي التي تعتبر مرجعنا الأوفى عن مغازي الرسول صلوات الله عليه وسراياه وبعوثه بتفصيل واف ودقة تدعو إلى الإعجاب، وهو يتكلم عن علم دقيق بالجزيرة وأهلها وطرقها ومسالكها في العصر النبوي، ونحن ندرس المغازي عنده فنحس أننا مع دليل أمين يقص التاريخ على طريقة المحدثين من التثبت وتحري الحقيقة في كل واقعة يذكرها، ويحسب الانسان حين يفرغ من قراءة مغازيه أنه لم يدع كلمة تقال في المغازي إلا قالها. ومع هذه الفضائل كلها، ومع ثقتنا في أنه تحرى الحقيقة في كل كلمة كتبها إلا أننا نشعر عندما نفرغ من قراءته أننا عرفنا المغازي ولكننا لم نفهمها، لأننا في دراستنا للتاريخ اليوم لا نكتفي بأن نعرف، بل لا بد أن نفهم، فنحن

نقرأ عنـد الواقدي وغيره من ثقات كتاب السيرة أن اول سريـــة بعثهـــا رسول الله صــــلى الله عليـــه وسلم - بعد هجرته الى المدينة - كانت سرية سيف البحر التي قادها حمزة بن عبد المطلب على رأس ثلاثين رجلا في رمضان من السنة الأولى للهجرة (فبراير٦٢٣م)، وأن هذه السرية وصلت إلى ساحل البحر الاحمر في موضع غير محدد، وأن هذا البعث كان يريد التعرض لعير لقريش على رأسها أبو جهل عمرو بن هشام، وأن هذا البعث كاد يشتبـك مع القرشيـين لولا أن توسط بـين الفريقـين رئيس قبلي يسمى مجدي بن عمرو يقال إنه كان حليفا للفريقين، فما زال يسعى بين الفريقين حتى حجز بينهما، وعاد حمزة إلى المدينة ومضى أبو جهل إلى مكة، ومن الواضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ بهذه السرية سلسلـة من السرايا والغزوات هدفها استطلاع الموقف والأوضاع في المنطقة التي يسير فيها طريق التجارة المكية إلى الشام، ثم السيطرة عليه كوسيلة للضغط على مكة وإشعار أهلها بقوة الاسلام وتجريدا لها من حلفائها تمهيدا لفتحها وإدخالها في أمة الاسلام، وهذا واضح من دراسة الأعمال التي قامت بها سريتا رابغ والخرار ثم غزوات الأبواء وبواط

وبدر الأولى وذات العشيرة، ثم سرية نخلة وهي التي أثارت موقعة بدر، فكل هذه الحركات العسكرية إنما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم من ورائها تأمين منطقة المدينة، وهي مهد جماعته، وإدخال القبائل النازلة على الطرق المؤدية إلى مكة وعلى طول الطريق التجاري بين مدينتي الحجاز الكبيرتين ووضع هذا الطريق تحت سيطرة المدينة.

ولكن هذه الحقائق لا تتبين على وجهها الا اذا صنعنا مصورا جغرافيا للحجاز وعينا عليه مواضع الجهات التي قصدت اليها هذه الغزوات والسرايا. هنا فقط نرى بوضوح الأهداف البعيدة التي كان الرسول ينظر اليها وهو يرسم خطة النشاط العسكري للجماعة الاسلامية الناشئة اذ ذاك في المدينة.

وقد أتانا الواقدي - في الأغلب دون قصد - بإشارات تعيننا على تصور رسم للخطة العسكرية، فهو يحرص في معظم الحالات على أن يحدد جغرافيا موضع البلد الذي اتجهت اليه السرية، فهو يقول في كلامه على سرية رابغ، «ورابغ على عشرة أميال من الجحفة وأنت تريد قديدا» فنفهم أن المراد هنا رابغ الرمل لا رابغ البحر، وأن سرية حمزة وصلت إلى سيف البحر لتضع الطريق حتى

ساحل البحر الأحمر تحت سلطان المدينة في حين أن سرية رابغ كانت ترمي إلى إشعار القبائل النازلة على طريق التجارة بأن منازلها في متناول المدينة وأنها لا ينبغي أن تكون في حلف مكة، ونفهم هذا من قول الواقدي في كلامه على غزوة الأبواء: «وفي هذه الغزاة وادع بني صخرة من كنانة على ألا يكثروا عليه ولا يعينوا عليه أحدا»

من هنا تنبهت الى أهمية التصوير الجغرافي لمراحل السيرة النبوية خلال الفترة المدنية خاصة، لأن الذي وقع من حوادث السيرة خلال الفترة المكية ليس فيه ما يصور أو يفهم على ضوء الرسم الجغرافي إلا - ربما - رسم طبوغرافي دقيق لمكة على أيام الرسول ومنازل بطون قريش ودور الشخصيات الكبيرة التي نقابلها خلال الفترة المكية، وهذا مطلب يكاد يكون مستحيلا لأن أي محاولة لمثل هذا الرسم لا يمكن أن ترتكز على سند دقيق، ولقد قرأت الازرقي مرة بعد مرة لكي أستطيع تحديد شعب أبي طالب فلم أستطع الخروج بشيء يعتمد عليه، بل إن أي محاولة لتحقيق موقع الدار التي ولد الرسول فيها أو داره التي سكن فيها مع السيدة خديجة رضي الله عنها لا يمكن أن تسفر عن نتيجة يمكن التعويل عليها، وربما استطعنا تحديد موقع دار

الأرقم بن أبي الأرقم على وجه التقريب مستعينين في ذلك بما يحكيه ابن اسحاق عن إسلام حمزة وما كان من لقاء أبي جهل لرسول الله صلى الله عليه وسلم على طريق الصفا والرسول متجه إلى دار الأرقم.

ومن حسن الحظ أن نفرا من علماء العرب من أهل القرنين الثاني والثالث للهجرة عنوا بجغرافية الجزيرة العربية ووصف نواحيها وذكر قراها ومدنها وطرقها. واهتم نفر آخر منهم بالمواضع التي ورد ذكرها في السيرة النبوية والعصر النبوي وصدر الاسلام، وحرص بعضهم على ذكر الطرق التي سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وتنقله في الحجاز، ومن هؤلاء أبو عبيدة معمر بن المثنى وعبد الله بن قريب الأصمعي وابو يوسف يعقوب بن شيبه الخراساني وأبو إسحاق الحربي وجعفر بن محمد بن عياد المخزومي والوليد بن الحصين بن جمال بن حبيب الشرقي ابن القطامي وعبد الله بن عمرو بن بشر الشكوني وأبو إسحق ابراهيم بن اسحاق الحربي وأبو علي هارون بن زكريا الهجري فقدموا لنا بذلك مادة عظيمة القيمة عن تلك المواضع والطرق كما كانت في العصر النبوي وصدر الاسلام قبل أن تتغير أسماء بعض المواقع أو تختفي، وقبل أن

تتلاشى الطرق التي كانت معروفة في الجاهلية وصدر الاسلام، ومع أن ما كتبه رجال هذا الرعيل الأول من المؤلفين العرب قد ضاع أو لم يعثر عليه بعد، إلا أن علماء أجلاء من أهل القرن الثالث فصاعدا احتفظوا لنا بمعظم مادة هذه المؤلفات الأولى ونسقوها ورتبوها إما في موضوعات أو في معاجم، ونخص بالذكر هنا سلسلة الجغرافيين المسالكيين العرب الكبار:

ابن رسته والبلخي والأصطخري وأحمد بن أبي يعقوب ابن واضح اليعقوبي والمقدسي وابن حوقل وأبو بكر أحمد ابن محمد بن الفقيه الهمداني وعرام بن الأصبغ السلمي وأبو عبيد عبد العزيز البكري والحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ثم ياقوت الحموي، وعنده تجتمع كل تلك الأصول. ويهمنا من هؤلاء الأخيرين البكري والهمداني، فأما البكري فقد اعتمد فيما كتب عن جزيرة العرب وبلاد الحجاز خاصة على ابراهيم الحربي صاحب «كتاب المناسك» وأبي علي هارون ابن زكريا الهجري صاحب «كتاب التعليقات والنوادر» وأبي عبد الله بن بشر الشكوني وعرام بن الاصبغ السلمي وهم أوثق من كتب عن جغرافية الحجاز، إذ أن ما يذكرونه في كتاباتهم التي ضاع معظمها إما يرد عن طريق

المشاهدة المباشرة أو عن طريق النقل عن اصحاب المشاهدة المباشرة، فالحربي مثلا يصف عقيق المدينة والطريق من مكة الى المدينة عليه نقلا عن عبد الله بن عمرو بن جميع «وكان أعلم الناس بالطريق من مكة إلى المدينة لكثرة سلوكه إياه»[1]، وبالفعل نجد أن كلام البكري عن الحجاز وطرقه من أوثق ما لدينا، وقد قارناه بكل ما لدينا من معلومات وطبقناها على فقرات من نصوص التاريخ فتأكد لدينا ذلك، وكان أكثر ما انتفعنا به في ذلك الاشارات الجغرافية التي أوردها الواقدي في مغازيه من مثل قوله في كلامه على غزوة بواط «وبواط جبل من جبال جهينة من ناحية ذي خشب، بين بواط: والمدينة ثلاثة برد» (١/ ١٢) وقوله في كلامه على سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ: «ورابغ على عشرة أميال من الجحفة وأنت تريد قديدا» (١/ ١٠) وقوله في كلامه عن سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار: «والخرار من الجحفة قريب من خم» (١/ ١١) وما إلى ذلك من المعلومات الدقيقة النافعة التي يزداد نفعها إذا ذكرنا أنها ترد في ثنايا الكلام على المغازي، أي إنها تجيء في موضعها ونحن نقرأ النص التاريخي ونحاول أن نتتبع ما نقرأ

(١) الحربي، المناسك، ٤٤٠ - ٤٤١

على الخريطة، وهنا تكمن الأهمية التاريخية لهذه الملاحظات الجغرافية التي يأتينا بها الواقدي، فهي تعين معاونة حقيقية على تصور النشاط السياسي والعسكري الذي قامت به جماعة المدينة خلال سنوات الفترة المدنية من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن امثلة ذلك أن الواقدي يقول أن «القاحة» التي تسمى أحيانا بوادي العبابيد على يومين من المدينة في حين أن البكري يقول إنها على ثلاثة اميال فحسب. والقاحة تقع جنوبي العرج، والعرج إقليم خصب واسع يضم قرى ومنازل، وهو من بلاد قبيلة (أسلم) القضاعية التي كان لها دور كبير جدا في تطور أحداث الفترة المدنية، وبين العرج والمدينة بالفعل يومان، واذا كان البكري ومن نقل عنه قد أخطأوا في التقدير فذلك يرجع إلى أنهم كانوا يكتبون دون أن يكون للمسافات أو للزمن عندهم تقدير كبير، أما الواقدي فيؤرخ لأحداث، ولا بد أن يكون عنصر الزمن حاضرا في ذهنه، ولهذا فاننا نفضل ملاحظاته الجغرافية على غيرها.

وهذا الاهتمام بتقديرات الواقدي للمسافات وتحديداته للأوقات التي استلزمتها الأحداث لا يرجع فحسب إلى أنها تعين معاونة صحيحة على رسم خرائط أحداث السيرة، بل

إنها تعين معاونة فعالة على تفسير أحداث السيرة نفسها وفهمها ،لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرسم خططه دون أن يعلن عنها أو عن غاياته من ورائها للناس، وإنما هو يمضي في تنفيذها خطوة خطوة، ثم نفاجأ في نهاية الأمر بالنتيجة التي ترسمها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يبدأ العمل.

وأفسر ذلك فأقول: إن غزوات الرسول وسراياه جميعا تكون في الحقيقة خطة واحدة مترابطة المراحل، وكلها تهدف إلى نهاية واحدة محددة تتخلص في إدخال مكة وقريش في الاسلام من ناحية، ثم في إقناع العرب بأن رسالة الاسلام رسالة سماوية ترمي إلى إدخال البشر جميعا في دين الله، ونقطة البداية لذلك هي توحيد العرب جميعا ليكونوا أداة نشر رسالة الإسلام في العالم كله. هذه النهاية المحددة كانت قائمة في تفكيره صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث سريته الأولى التي قادها حمزة بن عبد المطلب الى سيف البحر وهي قائمة وراء كل غازية أو سرية إسلامية بعد ذلك، فاذا نحن قرأنا المغازي عند موسى بن عقبة أو الواقدي أو ابن اسحاق لم نتبين الخيط الدقيق الذي يربط بين بعضها وبعض، ولكننا إذا رسمناها على مصور جغرافي

تبين لنا هذا الخيط، لأننا سنرى أن كل واحدة من هذه الغزوات والسرايا كانت لها وجهتها الجغرافية والسياسية، فهناك غزوات وسرايا وجهتها غربي المدينة للسيطرة على طريق التجارة، واخرى وجهتها الجنوب للاقتراب من مكة والتضييق عليها وحرمانها من حلفائها، وثالثة وجهتها شرقي المدينة وغايتها ادخال القبائل بين الحجاز ونجد في طاعة المدينة أو في حلفها على الأقل ويدخل ضمن هذه الغاية السيطرة على النجدية وهي طريق التجارة الرئيسي الى العراق، ورابعة وجهتها الشمال وغايتها السيطرة على بقية طريق التجارة الى الشام ثم ادخال القبائل والوحدات السياسية شمال شبه الجزيرة في المجموعة العربية واخراجها من المجال السياسي لدولة الروم والقضاء على ظاهرة العرب المتنصرة او عرب الضاحية، وهذا ظاهر جدا في غزوات وسرايا مثل حسمى التي قادها زيد بن حارثة سنة ست للهجرة.

أ) يستوقف النظر أن سرية حسمى تعين بداية النشاط السياسي والعسكري للمدينة في اتجاه الشمال، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن على المدينة بعد فشل غزوة الأحزاب، وعرف أن كل خطر عليها من ناحية

قريش وقبائل الحجاز قد انتهى، وجه اهتماما خاصا إلى الشمال، فبدأ بحسمى، وهي وراء ام القرى، ثم تلاها بسرية دومة الجندل واميرها عبد الرحمن بن عوف، ثم غزوة زيد ابن حارثة إلى أم قرفة وهي في نواحي وادي القرى، وبعد عمرة الحديبية في شوال سنة ست للهجرة تكون غزوة خيبر في جمادى الأولى سنة سبع، وهي ضربة حاسمة إلى الشمال، وسنفصل أمرها فيما بعد، وقبيل فتح مكة تكون غزوة كعب بن عمير الغفاري الى ذات أطلاح في ربيع الأول سنة ثمان، وأطلاح من ناحية الشام وهي من البلقاء على ليلة، وبعدها مباشرة تكون غزوة مؤتة المشهورة يقودها زيد ابن حارثة ثم عبد الله بن رواحة ثم جعفر بن أبي طالب، وهي سرية يتضح فيها تماما الاتجاه إلى الشمال.

هذه الحقائق كلها عن السياسة العامة للغزوات والسرايا لا تتضح إلا إذا رسمناها على الخريطة لنراها رأي العين، وهنا تتضح لنا أهمية اطلس السيرة بل يتضح لنا أننا لا نستطيع أن نفهم السيرة حق الفهم بدونه.

وأضرب لذلك مثالا يغني عن كثير نحن: نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر واستولى عليها في جمادى الاولى سنة سبع للهجرة ولا نعرف من أهمية هذه

الغزاة إلا أنها قضت على آخر معقل من معاقل المقاومة اليهودية للاسلام في شبه الجزيرة ، ولكننا اذا درسنا هذه الغزوة ونحن ننظر الى مصور جغرافي لشمال شبه الجزيرة ، في العصر النبوي تبينا أن الأمر هنا لا يقتصر على القضاء على مركز المقاومة اليهودي ، بل يتخطى ذلك الى ما لا يقل أهمية عن ذلك وهو القضاء على مقاومة أكبر القبائل العربية الضاربة فيما بين الحجاز ونجد في شمال وسط الجزيرة وهي غطفان ، ولم يكن من ذلك مفر قبل أن يتجه النبي صلى الله عليه وسلم بقواته كلها نحو مكة للفراغ من امرها .

ولم يكن الرسول يخشى شيئا من ناحية خيبر لأن يهودها وإن كانوا أعداء ألداء لم يكونوا بذوي بأس يحسب لهم حساب ، خاصة وقد كان الرسول قد والى الغزوات والسرايا على الشمال وطاعت لأمة الاسلام فدك ووادي القرى ، ولكن مصدر المتاعب التي كان يخشى بأسها هي قبيلة غطفان ، وغطفان كانت مجموعا قبليا متخما مسرفا في البداوة ينزل شرقي جبل السراة جنوبي خيبر وتمتد منازله حتى هضبة نجد ، وكانت النجدية ، وهي طريق التجارة الرئيسية الى العراق تمر في بلاد الغطفانيين ، وكان هؤلاء يهددون هذه الطريق ويجبون من قوافلها اتاوات كبيرة ،

ولكن مصدر الكسب الرئيسي لغطفان كانت خيبر.

ومن المعروف عن حياة البدو في الصحراء أن امورهم لا تستقيم إلا إذا كان لهم مركز مدني من مدينة أو قرية، وهذا المركز المدني يؤدي لهم خدمات لا يستغنون عنها في حياتهم، فمن هذا المركز المدني يحصلون على السلاح وماعون البيت وعدة الخيل، وكلها أشياء حيوية لهم لا تستقيم حياتهم بدونها، ثم ان هذا المركز يصرف لهم الفائض من منتجاتهم من الصوف والغزل والزائد عن حاجتهم من الجمال والماشية والخيل وما يمكن أن يكون في ديارهم من مصادر الخيرات كالملح وبعض المعادن والاعشاب، وبدون هذا المركز المدني تنفصل القبيلة عن تيار الحياة وتنعدم ضرورات الحياة في الصحراء وتتوحش وتتدهور ثم ينفرط عقدها وتتلاشى. هذه قاعدة عامة تصدق على حياة البدو في كل زمان ومكان.

وكان الرسول صلوات الله عليه يعرف ذلك، وكان يريد أن يكسر شوكة غطفان ورئيسها عيينة بن حصن، وكان شيخا بدويا كثير التقلب لا تؤمن غدارته، وكان قد دخل الاسلام دون أن يمس الايمان قلبه ولهذا كان الرسول شديد الحذر من ناحيته، خاصة وقد كان قومه يطيعونه

طاعة عمياء حقا ، ويقولون إنه إذا غضب غضب له عشرة آلاف سيف ، وكان يلقب بالأحمق المطاع ..

وكان الرسول يعرف أن حرب البدو حرب طويلة مكلفة ، فإذا هو أراد أن يكسر غطفان في الميدان طال الأمر وعظمت النفقة ، لأن البدو إذا أحسوا بالهزيمة فروا إلى الرمال واختفوا وراء كثبانها ولا جدوى من وراء مطاردتهم فيها .

لهذا قرر الرسول أن يغزو خيبر ويستولي عليها ، فيطمئن من غدر اليهود من ناحية ويكسر شوكة غطفان من ناحية أخرى ، ومن المعروف أن غطفان كانت من الأحزاب التي سارت لغزو المدينة في غزوة الخندق ، ولم يشأ الرسول لهذا أن يتجه إلى مكة وغطفان وراءه ، ولما عاد الرسول من الحديبية كان يعرف أن قريشا لن ترتبط بعهدها ، وإنها لا تلبث أن تنكث به أو تحرض بعض حلفائها على أمة المدينة أو على حلفائها من خزاعة وأسلم .

لهذا كله غزا الرسول صلوات الله عليه خيبر في جمادى الاولى سنة سبع ، وكان يهود خيبر يعلقون آمالا على عيينة ابن حصن ، ويحسبون إنه يحميهم من المسلمين ، لأنه كان يتقاضى منهم أتاوة تصل إلى نصف غلة أرضهم في سبيل تأمينهم وحمايتهم .

ولكن عيينة بن حصن لم يتحرك لعون حلفائه ، فما هو إلا أن سار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خيبر حتى سكن ذلك الرجل مكانه ولم يتحرك قبيله ، لأنه أدرك أنه لا قبل له بمحمد صلى الله عليه وسلم « والخميس » أي الجيش الكبير ، وهكذا كان يهود خيبر يسمون جيش المسلمين. وانتهى الرسول من امر خيبر وكسر أهلها وغنم أراضيها وأصبحت من أملاك المدينة ، وهجرها من اراد الهجرة من أهلها من يهود الى الشام ، وانتهى الأمر بأن صالح الرسول أهل خيبر على نصف غلة أرضهم.

بهذا لم يعد لعيينة بن حصن أي سلطان على خيبر وحرمت غطفان من قاعدتها المدنية فضعفت وذلت ، واضطر عيينة بن حصن الى الدخول في طاعة أمة المدينة ولم يفارقها بعد ذلك ، وبعد أن كان يلقب بالأحمق المطاع اصبح يلقب بالأحمق فحسب.

هذه الحقائق عن أهداف الرسول صلى الله عليه وسلم من غزو خيبر بعد الحديبية وقبل فتح مكة لا تتبين لنا على وجهها إلا إذا كان المصور الجغرافي بين أيدينا ، فنرى أين كانت خيبر وأين كانت غطفان ، لماذا كان لابد من أن تؤمن المدينة من ناحية الاثنتين قبل أن تفتح مكة.

ومثال آخر يوضح لنا أهمية التصوير الجغرافي للمغازي نجده في غزوة المريسيع أو بني المصطلق في شعبان ورمضان سنة خمس للهجرة.

ذلك أن بني المصطلق كانوا فرعا من خزاعة، وخزاعة كانت حلفا للرسول صلى الله عليه وسلم، وكان الخزاعيون قد أسلموا، وكانوا ينزلون إقليم الفرع الخصيب وما بينه وبين المدينة، والفرع كان مادة للمدينة يقدم لها الزروع والطعام، وكان الرسول حريصا على أن تكون هذه الناحية بالذات في حلف المدينة وداخل منطقة نفوذها، لأنها قريبة من المحجة، وهي الطريق الرئيسي للتجارة المكية، ثم لأن طريقا فرعيا من مكة إلى المدينة كان يمر بها، وهو طريق الاثاية والسقيا والعرج ثم الأبواء والفرع والقاحة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب هذا الطريق ويسلكه كثيرا لأنه يمر بالأبواء، وفي الأبواء قبر أمه آمنة بنت وهب رضي الله عنها.

وكان سيد بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار، وكان فيه كبرياء وجهالة، وكان يرى منازل قبيلته غنية وافرة الخيرات، وكان يرى لقومه بضعة آلاف من الإبل وماشية لا تحصى فكبر عليه أن يدخل في طاعة المدينة وعزته نفسه،

فرفض حلف المدينة، بل حدثته نفسه بالمسير إليها بقومه، وبلغ ذلك كله رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجل بالمسير إلى المريسيع، واهتم بهذه الغزاة اهتماما كبيرا وأخذ معه كبار المهاجرين والانصار، وهو أمر لم يفعله قبل ذلك الا في بدر وأحد، وهذا يدل على اهتمامه للأمر وتقديره للنتائج التي يمكن أن تترتب على عصيان بني المصطلق، فلو أن الرسول تركهم لتبعهم غيرهم من خزاعة، وخزاعة كما قلنا كانت غطاء للمدينة من الجنوب وحماية من المكيين، وحتى لو لم يسر الحارث بن أبي ضرار إلى المدينة كما تذهب بعض الروايات، فإن الرسول كان لا بد له من معالجة بني المصطلق نظرا لأهمية موقع منازلهم الجغرافي والقبلي.

وهذه حقائق لا تتبين لنا إلا إذا نحن رأينا ذلك كله على مصور جغرافي يعرفنا بالمواضع والمواقع، فنعرف سبب اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم ببني المصطلق ولماذا عنف عليهم في العقوبة، لأنه أراد أن يكونوا مثلة لغيرهم، ولم يكن الموقف يحتمل أي قلق أو اضطراب من هذه الناحية.
وتتجلى لنا اهمية تلك الضربة التي وجهها الرسول صلى الله عليه وسلم الى بني المصطلق إذا ذكرنا أنها كانت قبل

الخندق بثلاثة شهور فقط، .فقد كانت غزوة المريسيع في شعبان سنة خمس وكانت الخندق في ذي القعدة من نفس السنة، ولو لم يفعل الرسول ذلك لكانت الخندق اقسى مما كانت.

وأضرب مثلا ثالثا لأهمية التصوير الجغرافي بغزوة حنين التي كانت في شوال سنة ثمان اي بعد شهر واحد من فتح مكة.

ذلك أن أوطاس موضع صغير على هضبة قريبة من مكة على الطريق بينها وبين البصرة، وهذه الطريق تمر بديار قبيلة هوازن، وهوازن قبيل ضخم من مضر موغل في البداوة، شأنه في ذلك شأن غطفان، وهوازن كانت تعيش في مساحة واسعة شرقي جبال السراة وجنوبي منازل غطفان، وتتصل ديارها بمداخل نجد من ناحية الغرب، وكانت القبيلة حليفة لمكة، وكانت مكة هي القاعده المدنية لهوازن كما كانت خيبر هي القاعدة المدنية لغطفان، فلما فتحت مكة ودخل أهلها في الاسلام أدرك رؤساء هوازن أن مصيرهم أصبح في خطر، فقد أصبحت قاعدتهم المدنية وسوقهم التجاري في حوزة جماعة المدينة ولم يعد لهم مفر من أن يدخلوا في الاسلام بدورهم أو يدخلوا في حرب مع المدينة

لانتزاع مكة من يدها، وكان آل هوازن بدوا طاعنين في البدواة بعيدين البعد كله عن ادراك حقائق الصراع الذي كان يجري في الحجاز، وكانوا مثل غيرهم من هذا الطراز من البدو معتزين بأنفسهم تغرهم جموعهم الكثيرة ويحسبون أنهم أقوى أهل الجزيرة كلها، مثلهم في ذلك مثل تميم التي سيجيء دورها بعد قليل، وكان بنو تميم ينزلون مساحات شاسعة شرقي هوازن وبينهم بنو عبد القيس الى البحرين وكان لا بد من إدخال هوازن في الاسلام حتى يفتح الطريق إلى قلب الجزيرة.

وكان لا بد أن يحدث أمر من اثنين: إما أن يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم بعمل لادخال هوازن في الاسلام أو تسير هوازن لحرب المسلمين لاسترجاع مكة، وكانت هوازن هي البادئة بالعمل خوفا من رؤسائها على مصير قبيلتهم، فساروا لحرب المسلمين وأسرع الرسول على عادته باتخاذ الأهبة وسارت قوات المسلمين وقد انضم اليها المكيون بعد الفتح، وعسكرت هوازن في أوطاس لتأخذ الطريق على المسلمين، وحصنوا مواقعهم على الهضبة، وكان لا بد للمسلمين من أن يزحزحوهم من هذا الموقع وينزلوهم إلى سهل حنين المجاور وكان سهلا كثير الأحجار لا تتحرك

فيه الخيل بسهولة، وكان هذا هاما جدا للمسلمين، لأن خيـل هوازن كانت كثيرة جدا، ولم يكن من الممكن للمسلمين أن يكسروها إلا إذا أنزلوها في السهل، وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في نهاية الدور الثاني من معركة أوطاس التي انتقلت إلى حنين، وبهذا الاسم عرفت بعد ذلك، وفي سهل حُنيْن لم تستطع خيل هوازن التحرك بالسرعة المطلوبة، فتعثرت بالصخور وتساقط الفرسان من على صهواتها وكانت الهزيمة.

وهنا أيضا نجد أننا لا نفهم الحوادث الفهم الصحيح إلا إذا رأينا المواقع على الخريطة، هنا فقط نفهم لماذا كان لا بد من أن يقع التصادم بين أمة الإسلام وهوازن ولماذا كان لا بُدّ أن يقع في أوطاس - حنين أو في أي موضـع آخر على الطريق بين مكة والبصرة قبل أن تدخل الطريق ديار هوازن.

وأختم هذا الكلام عن أهمية التصوير الجغرافي لفهم السيرة النبوية الشريفة بسؤال هو: اننا نتتبع الغزوات والسرايا واحدة واحدة، ونصل إلى فتح مكة ومعركة حنين، وفي رجب سنة تسع نقرأ خبر غزوة تبوك، وبعد ذلك مباشرة نجد أن وفود قبائل الجزيرة العربية ونواحيها

تفد على المدينة من أقصى نواحي الجزيرة لتعلن إسلامها وانضمامها إلى أمة الاسلام بل أن الوفود تبدأ في القدوم بعد سرية عيينة بن حصن إلى تميم ووفود وفد تميم إلى المدينة ودخول هذا القبيل الضخم في الاسلام. كيف حدث هذا الأمر الذي لا يصدق مع أن قوات الاسلام لم تكن قد وصلت بعد إلى البحرين أو إلى عمان أو حضرموت، بل لم يكن علي بن ابي طالب قد قام بسريته على اليمن. اننا نعرف العرب الجاهليين وحرصهم على الاستقلال بأنفسهم وكراهتهم الدخول في أي طاعة إلا إذا لم يجدوا من ذلك محيصا، بمعنى أنه لا بد أن هذه القبائل شعرت أنه لا مفر لها من الدخول في أمة المدينة لتسلم أولا ثم لكي تأمن على ارضها ومنازلها وتأخذ من رئيس أمة المدينة- رسول الله صلى الله عليه وسلم - كتابا رسميا يؤكد لها حقوقها في أرضها، أي أن المدينة أصبحت السلطة السياسية العليا في الجزيرة هي التي تعطي وتمنع، وهي التي تقر وتثبت، فما الذي دفع القبائل إلى هذه الحركة العامة الفريدة من نوعها في التاريخ؟ وكيف تمت هذه المعجزة التي أكدتها سورة النصر من سور القرآن الكريم: (اذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره

انه كان توابا) فهنا - تنص الآية الكريمة على نصر وفتح، والفتح هو الذي نراه في إقبال الوفود للدخول في الاسلام، فقد فتح الله سبحانه قلوب أولئك الناس للاسلام، وأما النصر فهو حصيلة الغزوات والسرايا، فهو نتيجة سياسية عسكرية لا تتأتى الا عن عمل عسكري سياسي، هذا العمل هو المغازي وقد سبق أن قلنا إنها كانت في مجموعها عملية واحدة، وضعت مرة واحدة ثم نفذت على مراحل، وقد نفذت على طريقة تؤدي إلى تلك النتيجة التي ذكرناها وهي إدخال الجزيرة العربية كلها في الإسلام، وليس من قبيل المصادفة أن العملية تمت على الوجه الأكمل في مطلع العام التاسع للهجرة، وليس ذلك مصادفة، ففي عمل تاريخي حاسم مثل البعثة المحمدية وتبليغها لا مكان للصدفة إنما هو عمل واسع المدى رسم باحكام وتم باتقان ودقة، وآتى ثمرته في الموعد المقرر، وإذا سألنا كيف تم فإن المصور الجغرافي للمغازي يجيب عن ذلك السؤال أدق إجابة.

فاذا نحن رسمنا خريطة للجزيرة العربية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ورسمنا عليها اتجاهات المغازي والسرايا وهدف كل منها تبينا تماما أن غزوة حنين أتمت قبضة المدينة على كل أعصاب الحياة والنشاط في شبه

الجزيرة.

فعدد الغزوات والسرايا بحسب تقدير الواقدي إحدى وثمانين غازية وسرية، وهذا نشاط عسكري يبهر الانسان بعدده وتخطيطه وإحكامه ثم بالنتائج الفردية لكل عملية من عملياته ثم بالنتيجة العامة التي انتهى إليها. وإذا كنا نبحث عن معجزة باهرة للرسول صلى الله عليه وسلم بعد القرآن الكريم فتلك هي، وإذا كانت معجزات الرسل الآخرين هي الاتيان بخوارق الاعمال التي لا تتأتى لغيره من البشر، كانت معجزة رسولنا الكبرى بعد القرآن هي ذلك العمل الباهر الذي حققه بالعقل والتدبير وحسن التقدير وإحكام التنفيذ إلى جانب تبليغ الرسالة الدينية كاملة وإكمال الدين للناس وإتمام نعمة الله عليهم قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

وإذا نحن نظرنا إلى المصور الجغرافي للجزيرة بعد أن نرسم عليه اتجاهات المغازي والسرايا ووجهة كل منها تبينت لنا بذلك النتائج السياسية التي ترتبت على كل منها.

فالغزوات والسرايا السبع الأولى حتى ذات العشيرة في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة كانت ترمي إلى

تأمين أمة المدينة وما حولها من كل خطر من ناحية القبائل المحيطة بها ، فأدخلت كلها في حلف المدينة وتمت السيطرة على طريق التجارة المكية الى الشام ، ولم يكن هناك طريق واحد بل طريقان ، واحد هو الجادة أو المحجة والثاني طريق فرعي يمر باقليمي العرج والفرع ، وهو ينفصل من الجادة عند الرويثة ثم ينحرف غربا ويعود فيلتقي بالجادة عند الجحفة ، وقد تمت السيطرة على الطريق الرئيسي إلى الجادة بسرية سعد بن ابي وقاص إلى الخرار وهو واد يسير من شرق لغرب قرب الجحفة وتقع فيه آبار وغدران منها غدير خم المشهور ، وإلى هنا كانت تنتهي منازل خزاعة وأسلم ، فدخلت هذه كلها في حلف المدينة وانتشر الاسلام بين اهلها وامتنعت من التعامل مع قريش وحراسة قوافلها ، والغزوة التالية وهي الابواء ، وقد قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه أتمت السيطرة على الطريق الفرعي وادخلت قبيلة بني صخرة وهي فرع من كنانة في حلف. المدينة ، يقول الواقدي: وفي هذه الغزاة وادع بني صخرة من كنانة على ألا يكثروا عليه ، ولا يعينوا عليه أحدا ، ثم كتب بينهم كتابا ثم رجع ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة (١/١٢).

ثم كانت غزوة نخلة في رجب سنة اثنتين للهجرة وعلى رأسها عبد الله بن جحش، ونخلة إلى شمال شرقي مكة بأميال قليلة وهي حد حوز مكة وهي بداية الطريق النجدية الشارعة إلى نجد والعراق، ووصول المسلمين إليها كان معناه أنهم بدأوا في السيطرة على النجدية أيضا، أي أن الحلقة كانت تضيق حول قريش شيئا فشيئا. فإذا ذكرنا أن نخلة وقع فيها قتال، وقتل فيها حليف من حلفاء قريش هو عمرو بن الحضرمي وأسر فيها رجلان فهمنا لماذا كانت نخلة هي الشرارة التي أشعلت نيران الحرب الفعلية بين جماعة المدينة ومكة والنذير الأول بموقعة بدر التي وقعت بعد ذلك بقريب من شهرين.

ولا نأتي بجديد إذا قلنا أن موقعة بدر كانت حاسمة، لا لأنها كسرت القوة العسكرية لقريش فحسب، بل لأنها أثبتت دون أي شك أن أمة الاسلام في المدينة اكبر قوة عسكرية في الحجاز والجزيرة العربية كلها، ويخطىء من يقول أن قريشا لم تكن إلى ذلك الحين اكبر قوة عسكرية في الجزيرة ، فقد انتصرت قبيل البعثة المحمدية على حلف قيس عيلان أي على مضر كلها في حروب الفجار، وهي لم تنتصر في حروب الفجار لأنها كانت أكثر عددا وأعز نفرا

بـل لأنها كانت أكثر نظاما وأحسن عدة وأكثر مالا ، وحرب الفجار ، هي التي رفعت بني عبد شمس إلى قيادة مكة ، والحروب تكسب بالنظام وحسن القيادة ونوع العدة الحربيـــة إلى جانـب الشجاعـة وأحكـام التدبـير وقـد تمتعت قريش بهذه الميزات إلى ذلك الحين ، حتى كانت موقعة بدر فظهر تفوق أمة الاسلام في المدينة عليها . ومن هنا كانت بدر حاسمة بل قاضية ، فقد عرف أهل الجزيرة جميعا أن أمة الاسلام في المدينة أقوى قوة فيها ، وبدأوا يتحولون عن مكة إلى المدينة ، ومن ناحية أخرى فقد توقفت تجارة مكة مع الشام والعراق تماما ، وتوقفت مع اليمن بالتالي ، ونتيجة لذلك تزعزع مكانها في الجزيرة بصورة خطيرة ، وهذا هو الذي دفعها الى أن تقوم بغزوة أحد . ولم تكن أحد بحاسمة ولا ببعيدة الأثر ، ولا هي رفعت مكة من الوهدة التي سقطت فيها ، ولهذا كان لا بد لها أن تجمع احلافها وكل الخائفين من المدينة والحاسدين لها والطامعين في خيراتها على التجمع للقيام بحملة الخندق في ذي القعدة سنة خمس . وفشل الأحزاب في معركة الخندق هو الذي حسم موضوع قريش وأحلافها ، فاتجه الرسول صلى الله عليه وسلم بعدها إلى توجيه الضربة الثالثة إلى الخطر اليهودي في

المدينة بالقضاء على بني قريظة، ثم الاتجاه بجل اهتمامه إلى شمال الحجاز حتى تبوك.

كل ذلك يفسر لنا النتيجة الباهرة التي حققها الرسول صلى الله عليه وسلم حتى مستهل سنة تسع للهجرة، ولا يتبين لنا ذلك على وجهه إلا إذا درسناه على الخريطة مليا لنتبين الاتجاهات والغايات، فما تحرك الرسول صلى الله عليه وسلم حركة الا بحساب، ولا هو أرسل سرية أو خرج على رأس غازية إلا والغاية النهائية نصب عينيه، وإذا كنا نحن نحاول أن نترسم المغازي على الخريطة فقد كان ذلك الرسم واضحا في ذهنه صلى الله عليه وسلم تماما، ولم يكن في الجزيرة من يعرف نواحيها وطرقها وقبائلها وسادة هذه القبائل ومقدار قوة كل قبيلة كما عرف ذلك كله محمد صلى الله عليه وسلم، وليس في العمل الذي قام به أو النتيجة التي وصل إليها خلال ثمانية أعوام هجرية قصارى أثر للمصادفة.

كل ذلك يبين لنا الأهمية الكبرى لوضع أطلس السيرة، وتحديد مواقع البلاد والنواحي التي اتجهت إليها الغزوات والسرايا. ولكن كيف نستطيع وضع هذا الأطلس والخرائط تقوم على الضبط والتحديد سواء في مواقع

الاعلام الجغرافية ام منازل القبائل أم اتجاهات الغزوات.

إن المراجع التي ذكرناها في أول هذا البحث تقدم لنا مادة جغرافية تبدو لأول وهلة وكأنها وافرة ولكنها تبدو محيرة عند محاولة توقيعها على الخريطة خاصة وأن بلاد الحجاز وبقية الجزيرة العربية تخلو من العدد الكافي من المعالم الجغرافية الرئيسية التي تعين على تحديد الشكل الجغرافي لبلد ما وتساعد على تحديد مواقع الاعلام الجغرافية بشيء من التحديد، من مثل نهر كبير يعطينا المحور الرئيسي للعمران في البلد كما نجد في مصر، أو نهرين أو أكثر تتحدد بالنسبة لها مواقع الاعلام الجغرافية كما نجد في بلاد الرافدين وفي بلاد مثل اسبانيا وفرنسا والمانيا، أو سلسلة جبلية واضحة المعالم والتقسيم غنية بالأمطار ومواقع الخصب والحياة، فيستطيع الباحث أن يحدد المواقع الجغرافية من بلاد وقرى ووديان وطرق ومراكز عمران بالنسبة لها كما نجد في المغرب حيث تعطينا جبال الأطلس المفتاح الرئيسي لجغرافية البلاد وتحديد مواقعها ومثل سويسرا التي يتحدد كل شيء فيها بالنسبة لسلاسل جبال الألب وقممها الكبرى، وفرنسا حيث تتحدد الصورة الجغرافية العامة بالنسبة للماسيف سنترال (الهضبة الوسطى)

التي تنحدر منها الأنهار وتتجمع حولها سهول فرنسا المشهورة، وفي مثل هذه البلاد ذات المحاور الجغرافية الواضحة تقوم المدن ومراكز العمران وتبقى على مر العصور محتفظة بمواقها المحددة بل بأسمائها، فالمدن التي تقوم على مجاري الأنهار لا تندثر قط، ومراكز العمران التي تقوم على مداخل الجبال وفي اعالي الهضاب المطيرة وعلى ضفاف البحيرات أو مجاري المياه تبقى أبد الدهر، لأنها تقوم في مراكز حيوية لا تنضب حيويتها، وكلما انفض عنها قوم عمرها آخرون، وربما غيروا أسماءها ولكن الأسماء القديمة تبقى، وانظر مثلا إلى طيشفون وبغداد وسلمان باك وكلها مراكز عمرانية قامت في مكان واحد تقريبا، وانظر كذلك إلى منف وبابليون والفسطاط والقاهرة، وقد أثبت لويس مامفورد مؤرخ المدن أن المدن الكبرى وجدت في مواقعها الحالية أو قريبا منها من فجر التاريخ.

في الجزيرة العربية لا نجد معالم جغرافية باقية من هذا النوع الا في حالات قليلة مثل مكة والمدينة والطائف وتربة وخيبر وفدك وتيماء وتبوك، وفي مدن اليمن الباقية مثل نجران وصعدة وصنعاء وعدن، وفي موانى البحار وفرضها من أمثال أيلة والجار وينبع ورابغ وجدة ومنى والحديدة

والمكلا وريسوت ومسقط وصحار والقطيف. أما بقية مراكز العمران داخل الجزيرة فقد توجد في زمان ثم تختفي، وعلة وجودها في بعض الأزمنة أنها قامت عند آبار مياه نزحت وجفت مع الزمن فاندثرت المدينة أو القرية أو تكون على طريق رئيسي للتجارة ثم يتغير الطريق أو يتوقف بسبب ما فيتلاشى مركز العمران ويتحول إلى منتجع قبلي قليل الأهمية، وأكبر مثال لذلك اليمامة.

وهنا تبرز لنا صعوبة ثانية: هي تغير أسماء المواضع باختلاف الأزمان وانعدام الوسيلة للربط بين الاسم الجديد والقديم، لأن القرى في الصحراء تسمى بأسماء القبائل صاحبتها وقد تنسب إلى من حفرها وحازها فاذا انتقلت إلى حيازة قبيلة جديدة أو مالك جديد تغير اسمها واندثر اسمها القديم. وفي بعض الأحيان يتلاشى الموضع تماما نتيجة لجفاف مورد المياه أو تغير طريق التجارة أو هلاك القوم الذين يعيشون فيه نتيجة لحرب أو جائحة من جوائح الطبيعة.

لهذا كله نجد الكثير من المعلومات الجغرافية الواردة في مراجعنا لا تفيدنا كثيرا في تحديد المواقع الوارد ذكرها في السيرة، فإن أصحابها ينقلون معلوماتهم عن مراجع سابقة

دون تدقيق في النقل، ومعظمهم لم يزوروا الأماكن التي يتحدثون عنها، وكلهم لم يحاولوا التأكد من أن المواضع المذكورة في السيرة لا زالت موجودة بأسمائها أو إنها زالت أو أن أسماءها قد تغيرت، ومن هنا فاننا نقرأ عندهم عبارات لا تفهم إذا أردنا تطبيقها على الخريطة ومثال ذلك قول الواقدي: ورابغ على عشرة أميال من الجحفة وأنت تريد قديدا.. (١/١٠) فرابغ لا تقع على الطريق من الجحفة إلى قديد، ثم ان الطريق من الجحفة إلى قديد تسير جنوبا ثم تنحرف شرقا فأين هو اليمين في هذه الحالة؟ وكذلك قول ياقوت في معجم البلدان: «الأبواء قرية من اعمال الفرع بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلا» (١/٩٢). وقول ابن سعد في الطبقات ان الجماء: جبل ناحية العقيق، بينه وبين المدينة ثلاثة أميال» (٢/٤) وقول البكري:

«نخلة اليمانية هي بستان ابن عامر عند العامة، والصحيح أن نخلة اليمانية هي بستان عبيد الله بن معمر.. (معجم ما استعجم، (٢/٥٧٧)، وقول الواقدي في كلامه على غزوة ذات العشيرة أن رسول الله «سلك على نقب من بني دينار بيوت السقيا (١/١٣) وقول ياقوت في معجم البلدان:

«السقيا قرية جامعة من عمل الفرع، بينها مما يلي الجحفة تسعة عشر ميلا» (٥/٩٤).

وهذه الأقوال كلها تبدو لنا ذات فائدة ونحن نقرؤها ولكننا اذا اردنا توقيعها على خريطة لم نستطع، لأنها غير دقيقة أولا ثم انها منقولة دون تدبر ثانيا.

هذا عن التحديدات، أما فيما يتعلق بالاتجاهات فالأمر أشد غموضا، ومثال ذلك وصف ابن هشام لطريق الهجرة، فهو يقول مثلا أن عبد الله بن ارقط أو اريقط سار بالرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر من جبل ثور في اتجاه البحر، ثم «عارض بهما الطريق اسفل من عسفان» وسار بهما جزءا من الطريق ثم «عارض الطريق اسفل من أمج»، ثم «عارض» الطريق مرة اخرى أعلا قديد، فما المراد بلفظ «عارض» هنا، لقد رجعت إلى القواميس التمس لها المعنى الصحيح فلم تهدني إلى شيء واضح.

وعندما يصف البكرى الطريق إلى بدر من المدينة يذكر المواضع واحدا بعد الآخر دون أن ندري حقيقة الاتجاه وخاصة بعد أن يترك الرسول صلى الله عليه وسلم الجادة أو المحجة عند المنصرف وهي المسيجيد اليوم ويتجه الى بدر، وبعد قليل يذكر طريقا آخر، فإذا وصل إلى بدر

لم يصف سهلها، ولا نجد وصفا مقبولا بعض الشيء، لسهل بدر الا عند ابن بطوطة ولكن ذلك كان بعد اكثر من سبعة قرون، وقد تغيرت الأرض وما عليها.

ولكننا لا بد على أي حال من جمع هذه الاشارات الجغرافية وترتيبها وتبويبها، ثم لا بد من تطبيقها على رسم جغرافي مرة بعد اخرى ولا بد من دراسة جغرافية الحجاز دراسة دقيقة جدا، لأن الخرائط التي بين أيدينا مهما كان مقياسها كبيرا فهي لا تشفي الغلة، ونحن نريد أن نتعرف على مواضع خافية بين بعضها وبعض في حالات كثيرة ما لا يزيد على ميلين، وهي مسافة لا تكاد ترى على أي خريطة.

وقد ذهبنا إلى تلك البقاع وحاولنا التعرف على بعض الطرق والمواقع، ولكن حركة التعمير والانشاء الواسعة المدى في المملكة العربية السعودية غطت على الكثير من المواقع والطرق القديمة، فان تلك الطرق كثيرا ما تكون أخاديد أو وديان جافة أو أراضي مرتفعة، وهذه كلها تقضي عليها الطرق الحديثة الواسعة، فلا يلبث الانسان أن يفقد الطريق الذي كان يتبعه ولا يدري إلى أين يسير.

فما هي اذن الطريقة الممكنة المتاحة لنا لعمل ذلك الأطلس؟

هذه الطريقة في رأيي تكون على مراحل كما يلي:

١ - قراءة كتب الجغرافية والرحالة العربية المتاحة لنا قراءة مستأنية، والعناية بالاجزاء الخاصة بالجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام حتى دمشق وشرقي إيران والخليج العربي وسيناء ومصر، وتسجيل كل المعلومات التي تتعلق بمواضع هذه البلاد واعلامها الجغرافية في بطاقات من نسختين.

ثم ترتب هذه البطاقات مرتين: الأولى أبجدية والثانية بحسب المواضع والنواحي: شمالي الحجاز - مدين ووادي القرى -

الحجاز - تهامة - عسير - اليمن - العروض - جبال السراة - نجد - البحرين - عمان - شمال شبه الجزيرة العربية... إلى آخره.

٢ - قراءة المعاجم الجغرافية العربية وخاصة معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان لياقوت الحموي والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري، وتسجيل كل المعلومات التي تتصل بالسيرة وجغرافيتها ووقائعها في نفس البطاقات أو في بطاقات جديدة.

٣ - قراءة المعاجم اللغوية الكبرى وبخاصة تاج

العروس ولسان العرب في المواد المسجلة في البطاقات التي عملناها وإضافة ما يتيسر من المعلومات الجديدة.

٤ - قراءة كتب الحديث وبخاصة البخاري ومسلم وكتب الرجال الكبيرة واستخراج كل المادة الواردة فيها عن الغزوات والمواضع وتسجيلها في بطاقات ويستحسن قراءة شرح لكل من كتب الحديث التي قرأناها.

٥ - قراءة كتب الرحالة الغربيين وخاصة داوتي DOUGHTY بالجريف PALGRAVE نيلسن NIELSON وجوزى هاليفي GOSEY HALEVY وتسجيل كل ما يرد فيها من المعلومات عن القبائل والاعلام الجغرافية.

٦ - دراسة كتب السيرة جميعا دراسة دقيقة وتسجيل كل ما يرد فيها عن المغازي واتجاهاتها والاعلام الجغرافية الواردة فيها.

٧ - دراسة مطولات التاريخ الاسلامي كالطبري واليعقوبي وأنساب الاشراف للبلاذري وابن الأثير وابن خلدون وما إليها من الاجزاء الخاصة بالسيرة والعصر النبوي، مع العناية الخاصة بمغازي الواقدي وطبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام وتاريخ ابن كثير ونهاية الأدب للنويري (الاجزاء ١٦ و ١٧ و ١٨) وكتب تراجم الصحابة وخاصة

الاستيعاب لابن عبد البر والإصابة لابن حجر.

٨ - دراسة كتب الأدب العربي الأساسية وأهمها هنا الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والكامل لأبي العباس المبرد والعقد الفريد لابن عبد ربه واستخراج كل المادة الجغرافية الخاصة بجزيرة العرب والعراق والشام وسيناء منها وتسجيلها.

وكذلك دراسة كتب الشعر الجاهلي وشروحه لاستخراج ما بها من مادة جغرافية أو إشارات تنفعنا في مطلبنا هذا.

٩ - دراسة كل الخرائط الواردة في كتب الجغرافية العربية وخير مرجع لخرائطها هو كتاب الخرائط العربية. MAPPAE ARABIEAE الذي عمله «ميلر» مع العناية الخاصة بخرائط الإدريسي.

١٠ - دراسة كتابي الازرقي عن مكة والسمهودي عن المدينة وتدوين كل المادة الخاصة بمواقع مكة والمدينة وما حولها.

وبهذه المناسبة نشير الى كتاب التراتيب الادارية لعبد الحي الكتاني فهو كتاب حافل بالمادة التي تنفعنا في هذا الوجه.

١١ - دراسة كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي وصفة جزيرة العرب للهمداني وتعليقات الاكوع وحمد

الجاسر عليه، ودراسة كل ما نشر العلامة السعودي حمد الجاسر سواء في مجلة العرب او في غيرها وتسجيل ملاحظاته وبياناته بغاية الدقة فهو في الواقع علامة وحجة كبرى في ذلك الميدان.

ولا بد أنه فاتني شيء من المراجع ولكن هذه هي أهمها على اي حال والمادة التي فيها كافية.

١٢ - دراسة كل الخرائط التي نشرتها البلاد العربية وخاصة دول الجزيرة العربية من خرائط عن الجزيرة بصورة عامة أو عن الدول المختلفة.

١٣ - وتصلح الخريطة المفصلة التي وضعتها شركة الزيت العربية (ارامكو) أساسا لرسم الخريطة، ومن الممكن تكبير الجزء الخاص بالحجاز وغربي الجزيرة منها إلى مقياس أكبر مثل ١/ ٠٠٠ ٥٠٠ واتخاذ هذا التكبير أساسا لتوقيع الأماكن.

١٤ - ويحتاج الامر بعد ذلك الى القيام برحلات مع اتجاهات الغزوات والسرايا وطريق الهجرة، وهذا مطلب عسير كبير النفقة ولكن لا بد منه.

فاذا تم ذلك كله أمكن السير في عمل الأطلس وتقسيمه على النحو الذي يراه المؤلف، ولا بد على اي حال من

خرائط لمكة والمدينة والطائف، وخرائط لمواضع المواقع العسكرية الكبرى مثل بدر وأحد والخندق وحنين واتجاهات السير إلى هذه المعارك.

ولا بد أن يفسر الرسم الجغرافي تفسيرا تاريخيا، بمعنى أننا نفسر الغزوات والسرايا الثمانية الاولى حتى نخلة على انها مدت نفوذ المدينة ومجال سلطانها على شمال الحجاز من المدينة إلى قرب مكة، فإذا درسنا موقعة خيبر فمعنى ذلك أن نطاق سلطان المدينة شمل كل مناطق خيبر وفدك وتيماء ومنازل غطفان، وعندما نصل إلى غزوة بني سُلَيم بنجران بناحية الفرع في ربيع الأول سنة ثلاث للهجرة نفهم من ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيطر تماما على منطقة الحجاز حتى أحواز مكة، وأدخل في طاعة المدينة كل القبائل الضاربة في هذه النواحي، لأن الواقدي يقول في حديثه عن سرية القردة التي قادها زيد بن حارثة في ربيع الاول سنة ثلاث للهجرة أي بعد غزوة بني سليم بنجران مباشرة: «ان صفوان بن أمية قال لجماعة قريش: ان محمدا واصحابه قد عوروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه، لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوه ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن اقمنا

نأكل رؤوس اموالنا ونحن في دارنا هذه ما لنا بها نفاق (جمع نفقة)، انما نزلناها على التجارة الى الشام في الصيف، وفي الشتاء إلى أرض الحبشة، فقال له الأسود بن المطلب: فنكب عن الساحل وخذ طريق العراق... » (١/١٩٧) أي أن أمة الاسلام في المدينة سيطرت تماما على طرق التجارة الى الشمال وبسطت سلطانها على مناطقها وقبائلها، ومن هنا فكر المكيون في سلوك طريق العراق أو أحد الطرق إلى العراق وأوله ذات عرق التي يقول فيها ياقوت انها « مهد أهل العراق، وهو الحد الفاصل بين نجد وتهامة » (٢/١٤٧)، وبالفعل خرج صفوان بن أمية بتجارة مكة عن هذا الطريق، وبلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل زيد بن حارثة على رأس قوة من المسلمين أدركت القوم عند القردة « من أرض نجد بين الربذة والغمرة ناحية ذي عرق » (طبقات ابن سعد، ٢/٢٤). وهنا ينبغي أن نمد نطاق نفوذ المدينة إلى طريق نجد هذا وعلى المسافة الواقعة من شرقي السراة حوله إلى مداخل نجد.

وعندما ندرس غزاة خيبر ينبغي أن نمد سلطان المدينة على منطقتها وعلى ديار غطفان وفدك وتيماء ووادي القرى ومدين إلى البحر، وكذلك ينبغي أن نفعل عندما ندرس

غزوة تبوك .

بهذه الطريقة نستطيع أن نجمع مادة الأطلس على وجه من الدقة فحسب ، ونستطيع كذلك أن نتتبع اتساع نطاق أمة الاسلام في المدينة شيئا فشيئا وتفسر الحقيقة التي أشرت اليها في سياق البحث وهي دخول شبه الجزيرة كله في أمة الإسلام في مستهل العام التاسع للهجرة، وهذا امر على جانب كبير من الأهمية من الناحية التاريخية .

وقد اتبعت هذه الطريقة في رسم خرائط أطلس السيرة الذي عملته وهو جزء من اطلس تاريخ الاسلام العام الذي أعان الله وأنجزته وهو اليوم في المطبعة ، ولكن ينبغي أن أقدر أن أطلس السيرة هذا الذي عملته ما هو الا مدخل لأطلس كامل عن السيرة ينبغي أن يعمل ، وهي محاولة ليس إلا ، وفي بعض الأحيان عملنا الخرائط توضيحية فحسب دون مراعاة تحديد المواقع على وجه الدقة لأن ذلك بدا لنا أمرا عسيرا جدا على التحقيق على يد رجل واحد يعمل على قدر ما يسر الله له ، وهو سبحانه الموفق ، له الحمد والمنة سبحانه .

د . حسين مؤنس
استاذ التاريخ الاسلامي كلية الآداب
جامعة القاهرة

مراجع

عن المراجع الجغرافية الواردة في مستهل البحث انظر تحقيقات الاستاذ حمد الجاسر في مقالاته القيمة في مجلة العرب وبخاصة ما يتصل منها بجغرافية الحجاز وغربي الجزيرة بصفة عامة، وكذلك تحقيق كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني على يد الاستاذ الأكوع ومراجعة الاستاذ حمد الجاسر، وكتاب الجغرافي الاندلسي ابي عبيد البكري تأليف الدكتور عبد الله الغنيم، وكذلك كتاب جزيرة العرب عند البكري له أيضا، ودراسة الدكتور حسين نصار عن اوائل الجغرافيين العرب وتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون لما عثر عليه من جغرافية عرام بن الاصبغ.

ثم انظر المراجع التالية:

١ - المطبوعات

ابن الأثير، عز الدين، علي بن عبد الكريم - ٦٣٠ هـ
اللباب في تهذيب الأنساب، ثلاثة أجزاء، نشرته مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٧/ ١٣٦٩ هـ

ابن الأثير، مجد الدين، المبارك بن محمد بن محمد - ٦٠٦ هـ.
(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، أربعة أجزاء، المطبعة العثمانية، القاهرة، ١٣١١ هـ

(٢) جامع الأصول من أحاديث الرسول، اثنا عشر جزءا، نشره الشيخ حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٤/١٣٦٨ هـ

احمد بن حنبل، (الامام) - ٢٤١ هـ.

المسند، بتحقيق الشيخ احمد محمد شاكر، صدر منه خمسة عشر جزءا، دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٥/١٣٦٨هـ

اسماعيل باشا البغدادي - ١٣٣٩هـ

(١) ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، جزءان، استانبول، ١٣٦٦/١٣٦٤هـ

(٢) هدية العارفين. أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. جزءان، ١٩٥٥/١٩٥١م

أغا بزرك الطهراني، محمد محسن الذريعة إلى تصانيف الشيعة، صدر منه خمسة عشر جزءا، طبعت في النجف وطهران ١٣٨٤/١٣٥٧ هـ.

البخاري، محمد بن اسماعيل بن ابراهيم - ٢٥٦هـ

(١) التاريخ الكبير، أربعة أقسام في ثمانية أجزاء بتحقيق الشيخ عبد الرحمن المعلمي مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٧٨/١٣٦٠هـ

(٢) الجامع الصحيح، أربعة أجزاء، طبعة الحلبي، القاهرة

دون تاريخ
بروكلمن، كارل - ١٩٦١م
تاريخ الادب العربي ، الترجمة العربية ،للدكتور عبد الحليم النجار، صدر منها ستة أجزاء، دار المعارف القاهرة ١٩٥٩/١٩٦٢م
البلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر - ٢٧٩ هـ
(١) أنساب الاشراف، الجزء الاول، بتحقيق الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩م
(٢) فتوح البلدان، ثلاثة اجزاء، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦/١٩٦٠م
ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، يوسف ٨٧٤هـ
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، صدر منه ست عشر جزءا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩/١٩٨٠
الجمحي ، محمد بن سلام بن عبيد الله- ٢٣٢هـ
طبقات فحول الشعراء، بتحقيق الأستاذ محمود شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢م
الجوهري، اسماعيل بن حماد- ٣٩٣هـ

الصحاح، ستة أجزاء، بتحقيق أحمد عبد الغفور العطار،
مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٧٦/١٣٧٧هـ
ابن أبي حاتم الرازي، عبد الرحمن بن محمد- ٣٢٧هـ
كتاب الجرح والتعديل، تسعة اجزاء، بتحقيق الشيخ
عبد الرحمن المعلمي،
مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن،
الهند، ١٣٦٠/١٣٧٣هـ
حاجي خليفة، كاتب جلبي، مصطفى بن عبد الله - ١٠٦٧
هـ.
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، جزءان،
بتصحيح الاستاذ شرف الدين يلتقايا، والمعلم رفعت بيلكه
الكليسي، مطبعة وزارة المعارف التركية، استانبول،
١٣٦٠/١٣٦٢هـ
ابن حبيب، أبو جعفر، محمد بن حبيب بن أمية - ٢٤٥هـ
كتاب المحبر، بتصحيح الدكتورة إيلزه ليختن شتيتر،
والدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي، مطبعة دائرة
المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن الهند، ١٩٤٢م.
ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين ابو الفضل، احمد بن علي
ابن محمد - ٨٥٢هـ

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، اربعة أجزاء، نشرته الجمعية الآسيوية الملكية كلكتا، الهند، ١٨٧٧م.
(٢) لسان الميزان، ستة أجزاء، مطبعة حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٢٩/١٣٣١هـ.
(٣) تهذيب التهذيب، اثنا عشر جزءا، مطبعة حيدر آباد، الدكن الهند، ١٣٢٥/١٣٢٧هـ.

ابن أبي الحديد، عز الدين، عبد الحميد بن هبة الله ابن محمد - ٦٥٥هـ

شرح نهج البلاغة، عشرون جزءا، بتصحيح الشيخ محمد الزهري الغمراوي.
مطبعة دار إحياء الكتب العربية (الحلبي)، القاهرة ١٣٢٩ هـ.

ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد - ٤٥٦هـ

جوامع السيرة (النبوية)، بتحقيق الدكتورين احسان عباس، وناصر الدين الأسد، ومراجعة الشيخ أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢م.

حسان بن ثابت بن المنذر - ٥٤ هـ.

ديوان شعره، نشر في سلسلة جب التذكارية، بعناية

هرتويج شفيلد، لندن، ١٩١٠م.
حميد الله، محمد حميد الله الحيدر آبادي.
مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٨م.
الخشني، مصعب بن محمد بن مسعود - ٦٠٤هـ
شرح غريب سيرة ابن اسحاق، جزءان، نشره يوسف برونلة، مطبعة هندية القاهرة، ١٩١١م.
الخطيب البغدادي، احمد بن علي بن ثابت - ٤٦٣ هـ
تاريخ بغداد، اربعة عشر جزءا، نشرته مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة القاهرة، ١٣٤٩هـ.
ابن خلكان، احمد بن محمد بن ابراهيم - ٦٨١هـ
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جزءان، مطبعة بولاق، القاهرة ١٢٩٩هـ
الخوانسارى، محمد باقر بن زين العابدين الموسوي - ١٣١٣ هـ.
روضات الجنات في تاريخ العلماء والسادات، جزءان، الطبعة الثانية طبع حجر، طهران، ١٣٤٧ هـ
ابن دربد الأزدي، محمد بن الحسن - ٣٢١هـ

الاشتقاق، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٨م.

الذهبي، شمس الدين، محمد بن احمد بن عثمان - ٧٤٨هـ

(١) العبر في خبر من عبر، صدر منه خمسة اجزاء،. بتحقيق الاستاذ فؤاد سيد والدكتور صلاح الدين المنجد، الكويت ١٩٦٠/١٩٦٣م

(٢) تذكرة الحفاظ، أربعة أجزاء، بتحقيق الشيخ عبد الرحمن المعلمي مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٧٥/١٣٧٧هـ.

الربعي، عيسى بن ابراهيم - ٤٨٠هـ

نظام الغريب، نشره يوسف برونله، مطبعة هندية، القاهرة، دون تاريخ. الزبيدي، مرتضى، محمد بن محمد بن محمد - ١٢٠٥هـ

شرح القاموس المحيط، المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، عشرة اجزاء المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٦/١٣٠٧هـ.

الزبير بن بكار - ٢٥٦هـ

جمهرة نسب قريش، بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، الجزء الاول القاهرة، ١٣٨١ هـ

الزرقاني، عبد الباقي بن يوسف بن احمد - ١٠٩٩هـ
شرح على المواهب اللدنية، ثمانية اجزاء مطبعة بولاق، القاهرة ١٢٩١ هـ

الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد - ٥٣٨ هـ.
أساس البلاغة، جزءان، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.

ابن سعد، محمد بن منيع - ٢٣٠ هـ
كتاب الطبقات الكبير، تسعة أجزاء، لندن، ١٩٠٥/١٩٢١م

ابن السكيت، يعقوب بن اسحاق - ٢٤٤ هـ.
إصلاح المنطق، بتحقيق الأستاذين الشيخ أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦م

السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور - ٥٦٢هـ
كتاب الأنساب، نشره بالزنكوغراف مرجليوث، نشر في سلسلة جب التذكارية، لندن، ١٩١٢م

السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله - ٥٨١ هـ
الروض الأنف، شرح سيرة ابن هشام، جزءان، طبع بنفقة السلطان مولاي عبد الحفيظ، المطبعة الجمالية، القاهرة، ١٣٣٢هـ

ابن سيد الناس اليعمري، أبو الفتح، محمد بن محمد -
٧٣٤هـ

عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، جزءان، نشرته مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٦هـ

الصفدي، صلاح الدين، خليل بن أيبك بن عبد الله -
٧٦٤هـ

الوافي بالوفيات، صدر منه أربعة أجزاء بتحقيق ريتر وديدرينغ، نشرته جميعة المستشرقين الالمان في استانبول، ودمشق، ١٩٣٦/١٩٦٠م.

الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير - ٣١٠هـ

(١) تفسير القرآن المسمى جامع البيان، بتحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر، صدر منه خمسة عشر جزءا، دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٤/١٣٧٩ هـ

(٢) تاريخ الرسل والملوك.

ثلاثة عشر جزءا، لدن (١٨٨/١٨٨٢)

الطوسى، أبو جعفر، محمد بن الحسن بن علي- ٤٦٠هـ

الفهرست، فهرست كتب الشيعة، منشورات الجمعية الآسيوية الملكية، كلكتا ١٢٧١هـ.

ابن عبد البر، ابو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد-

٤٦٣هـ
الاستيعاب في معرفة الأصحاب، اربعة اجزاء، بتحقيق الاستاذ علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، دون تاريخ
أبو عبيد الله الكبرى، عبد الله بن عبد العزيز- ٤٨٧هـ
معجم ما استعجم، ثلاثة أجزاء نشره وستنفلد، جوتا ١٨٧٦/١٨٧٧م
ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن احمد بن محمد - ١٠٨٩ هـ.
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ثمانية أجزاء، نشرته مكتبة القدسي القاهرة، ١٣٥٠/١٣٥١هـ.
ابن فارس، أحمد بن فارس - ٣٩٥هـ
مقاييس اللغة، ستة أجزاء، بتحقيق الاستاذ عبد السلام محمد هارون، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٦٦/١٣٧١هـ
أبو الفدا، اسماعيل بن علي بن محمود - ٧٣٢هـ
المختصر في أخبار البشر، أربعة أجزاء المطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٥هـ.
أبو الفرج الأصبهاني، علي بن محمد - ٣٥٦هـ

كتاب الأغاني، نشره دار الكتب المصرية، صدر منه ستة عشر جزءا،
دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٣/١٩٣٥م

ابن فرحون، ابراهيم بن علي بن محمد - ٧٩٩هـ
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، المطبعة الجمالية القاهرة، ١٣٢٩هـ.

الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب بن محمد - ٨١٧هـ
القاموس المحيط، أربعة أجزاء، المطبعة المصرية، القاهرة ١٩٣٨م

القالي، أبو علي،، اسماعيل بن القاسم بن عيذون - ٣٥٦ هـ.
كتاب الأمالي، نشر بنفقة يوسف دياب، جزءان، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٢٦م.

القرشي، عبد القادر بن محمد بن نصر الله - ٧٧٥هـ
الجواهر المضية في طبقات الحنفية، جزءان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن - الهند، ١٣٣٢هـ

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم - ٢٧٦هـ
كتاب المعارف، بتحقيق الدكتور ثروت عكاشة،

مطبعة دار الكتب المصرية
القاهرة، ١٩٦٠م.
قيس بن الخطيم، نحو ٢ قبل الهجرة.
ديوان شعره، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، مطبعة المدني
القاهرة، ١٩٦٠م
ابن قيس الرقيات، عبيد الله بن قيس بن شريح - نحو ٨٥هـ
ديوان شعره، بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٥٨م.
ابن كثير القرشي، اسماعيل بن عمر - ٧٧٤هـ
البداية والنهاية، أربعة عشر جزءا، نشرته مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٥١/١٣٥٨هـ
ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب - ٢٠٤هـ
كتاب الأصنام، بتحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٤م
مالك بن أنس (الإمام) - ١٧٩هـ
الموطأ، نشره الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، جزءان، مطبعة عيسى

الحلبي، القاهرة، ١٣٧٠ هـ.
محسن الأمين، محسن بن عبد الكريم بن علي - ١٣٧١هـ
أعيان الشيعة، بيروت، ١٩٥٩م
مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري - ٢٦١هـ
الجامع الصحيح، نشره الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، خمسة أجزاء
مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٥٥/١٩٥٦م
ابن منظور، أبو الفضل، محمد بن مكرم بن علي - ٧١١هـ
لسان العرب، عشرون جزءا، بولاق، القاهرة، ١٣٠٠هـ
ابن النديم، محمد بن اسحاق بن محمد - ٤٣٨هـ
الفهرست، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٤٨هـ
نور الدين الحلبي، علي بن ابراهيم بن أحمد - ١٠٤٤هـ
السيرة الحلبية، جزءان، مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٤٩هـ
ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب - ٢١٣هـ
السيرة النبوية، أربعة أجزاء، بتحقيق الاساتذة مصطفى السقا، وابراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى الحلبي،

القاهرة، ١٩٣٦م.
اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي - ٧٦٨ هـ
مرآة الجنان وعبرة اليقظان، أربعة أجزاء، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٣٧ هـ.

ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي-٦٢٦هـ.
(١) معجم البلدان، عشرة أجزاء، نشره الخانجي، القاهرة، ١٩٠٦م
(٢) معجم الأدباء، المسمى إرشاد الأريب، عشرون جزءا نشره أحمد فريد رفاعي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٥/١٩٣٨م
اليغموري، أبو المحاسن، يوسف بن أحمد بن محمود - القرن السابع الهجري، نور القبس المختصر من المقتبس، في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، بتحقيق رودلف سلهايم، النشريات الاسلامية لجمعية المستشرقين الألمان، بيروت ١٩٦٤م.

ب - المخطوطات

الذهبي،. شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان - ٧٤٨ هـ
سير أعلام النبلاء

مخطوطة أحمد الثالث، استانبول، رقم ٢٩١٠
الجزء السابع، ترجمة الواقدي.

ابن عساكر، أبو القاسم، علي بن الحسن بن هبة الله - ٥٧١هـ
تاريخ مدينة دمشق
مخطوطة أحمد الثالث، استانبول، برقم ٢٨٨٧
الجزء الثاني، ترجمة الواقدي.

PAUL Broemmie, Commentar on Ibn Hisham's biography of Mohammad according to Abu Dharr's Manuscript Cairo 1911.

Leom Caetani, Annali Dell Islam, Millano, 1905.

Levi Dela Vida, Article «Sira» in Encyc. Of— Islam. 1925.

Joham Fueck, Muhammad Ibn Ishak— Frankfurt, Am 1955.

Alfred Guillaume, Ibn Ishak's Life of Mohammad. Oxford

وهي الترجمة الانجليزية لسيرة ابن هشام.

J. Worowitx, the Early works of the campaigns, of Mohammad and its Authors.. 1914.

وقد ترجم هذا الكتاب د. حسين نصار بعنوان: كتب المغازي الأولى ومؤلفوها:

Massden Jones Articles Published in P. O. S. A. S. Rol. xIx (2) 1957, xxII (1) 1959.

Theodor Noeldecke, Geschichee Dess Korans, Leibxig 1919— 1938.

Alfred mon Kremer Wokidi's History of 1855. Muhammad's — Campaigns, Calcutta,

J. Wellhausnen Mohammad in Mekka, Cambridg 1960.

= = = = —Medina, 1961.

J.Pfannmuller, Handwoertenbuch des Islams 1925.

أثر الرسالة الإسلامية
في
الحضارة الإنسانية

للأستاذ الدكتور عمر فروخ
« لبنان »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

أثر الرسالة الاسلامية

في الحضارة الانسانية

« أثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية » موضوع جليل مفيد، ولكنه موضوع واسع جدا. ان الحضارة نمط من أنماط المعيشة الإنسانية. وأنماط المعيشة الإنسانية كثيرة جدا. وكل هذه الانماط تمثل حضارات لا يزال معظمها قائما الى اليوم، في أقطار العالم التي نسميها متمدينة متقدمة والتي هي متوحشة (كما يقول ابن خلدون: أي بعيدة عن الحضر) متخلفة. وكل حضارة من هذه الحضارات - على اختلاف أنواعها وتعدد أشكالها - تنطوي على وجوه كثيرة من النشاط الانساني في الدين واللغة والعلم والفن والادب ثم في السياسة والاقتصاد والتعليم والطعام واللباس والسلوك وما الى ذلك. ولأضرب على ذلك مثلا واحدا:

قال لي أستاذي يوسف هل (١٨٧٥ - ١٩٥٠م)، رحمه الله: ان لوثر لما وضع أسس الاصلاح الديني للنصرانية - ما يعرف بالحركة البرتستانتية - كان - بلا ريب - يضع أمامه نسخة من القرآن الكريم إن القرآن الكريم كان قد نقل إلى اللغة اللاتينية في النصف الاول من القرن الثاني عشر للميلاد:

نقله روبرت أوف تشستر الانكليزي وهو مانوس دالماتا الفرنجي. ولا ريب في ان هذه النسخة كانت موجودة ومعروفة في أيام لوثر، فانها قد نشرت في سنة ١٥٤٣م، قبل وفاة لوثر بثلاث سنوات واذا نحن درسنا خصائص البروتستانتية من رفض السلطة البابوية، والغاء الرهبنة، واقرار الطلاق، بالاضافة الى التخلي عن الرموز كالصور والصلبان وعن الثياب الخاصة بالاساقفة والقسس مما كان معروفا في الديانات الوثنية والمجوسية واليهودية والنصرانية، ومما جاء الاسلام بإبطاله، لم تشك لحظة في ان هذه الوجوه من الاصلاح قد جاءت من الاسلام، والا فمن أين يجب أن تكون قد اتت؟ ثم ان النصرانية التي ما زالت تعادي الاسلام قرونا كثيرة لأسباب مختلفة وتتهم الاسلام بالقسوة من أجل الطلاق، عادت تلك النصرانية نفسها، في جميع أقطارها، وفي روما حاضرة الفاتيكان نفسها، الى إجازة الطلاق.

فاذا كان الاصلاح الديني في أوروبة المسيحية أثراً من آثار الرسالة الاسلامية، فكم يجب أن يكون اتساع البحث الذي يتناول أثر الاسلام في القارات الخمس وعند جميع الامم وفي وجوه الحياة كلها؟ من أجل ذلك أحببت ان أقصر

بحثي على أثر الاسلام في الحركة العلمية وحدها. وكذلك رأيت من المفيد ان استعرض آراء نفر من المسلمين حاولوا تبيان أثر الإسلام في العلم وفي الحياة الانسانية.

* * * * *

أما الإسلام وحثه للمسلمين على العلم في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف فلن أتكلم فيه لانه لبس من الموضوع المطلوب،وكذلك لن أتناول بالكلام تفاصيل المعارف، فان حديث ذلك يطول. ولكنني سأقف على المعالم التي بدل بها الإسلام حياة البشر تبديلا لا سبيل الى انكاره او تجاهله لأنه ظاهر للعيان معروف في التاريخ.

والعرب كانوا حملة الاسلام يوم جاءتهم الرسالة الاسلامية فانتشروا في العالم ونشروا في العالم حضارة لا عهد للعالم بها من قبل. كان العرب من قبل في شبه جزيرتهم أهل قوة وعصبية، وكان لهم أدب زاهر وعلم بالفلك والطب وتتبع الاثر باهر، ولكن ذلك كله لم يخرج بهم من جزيرتهم ولم ينشىء لهم فيها حضارة مادية نافعة، بل حملتهم قوتهم وعصبيتهم على ان يتقاتلوا او على ان يغزو بغضهم بعضا. فلما جاء الاسلام جمع شملهم وحزم امرهم فبدل نفوسهم فخرجوا من شبه جزيرتهم يحملون الاسلام الى

الناس والحضارة الى الامم. ومن أغرب ما نعالج في تعليل التاريخ - او فلسفة التاريخ، اذا شئت - تفسير تلك الظاهرة التاريخية: امة قليلة العَدَد والعُدَد لم تعرف حضارة مادية مستقرة ولا مستبحرة، نازلت أمتين ذواتي عدد وعدد وتاريخ طويل في العلم والفن والحرب فتغلبت عليهما وابدعت حضارة عفت على حضارتيهما. وأعجب من ذلك في التاريخ ان الرومان بنوا امبرطوريتهم في الف عام - وكانوا امة على علم ونظام وقوة في الحرب وبراعة في العمران - ثم عصفت بهم ريح البرابرة الجرمان فزال كل أثر للامبرطورية الرومانية في أقل من قرن واحد. اما العرب الذين حملوا الاسلام فقد فتحوا من العالم أرضا أوسع من الامبرطورية التي بناها الرومان - فتحوا من كاشغر على حدود الصين الى شواطىء البحر الاخضر او البحر المحيط المعروف عندنا اليوم بالمحيط الاطلسي او الاطلانطيكي.

ثم زالت الدولة العربية والخلافة الاسلامية من عالم السياسة، ولكن بقي الاسلام ولغة الاسلام ونظام الاسلام وحضارة الاسلام وثقافة الاسلام وروح الاسلام في هذا

العالم الفسيح منذ اربعة عشر قرنا. وأعجب من ذلك كله ان أقواما لم يدخلوا في الاسلام قد تكلموا لغة الاسلام او تأثروا بلغة الإسلام في استخدام الحروف العربية واستعمال الالفاظ العربية واتباع النظم الاسلامية. فكيف اتفق هذا الاثر البالغ في تاريخ الحضارة الانسانية؟

جاء الاسلام فرأى في العالم نظما وقوانين غير معقولة ولا محمودة فدعا إلى إبطالها فبطل اكثرها بعد زمن قصير او زمن طويل.

فمن الامور التي دعا الاسلام الى ابطالها:

- الوثنية
- الرق
- العصبية او ما يسمى في العصر الحاضر بالعنصرية.
- ثم الفسق والقمار والخمر والخنزير وغيرها.

واذا أنا تكلمت على هذه بايجاز فلن أتكلم عليها من الناحية الدينية او الفقهية، بل من الناحية العلمية الاجتماعية، من حيث أثرها في الحضارة الانسانية. وسأؤكد ان الدعوات المستمرة بهذا الشأن انما كانت بأثر الاسلام وأثر الرسالة التي جاء بها الاسلام الى الناس أجمعين.

ومع ان نفرا كثيرين من المسلمين - ومن زعماء المسلمين ايضا - لا يزالون يعملون بما دعا الإسلام منذ اربعة عشر

قرنا الى ابطاله، فان الاسلام لا يحمل وزر هؤلاء، فان من القواعد التي جاء بها الاسلام قول الله تعالى: (١٧ : سورة الاسراء): - «من اهتدى فانما يهتدي لنفسه، ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى. وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا».

ثم ورد هذا المعنى في عدد آخر من الآيات الكريمة (٦ : ٤٦ سورة الانعام، ٣٥ : ١٨ سورة فاطر، ٣٩ : ٧ سورة الزمر، ٥٣ : ٣٨ سورة النجم).

★ ★ ★

وكما ان الاسلام قد دعا الى ابطال المساوئ فانه قد دعا أيضا الى المحاسن، فمما له صلة بموضوعنا في اطاره من الحضارة الانسانية:

- التوحيد
- الكرامة الانسانية
- العدل
- السلم
- العلم

رغب الاسلام في إبطال الوثنية لانها لا تليق بالعقل الانساني:

ليس من المعقول ولا من الصحيح ان يعبد الانسان الحجر او الشجر او التمساح او الثور او البقر. ولكن

أقواما فعلوا ذلك، ولا يزال عدد من هذه الاقوام يفعل ما كان يفعله أسلافهم الاقدمون. ان الاعتقاد «بالله» في الاسلام والتعبد له بالقلب واللسان والجوارح (أعضاء البدن) يرجع الى الشعور بان الله القوي الحكيم القدير هو واهب الوجود ومسير الامور ومثبت النظام الاجتماعي الذي به عمران العالم وصلاحه.

وليس في التوحيد خرافات من الصور والرموز ونسبة اعمال الى الله لا تليق به نسبة أعمال الى البشر ليست من خصائصهم، بل هي راجعة الى الله وحده.

ولما جاءت الرسالة الاسلامية كان العالم غريقا في الأوحال الوثنية. من أجل ذلك قامت اعمال الاصلاح في الاديان. وقد كنا أشرنا الى الحركة البروتستانتية في مطلع هذا المقال. غير ان الحركة البروتستانتية لم تكن الحركة الاصلاحية الوحيدة في النصرانية وفي اليهودية. ولكن يكفي هنا ان نشير الى ان الاسلام كان الذي حث المصلحين النصارى واليهود على العمل في ديانتهم بالرجوع الى العقل، والا فكيف يقبل العاقل ان يبيع باباوات رومة بقاعا من السماء للاغنياء فينجو أولئك الاغنياء - ولو كانوا في الحياة الدنيا اشرارا - من عذاب الآخرة بينما

الصالحون من الفقراء لا يمكن أن يجدوا لهم مكانا في نعيم الآخرة لانهم لم يستطيعوا ان يدفعوا ثمنه بمال كسبوه في حياتهم الدنيا بطرق شريفة او بطرق غير شريفة؟ وكيف يمكن ان يقبل اليهودي العاقل ما جاء في التوراةالموجودة بأيدي الناس من ان الرب الاله صنع لآدم وامرأنه أقمصة من جلد والبسهما (تكوين ٣ : ٢٠). من أجل هذه الآية ومثيلاتها عمد نفر من المفسرين اليهود الى تفسير توراتهم تفسيرا رمزيا. وكان في ذلك ايضا شيء من الاصلاح الديني. وكان هذا ايضا من أثر الرسالة الاسلامية.

ولما جاء الاسلام كان الرق في جميع الامم معروفا ومألوفا، عند غير العرب وعند العرب ايضا.

كان الرق في العالم القديم عند الوثنيين وعند اليهود وفي النصرانية ثم في البيئة الجرمانية المتخلفة والبيئتين اليونانية والرومانية المتقدمتين نظاما اجتماعيا مقبولا لا يثير تساؤلا: بعض الناس يولد عبدا، وبعضهم يستعبد في الحرب او يشترى من السوق، وبعضهم يعجز عن وفاء دين عليه فيستعبده الدائن بشرع العالم القديم. وربما افتقر أب فباع بعض أولاده عبيدا أرقاء.

وجاء الاسلام فحرم الاسترقاق ودعا الى «تحرير الرقاب» (تحرير العبيد الارقاء) ومع انه قد ظل في

المسلمين من يجد وجها من الحيلة في اتخاذ الرقيق، فان قيمة الرقيق أصبحت كبيرة ومعاملته أضحت حسنة ومكانته أعلى مما ينتظر في مثل هذه الاحوال. ثم اننا اذا علمنا ان العبيد نالوا في الاسلام مراتب سامية، اذ اصبح كافور الاخشيدي مثـلا ملكا في مصر، ثم أصبح المماليك سلاطين في الشام ومصر، أدركنا ان منزلة الارقاء في الحياة عند المسلمين قد اختلفت كثيرا مما كان يعرف في غير العالم الاسلامي. ولن أحدثك عن الجارية التي بيعت بمليون دينار لان مثل هذه الانثى ليست جارية رقيقة مستعبدة بالمعنى الذي عرفه العالم القديم والعالم الحديث الى القرن التاسع عشر.

ونشأ في العالم الغربي حركات لتحرير العبيـد سأشير الى أشهرها: الحرب الاهلية في الولايات المتحدة. أعلن ابراهام لنكولن إلغاء الرق (عام ١٨٥٩م) فثارت الحرب الاهليـة، عام ١٨٦١م، ودامت خمسة أعوام انتهت بانتصار الدعاة الى تحرير الرقيق. لم يكن ذلك بحافز من التوراة واليهودية ولا بدافع من الانجيل والنصرانية. ان الاسترقاق، كان قاعدة من قواعد الحياة المألوفة في البيئة اليهودية وفي البيئة المسيحية. فاذا لم يكن ابراهام لنكولن وانصاره في

حركة تحرير العبيد قد تأثروا بالتوراة او بالانجيل - اي باليهودية او بالنصرانية - فلا بد من ان يكون تأثرهم قد جاء من الاسلام لان الاسلام هو الذي جاء بالدعوة الى « فك الرقاب » من أسر الرق.

وربما اعترض ناقد فقال: ان ابراهام لنكولن لا نعلم عنه انه عرف ذلك من الاسلام، والمفروض انه جاء بذلك من دافع في انسانيته ومنطق من عقله. فنحن نقول حينئذ: وهذا ايضا من فضل الاسلام. اذا كان الاسلام قد جاء قبل اربعة عشر قرنا بقاعدة بنيت على الدافع الانساني والمنطق العقلي ثم طبقها رجل عاقل بعد ثلاثة عشر قرنا، فمعنى ذلك ان الاسلام لم يضع هذه القاعدة لزمانه ومكانه، ولكنه وضعها لكل زمان ومكان: انه وضعها للإنسان. واذا كانت قواعد حركة من الحركات تعمل من غير أن يعرف الذين يعملون بها انها موجودة، فتلك فضيلة جديدة لتلك القاعدة العاقلة الحكيمة.

وكذلك كانت العصبية قاعدة اجتماعية مألوفة في البيئات القديمة كلها قبل الاسلام. وفي شبه جزيرة العرب ايضا.

كل أمة كانت تنظر الى نفسها على أنها من طينة غير

طينة سائر الأمم. إن اسلافنا قبل الاسلام قسموا الناس قسمين: عربا (يفصحون فيفهمون اذا تكلموا) وعجما (لا يفهم العرب عنهم ما يقولون). وكذلك اليهود قسموا الناس ثلاثة أقسام: دعوا أنفسهم اليهود العبرانيين (لأنهم من نسل عبراني)، ودعوا الداخلين من غير نسلهم في اليهودية «الصابئين المتهودين» ودعوا جميع من هم غير ذلك أميين (أي من أمم غير أمتهم). واليونان قسموا البشر يونانا وبربراً، والرومان جعلوا الناس أيضا رومانيين وبربراً.، واذا بلغ أهل شعب الى أن يصلوا في الحضارة والعلم الى مستوى الرومان سموهم مواطنين.

ولقد عاش اليهود على هذه العصبية الجنسية الى اليوم، وهم يطبقون ذلك اليوم فيما يسمونه اسرائيل. فاليهودي الغربي من الدرجة الاولى. واليهودي الشرقي من درجة أدنى منها. أما العرب فالله أعلم بحالهم هنالك. وكذلك النصارى عاشوا الى اليوم على العصبية الجنسية أو العنصرية في جنوب أفريقية وفي زيبابوي روديسيا. وما عهد هتلر منا ببعيد. والسود والبيض في الولايات المتحدة متساوون في النصوص المكتوبة في القوانين، ولكن الأبيض في الحياة الاجتماعية العملية فوق الاسود في كل شيء.

ورأي اليهود والنصارى في الرق يرجع الى قول في التوراة الموجودة بأيديهم هو أن الله جعل أولاد حام الكنعانيين عبيداً لأولاد سام، زعموا أن نوحا غضب على ابنه فدعا عليه بأن يجعل الله أولاده عبيدا. وكان من أثر دعوة نوح على ابنه حام أن أصبح أولاد حام ايضا سود البشرة. هذه الخرافة جعلت نفرا من علماء العرب منهم الجاحظ ومنهم ابن خلدون يتهكمون بهذه البدائية القاصرة والدالة على جهل واضعها بالغفلة عن أثر المناخ وعوامل الطبيعة من حر وبرد في ألوان البشر.

أما الاسلام فلم ينظر الى البشر من حيث لونهم أو من حيث نسبهم أو من حيث قطرهم بل من حيث قيمتهم الذاتية ومن حيث عملهم. ففي القرآن الكريم (٤٩ : ١٣ سورة الحجرات): «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا. ان أكرمكم عند الله أتقاكم. ان الله عليم خبير».

وأما في الحديث فالكلام في ذلك متسع جدا. من ذلك مثلا قوله صلى الله عليه وسلم: «ليس منّا من دعا الى عصبية». والاسلام لم يجعل تلك القواعد نظريات، بل سلكها في الحياة فنحن نجد في كرام صحابة رسول الله: طلحة العربي

وسلمان الفارسي، وصهيبا الرومي، وبلالا الحبشي. ونجد في القادة العظام عمرو بن العاص العربي والأفشين التركي وعبدالله ابن طاهر الفارسي وصلاح الدين الكردي والظاهر بيبرس الجركسي. وفي الملوك العظام نجد المأمون وامه فارسية ثم المعتصم وامه تركية، كما نجد قبلها عبد الرحمن الداخل وكانت امه بربرية، ثم جاء بعده الخليفة الحكم المستنصر وكانت امه بشكنسية (من اهل الشمال من الاندلس).

فالإسلام هو الذي ساعد على بناء حضارة واسعة شاملة تستفيد من جميع جهود بني الانسان أو من جهود جميع بني الاسلام.

قامت الحضارة التي أرسى الاسلام قواعدها على أربعة مدارك: على الكرامة الانسانية، وعلى العدل، وعلى السلم، وعلى العلم وعلى العمل.

١ - في الكرامة الانسانية:

ان الاسلام لم يعرف الطبقات الاجتماعية، أو هو عرفها عند الامم الاجنبية ثم دعا الى هجرها:

- ان اليهودية اعتقدت ان شعوبا هي في العبيد الارقاء منذ الولادة ومن الجنس أيضا. واما النصرانية فانها تعتقد ان الانسان يولد نجسا مذنبا لما لحقه من الخطيئة المميتة -

خطيئة آدم، فيما زعموا، لما اتصل بحواء - ثم هم يعتقدون ان المسيح جاء ليحمل عن البشر خطيئاتهم. واما المجوس في الهند فلا يزالون الى اليوم يعتقدون ان البشر طبقات في أسفلها المنبوذون، فاذا مسّ أحد هؤلاء المنبوذين هنديا ممن يعتقدون في أنفسهم الشرف لتحدرهم من البراهمة او من الفرسان والطهارة، وجب على هذا المعتقد شرف نفسه ان يقتل ذلك المنبوذ ثم يتطهر مما كان قد علق به من الدنس لما مسه أخوه في الدين والوطن.

أما الاسلام فأعلن ان الانسان يولد على الفطرة الزكية الطاهرة. ثم الانسان يولد كريما مستحقا للاحترام. ففي القرآن الكريم في هذا النطاق قوله تعالى: (١٧ : ٧٠ سورة الاسراء): «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا».

لا يستطيع أحد ان ينكر ان العصبية او ما يسمى في أيامنا «التميز العنصري» سبب من الاسباب المسؤولة عن الحياة الانسانية المضطربة في الشرق والغرب، كما لا يستطيع ان ينكر ان هذا الاضطراب مسؤول عن بقاء جانب كثير من العالم الإنساني في حال من التخلف المعيب. إن النظرة

الإنسانية الشاملة التي جاء بها الاسلام ساعدت على استقرار الامن. وفي ظل الامن وحده ترقى الحضارة، ولا يمكن ان تنشأ حضارة - كما لا يمكن ان تستمر حضارة اذا كانت قد نشأت من قبل - الا اذا كان في البلاد أمن. واهل لبنان اليوم. والذين يزورون لبنان اليوم. وكانوا قد زاروه من قبل، يدركون قيمة الامن في نشأة الحضارات وفي حياتها. ان الحياة اليوم في لبنان تتقهقر نحو البداوة باضطراب الامن فيه. والمسلمون في لبنان وفي كثير من البلاد العربية، مسؤولون عما يجري في لبنان، ويخشى أن يحدث في غير لبنان ما يحدث في لبنان. وسبب ذلك أن جانبا كبيرا من العرب قد نسي أنه جزء من الامة الإسلامية، فالنزاع دائر في البلاد، في المشرق والمغرب، وفي قلب عدد من البلاد نفسها. ان الذي جمعه الإسلام بالتوحيد وبالاعتصام بحبل الله قد فرقه انتساب جماعات من العرب الى آراء سياسية واجتماعية واقتصادية ليست من الاسلام ولا من العقل ولا من السياسة ولا من الاجتماع ولا من الاقتصاد.

هذا يدخل في باب الكرامة الانسانية التي جاء بها الإسلام. والعرب الذين يعملون بدوافع عصبية قد نسوا

هذه القاعدة التي تقوم عليها الكرامة الانسانية، أو تقوم عليها الحياة الانسانية. ان زعماء الاحزاب اليوم - في كل مكان في الشرق وفي الغرب - يصدرون عن أن قومهم هم الذين ينتسبون الى حزبهم، ولو كانوا لهم من قبل أعداء. هذا موضوع طويل أخشى أن ينتقل البحث فيه من العلم المنطقي الى السياسات المحلية. من أجل ذلك سأنتقل الى قاعدة تالية من قواعد الإسلام في بناء الحضارة الإنسانية.

(٢) العدل:

العدل الاسلامي هو العنصر الثاني الذي نشأت به الحضارة في بلاد الاسلام وفي البلاد التي حكمها الاسلام. هذا العدل الاسلامي مختلف مما يسمى «عدلا» في كثير من البلاد الاجنبية وفي البلاد الاسلامية نفسها. ان عددا من الشعوب وعددا من الجماعات يعتقدان أن العدل يجب ان يكون للقريب والنسيب والحبيب. ان هذا العدل تجارة. أما العدل الاسلامي فانه مبذول لجميع الناس من صديق أو عدو ومن قريب أو غريب، ذلك لان العدل يدل على القيمة الذاتية في نفس العادل عينه، تلك القيمة التي تمكنه من أن يسير في الحياة سيرا صحيحا صالحا نافعا. وان الاعتقاد

بأنك انت وحدك على حق وان كل انسان آخر مخطىء يدلّ على نقص فيك أنت ثم يمنعك من أن ترى الأمور كما هي.

لقد علمنا الاسلام هذا العدل في آيات كثيرة من آي القرآن الكريم قال الله تعالى (٤ : ٥٨ سورة النساء): «ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل».. ان الله سبحانه وتعالى لم يقل «واذا حكمتم بين المسلمين «ولا» واذا حكمتم بين الأقربين»، بل قال عزّ من قائل: «واذا حكمتم بين الناس»، أي بين كل فريقين من الناس. وهذا التفسير واضح من الآية الكريمة التالية (٥ : ٨ سورة المائدة).

«يا أيها الذين آمنوا، كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط. ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا، هو أقرب للتقوى. واتقوا الله، ان الله خبير بما تعملون.».

في هذا المدرك للعدل الانساني لا أريد أن أناقش الموضوع من ناحيته النظرية، بل من جانبه العملي. ان قصة اسرائيل مع العالم العربي خاصة ومع العالم الاسلامي عامة معروفة. ولعل خطأنا الأول فيما وصلنا اليه أننا لم نكن عادلين في النظر الى أنفسنا نحن. نحن كنا نسميها «دولة مزعومة ثم نخفي الحقائق المتعلقة بنا وبها عن أعيننا

وأعين الذين ولانا الله أمرهم وجعلنا مسؤولين لديه عنهم. ولم نكتف بكتمان أخبارها، بل كنا دائما نصغر من شأنها ونهون من أمرها ونغمض بأيدينا عيوننا وعيون قومنا عن شرها. وبين ليلة وضحاها أصبحت هي حيث هي وأصبحنا نحن حيث نحن.

بلغت الحضارة الاسلامية ذروة من ذرواتها في أيام الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز، وهو معروف في تاريخنا بأنه «الامام العادل». وفي أيام عمر بن عبد العزيز كان المسلم يحمل زكاته في كفّه ويطوف بها بلاد الدولة الاسلامية فلا يرى من يستحقّ أخذها لأن الازدهار الاقتصادي كان عاما. لقد كان ذلك في أيام عمر بن عبد العزيز لأنه كان عادلا في قومه وعادلا في غير قومه. ومما يجب علينا نحن اليوم أن نتعلمه في الحياة السياسية سلوك عمر بن عبد العزيز.

كان بنو أمية قد أخذوا الخلافة من بني هاشم في حديث طويل يعرفه المسلمون وغير المسلمين. وكان الخلفاء الأولون من بني أمية ضيّقي الأفق في هذا الشأن: كانوا في خطبة صلاة الجمعة يسبون بني هاشم (والسّب هنا كلام في الآراء السياسية – مما نعرفه اليوم من الأخذ والرد بين الأحزاب

السياسية: بين الرأسمالية والاشتراكية، بين الديمقراطية والاستبداد وما أشبه ذلك) فلما جاء عمر بن عبد العزيز نظر الى الخلافة بعين العقل والحق، ولم يرض ان تكون المنابر أماكن للسب والشتم، ولا رأى من العقل أن يغمض الناس عيونهم عن حقائق الحياة، فأمر بابطال اللعن - أو السب أو الشتم، وكلها هنا بمعنى - وبأن يقرأ الخطباء بعد الخطبة الثانية في صلاة الجمعة قوله تعالى (١٦ : ٩٠ سورة النحل):

«ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكّرون».

وليس مستغربا أن يقال في الحكم السائرة والقواعد الدائرة على الألسن: «العدل أساس الملك». ان العدل أساس الحياة. ولولا العدل - وضع الامور مواضعها وأداء الامانات الى أهلها - أو كما يقال في اللغة السياسية الحاضرة: وضع الرجل الكفء في المكان المناسب - لفسدت الحضارة وانقلب البشر كلهم الى همجية مطلقة.

هذه القاعدة الحكيمة التي جاء بها الاسلام أقرت الحضارات في العالم كله وحينما يذهب احدنا الى البلاد التي

نسميها متقدمة فاننا نجد هذا العدل الذي تعلموه، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، من الاسلام. ودليل ذلك - في الاعمّ الأغلب - انك اذا تقدمت بطلب ما في تلك البلاد، فان هذا الطلب ينتقل في الدوائر من تلقاء نفسه، بقطع النظر عن صاحب الطلب ومكانته.

نحن نعلم أيضا أنه قد يحدث في البلاد الغربية الراقية شذوذ عن تلك القاعدة من العدل، ولكن العدل في ذلك - أي سير المعاملات الحكومية من تلقاء نفسها - ولكن هذا الشاذ هناك هو - مع الأسف - القاعدة عندنا.

(٣) السلم:

والسلم ايضا من أسس الحضارة. ولا شك في ان الامم كلها منذ أقدم الازمنة قد تقلبت في الحرب والسلم، ولكن العالم لم يعرف دينا قبل الاسلام وضع للحرب وللسلم قواعد انسانية. والاسلام وحده هو الذي عرف السلم المسلح: وهو الاستعداد للحرب الذي يرهب الخصوم فلا يثيرون على الناس حروب اعتداء. هذه السياسة التي يقال انها جديدة في عالمنا قد جاءت مع الاسلام. ففي مكان واحد من القرآن الكريم، في سورة الأنفال (٨: ٥٦ - ٦٢) بسط

لفلسفة الحرب والسلم ولسياستها ثم للعنصر الانساني الذي جاء به الاسلام. ويحسن هنا أن نورد الآيات الخمس ففيها الحلف ونقض الحلف واعلان الحرب وعقد السلم وخيانة العدو ومطاولته في خيانته الى جانب التلويح بالسلم قبل الدخول فيه. كل هذا من علم السياسة الدولية ومن اسس السياسة التي تناجز الدول القوية بها أرباب الدول المستضعفة. هذه السياسة الحكيمة أخذها الأغيار من الاسلام ثم أهملنا نحن العمل بها. قال الله تعالى:

«الذين عاهدتم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون، فاما تثقفنّهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلّهم يذّكّرون، وإمّا تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء، ان الله لا يحب الخائنين، ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا، انهم لا يعجزون، وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم. وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ اليكم وانتم لا تظلمون، وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله، انه هو السميع العليم. وان يريدوا أن يخدعوك فانّ حسبك الله، هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين».

ثم تأتي ثلاث عشرة آية، الى آخر سورة الانفال، فيها

قواعد تتعلق بالمسلمين مما يمكن أن يسمى في أيامنا بأمن الجبهة الداخلية. ولكني اكتفيت هنا بايراد الآيات الخمس المذكوره فقط. ان هذه الآيات الخمس تضع لنا القواعد التي تمكننا - اذا نحن فهمناها وعملنا بها - من ان نساوي بها خصومنا في الشرق والغرب وفي قلب العالم الاسلامي أيضا. ومن عجب أن خصومنا في الشرق والغرب وفي قلب العالم الاسلامي أيضا. ومن عجب أن خصومنا اليهود والنصارى والمجوس والملحدين يستمعون الى القرآن الذي نزل الينا وينصتون له ويفهمونه ويدركون جواهره ثم يطبقونه، فيما يتعلّق بمصالحهم علينا، بينما نحن، وأقصد كبراءنا من القرّاء للقرآن في المجالس العامة ومن غيرهم أيضا قد علّموا عوام ناسنا أن يصيحوا عقب كل آية يرفع قارئهم بها صوته بأصوات يصيحون بمثلها اذا هم استمعوا الى مغنّية من المغنيّات أو الى مشعبذ من المغنين. فعلى الذين حمّلوا القرآن أن يدركوا أنهم حمّلوا القرآن نعمة من الله عليهم ورسالة الى الناس لا تجارة بآيات الله. وما أحسن ذلك القارىء الذي يرتل القرآن الكريم على مهل فتصغي الى قراءته الآذان وتخشع لها القلوب وتنتفع بها الأفهام.

(٤) العلم:

والعلم من دعائم الحضارة ثم هو زينة لها أيضا. لما ظهر الاسلام وجاء بالعلم ورفع مكانة العلماء، كانت أوروبة كلها والعالم المعروف يومذاك في ظلام دامس من الجهل والتخلف. وبعد قرنين من الزمن كانت اللغة العربية والأدب العربي والدولة الاسلامية، كما كان العلم في الاسلام والفن والصناعة والتجارة والبناء وكل ما يمت الى الحضارة بسبب قريب أو بعيد في الذروة. وقد كانت أوروبة في ذلك الحين ومن قبله ومن بعده في العصور التي سماها المؤرخون الاوربيون أنفسهم «العصور المظلمة». ومن أول دلائل الحياة الثقافية في اوروبة أن الامبراطور شارلمان الذي توفي عام ٨١٤ للميلاد - سنة ٢٠٠ للهجرة - كان قد أنشأ في قصره مدرسة لتعليم أبناء الامراء مبادىء القراءة والكتابة.

وظلت أوروبة على مثل ذلك حتى جاءت الحروب الصليبية ولم يكن لهؤلاء الصليبيين الاوروبيين، من فرنجة وايطاليين وألمان وانكليز - ولا نتكلم على الدنمرك وأسوج ونروج وعلى الصقالبة الروس في شرقي أوروبة - الا فضيلة القوة البدنية في القتال، كما قال اسامة بن منقذ.

وانتهت غارات الافرنج على العالم الاسلامي - أو الحروب الصليبيـــة، كما يسميهـــا المؤرخون الغربيون بانتصارين للاسلام: بانتصار عسكري في ميادين القتال ثم بانتصار ثقافي في ميدان الحياة الانسانية. لقد رجع هؤلاء الفرنجة من ميادين القتال بثروات ثقافية وحضارية لا تقدر بثمن. أخذوا تلك الاشياء الثقافية والحضارية بأسمائها: فهم كلهم - في جميع لغاتهم - يقولون: سكر، الجبر، صوفا (من العربيـة: صفّة)، داماسك (من لفظة: دمشق لنوع من النسيج)، شراب (ويلفظونه: سيروب، لأن اللغة اللاتينية التي استعارت الألفاظ من المسلمين لم يكن فيها شين)، ليمون (ليمون)، الغول (النجم معروف)، كيمياء (ويقولون ألشيمى، الكمي، شيمى، كمستري)، ومئات أخرى من الكلمات التي أخذوها لما أخذوا العلوم والأدوات المسماة بها. كما أخذنا نحن منهم في عصرنا الحاضر: تلفون، راديو، نيلون، وأخذنا معها الأسماء التي كانوا هم قد سموها بها.

أما حديث العلم عامة فسنقتصر منه على جمل فيها مقارنة بين المدرك القديم فيها والمدرك الاسلامي الجديد، وسنقتصر على الاشارة، لأن كل فرع من فروع العلم يحتاج الى كتاب:

- كان اليونان - وهم أهل العلم في زمانهم - كما كانت الامم الاخرى - يعتقدون كلهم أن النجوم تعرف الغيب فيلجأ أولئك الناس اليها في استطلاع الغيب، وكان اليونان خاصة يعتقدون أن للنجوم نفوسا وأرواحا وان النجوم الكبرى، وهي التي تدل عندهم على الغيب، مساكن للآلهة.

وجاء الاسلام فحرم التنجيم، اذ لا يعلم الغيب الا الله. ثم جاء في القرآن الكريم ان هذه النجوم أجسام مسيرة تدل على السنين والشهور وتنتقل في أفلاكها بحسبان مقدر، كل ذلك لنتعلم منها عدد السنين والحساب. فانشأ المسلمون المراصد وقاموا بالارصاد ونظموا الجداول.

وأخذ الغربيون ذلك كله من المسلمين وأضافوه الى ثقافتهم وخدموا به الحضارة، كما كان أسلافنا قد خدموا الحضارة.

ولم يكن للاتينيين رموز يدوّنون بها الارقام، بل كانوا يكتبون الأرقام كتابة أو يرمزون اليها بخطوط أو بأحرف. وكل ذلك لم يكن يساعد على تطور العلوم الرياضية، فلا يساعد على تدوين الاعداد الكبيرة ولا يمكّن من بناء المعادلات.

ولما جاء الاسلام جمع عبقريات الأمم ووضع قاعدة

للثقافة والحضارة في القول المأثور: الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها التقطها. ووجد محمد بن موسى الخوارزمي عند الهنود رموزا للارقام مختلفة من الرموز للأحرف. ولكن الهنود لم يكونوا يستخدمون هذه الرموز في تدوين الأعداد ولا في حل المسائل. ومع أن الهنود كانوا مجوسا فان محمد ابن موسى الخوارزمي لم يتحوّب من ان يأخذ عنهم وجها من وجوه العلم، ما دام الاسلام قد قال بأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث يجدها. وبفضل الخوارزمي الذي تناول الارقام من الهنود وطوّرها واستخدمها في الوجوه التي نستخدمها نحن فيها الآن أصبح بمقدورنا أن ندون الأعداد الكبيرة، وان نبني المعادلات الطوال ونحلّ المسائل المعقّدة. ولم ينس العالم فضلنا في ذلك، كما لم ننس نحن فضل الهنود فيه. نحن نسمي هذه الأرقام (الأرقام الهندية) لأننا تناولناها من الهنود. والعالم الغربي يسميها الارقام العربية لأنه تعلّم استخدامها منا.

وللاسلام فضل آخر في هذا السبيل، كما كان لذلك القول المأثور «الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها التقطها» نفع آخر.

لما فتح المسلمون أعينهم على العالم الخارجي وجدوا عند الأمم القديمة كتبا في كثير من أبواب العلم فأحبوا ان ينقلوا هذه الكتب الى اللغة العربية، مع أن هذه الكتب كان قد وضعها وثنيّون ومجوس ونصارى. ولم يكن المسلمون أيضا يعرفون اللغات القديمة من يونانية وهندية وسريانية فيستطيعوا قراءة تلك الكتب. فلجأوا الى نفر كانوا يعرفون هذه اللغات. ولقد اتفق ان يكون اولئك كلهم من المجوس أو الصابئة أو النصارى أو اليهود. فاستعان العرب المسلمون بأولئك النفر لينقلوا ذخائر العلم القديم الى لغة القرآن، فان العلم نعمة من الله. فاذا أراد انسان ان يسيء الى تلك النعمة فإنما يسيء بذلك الى نفسه. ولا يكون لهذه الإساءة أثر في تلك النعمة. لقد تعلّم المسلمون ذلك من رسول الله. لقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد أمر نفرا من أصحابه أن يتعلموا العبرية لان من تعلم لغة قوم أمن مكرهم.

وبعد أمد طويل استفاقت أوروبة من سباتها ثم احتاجت الى العلوم القديمة، وقد كان كثير من كتب تلك العلوم قد ضاع بعوامل الزمن المختلفة. فالتفت الاروبيون

الى الكتب التي كان العرب قد نقلوها عن القدماء فنقلوها هم الى لغاتهم، فاستمر موكب الحضارة الانسانية في سيره من الامم الموغلة في القدم الى اليونان الى المسلمين فالى النصارى من أهل أوروبة.

والاسلام علّم المسلمين الحرية في التفكير. وليس معنى الحرية هنا الانعتاق من قيود العقل أو من قيود الخلق. ولكن الحرية في التفكير هنا استقلال المفكر في اتجاهه المنطقي وفي القياس على الأحوال المحيطة به في مكانه وزمانه والمثل المشهور في ذلك هو مسألة تأبير النخل.

جاء نفر الى رسول الله وسألوه أيؤبرون نخلهم أو لا يؤبرونه؟ فقال لهم لا تؤبروه، اعتمادا على أن الله هو الذي يرسل الرياح التي تحمل اللقاح من شجرة النخيل الذكر الى شجرة النخيل الأنثى. وترك أولئك النفر في ذلك العام تأبير نخلهم - أي نقل اللقاح بأيديهم من الشجرة الذكر الى الشجرة الأنثى - فلم يعط نخلهم في ذلك العام كما كان يعطي في الأعوام السابقة. كان في ذلك العام عندهم في عذق النخل حبّات يانعة وحبّات غير يانعة. ورجعوا الى الرسول فيما اتفق لهم. فقال لهم: انتم أعلم بأمور دنياكم.

نحن لا نؤبر التفاح ولا الليمون ولا التين فالنحل والريح يتوليان ذلك عنا. ولكن للنخل حالا خاصة يحسن معها نقل غبار اللقاح من شجرة الى شجرة باليد وكان قول الرسول، صلى الله عليه وسلم، يتناول القاعدة العامة. فلما وجد الرسول أن بعض النخل الذي لم يؤبر لم يؤت أكله تاما قال للناس من أصحاب الاختصاص في الزراعة: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

ان هذا الحادث اليسير يكشف لنا عن اتجاه في العلم لم يكن معروفا من قبل. ان معرفة اللقاح بين النبات تعلّمه البشر من القرآن من قوله تعالى: «وأرسلنا الرياح لواقح» (١٥ : ٢٢ سورة الحجر)، ذلك لأن اليونان لم يعرفوا ذلك. واذا كان أحد العلماء القدماء قد خطر له ذلك، فانه لم يترك أثرا في الثقافة الانسانية وذلك راجع الى ان ارسطو وهو كبير المفكرين في الفلسفة القديمة وأعظم المفكرين أثرا في تاريخ العلم القديم، قد أنكر أن يكون في النبات ذكورة وأنوثة. فالذين قالوا بلقاح النبات تعلّموا من الاسلام ولم يعرفوه من مصدر آخر.

وفي علم الحياة أمر آخر عرفه العالم من الاسلام، هو تخلّق الجنين في الرحم. قال الله تعالى (٣٩ : ٦، سورة

الزمر):

« خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها. وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج، يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث. ذلكم الله ربكم له الملك، لا إله الا هو. فانى تصرفون؟ »

هذا أيضا شيء تعلمناه نحن من القرآن الكريم ثم تعلمه منا سائر الناس لانه لم يعرف حتى ذلك الحين الا من القرآن الكريم. إن هذا الجنين الذي يتقلب في الرحم خلقا من بعد خلق انه جنين حيّ يتطور فيمر في اطوار ثلاثة. تلك حقيقة من حقائق علم الحياة لم يكن من الممكن أن يعرفها البشر - في ذلك الحين - الا من الوحي الالهي الذي جاء بالرسالة الاسلامية. ودليلنا على ذلك أن اخوان الصفا وهم جماعة سرية نشأوا في البصرة في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) أرادوا ان يقيموا للبشر كلهم دينا على الفكر والاخلاق، فألفوا رسائل تطبع اليوم في أربعة أجزاء كبار جمعوا فيها ما كان معروفا في أيامهم من المعارف العلمية والفلسفية، وأكثر اهتمامهم، كما كانوا يقولون، كان بالعلم اليوناني. ان اخوان الصفا يذكرون في رسائلهم (٢: ٣٥٧ - ٣٥٩): وفي الشهر الثالث (لحمل الجنين) يصبح

التدبير (التأثير على الجنين) للمريخ. فاذا كمل الشهر الثالث، انتقل الجنين (في الشهر الرابع) الى تدبير الشمس - وهي رئيسة الكواكب وملكة الفلك وقلب العالم فتنفخ (في الجنين) روح الحياة وتسري فيه النفس الحيوانية ». ومعنى هذا عندهم ان النطفة حينما تستقر في الرحم تكون ميتة لا حياة فيها، ولا تبدأ الحياة في الجنين الا في الشهر الرابع. ومن هنا جاءت الخرافة الدائرة بين النساء من أن الجنين « يتحرك » في الشهر الرابع. والحقيقة أن الجنين يتحرك منذ أول الحمل (لأنه كائن حي)، ولكن حركته تكون آنذاك خفيفة لا تشعر بها المرأة الحامل. وبما ان رسائل اخوان الصفا قد جمعت المعارف العلمية عند اليونان وعند غير اليونان فمعنى ذلك أن الامم القديمة لم تكن تعلم أن الجنين يكون حيا منذ اللحظة الاولى لسقوط النطفة في الرحم. ولو عرفت الأمم القديمة ذلك لذكره اخوان الصفا في رسائلهم فهذا اذن شيء آخر تعلّمه الاطباء من الاسلام أو انتقل اليهم من أثر الاسلام.

وعلى كل حال، يحسن ألا يسبق الى الذهن أنني هنا أقيم موازنة بين الاسلام والعلوم عند الامم القديمة. لا قدّر الله ذلك. هذه من تحصيل البشر العاجزين وذلك وحي من الله

العزيز القدير. ولكني قصدت أنَّ القرآن جاء وكل ما فيه بما فيه من مفردات العلوم الطبيعية التي يظن معظم الناس أنها من نتاج العقل- الانساني الحديث- صحيح صادق. ثم قصدت أيضا أن أقول ان الناس، قديما وحديثا، من المسلمين ومن غير المسلمين، قد تعلّموا من الوحي الآلهي الذي نزل على محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وقد يسأل بعض الناس فيقول: اذا كان هذا الوحي كله - سواء انزل على محمد عليه السلام أو أنزل على الانبياء الذين كانوا من قبل-من عند الله، فلماذا لا نجد هذه المعارف العلمية في كتب الوحي الاخرى؟

الجواب على ذلك يكون من جانبين:

أولا: ان الكتب السماوية القديمة، كالتوراة والانجيل، مرفوعة، أي ضائعة من يد الذين نزلت على أنبيائهم، فلا نستطيع الحكم عليها.

ثانيا: لا ينتظر أن تكون هذه الأشياء العلمية موجودة في كتب الوحي القديمة، لقوله تعالى (١٤ : ٤ سورة ابراهيم): «وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبيّن لهم».

والبشر من قبل لم يكونوا كلّهم قد بلغوا من العلم مبلغا يمكن معه أن يخاطبوا بكثير من حقائق العلم مما لا يمكن أن يبيّنه الرسول لعامة قومه في زمانه. ان الحضارة الانسانية العامة لم تكن بعد مهيأة لتقبل المعارف العميقة في الحياة.

ان هذا الموضوع: «أثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية» موضوع واسع جدا، كما قلت في صدر مقالي هذا. من أجل ذلك أشرت الى رؤوس المعارف فيه إشارات سريعة، والا فكل نقطة من نقاطه تحتاج الى مقال مستقل.

غير أني لا أريد أن أفرغ من مقالي هذا قبل ان أشير أيضا الى نقطة أخرى في هذا الموضوع هي أن أثر الاسلام في التفكير الانساني- والتفكير جانب من جوانب الحضارة- قد تبدى للمفكرين منذ جاء الاسلام. ففي ايام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يأتى الى الرسول -مرة بعد مرة- اناس يسألون أسئلة من هذا الباب، فكان من هذه الاسئلة ما تحسن الاجابة عليه في ذلك الحين كما كان بعضها الآخر مما يحسن السكوت عنه. ففي مثل ذلك نزل قولـه تعالى (٥: ١٠١-١٠٢): «يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم. وان تسألوا عنها حين

ينزل القرآن تبد لكم. عفا الله عنها، والله غفور حليم قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين». ويجب ألا ننسى أيضا ان «علم الكلام» - وهو علم كانت غايته الموازنة بين ما جاء به الدين وما كان يشغل العقل الانساني- قد تعرَّض، منذ القرن الأول للهجرة، لمثل تلك البحوث ولم يحصل الناس من ذلك كله على طائل. إن علم الكلام يمثل مرحلة من مراحل تطور العقل الانساني، كانت منه نتف في اليهودية والنصرانية ثم في المجوسية فيما احسب ولكن قواعد هذا العلم رست في الإسلام، وكذلك فروعه تبسطت في الاسلام أيضا. ومع ذلك فقد قال ابن خلدون في مقدمته: ان هذا العلم يفيدنا تاريخا للجدال أكثر مما يفيدنا ايقانا بالعقائد، كما كان المقصود بهذا العلم أولا. وخطر لابن خلدون رأي الناس في صلة المعارف التي وردت في القرآن الكريم بحقائق العلم المقصودة فقال لنا في مقدمته قولا أشرت إليه من قبل. هذا القول هو (مقدمة ابن خلدون) ان القرآن جاء لتعليم الفقه والاخلاق ولم يأت لتعليم الطب والعلوم العادية (القديمة) غير أن كل ما ذكر في القرآن من المعارف صحيح، ولكن ليس في القرآن كل ما جاء به العلم قديماً وحديثاً. من اجل ذلك لا يجوز

لنا أن نحمل القرآن الكريم فوق ما يحتمله معناها الذي قصدت به ،
فان في ذلك خطرا كبيرا جدا يحسن ان ننظر اليه من جانبين

ربما كان الذي يجيل فكره في هذا الميدان (ميدان العلم وما جاء منه في القرآن الكريم) ليس من أهل الاختصاص في القرآن أو في العلم أو فيهما كليهما وحينئذ يقع ذلك الشخص في خبط كثير ، ثم هنالك أمر أشد من الخطر . ان العلم يتطور ويتبدل . وربما قال العلماء شيئا اليوم ثم قالوا غيره أو ضده غدا . فاذا اتى شخص وربط بين آية من القرآن الكريم ورأي من آراء العلم ثم سوى احدها بالآخر أو بنى أحدهما على الآخر ، وبعدئذ تبين أن ذلك الرأي بالعلم كان فاسدا أو قاصرا ، فما يكون موقفنا من ذلك الربط بين الآية الكريمة والرأي الذي ظهر بعد أمد انه خطأ ؟

من أجل ذلك أريد أن أمر بعدد من الكتب الحديثة التي عرض أصحابها لمثل هذا الموضوع . وقد اتفق لي ان تناولت هذه الكتب التالية من غير تقصٍّ لما ألف في هذا الباب :

(١) جواهر العلوم ، تأليف طنطاوي جوهري ، مصر ١٣١٩ هـ= ١٩٠١م

(٢) التاج المرصع بجواهر القرآن الكريم ، تأليف طنطاوي

جوهري، مصر ١٣٢٤ هـ= ١٩٠٦م.
(٣) الجواهر في تفسير القرآن الكريم، تأليف طنطاوي جوهري، مصر ١٣٤١ هـ= ١٩٢١م.
(٤) القرآن والعلوم العصرية، تأليف طنطاوي جوهري، مصر ١٣٤٢ هـ= ١٩٢٢م
(٥) أثر القرآن في تحرير الفكر البشري: محاضرة لعبد العزيز جاويش ألقيت في مصر. طبعت في بيروت بعيد ١٣٤٩ هـ= ١٩٢٣م.
(٦) تنبيه العقول الانسانية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية تأليف محمد بخيت المطيعي (ت ١٣٥٤ هـ= ١٩٣٥م)، طبعة جديدة حلى (بلا تاريخ).
(٧) القرآن والعلم الحديث، تأليف عبد الرزاق نوفل، مصر ١٣٧٨ هـ= ١٩٥٩م
(٨) نهاية الكون بين العلم والقرآن، تأليف محسن عبد الصاحب المظفر، النجف ١٣٨٧ هـ= ١٩٦٨م.
(٩) العلوم الطبيعية في القرآن، تأليف يوسف مروة، بيروت ١٣٨٧ هـ= ١٩٦٨م
(١٠) لفتات علمية من القرآن، تأليف يعقوب يوسف،

جدة ١٣٩٠ هـ= ١٩٧٠م

(١١) نقد الفهم العصري للقرآن، تأليف عاطف أحمد، بيروت (١٣٩٢ هـ= ١٩٧٢م).

(١٢) القرآن وعلم النفس، تأليف محمد مصطفى زيدان، بيروت ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣م.

لعلّ أول الذين أغرموا بهذا الموضوع طنطاوي جوهري، وهو مؤلف مصري ولد سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠م) وكانت وفاته في سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٤٠). تعلم في الأزهر وتعلّم شيئا من اللغة الانكليزية وقرأ أشياء من العلوم الرياضية والطبيعية ثم علم في المدارس الابتدائية وحاضر في الجامعة المصرية، وكان اهتمامه الأول منصبّا على رؤية مفردات المعارف الانسانية في القرآن الكريم.

ان «التفسير» الذي وضعه طنطاوي جوهري للقرآن الكريم يقع في ستة وعشرين جزءا تتألف من نحو ستة آلاف وخمسمائة صفحة من القطع الكبير. وأنت تستطيع ان تجد في هذا التفسير كلّ شيء من مطالع القصائد الجاهلية (١: ٢١) وأبعاد الكواكب عن الشمس (١ : ٤١) وفتوح الدولة الرومانية (١ :٦٥-٦٦) وان مرات التصديق (في المنطق) أربعة (١ :٧٧) ولغز قابس وهو فيلسوف يوناني عاش قبل الميلاد

بخمسمائة سنة(١ :١١٤)وعجائب العلم والسياسة في القرآن(١٢١) والمادة وتنوعها وعلم الحيوان والنبات (الحيوان مذكور قبل النبات) وجري السفن بالكهرباء (١ : ١٢٤ - ١٣٥) والحب والعشق والشوق (١٣٥) وسباق الخيل - رمي الحمام - التيرو - يانصيب - اللوتيرية (١: ١٧١ - ١٧٢) وعناصر مختلفة في القطن والقمح والبرسيم وغيرها (١: ٢٠١ - ٢٠٥) وأنواع النبات الموجودة في البلاد المختلفة (١: ٢٢٨ - ٢٣٠)، الخ.

أما الحكايات والخرافات والاسماء الأجنبية وأمثالها فكثيرة لا تحصى. وبامكانك ان تقول ان «تفسير طنطاوي جوهري» يحتوي على كل شيء الا على تفسير القرآن. انه مؤلف من مواد تتداعى على غير نظام وتذكر لمناسبة ولغير مناسبة. والكتاب في جملته صورة للفوضى الكاملة.

لا شك في أن طنطاوي جوهري قد أحب أن يحبب الإسلام الى الناس بما كان يقول من أنك تستطيع ان تعرف من القرآن مثلا مقدار البوتاسيوس في نبات البرسيم. ان الرجل محمود لحسن نيته، ولكن تفسيره الذي مضى عليه الآن نحو ثمانين سنة أصبح لا قيمة عملية له، لا في العلم ولا

في التفسير. أما كتبه الباقية: جواهر القرآن (٢٤٠ صفحة)، التاج المرصع (١٩٠ صفحة) القرآن والعلوم العصرية (٩٠ صفحة) والصفحات من القطع الصغير - فمنهاجها منهاج تفسيره.

أما عبد العزيز جاويش المتوفى سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) فهو أديب وكاتب وخطيب اشتغل في مصر بالصحافة فكتابه (محاضرات تقع في نحو ستين صفحة من القطع الصغير) أراد به أن يوازن بين موقف الاسلام من العلم وموقف النصرانية خاصة، وهو يلح على أن المسلمين اهتموا بالفلسفة اليونانية أكثر من اهتمام النصارى الاوروبيين بها، مع أن الاوروبيين أقرب الى اليونان من المسلمين الى اليونان. ومع ان المادة في محاضرات عبد العزيز جاويش لا تختلف من تفسير طنطاوي جوهري كثيرا فانها أحسن ايجازا وتنسيقا وأبين مغزى وتنظيما.

وأما كتاب الشيخ محمد بخيت المطيعي المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥م) فقد كان مفتيا في مصر في مدى سبع سنوات أولها سنة ١٣٣٣ هـ (١٩١٤م) -والمطيعي أكثر وعيا لحقائق العلم من طنطاوي جوهري وأكثر حذرا في

اقامة الموازنات بين المظاهر الطبيعية والآيات. وفي كتاب المطيعي معرفة أكثر مما في كتب طنطاوي جوهري ومما في محاضرات عبد العزيز جاويش. غير ان في الربط بين الفحم الحجري والآية الكريمة: «وهو الذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى» (٨٧: ٥ سورة الاعلى) تمحّلا بعيدا ليس المقصود من الآية الكريمة.

واذا نحن نظرنا الى كتاب عبد الرزاق نوفل «القرآن والعلم الحديث» من الجانب العملي الذي هو حث على التأمل في آيات القرآن وفي شمولها لأحوال البشر، فالكتاب يكون جيدا ومفيدا. ويبدو ان عبد الرزاق نوفل قد تناول قصة الفحم الحجري (ص ٧٥) من الشيخ محمد بخيت ثم زاد في التوسع فيها. وكلام عبد العزيز نوفل عن البروتين (البروتئين) لا يستقيم في الدين «في سورة البقرة (٢: ٦١) يخاطب الله اليهود فيقول:

«وإذْ قلتم يا موسى، لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. قال (موسى) أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟» ويعلّق عبد الرزاق نوفل على ذلك بقوله:

ان طعام بني اسرائيل (مع موسى في صحراء سيناء أيام تيههم) كان المّن (وهو مادة حلوة تتكاثف على أغصان شجر بعينه (في العراق وفارس..) بعد سقوط الندى على تلك الاشجار ومن السلوى (طير السماني). أما ان في عدد من البقول (التي تنضج فتصبح حبوبا كالعدس والفول) من البروتئين أكثر مما في المن فهذا صحيح. وأما أن يكون في القثاء، وهو نوع من البطيخ ومن الخيار (المعجم الوسيط ٧٢٢)، من البروتئين أكثر مما في لحم السماني، فلا أظنه صحيحا.

ثم ان اليهود لم يطلبوا من موسى أطعمة أكثر تغذية، بل قالوا له: «لا نصبر على طعام واحد». هم كانوا قد ملّوا من أكل لحم الطير فأرادوا أن يأكلوا أشياء أخرى. ثم لو أننا قبلنا أن يكون موسى قد قصد أن يقول لقومه (كما يرى عبد الرزاق نوفل) ان العدس والبصل وأنواع البقل أقلّ قيمة غذائية من المن ومن السلوى أيضا، لما كان نبي الله موسى عارفا بطبائع تلك الأطعمة. وأما حشر علم الديناميكا (ص٩٧) والكلام على نيوتن واينشتين في مجال تفسير الآية الكريمة: «تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره

خمسين الف سنة » (٧٠ : ٤ سورة المعارج) للكلام على نظرية النسبية فشيء خارج عن اختصاصي. ومع قلة معرفتي بالرياضيات العالية فأنا لا أرى في هذه الآية اشارة الى ان الزمن المذكور فيها هو الحد الرابع الذي قصده اينشتين. أما النسبة (لا النسبية) الحقيقية التي تدل عليها الآية - كما أفهمها أنا، وأرجو ألا أكون مخطئا - فهي ان الله دائم الوجود وأن وجودنا نحن في العالم محدود. فمهما تطل عيشتنا على الأرض فإنها بالإضافة إلى دوام الله - الابدي شيء ضئيل. لقد كان بالامكان ان يقول الله تعالى: « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره » مائة ألف سنة أو خمسمائة ألف سنة من غير أن يتبدّل المقصود الاخلاقي من الآية الكريمة.

ويبدو ان محسن عبد الصاحب المظفر قد درس الرياضيات والفلك دراسة مقصودة، وهو يخالف (ص ١٤٢ - ١٤٥) عبد الرزاق نوفل في تفسير الآيتين اللتين تذكران اليوم الالهي مرّة بألف سنة ومرة بخمسين ألف سنة، بان معنى ذلك أن سرعة الارض في دورانها كان من قبل اكبر ممَّا أصبح فيما بعد. ومعنى ذلك بعيد ايضا.

ان القرآن الكريم قد خاطب العرب بهاتين الآيتين، وقال لهم (فــي القرن السابع للميلاد) في مرة أن اليوم عنده يساوي ألف سنة من أيامهم، ثم قال لهم مرة ثانية ان اليوم عنده يساوي خمسين ألف سنة. ان تفسير محسن عبد الصاحب المظفر كان معقولا لو أن احدى الآيتين قد نزلت بعد الآية الاخرى ببليون سنة فقد كان من الممكن أن يقصر اليوم الارضي حتى يصبح جزءا من خمسين ألف بعد أن كان مرة جزءا من ألف فقط.

غير أننا اذا تابعنا محسن عبد الصاحب في كتابه «نهاية العالم بين العلم والقرآن» أدركنا التعثر في أدلته. هو يرى أن القرآن الكريم وان العلم الحديث يقولان بنهاية هذا العالم (راجع ص ١٧٩ وما بعد). ولكن ما معنى نهاية العالم عنده؟

ان الجبال اذا نسفت (ص١٦٨) وان نهاية الكون بانشقاق السماء (ص٨٤).. وغير ذلك لا يدل الا على تبدل المادة من صورة إلى أخرى. وهذا التبدل ليس فناء ولا نهاية، كما يقول محسن عبد الصاحب نفسه (ص ١٨٦) : «كون تحطم وحل محله كون آخر»... وقول القرآن الكريم واضح في ذلك، وهو (١٤ : ٤٨ سورة ابراهيم): «يوم تبدل الارض

غير الارض والسموات.... »

ونحن جميعا نؤمن أن هذا العالم سينتهي: ستنتهي حياة البشر فيه. ولكن الادلة التي يقدمها صاحب كتاب «نهاية الكون» ليست مقنعة لا من جانبها الديني ولا من جانبها العلمي...

وتتعاظم شكوك القارئ حينما يقرأ في كتاب «نهاية الكون» هذا المقطع (ص١٤١): «يقول علماء الفلك: ان الارض منذ (يقصد: بعد) انفصالها عن الشمس كانت تدور حول نفسها بسرعة أكبر مما هي عليه في الوقت الحاضر، وان دورتها حول الشمس كانت تتمّها بفترة زمنية مقدارها أربع ساعات (كذا). وقد بدأ من ذلك الحين النقص التدريجي في سرعة دوران الارض حول الشمس. فلم يعد الليل والنهار ليستغرق (ليستغرقا) أربع ساعات في كل دورة، بل تغيّرت الحال تبعا لذلك. ان طولها (يعني: طول الليل والنهار) يقاس، ومقدار الفترة الزمنية التي تستغرقها الأرض في دورانها حول الشمس، فقد أصبح طولها (طول الليل والنهار) من بعد ذلك خمس ساعات ثم ست ساعات، وهكذا حتى بلغت الارض وضعها

الحالي. فهي الآن تتم دورتها حول الشمس بفترة أربع وعشرين ساعة وهي مقدار طول الليل والنهار الحاليين »..

ان محسن عبد الصاحب المظفري يعتقد ان الليل والنهار يتشكلان من دورة الأرض حول الشمس في أربع وعشرين ساعة وأظن أن أطفال المدارس يعرفون أن دورة الأرض حول الشمس تتشكل منها الفصول الأربعة وأن الليل والنهار يتشكلان من دوران الأرض حول نفسها.

فما قيمة هذا الكتاب كله بعد ذلك؟

ثم يأتي بحسب تاريخ نشر الكتب المذكورة آنفا كتاب « العلوم الطبيعية في القرآن »، تأليف يوسف مروة المولود في السابع والعشرين من جمادى الاولى من سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٤/١٠/٧م)، علّم الكيمياء والفيزياء والرياضيات، يحمل شهادة الهندسة الكيماوية (١٩٦١م) ولكن يبدو أن معظم نشاطه منصب على الفيزياء (راجع ص٨ - ١١).

وفي كتاب يوسف مروة فصول هي:

(١) رسالة المؤلف الى فقهاء المسلمين حول رصد الأهلّة يقترح فيها على دار الافتاء في بيروت أن تشتري تلسكوبا فلكيا من الحجم المتوسط ينصب في دار الافتاء ليستخدمه

رجال الدين في المناسبات التي يكثر فيها الخلافات حول رؤية الهلال. حتى اذا كانت السماء ملبدة بالغيوم في فصل الشتاء.. ولا يمكن للعين المجردة ان ترصد الهلال » فما المانع اذن من استخدام المرقب كوسيلة للرصد والرؤيا؟ »

وليوسف مروة نظرة صحيحة حينما يذكر ان ولادة الهلال تحدث في البلاد المختلفة في أوقات مختلفة، باختلاف وجود تلك البلاد على خطوط الطول وخطوط العرض. ولكنه يخطىء حينما يقول على لسان رجال الدين: اذا ولد الهلال في بلد فهو مولود في جميع البلدان ». الذي يقوله الفقهاء العلماء » اذا رأى أهل بلد الهلال فيحسن بجميع المسلمين أن يصوموا برؤية ذلك البلد » (من الناحية العلمية) وبين القولين فرق كبير.

(٢) مقدمة للسيد موسى الصدر: لقاء العلم والدين وتوزيع الصلاحيات (ص١٣)

(٣) تقديم للمرحوم الشيخ مصطفى الغلاييني (ت ١٣٦٤ هـ= ١٩٤٤م) في العلم والدين (نشرت في سنة ١٣٤٩ هـ = ١٩٣١م). (ص٤١).

(٤) مدخل للدكتور صادق جلال العظم (ص٦١)

(٥) مقدمة المؤلف (ص٦٧)

(٦) الفصل الأول: القرآن دين وعلم (ص٧١) وزع المؤلف فيه جانبا من آيات القرآن بحسب الموضوع العلمي الذي تعالجه.

(٧) الفصل ٢: العلوم الحديثة في القرآن (ص٨٣): مجموع من الآيات ورد فيها ألفاظ تتعلق بالعلوم المختلفة أو توهم أنها تتعلق بالعلوم.

(٨) الفصل ٣: الذرّة في القرآن (ص١٦١): يريد يوسف مروة أن يرجع بالنظرية الذّريّة الى ألف ومائتي عام قبل الميلاد. وأنا أعتقد أن في استعراضه لتطور نظرية «المادة الأولى» أو الجوهر الفرد أو الذرّة (أو الجزء الذي لا يتجزأ) أشياء من الخطأ التاريخي واللغوي. ومن أخطائه فهم كلمة «ذرّة في القرآن الكريم بالمعنى الحديث «آتوم». والذرّة هي النملة الصغيرة الحمراء (راجع قواميس اللغة) - وقال الشعر يصف امرأة برقّة جلدها ولينه:

لو يدبّ الحولي من ولد الذرّ عليها لأندبتها الكلوم

(الحولي: الذي لم يمرّ عليه سنة بعد. أندبه: ترك فيه ندوبا أي جروحا. الكلم بفتح الكاف: الجرح)

ومن الخطأ عنده جعله كلمة آتومى فينيقية أخذها

اليونان عن الفينيقيين وهذه اللفظة آ - توم يونانية (معناها: لا يقسم)، ومن هنا جاء وصف الجوهر الفرد بأنه «الجزء الذي لا يتجزأ». ثم يستغرب المؤلف اهمال المسلمين للكلام على تجزئة الذرّة (بالمعنى العلمي اليوناني)، لا بالمعنى القرآني). فيحسن بالمؤلف أن يرجع الى علماء الكلام في ذلك والى رسائل اخوان الصفا.

(٩) الفصل ٤: غزو الفضاء (لو قال المؤلف: «وصف الفضاء، لكان قوله صوابا

(١٠) الفصل ٥: النسبية في القرآن (مرّ قولي في ذلك: يحسن أن يقال النسبة). وكذلك لا يحسن أن نقول السنة الإلهية والثانية الإلهية، بل السنة عند الله والثانية عند الله. ولو أنا قبلنا قوله: يوم آلهي ويوم أرضي (بشري) لكان الموضوع هو النسبة (اضافة عدد الى عدد آخر) لا النسبية (اختلاف حجم الجسم الواحد باختلاف أبعاده المنتوجة من سيره في زمن).

★★اذا أخطأت أنا في هذا التعريف أو كان تعريفي ناقصا أو قاصرا فأنا معذور لأني لست من أهل الاختصاص في الرياضيات والفيزياء النظرية. أما خطأ أهل الاختصاص

في هذين الفرعين من العلم فليس لهم فيه عذر.

(١١) الفصل السادس: النظام الرياضي الكوني (وفيه أشياء من علم العدد أو خواص الاعداد مما نعرفه في المتواليات الحسابية والهندسية وفي المربعات السحرية. ونجد هذا الفن مبسوطا في كتاب المدخل الى علم العدد من وضع نيقوماخوس الجرشي، وقد نقله الى العربية ثابت بن قرة في العصر العباسي. وكذلك نجد هذين الموضوعين مبسوطين في رسائل إخوان الصفا، ولكني لا أرى لذلك صلة بما يرد في القرآن الكريم. وفي هذا الفصل أيضا قضايا من المحالات المعروفة في الجدل الكلامي نحو: هل يستطيع الله أن يخلق عالما آخر أو أن يخلق كائنا أقوى منه أو أن يفني نفسه.

(١٢) الفصل ٧: الله والعلم الحديث (ص ٢٢١): متفرقات شخصية في الله وقدرته وعظمته مأخوذة من الملاحظات الشخصية ومضافة الى العلم الحديث وليس عندي رد على هذا الفصل الا ما قاله استاذ المؤلف للمؤلف وهما في المختبر وقد أثار المؤلف مثل هذا الموضوع (ص ٢٢٦) «أخشى أن يتحول بحثنا من ميدان الفيزياء الى ميدان اللاهوت ونتخلى عن صفتنا كفيزيائيين لنصبح لاهوتيين».

(١٣) ملحق: آراء حول الدين والعلم (ص ٢٤١) من كونفوشيوس (ت ٤٧٩ ق ح ق.م.) الى المؤلف نفسه.

(١٤) ملحق ٢: آراء حول الاسلام.

ان هذا الكتاب كتبه رجل يشتغل بالعلم، ومع ذلك فلم يوفّ الموضوع حقه اذ شغل نفسه بأشياء جانبية لا قيمة لها. اذا كان عنوان الكتاب «العلوم الطبيعية في القرآن الكريم»، فما صلة ذلك بقول ميخائيل نعيمة (ص ٢٥٨): «...... كأن يكون ذلك المعبود عادياً ضيقاً وضيعاً محدوداً عند الوضعاء المحدودين من البشر ومسمعنا في العبقرية والرحابة والتعالي واللامحدودية عند الذين نفذوا بقواهم الانسانية الخلاّقة من برودة الشائع الظاهر في الكون الى دفء أسراره المكنونة».

يبدو لي أن المؤلف قد تخيل الموضوع أهون مما يجب. فلما بدأ التأليف ووجد وعورة المسلك ملأ كتابه بفصول لا صلة لها بالموضوع. ونسي المؤلف العالم أن العلم يقوم على البراهين وأن أقوال الناس: قال فلان وقال فلان لا يقوم لها في العلم وزن، الا اذا كانت هي نفسها قائمة على برهان

وكان برهانها مصاحبا لها والا فما قيمة هذا القول للمفكر الفرنسي باسكال (ص٢٤٢): «ما هو هذا الانسان في هذه الطبيعة: انه عدم تجاه اللانهاية». ما الحقيقة التي يقرّها هذا القول وما المشكلة التي يمكن أن يحلها؟

وهنالك «لفتات علمية من القرآن» من تأليف يعقوب يوسف، وهو كتاب موجز عام تغني قراءته عن كتاب يوسف مروة لأن مؤلف اللفتات العلمية أشار الى حقائق العلم في الآيات الكريمة إشارات قريبة واضحة ولم يدخل في التفاصيل المتشابهة فيقع في ورطات يصعب الخروج منها.

ويأتي في هذا النسق كتاب محمد مصطفى زيدان «القرآن وعلم النفس» وهو كتاب صغير موجز لا تزيد كلماته في العد على ثلاثة آلاف كلمة. والمؤلف لم يشغل باله ولا شغل قراءه بأقوال الرجال وتفتيت النظريات. ثم إن موضوع علم النفس (وهو موضوع تربوي أخلاقي) أكثر اتصالا بالدين من العلوم الطبيعية. والكتاب جيد مفيد

وكنت أودّ أن أتكلم على كتاب «نقد الفهم العصري للقرآن» من تأليف عاطف أحمد. ثم وجدت أن هذا الكتاب رد على مصطفى محمود في كتابه: القرآن: محاولة

لفهم عصري ». ثم إن كتاب مصطفى محمود ليس بين يديّ الآن. وفوق ذلك فالذي يبدو بوضوح أن كثيرا من موضوعات الكتابين موضوعات نظرية قابلة للجدل وكثير منها متعلق بالألفاظ أخذا وردا. والذي يبدو لي من خلال الكتاب الثاني ان مصطفى محمود كان يحمل النص القرآني فوق ما يجب أن يحتمل، وان عاطف احمد يريد أن يقيد نفسه بظاهرة اللفظ أيضا.

خلاصة هذا الموضوع

في القرآن الكريم أشياء كثيرة من العلم: من العلم الطبيعي، ومن العلم الاجتماعي،و ومن علم النفس، ومن السياسة، ومن الاقتصاد، ومن الاخلاق وسوى ذلك.

وكل هذا الذي ذكر في القرآن الكريم من مفردات هذه العلوم ومن أسسها العامة صحيح ثابت. غير أنه لا يجوز لنا أن نحاول البحث عن جميع وجوه العلم في القرآن الكريم وان نحمّل الآيات الكريمة فوق ما يجوز ان تحتمل.

ولا يجوز أن يجعل القرآن الكريم موضوعا للمقارنة بشيء آخر. ثم ان القرآن الكريم كتاب سماوي غايته الأولى تعليم الدين والتربية على الخلق الكريم.

يجوز أن نتخذ من الآيات الكريمة سندا للدعوة الى العلم، ويجب أن نفعل ذلك كما نتخذ القرآن الكريم حجة في أمور العقيدة والعبادة وفي المعاملات أيضا.

إن القرآن الكريم لمّا أتى بوجوه العلم أتى بها على سبيل العظة ولتبيان عظمة الله وقدرته وللحث على أن يقوم الانسان بما ينفعه في حياته الدنيا وفي حياته الأخرى -. ولم تكن وجوه العلم المختلفة مقصودة لذاتها، الا اذا كانت هي موضوع الكلام.

وقد تعرض لهذا الموضوع - العلم في القرآنالكريم - نفر كثيرون: منهم من شطّت به حماسته فتأوّل آيات القرآن على خلاف ما فهمه المفسّرون كلّهم، لأنهم حملتهم حماستهم للفن الذي يعرفونه على أن يجدوا في القرآن الكريم كل ما تعلّموه في فنّهم المخصوص

وهنالك نفر كتبوا في هذا الموضوع من مطالعاتهم الشخصية. هم ليسوا من رجال العلم ولكنهم قرأوا أشياء من العلم المبسط فخيّل اليهم أن كل آية وردت فيها كلمة « شمس » أو « قمر » هي من علم الفلك. ومنهم من لا يحفظ شيئا من القرآن الكريم، كالذي رأى كلمة « ذرّة » في

القرآن الكريم ومعناها «النملة الصغيرة الحمراء - فظن أنها الذرّة التي ذكرها ديموقريطوس اليوناني من أحياء القرن الخامس قبل الميلاد أو الذرة التي عالجها روذ رفورد عام ١٩١٩م.

غير أن هذا كله لا يمنع من القول ان القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي جاء بالعلم على النحو الذي يجب أن يكون عليه العلم، وانه دعا الى العلم بينما جميع الأديان غير الاسلام كانت تحول بين أتباعها والعلم لانها كانت تدرك ان العلم يبطل الاعتقاد بالاسرار التي كانت تلقيها على اتباعها ألغازاً أو كالالغاز. ان العلم في الديانات التي جاءت قبل الاسلام كان احتكارا للكهنة لا يصل إليه عوام الناس. أما الاسلام فليس كذلك. في الحديث الشريف: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. وفي القرآن الكريم (٣٩: ٩ سورة الزمر):

«أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. قل: هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ إنما يتذكّر أولو الألباب».

عمر فرّوخ

الرِّسالةُ الإسلاميّة
في
مواجهةِ الفسادِ قديمًا وحديثًا

للأستاذ الشيخ محمد المجذوب
« سوريا »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ومصطفاه محمد رسول الله، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين

مقدمة البحث

العالم قبل البعثة النبوية:

لكي نتحدث عن أثر الرسالةالاسلامية، في سيرة الحياة البشرية على اختلاف جوانبها لا بد لنا من رصد دقيق لواقع هذه الحياة قبل إطلالة الفجر المحمدي.. ولو أتيح للمفكر المدقق أن يطالع أكداس الأسفار، التي كتبت عن تلك الفترة، وأن يستنطق ركام الآثار التي خلفتها الشعوب، معبرة عن أوضاعها وأوجاعها، لما بلغ ذلك إلا لمحة يسيرة مما انطوى عليه قوله سبحانه في وصف ذلك الواقع: (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلهم يرجعون/ ٣٠ / ٤١).

ففي هذا الإطار المحدود من البيان الآلهي صور غير محدودة من الخراب الذي صارت اليه أحوال المجتمعات

البشرية حتى ذلك العهد، وهي معروضة في أربعة معالم كل منها مرتبط بما سبقه أو وليه، ارتباط السبب بمسببه أو المسبب بسببه.

فها هنا فساد عام يكتسح تلك المجتمعات في كل مكان من هذه البسيطة، يتساوى في ذلك سكان البر، وجزائر البحار. وفي كلمة (الفساد) إيحاء تام بانقلاب الأوضاع، اذ كل شيء في هذا الوجود قائم على الكون والفساد، وهو أشد ما يكون ظهورا في التجمع البشري، حيث تتجلّى نتائج سلوكه في النماء أو الانحلال. فكلما كان ذلك التجمع أشد تماسكا وأكثر التزاما للتّعاون الصحيح، كان نصيبه من الأمن والازدهار أتم وأكمل، فاذا زاغ عن هذا الطريق اضطربت مسيرته، وتعرضت سلامته للخطر، كشأن الخلية الحية التي ضربها السرطان فاختل نظامها، وبات كل نمو فيها يشكل تهديدا جديدا للحياة.

أما كيف حدث هذا الفساد ومن أين جاء؟... فهو حصيلة التحرك البشري الخاطئ.. انه ثمرة انحراف الناس عن الخط السوي الى مزالق الغي والبغي، فكان من حق العدالة أن تنزل بهم العقوبة المناسبة.. ومع ذلك لم تتخل

عنهم رحمة الله حتى في موقف العقاب هذا، ذلك أنها لم تذقهم إلا بعض الذي عملوا لا كلّه، ثم ان العقاب نفسه لا يراد به إلا مجرد التأديب والتنبيه، لعلهم يثوبون إلى ما عزب من وعيهم، فيرجعون الى التي هي أحسن بهم، وأحدى عليهم، وأهدى لهم.

وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم وأحمد يقول صلى الله عليه وسلم: (إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب..) وهو توكيد لمضمون الآية الكريمة عن انتشار ذلك الفساد، الذي شمل العرب والعجم، - وليس في ذرية آدم الا العرب والعجم، - وفيه مزيد من التفصيل عن مقت الله سبحانه لكل من على ظهر الأرض، لا يستثني من مقته إلا عددا قليلا من أهل الكتاب. ولعل في اوصفهم بـ (البقايا) اشارة الى تناثرهم في امكنة متباعدة. وقد رأينا هؤلاء البقايا في ما عرضته كتب السيرة من حديث عن الحبر اليهودي الصالح ابن الهيّبان، والقسس الذين لقيهم سلمان رضي الله عنه خلال تطوافه في رحلة البحث عن الحق، اذ كان كل منهم اذا أشرف على الموت يوجهه الى واحد لا يعرف غيره على

مثل ما هو عليه، حتى انتهى الى قس عمورية الذي أشعره بانتهاء هذا الفوج من رجال الله، ولكنه بشّره باقتراب زمن النبي الخاتم، ونصحه بشد الرحال اليه بعد أن حدد له مكان بعثته وهجرته..

وصفهم ب (البقايا) اشارة الى تناثرهم في امكنة متباعدة. وقد رأينا هؤلاء البقايا في ما عرضته كتب السيرة من حديث عن الحبر اليهودي الصالح ابن الهيّبان، والقسس الذين لقيهم سلمان رضي الله عنه خلال تطوافه في رحلة البحث عن الحق، اذ كان كل منهم اذا أشرف على الموت يوجهه الى واحد لا يعرف غيره على مثل ما هو عليه، حتى انتهى الى قس عمورية الذي أشعره بانتهاء هذا الفوج من رجال الله، ولكنه بشره باقتراب زمن النبي الخاتم، ونصحه بشد الرحال اليه بعد أن حدد له مكان بعثته وهجرته..

وقد وصف فضيلة الشيخ/ أبي الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) حال ذلك العالم آنئذ، فشبهه ببناء أصيب بزلزال قلب أوضاعه، فاذا كل شيء هناك في غير محله، واذا الفساد قد عم ناسه جميعا، اذ

فسدت عقولهم، ونظام تفكيرهم، واختل ذوقهم وإحساسهم فهم يسجدون للشجر والحجر، ويخضعون لأنظمة جائرة جعلت من الذئب راعيا، ومن الخصم قاضيا، ومن المجرم سيدا حظيا، ومن الصالح محروما شقيا.. وقد امتلأت كتب التاريخ بصور هدا الاختلال البشري الشامل لكل دولة ومدينة في ذلك العالم المقلوب، من أدنى الارض الى أقصى الصين.. ومع أن العرب أقرب الناس الى سلامة الفطرة قبيل البعثة النبوية فقد كانوا يعيشون في جحيم من الرعب لا نهاية له، ذلك لأن قسوة البادية، وضنك العيش، وضغط النظام القبلي كل أولئك كان يزج بهم في حروب مستأصلة، يقتل فيها الأخ أخاه، ويتعاون الأنسباء على البعداء، فما تكاد تجف الدماء ولا تفتر حملات الثأر وما وراء ذلك من شقاء وشحناء. وقد اطبقت الظلمات على افكار الناس، فلا يستهدفون أملا، ولا يهتدون سبيلا.. الا خيوطا من أضواء يرسلها بعض الشعراء والخطباء والحنفاء في حكم بتراء لا تعدو كونها تعبيرا عن حاجة الفطرة الى نور لا تعرف من أين ينبثق..؟

وقد كان الواجب يتطلب من أهل الكتابين أن ينهضوا

بعبء الإرشاد والاصلاح، ولكن الواقع خيّب هذا الرجاء لأن الأحبار والرهبان كانوا أبعد الناس عن الاتجاه الصحيح، فزادوا مساحة البلاء على العامة بوقوفهم وراء الطواغيت، وبصرفهم طاقاتهم في أنواع من الجدل العقيم أضاعت فرص التصحيح، وسببت الكثير من المذابح الطائفية، ولا سيما في مصر والشام، حيث طورد دعاة التوحيد، وفرضت الدولة الرومانية فلسفتها الوثنية على رعاياها المسيحيين.. ومن أجل ذلك صبت ألوان التعذيب على كل مخالف لتقاليدها الوثنية من ذوي العقيدة السليمة في المسيح عليه السلام..

وهكذا طغت سيول البلاء على الأرض، فالناس في كل مكان مدفوعون في منحدرات الشقاء، لا يملكون القدرة على التماسك، لأنهم أصبحوا مقطوعي الصلة بهداية الخالق... فكل خطوة ينقلونها تزيدهم بعدا عن ساحل النجاة وقربا من النهاية. وقد ضاعف الخطر فساد التصور البشري، اذ بات العقل الانسي مقيدا بأحكام البيئات وسلطان العادات، فلا سبيل للخلاص عن طريقه، بل لا أمل بالخلاص إلا بمعجزة إلهية توقظ الضمير البشري من غفوته

وتضيء للعقل الحائر طريق الحق ليسلكه على بصيرة.

ولا جرم أن وضعا كهذا تتكاثف فيه الظلمات، حتى لا يلمح امرؤ يده من خلالها، لا ينتظر أن تنشأ فيه حضارة انسانية تأخذ بيد المجموعة البشرية في الطريق الآمن.. وإنما هي تراكمات متباينة من تجارب عرضت للأجيال خلال رحلتها الحائرة، التي لم تستهدف غرضا خارج حدود المنفعة العابرة. ومن هنا كان على الإسلام إنشاء النموذج الكامل للحضارة الربانية، التي أطلت بالإنسانية كلها على تاريخها الموَّحد الجديد.

وعلى ضوء هذه الحقيقة سنتحدث عن أثر الرسالة الإسلامية في بنيان الحضارة، التي استهدفت منذ يومها الأول إعادة الانسان الى طريقه السليمة، فكان عليها أَنْ تجابه أشرس التحديات، التي تريد لهذا الانسان أن يظل أبدا في غمرات الضياع.

الانسان في ميزان الاسلام:

عندما يراد الحديث عن (الحضارة) يتبادر الى الأذهان ذلك البناء الهائل الذي يتضمن مجموع الإنجازات البشرية خلال التاريخ.. تلك الإنجازات التي تصور مراحل التطور

الفكري للإنسان منذ بدأ وجوده على هذه الأرض.

وحسب مواقع المجموعات البشرية من الأرض تتفاوت مركبات هذه الحضارة بحيث يكون لكل واحدة خصائصها المميزة الى جانب العناصر المشتركة بينها جميعا.

وعلى ضوء هذه الكلية يمكننا أن نتبين بوضوح موقف الإسلام من الحضارة العامة، ونوع الحضارة التي تنتمي اليه بخاصة.

وطبيعي أن يبدأ ذلك من منطلق القيمة الأساسية للانسان بالنسبة الى الكون والحياة والأشياء والأعمال.

وأول ما يواجهنا من هذا الجانب ذلك الامتياز الذي أسبغه الله على جنس الانسان ممثلا بأصله الأول، حين خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وكرمه بإسجاد الملائكة له، ثم أهبطه الى الأرض مزودا بخاصية المعرفة، ومشحونا بالأشواق القدسية الى موطنه الأعلى الذي منه خرج بوسوسة العدو، الذي حسده على امتيازاته، فآلى ليغوينه وذريته أجمعين، فهو منذ اللحظة التي وطىء بها وجه هذه البسيطة قد أوتي العلم بأن مهمته الكبرى هي تشييد ملكوت الله، والانتصار على عدو الله، لتتاح له العودة الى جنته

الموعودة.

وقد أتم الله نعمته على هذا الجنس، فلم يدعه لنفسه يتخبط في مهامه الحياة بغير دليل، بل بشره وحذره منذ يومه الأول، اذ وجهه الى المخطط الذي يعصمه من الزيغ والزلل، وذلك بقوله الحق: (فإما يأتينكم مني هدى، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا/ طه ١٢٣ - ١٢٤).

ومن ثم مضت قافلة البشرية في شعاب الحياة، فكان من طبيعة الأشياء أن تختلف بها الخطى، فيثبت على السبيل السوي من حفظ على نفسه الوعي لذلك المخطط، فظل معتصما به فسلم وسعد، وغلب الشيطان على الغافلين فأقصاهم عن ساحة النور الى مستنقعات الظلام.. ولما آذن الفجر المحمدي بالاطلال كانت الأرض كلها كما وصفها رب العزة بقوله سبحانه: (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلهم يرجعون/ الروم ٤١) فلم يبق ثمة أثارة من النور الذي حمله رسل الله الى عباده، خلال القرون، اذ جرف الفساد سكان الجزر وأهل اليابسة دون استثناء بسبب انحرافهم عن سبيل

الهدى واستسلامهم لأهوائهم بعيدا عن وحي الله، وبذلك كانت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أكبر حدث في تاريخ البشرية، لأنها كانت منطلق الضوء الجديد الذي رحم الله به عباده، فأبان لهم الطريق القويم الذي بعد به عهد القطيع التائه.

ومن هنا كان المسلم هو الوارث لرسالات الله، وهو الرائد الذي كلف مهمة القيادة لانقاذ العالم من قبضة الطواغيت، الذين لم يراعوا في الانسانية إلا ولا ذمة. ومع تصرفات الرعيل الأول من تلاميذ هذه البعثة المباركة انطلقت تباشير الحضارة الصحيحة، التي جاءت نموذجا كاملا للغايةالتي حددها كتاب الله في قوله المبين لرسوله الأمين صلى الله عليه وسلم: (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين /٢١ /١٠٧).

وإنما كانت حضارة الاسلام هي الحضارة الصحيحة لنهوضها على القواعد الربانية التي تربط نفس المؤمن بمصدرها الأسمى، فتمنحه بصيرة خاصة يرى الكون كله من خلالها وحدة متكاملة، كل جزء منها يعمل مع غيره لإبراز عظمة الله وحكمته ورعايته..

وفي نطاق هذه الرؤية يتحرك المؤمن للإسهام مع مجموع

الكون في ضبط مسيرة الحياة، ضمن حدود النظام الأفضل الذي به وحده تشرق الأرض بنور ربها..

عقيدة وسلوك ونظام:

ذلك لأن لحضارة المسلم أبعادها الثلاثة، فهي أولا عقيدة تتمثل في عبادة الله وحده واعتبار كل شيء من علوي الوجود وسفليه مخلوقا مثله لهذه العبادة الخاصة الخالصة، ثم سلوك نظيف ينبثق من هذه العقيدة المضيئة فلا يفارقها قيد شعرة أثناء رحلته الدنيوية كلها، حتى اذا مسه طائف من الشيطان، فزاغ به لحظة عن سواء السبيل، لا يلبث أن يتذكر فيستعيد مكانه من الموكب المبارك.

ثم ذلك النظام الذي لم تنقطع مؤشرات هدايته عن الإنسان منذ قذف به الى هذه الأرض.. فهو منه أبدا على بينة من الطريق والهدف والعمل فلا يضل ولا يشقى ما اعتصم بحبله.

وبقليل من التأمل يدرك المفكر أن انسانا من هذا الطراز سيكون من مميزاته الكبرى اسباغه خاصة العبادة على كل عمل يقدم عليه، فاذا أسلم الآخرون أزمتهم

للمصادفات تعصف بهم ذات اليمين وذات الشمال ظل هذا الآنسان المختار مسلما وجهه الى ربه، ملتزما معالم المنهج الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من المشكلات الا وضع لها حلها خاصا، أو مندرجا تحت قاعدة عامة...

واذن فلا انفصام لدى هذا المسلم بين سلوكه الروحي، الذي يستهدف تحقيق الكمالات الخلقية، وسلوكه المادي الذي يفرضه يقينه الحتم بأن الله قد سخر له ما في السموات والأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فمنحه بذلك القدرة على الابداع والاتقان والعطاء الذي يجمل الحياة ويوفر الهناءة لسائر الاحياء..

ومن هنا كانت منجزات هذا الانسان صادرة بأسرها عن منطقة الوعي، الذي حدد مهمته بأنها انشاء الكيان الأمثل، الجامع بين أنواع الفضائل دون تحديد، ومن أجل ذلك كان المسلم، في كل زمان ومكان رسول هداية، وباني حضارة وداعية سلام ورحمة، يأمر بالمعروف، الذي تتطلع اليه الفطرة السليمة وينهى عن المنكر،، الذي به تفسد الحياة، وتتفكك عرى الانسانية.

الاسلام هو الحضارة:

ولقد رأينا بعض المفكرين المحدثين يفصلون بين الحضارة والمدنية، فيعتبرون من أشياء الحضارة كل ما يتصل بالفنون والآداب والدين والفلسفة، وما الى ذلك مما يسمونه اليوم بالعلوم الانسانية، لاقتصارها على الجانب المتصل بالنفس الانسانية فردا وجماعة.. ويجعلون الجانب الخاص بالصناعات والرياضيات والكيمياء والفيزياء والكهرباء، وما اليهن من العلوم الباحثة في اسرار المادة من متعلقات المدنية.

وعلى أساس هذا التقسيم يفرقون بين ما ينبغي أخذه وما ينبغي تركه من منجزات الثقافة الغربية.. مطلقا سواء كانت غربية أو شرقية، كتابية أو وثنية.. فالحضارة الغربية هذه في ضوء هذا التفكير من الأمور التي لا يجوز أن يسمح لها بالتسلل الى وجود المسلم، لأنها حصالة مواريث عقلية واجتماعية تحدرت الى أصحابها من مئات الروافد الخاصة، وقد تفاعلت معها خلال التاريخ حتى كونت منهجا سلوكيا يفصلها عن سائر الجماعات، ولا يقبل امتزاجا مع اي منهج لأي أمة اخرى لا تشاركها في هذه المواريث.

أما المدنية، فلتعلقها بالجانب المادي الصرف، تعتبر

بنظر هؤلاء المفكرين عنصرا حياديا لا سلطان له على السلوك الاجتماعي، الا في حدود ضيقة وسطحية، ليس من شأنها أن تمس الخصائص الذاتية للأمة، أو تغير من تكوينها الفكري والتصوري.

والحق أن في هذا التقييم الواقعي لحظا كبيرا من الحقيقة، ندرك أهميته من خلال معايشتنا للاحتكاك القائم بين تيارات الانسانيات المقتحمة على العالم الاسلامي من هنا وهناك، وبين مواريثه الروحية التي بدأت تترنح في صدور الكثيرين تحت ضغط هذا الغازي، الذي فاجأه على حين غفلة وعلى غير استعداد.

بيـد أن الشخصية الاسلامية الثابتة أبدا في وجه الأعاصير لا تقبل التفرقة بين الحضارة والمدنية، كما هو الشأن في الثقافات الدينية الأخرى، حيث يسمح للانحدار الخلقي أن ينتشر ويستبحر بجانب (الطقوس) الروحية التي استحالت رموزا خالية من كل اثر فعلي.. ذلك لأن وحدة الحياة والانسان والكون، في ضوء الرؤية الاسلامية، تجعل كل عمل سواء كان خلقيا او صناعيا موجها الى تحقيق المثل الأعلى.. فليس في مجتمع الاسلام فصام ذاتي، ولا تمييز

عنصري ولا سياسة ذات وجهين ومكيالين، ولا علم مسخر لمصلحة شعب دون آخر.. فهو لأصحابه قوة واستعلاء ولغيرهم اذلال واستغلال.. بل هو الاسلام الذي لا يفرق في عدالته بين العدو والصديق، ولا يخص بنور العلم قريبا دون بعيد، لأن تقييمه للعلم قائم على أنه الوسيلة الى مرضاة الله، وأن مهمة أولي العلم من أهله دائما وأبدا توسيع دائرة النور من جهة، وتصحيح مسار الناس من حولهم، وبأقصى ما يستطيعون، من جهة اخرى ابتغاء التحقق بالخير الذي وصف الله به العالمين في قوله الكريم (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)(١١/٥٨٢).

وبهذه الخصائص المتفردة المتكاملة كان (الاسلام هو الحضارة) كما يقرر الشهيد سيد قطب (رحمه الله) ولا مندوحة من قبول هذا التقرير اذا أيقنا أن الهدف الاقصى من الحضارة هو تعاون المواهب البشرية لبناء المجتمع الأسعد والأطهر.

ولكي تتضح هذه الصورة أكثر فأكثر نتذكر أن مفهوم الآخرين للحضارة لا يتجاوز مجموع الإنجازات التي حققتها الأجناس البشرية على مر العصور، دون تفريق بين الموافق

منها لمصلحة الانسان والمناقض، فكان حصيلة ذلك الضياع أن استحالت تلك الإنجازات إلى ركام هائل من التناقضات، يختلط فيها الخير بالشر، والسم بالترياق، لأنها في منطلقاتها الأولى لم تتصل بالضمير المؤمن، فلم تقم وزنا لصالح الجماعة البشرية، وانما نتجت عن خبرات مرتجلة كان الدافع اليها تحقيق المنفعة العابرة لفرد او رهط، دون اعتبار لما وراءهم، وهكذا صار الأمر بهذه الخبرات الى التصادم المستمر، ومن ثم الى الصراع خلال مجموعات الناس، فبدلا من أن تقارب بين الواحدة والأخرى، اذا هي تبالغ في تمزيقها وتسرف في المباعدة بين أجزائها.

إنها الصورة المكثفة للحضارات التي أنتجتها التجارب البشرية عبر القرون المتطاولة، في معزل عن النور الالّهي، الذي اكرم الله به الانسان، فأقام له الصُّوى في الطريق الذي لا يضل سالكه.

ونظرة واعية الى واقع الحياة البشرية الراهنة تكشف لنا هول الشقاء الذي تعانيه في ظل هذه التجارب العمياء، التي أحالت الوجود ساحة عراك شيطاني، يأكل فيها القوي الضعيف، ويمزق الضعيف الأكثر ضعفا ويترقب كل فريق

غفلة الفريق الآخر ليجعله أثرا بعد عين.. ويحشد الجزء الأكبر من ثروات الارض، ومبتدعات العلوم للتسابق في حلبات التدمير والتخريب ونشر الرعب، حتى لم يعد في الأرض على رحبها ملجأ لإنسان يريد الأمن والعافية..

ربانية وترابية.

أجل.. ان في ركام هذه المخلفات الهائلة لبروقا من الخير تنطلق خلال الظلمات، فتذكر الانسان بما غفل عنه من حقيقته، الا أنها لا تلبث أن تنطفئ فيعود الظلام أشد ثقلا.. فبلاغات عن حقوق الانسان، وملاجئ للعجزة والايتام، ومدارس وجامعات، ويوم للأم وآخر للطفل... وما لا يحصى من مظاهر الاحسان..

ومع أنها لا تعدو كونها بقايا لمعات من فضائل الرسالات الآلهية، فهي شهادات ناطقة بفضائح هذه الحضارة. ذلك لأن اعترافها بحقوق الانسان لم يكن سوى رد فعل لحرمان الانسان في ظلها كل حق، وليست ملاجىء العجزة الا صورا كئيبة لانهيار الأسرة في كنفها، حتى لا يجد الوالدان العاجزان لدى أبنائها مجالاً للرحمة والرعاية، فتقوم الدولة بإيوائها كما تقوم برعاية الحيوان عندما يصير الى الوهن..

وربما انقطعت الصلة بينها وبين اهليها بمجرد نقلها الى الملجأ فلا يلتقون بعد ذلك الا في حفلة الدفن..

أما مأساة الأيتام في عهدة هذه الحضارة فأهول وأشنع.. ذلك أنها أطلقت عقال الشهوات حتى امتلأت الأرض بالفجـــور، ومن ثم باللقطاء الذين لم يذوقوا رائحة الأبوة قط، فكان على الدولة، التي أقرت التشرد، أن تقوم بمسئولياتها في إيواء ثمراته وتغذيتهم وتعليمهم، بعد أن حرمتهم حقهم من حنان البيت[1].

وما الداعي للاحتفال بيوم الأم لو كان للأم الولد الذي يحوطها ببره وتقديره.. على طريقة المسلمين الذين يؤمنون بأن الجنة تحت أقدام الأمهات.

والطفل!... أليس مجرد تخصيصه بيوم واحد للرعاية دليلا جازما على أنه كان محروما منسيا من كل ذلك طوال العام!...

ونظرة الى واقع الدراسة العلمانية في مراحل التعليم

(١) - في ص ٢٧ من العدد ٤٣٣ من مجلة المجتمع ما يلي (١١٠ آلاف امرأة في بريطانيا خضعن العام الماضي لعمليات اجهاض قانوني وغير قانوني. وفي بريطانيا ٦٠٠ ألف طفل لا آباء لهم.

جميعها تكشف الخلل الرهيب الذي تقوم عليه بالنسبة الى نفس الانسان وعقله.. إنها تمزق الوشيجة الطبيعية التي تصل فطرة الانسان بخالقها، ثم تلقي في روعه أنه ليس سوى لبنة في بناء، اوسنا في آلة، فليس له من دنياه، الا ما يطفئ شهوته، أو يحقق متعته، وعلى الدنيا والناس كلهم بعد ذلك العفاء.

وأين جامعات هذه الحضارة من كرامة العلم التي يتمثلها المسلم وهو يقرأ قول ربه عز وجل (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ٣٥/٢٨) أو يتأمل في قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم (تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار) [١] و (فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد) [٢].

ولا غرابة أن يختلف المفهومان بإزاء العلم، حتى يكون في إحدهما وسيلة الدارس الى جيفة يغالب عليها الذئاب، على حين هي في الثاني المصباح الذي يهتدى به ويهدي، فهو انما يطلبه لاستكمال إنسانيته، وللسمو بطبيعته إلى منازل

---

(١) - جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ١٢٥ / ج ١

(٢) - المصدر نفسه ص٢٦ ج ١.

الملأ الأعلى من ذوي الحكمة والمعرفة كما عرضها الشاعر المؤمن في هذه الصور الأخاذة:

هـذب النفس بالعلوم لترقى وترى الكل، فهي للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة والعقـ ل سراج، وحكمة الله زيت
فـاذا أشرقـت فإنك حي وإذا أظلمت فانك ميت.

فلا مسوغ للخلاف اذن على أن الفرق بين حضارتنا الربانية وحضارتهم الترابية هو الفرق بين أحوال الأحياء وأحوال الموتى.. وعبثا يراد من هذا الارتفاع الى مستوى تلك الا أن تدب الحياة في أوصال الأموات فينظروا الى الواقع ببصر جديد حديد. (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منهـا)؟.. ٦/١٢٢.

وما أدري كيف قفزت الى ذهني هنا صورة الانسان الأول وقد أكملت يد البارئ الحكيم تصويره ولكنه لم يزل تمثالا من الطين، حتى شاء الله تمام الفضل عليه فنفخ فيه من روحه، فاذا هو آدم دما ولحما ونطقا وفكرا وخيالا وتأملا.. وطاقات لا محصي لها الا مبتدعها من العدم سبحانه.. وتتداعى مع هذا المشهد صور الحضارة الترابية،

وقد حشدت إنجازاتها ومركباتها الهائلة، فإذا هي تمثال يهول ويروع، ولكنه ميت لا حياة فيه، وسيظل كذلك حتى ينفخ الاسلام فيه من روحه، فينتفض ليتخلص من قيود الموت، ومن ثم يتحرك في طريق النور، ليكون كشأن حضارتنا القرآنية هدى ورحمة وسلاما للعالمين.

فبالاسلام اذن يمكن لهذه الحضارة المخربة للانسان أن تتحول الى البناء الحق.. أما أن تنقلب الأفهام، حتى يسمح لسموم هذه التركيبة المرتجلة أن تتسرب الى مجتمع الاسلام، فتلك هي المحنة التي تهدد الانسانية كلها بالدمار، لأن ذلك سيبطل يومئذ عمل الحضارة الاسلامية في الشهادة والهيمنة والتصحيح العالمي.

في الخبر الذي أخرجه الدارمي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خطّ خطا ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو اليه. ثم تلا (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله).

وفي هذا التمثيل تصوير محكم لالتزام المؤمن طريقه العاصم من الزيغ حين تشتبه على الناس المسالك، وتضطرب بهم الأهواء، فيكون هو الوحيد المطمئن الى موقفه. وقد

أدرك الرعيل الأول هذه الحقيقة فاستعصم بها، فذللت لهم كل عصي، ومكنت لهم من أزمة العلم والحكم، فأثبتوا أنهم خير أمة أخرجت للناس.. ثم خلف من بعدهم خلف فرطوا بأمانة الله، واستهوتهم موبقات الشعوب المنحلة فشغلوا بها عن رسالتهم، فاذا هم نهب لكل طامع، وغرض لكل رام، قد شردهم العدو كل مشرَّد، فانتزع منهم أوطانهم، ورد من استطاع منهم عن دينه.. وبدلا من أن يتعظ اللاحقون بالسابقين، فيتجنبوا مسلكهم، ويثوبوا الى سبيل الله، ويعتصموا بمنهج رسول الله، اذا هم - الا من رحم الله - يوغلون في التيه، فيتوزعون بين عدو من الشرق وغاز من الغرب، ويجربون كل خطة تجلى إخفاقها، إلا خطة العودة الى الله.. ولا حول ولا قوة الا بالله.

معركة تتجدد:

مع مطلع الهجمة الاستعمارية، قبل قرن ونصف، تجددت المعركة بين هذه التيارات الوافدة وبقايا القيم، التي استطاع العالم الاسلامي الاحتفاظ بها، على الرغم من مئات الكوارث والهزائم والزلازل..

وقد تفاوت أثر هذه الهجمة قوة وضعفا وقربا وعمقا في

أبعاد الشخصية الاسلامية.. فمن ذهول أخل بموازين التفكير لفترة طالت في بعض الانحاء، وقصرت في بعضها الآخر، الى افاقة ردت اليها بعض الوعي، فجعلت تقارن بين ما ترى وما [illegible]، الى يقظة توشك أن تثبت وجودها تلقاء الهجمات الجديدة التي يشنها عليها فريق من الشباب المضيع، يتكلم لغة المسلمين، وينتسب الى معدنهم، ولكن التربية الغربية، التي نشأ عليها في محاضن أعداء الاسلام، قد جعلته يمرق منه كما يمرق السهم من الرمية، فهو يؤمن بكل ما هو مخالف لتراث أمته، ويسخر بكل عريق من فضائلها، وينكر عليها كل حق في أي من ميادين الحياة.. وقد وزعه موجهوه على مختلف الجبهات من حلبات المعركة ودفعوا به الى قمم الحكم، حتى بات هو الذي يوجه دفة الحياة في عالم الاسلام، فلا يقبل منه ما دون التخلي عن قيمه الربانية جميعا..

وقد وصفت هذه المعركة بالتجدد لا البدء، لأن الغزو الفكري للعقل الاسلامي قد بدأ فعلا منذ مطلع النصف الثاني من القرن الهجري الأول، وكان ذلك عن طريق الدعوة السبئية، التي دست في أخلاد الغوغاء فكرة تأليه الانسان ممثلا في شخص الخليفة الرابع، الذي قابل هذه

الثائرة بما تستحقه من القسوة.. ثم ما لبث الفتح الاسلامي لبلاد فارس أن أطلق شرارة الاحتكاك بالأفكار المجوسية الفارسية، وما اتصل بها من مؤثرات الوثنية الهندية، فاذا هناك أفّاقون لم يرضهم بقاء الوحي على صفائه، فشرعوا في محاولاتهم تعكيره بما اثاروه من شبهات في قلوب الجهلة من الأعراب وأشباه الأعراب.. وسرعان ما اتسع هذا الفتق اذ وجد من يقول بالرجعة ويستبدل بفكرة البعث ايمانا بالتناسخ الذي تزعمه الوثنيات الهندية.. ثم مضت الفتن في طريقها يؤججها الحقد اليهودي والدسائس المجوسية، وتعمل عملها الخفي في تمزيق الصفوف بتمزيق الافكار، التي جعلت تخضع المجتمع الاسلامي المركب من عشرات الألوان والمواريث.. وأخيرا جاءت الروافد الفلسفية من تراث يونان لتعمق الهوة، فتصعد الحوار الى ضرب من الصراع الذي انتهى الى العديد من المآسي.. حتى بلغت الفتنة ذروتها على يد المعتزلة التي أرادت إخضاع الوحي للعقل، وحاولت إكراه المخالفين على الذوبان في نحلتها بكل الوسائل التي تملكها القوة المستبدة، ولولا الهمم الخارقة التي جوبهت بها من قبل أولي العزم من أئمة المسلمين، لانتهى الاسلام الى المصير نفسه الذي صارت اليه اليهودية على

أيدي مؤلفي التلمود، والنصرانية بأيدي بولس وأشياعه من تلامذة الفلسفة الافلوطينية من بعد..

على ان هذا المسلسل من الصراع المستمر بين الاسلام والتيارات الغربية قد سجل أكبر احداثه منذ مطالع القرن الجاري وحتى اليوم، اذ ترك من الندوب والجراحات في كيان الاسلام ما يوازي جماع آثاره الماضية بل أكثر، وكان للتقدم التكنولوجي في الغرب ثقله في ذلك، لأن الغزاة قد استغلوا كل منجزاته المادية في حرب الاسلام، على حين لم يستطع العالم الاسلامي على امتداده النهوض على قدميه بعد في هذا الميدان فكان لتخلفه، وحاجته المستمرة الى صناعة الغرب وعلومه المدنية، أكبر الأثر في كل انتصار حققه الزحف الغربي خلال دياره..

النشء الضائع:

لقد أناخ الاستعمار الصليبي على صدر العالم الاسلامي عشرات بل مئات السنين، استطاع أثناءها تحطيم الكثير من طاقاته، واستلاب الكثير من خيراته، وزلزل الكثير من امكاناته، ولكنه عجز عن الحاق الهزيمة الحاسمة بمقوماته الروحية،، حتى اذا اضطر الى إخلاء مواقعه للمقاومة الإسلامية، التي لم تخمد جذوتها قط غادرها بعد أن زرع

أرجاءها الغاما لم تلبث أن شرعت تتفجر فتنسف وتدمر، وتعمل خلال جيل واحد ما لم يستطعه هذا الاستعمار خلال أجيال.

لقد أدرك أساطين الغزو الصليبي، ومن ورائه اليهودية أنهم لا بد تاركون هذه المواقع ذات يوم، وأن إخلاءهم أرض الإسلام من وجودهم، أيا كان هذا الوجود سيعطي الاسلام فرصة العودة الى التاريخ كرة أخرى.. فكان عليهم أن يتداركوا هذا الخطر من داخله بما يحول دون انطلاقه.. وقد تم لهم ما أرادوا اذ لم يزايلوا مراكزهم في قلب العالم الإسلامي إلا بعد أن أنشئوا على أعينهم ذلك الجيل الذي يريدون منه أن يتولى عنهم مهمة تثبيت وجودهم الى الأبد..

بدأ هذا النشء محدود العدد، ولكنه يملك من الامكانات مثل الذي يملكه قاطع الطريق المسلح بالرشاشات والقذائف، فيها ما يستطيع السطو على القوافل الكبيرة، والقاء الرعب في الجموع الكثيرة.

فأبناء (ذوات) استطاعوا استهواءهم بالمناصب البراقة، ثم استجروا أبناءهم للتعلم في مدارسهم التي أعدت للهدف البعيد، ومن ثم ساقوهم الى ديارهم، حيث أسلموهم الى

شياطين عرفوا كيف يغسلون أدمغتهم من معاني دينهم، ويشحنونها بما طاب لهم من سمومهم.. فلما عادوا الى بلادهم وجدوا الطريق معبدة لتسنم القيادة في خدمة أولئك السادة.. حتى اذا حان موعد جلاء هؤلاء الدخلاء كان كل شيء معدا لمواصلة المسيرة الشيطانية في الطريق المرسوم..

والى جانب أولئك المنظمين آخرون اختارهم العدو لدعم سيطرته عن طريق القوات المسلحة، فما زالوا يتقلبون في ظلاله حتى انتهوا الى المراكز العلى، فلما كانت ساعة الصفر لم يجدوا صعوبة في الاستيلاء على كل شيء.

وعلى أيدي هؤلاء وأولئك انطلق الروح الشيطاني يمارس عملية التحويل والتغيير، التي تناولت كل مرفق من مرافق الحياة العامة، على صورة لم يعهد مثلها من قبل.. وها هو ذا العالم الاسلامي دون استثناء أي جزء منه، يواجه هذه العملية الشاملة، كما يواجه الإنسان الحريق يلتهم داره وفيها كل عزيز عليه.

لقد ألف المسلمون طلائع هذه المحنة من قبل، أيام كان أحفاد الصليبية يجتاحون ديارهم بعد أن تحطم في أيديهم السلاح، ولكنهم لا ينسون أن أولئك كانوا ينفذون خطتهم

في كثير من الأناة والحذر والتدرج، فلا ينزلون ضرباتهم في المواطن الشديدة الحساسية بطريقة مباشرة، بل يداورون ويحاورون حتى يتمكنوا من ضعضعة البناء قبل الانقضاض عليه.. أما وقد غاب وجههم وتوارى شخصهم فلا مانع أن يعدلوا أسلوبهم ويسلكوا إلى غايتهم كل سبيل دون تحفظ، ما دامت الأيدي التي أعدوها لهذه المهمة هي التي تتولى ذلك عنهم.

بالأمس كان الهجوم على الإسلام عن طريق التعليم الذي فرضه المستعمر بلغته، وعن طريق النماذج التي يضخمها من أبطاله القوميين، دون أن يتعرض للقيم الإسلامية أو يسيء إلى رجال الإسلام، الا في حدود ضيقة.. وقد ترك للمسلمين أن يتعهدوا أجيالهم بالتوجيه الروحي والثقافي الذي يحفظ عليها أصالتها.. وعلى الرغم من إعماله قوانينه الوضعية في سياسة بلادهم لم يمس كيانهم الاجتماعي في نطاق الأسرة، فترك لهم أن يتحاكموا الى شريعة القرآن في كل ما يتصل بهذا الجانب، وهكذا ظل البيت المسلم محافظا على قواعده ومقوماته وشخصيته، ومن هذا البيت انطلق شباب الاسلام يناجزون العدو،

ويواجهون أسلحته بصدورهم حتى أدركهم الله بالنصر الموعود، فطهروا أوطانهم من جنوده، بعد أن سقوا هذه الأوطان بالسيول من دماء الشهداء.

كذلك كان الأمر من قبل.. أما بعد جلاء جيوش الاحتلال عن أرض الاسلام، فقد أوشك التعليم أن يستحيل الى تجهيل، وقد طغت تيارات الفكر الدخيل على كل شيء حتى باتت هي المعيار الذي تعرف به الأقدار.. والأسرة التي صمدت طويلا في وجه الأعاصير قد شرعت تتداعى تحت وطأة الهجوم الذي تشنه وسائل الاعلام في الشارع والمدرسة والأندية، وتقتحم على الناس حتى مهاجعهم، لتجردهم من بقية المقومات التي تعهدت صيانتهم من الذوبان في مراحل الحدثان كل هذه الأزمان.

لقد أوشكت معايير الاسلام أن تختفي في الكثير من جوانب المجتمع الاسلامي أمام هذا الغزو الكاسح، حتى أن البيت المحافظ ليفتح صدره في رضى لأزياء الأعداء وطرائقهم في المسكن والمعيشة والتبذل.. وكأن هؤلاء المسلمين لا علاقة لهم بتحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين من مجاورة الكافرين ومخالطتهم لئلا تتسرب اليهم

بعض اخلاقهم، حتى ليقول: (أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين[1]).

وكأني بهم لا يقرؤون قول ربهم في تعليل ذلك التحذير (والله يريد أن يتوب عليكم، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ٤/٢٧).

قيمنا في خطر:

والتعليم والبيت والإعلام هي الأركان الثلاثة التي عليها ينهض بنيان الحضارة.. ولا سبيل لبقاء حضارة فقدت أحد هذه الثلاثة. ولا شيء أكثر تعرضا للفساد والخلل من هذه الثلاثة.

وقد رأيت فيما أسلفنا - مكانة البيت في معيار الغرب، حيث لا يتجاوز معنى الحظيرة يلتقي فيه الأفراد كما يلتقي القطيع على العلف والاستجمام، ليستأنف الكدح من بعد وهو أوفر قوة واكثر انتاجا، حتى اذا استوفى الصغير منه سن الاستقلال غادر ذلك البيت الى غير رجعة.. واذا استهلكت الشيخوخة قدرة الكبير نفي منه الى المكان الذي يهيئه للقبر، على حين لا ينفك البيت

---

(١) - أخرجه ابو داود والنسائي والترمذي /١٥/

المسلم - ولله الفضل والمنة - تلك الواحة الظليلة التي يجد فيها المسلم السكن، ويمارس في كنفها أفانين المودة والرحمة، فمنها يتلقى أول دروس الفضائل، وفيها يتدرب على أطهر وأنظف أساليب الحياة.

وكذلك لاحظت هناك الفرق بين عمليتي التعليم في معاييرنا ومعاييرهم. فبينا هو - في أسمى تصوراتهم - وسيلة الانسان إلى ادراك ما حوله، وتحقيق رغباته في متاع الدنيا، يحتل في قلب المسلم مكان القداسة، لأنه سبيله الى التعامل النظيف مع الحياة والناس والأشياء، حتى يحقق في نفسه النموذج الأمثل للعدالة الممثلة في التوجيه الالّهي (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله، ولو على انفسكم او الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وان تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ٤/١٣٥).

والبيت النظيف مدعوما بالتعليم الدافق من منابع الوحي، لا بد أن يزود المسلم بالحوافظ العاصمة من مختلف القواصم، فيكون طبقا لما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم (كمثل النحلة أكلت طيبا ووضعت طيبا ووقعت فلم

تكسر ولم تفسد[1] فهو صورة حية من قيم دينه، إذا تكلم أو علم او كتب، فأمر بمعروف، ونهي عن منكر، ودعوة إلى حق وإذا سمع اللغو أعرض عنه تنزها عن مجاراة السفهاء، وإذا أخذ في عمل ادى له حقه من الاتقان الذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وأبى في ذلك كله أن يتقبل فسادا، أو يكون سببا إلى فساد.

على أن هذه الصور المشرقة، وان بقي الكثير من آثارها هنا وهناك، فلا مندوحة عن الاقرار بما اعتراها من تخلخل خلال المرحلة الراهنة من تاريخ الاسلام.

لقد بدأ هذا التخلخل اول الامر في مناهج التعليم، اذ تولى أمرها أولئك الذين كفروا بالقيم الأصيلة فراحوا يتبنون كل نظرية عمل لها العدو أو دعا اليها، حتى ولو ثبت فسادها بشهادة أهلها.. وكانت الخطوة الاولى في هذه السبيل اقامة ضرب من التعليم الجديد منفصل عن تراثنا التعليمي المستمد من منابع الكتاب والسنة وتجارب السلف، وهكذا وجدت الأمة نفسها فجأة تلقاء هذه الثنائية المتباينة، مناهج تعد الفرد المناسب للخدمة الرسمية مقابل الرواتب المغرية، وأخرى مقطوعة عن الحياة العامة، تهيء

(١) - من حديث طويل رواه الامام احمد ج ٢ ص ١٩٩ عن عبد الله بن عمرو

للمجتمع متطوعة يلقنون الناس المعلومات التي تصح بها عبادتهم دون أن يكون لهم حظ في راتب حكومي.. وسرعان ما أثمر هذا الازدواج تمزقا جديداً في وحدة الامة تبعا للتباين الفكري الذي يمثله كل من الفريقين.

حتى الراقصون يفضّلون.

وطبيعي ان تكون حصيلة هذا التباين بالدرجة الاولى إيغال القابضين على أزمة التوجيه العام في استقطاب الطاقات لصالح الخط الذي ينتهجون، ومن ثم في عزل الآخرين من حفظة التراث الاسلامي عن مراكز التأثير في حركة المجتمع ما وجدوا الى ذلك سبيلا.

ولعل أقرب مثال على هذه الوقائع حرمان أصحاب التعليم الإسلامي من اي حق في الخدمات الرسمية في معظم بلاد المسلمين، وان تفاوت مدى هذا الحرمان بين إقليم وآخر. ففي تركية مثلا يضطر حامل الإجازة الجامعية في العلوم الشرعية إلى الخدمة في الفنادق ليقي نفسه وأهله شر البطالة، وفي الهند وباكستان - حتى عهد بوتو - لا يجد خريج المعاهد الإسلامية مجالا للعمل خارج نطاق الوعظ والارشاد، وتلقين اطفال المسلمين بعض سور القرآن.

وفي ظل الحكومات الاشتراكية مطلقا لا يختلف وضع الدارس الشرعي عن ذلك، إذ لا حق له في أي وظيفة حكومية، إلا أن يتخلى عن التزامه الديني ليصل الى عمل ما تحت مظلة الحزب الحاكم.. ولعل الكثيرين سمعوا ذات يوم مراسل صوت اميركة في القاهرة يعلن في اخبار الفن أن خمسة واربعين راقصا قد تخرجوا - وتخرجن - في معهد الباليه،فضموا لفورهم الى الفرق القومية، على حين لا يكاد يجد خريج الأزهر سبيلا الى التعيين الا بعد شياط وهياط وزمان قد يستوعب السنين.

وبين يدي - وانا اسطر هذه الصفحات - رسائل من مدرسين في بعض أنحاء العالم الاسلامي يذكرون لي انهم لم يتناولوا أي اجر منذ عدة أشهر.. وليس هذا عني بغريب، فقد زرت معاهد إسلامية مكافحة في الفلبين وعلمت أن راتب بعض المدرسين فيها لا يتجاوز سبعة الدولارات في الشهر، وقد تتَّابع الأشهر دون أن يحصلوا حتى على هذا القدر الهزيل.

وليس حظ الكثيرين من نظرائهم بخير من ذلك في باكستان والهند، حيث يقف دخل الواحد منهم في الغالب عند حدود روبيات قليلة. ومرد ذلك كله الى تشابه حالة

المدارس الاسلامية من حيث اعتمادها على تبرعات المحسنين غير الثابتة.

مزيد من الزحف:

هذه الاوضاع الرهيبة التي تواجه التعليم الاسلامي في معظم بلاد المسلمين، قد انتهت به الى مأزق شديد الحرج، إذ بات المقبلون عليه عبارة عن متطوعين لا يأمنون أن تستمر لهم تلك المعونات الشعبية الى الأبد، وبخاصة بعد التطور الكبير الذي مكن لربيبي التعليم العلماني من الاستحواذ على سائر المرافق المدنية. وها نحن أولاء نرى بعض آثار هذا التطور في البيوتات التي توارثت أمانة العلوم الشرعية جيلا عن جيل، وقد قطعت حتى اليوم شوطا مديدا في البعد عن منهجها العريق، فهي توجه أبناءها الى كل مسلك غير المسلك الذي ألفته.. فأبناء كبار الفقهاء أطباء أو مهندسون او دكاترة في الفلسفة والأدب وحتى في الموسيقى، ونتيجة ذلك بارزة في مصير المكتبات الأسلامية الخاصة حيث تعرض للبيع في أسواق المخلفات.. لأن ورثتها لا يقيمون لها وزنا، ولا يعيرونها اكثر من نظرهم الى شيء استنفد أغراضه، ولم يعد بقاؤه مما يتفق مع التقدم التكنولوجي السريع..

ولا أصلح من مثل هذا الجو للمزيد من الزحف على البقية من حصون الإسلام.. وهكذا أصبحنا نرى حكاما يحملون هوية المسلمين، وربما خطت لهم قبور يوسدونها بعد عمر طويل في مساجد المسلمين، ليتخذ منها المصلون مزارات مقدسة.. نراهم يعلنون الحرب السافرة على الإسلام، فيرمون نبيه بالكذب، وينكرون الوحي الذي أنزله الله على قلبه من فوق سبع سموات، ويتخذون من ذلك وسيلة للعدوان على بقايا الشريعة الآلهية بالغاء حدود الميراث، ويشجع عدوانهم آخرين من الأفاقين فيزعمون إلغاء الفوارق بين الجنسين، ويعاقبون من اعترض مزاعمهم بإحراقهم أحياء في الساحات العامة.. وتتصل ثورة الغرور فاذا بأحدهم يرفع عقيرته اليوم بإلغاء نصف الاسلام اذ أعلن اكتفاءه بالقرآن ورفضه لحديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، بحجة أن في هذا الحديث ما لا يصل الى فهمه.. وقد فاته انه يقحم نفسه في غير ميدانه، وأنه بإنكاره الصحيح الثابت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يرفض كتاب الله نفسه، الذي يشهد لنبيه بأنه (ما ينطق عن الهوى) ٣/٥٣)، وأن متابعته صلوات الله عليه وسلامه شرط في مرضاة الله الذي يقول في كتابه الحكيم (قل

إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله (٣/٣١) ولا سبيل لاتباعه صلى الله عليه وسلم الا بالاستمساك بسنته قولا وعملا وتقريرا، ولو أمكن ضياع سنته صلى الله عليه وسلم لا نتفى امكان اتباعه، ولا نتفى بالتالي توافر البيان الذي لا مندوحة عنه لمراد الله الذي يقول لرسوله: (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) (١٦/٤٤).

وترتفع في هذا الجو المحموم صيحات العملاء من هنا وهناك.. فمسئول كبير في إحدى دول الاسلام الكبرى يصرح بأن تطبيق الشريعة الاسلامية يمزق الوحدة الوطنية.. وهو ترديد لذلك الصوت الآخر الذي يعلن في كل مناسبة أن بلاده مفتوحة لكل فكر الا أن يكون هذا الفكر دعوة لاحلال أحكام الله مكان القوانين التي أعلنت إفلاسها بألسنة قضاتها أنفسهم.. وحسب أمته التي تطالبه في كل مناسبة بتحكيم شريعة الله، أنه يترك لها حرية العبادة - على الطريقة الماركسية التي تحبس الإسلام في نطاق المسجد -.. والويل للمتطلعين الى ما وراء ذلك، فسيكون نصيبهم الفرم..

وفي هذه الغمرات المائجة تنطلق صرخات الناعقين بتحرير المرأة من روابط الأسرة، وتغريها بالتمرد على

قوانين الطبيعة، لتقذف بها الى الهاوية التي ابتلعت من قبلها المرأة الغربية، فسلختها من أنوثتها وأحالتها كناسة تجمع القمامة من الشوارع العامة، أو وقادة في الأفران العالية، أو سكرتيرة توفر المتعة والخدمة لسيد المكتب أو لصاحب العمل، أو (فنانة) تثير شهوات الفارغين في السهرات الحمراء، مقابل تصفيق الأوشاب وكلمات الإعجاب..

ماذا وراء تحرير المرأة:

وربما تطور عبث هؤلاء بالمرأة وبالمجتمع المسلم المخنوق المسحوق الى حد تسخيرها لإفساد الوسط التعليمي، بحلولها مكان المعلم في مختلف مراحل التعليم ولا يحتاج المفكر إلى كبير ذكاء كي يدرك ما وراء هذا الاتجاه من تخطيط يراد به القضاء نهائياً على بقية الرجولة في الجيل القادم»: وذلك عن طريق إزالة الضوابط الباقية من فضيلة الحياء في صدور الجنسين.. والغريب أن هؤلاء يقدمون على هذه التجربة بعد أن ثبت خطرها المدمر في امريكا وروسيا، حيث يحاولون التخلص من إسارها بكل الوسائل المتاحة لهم.

والحق أن أصحاب هذا التخطيط قد أثبتوا تفوقهم على سائر اخوانهم أولئك فهم لم يجاهروا بالحملة على أصول الدين، وفق ما ذهبوا اليه من الهجوم المكشوف بل عمدوا الى الوسيلة التي تحقق لهم كل ما يريدون دونما ضجة ولا تبجح..

ولنتذكر هنا ان كل المحن التي نزلت بالعالم الاسلامي من قبل على أيدي المتفلسفة والفرق المنسلخة عن جسم الإسلام، وعن طريق الزحف المغولي والصليبي الذي فتك بالملايين، ومحا المدن، وأخرج الاسلام من الأندلس بعد لاستقرار ثمانية قرون.. هذه المحن كلها عجزت عن تدمير البيت المسلم لأنها عجزت عن استجرار المرأة المسلمة الى مفارقة القيم التي اؤتمنت عليها.. ولذلك استطاع هذا البيت فيما بعد أن يحرك الطاقات النائمة، فتنطلق من جديد لمواجهة الغزوات الاستعمارية ولإحياء روح الجهاد في أعماق الشباب ومن ثم تتابعت قوافل الشهداء حتى حقق الله النصر الموعود بطرد العدو اللدود. ولنقارن ذلك بالأخطار التي نحن مهددون بها عندما تنجح جهود المغررين بالمرأة في الإجهاز على البيت المسلم.

اول البلاء الذي ينتظر المجتمع الاسلامي في ظلال هذا التخطيط الرهيب هو انسلاخه من القيم التي ساعدت على بقاء الاسلام حتى اليوم.. وحين يتجرد البيت المسلم من قيم الاسلام فسيكون مزرعة غير مباركة لإنتاج الجيل المشوه، جيل الخنافس والإمعات الذي لا يشعر بالانتماء الى هذه الأمة، بل سيكون ولاؤه كله لشهواته ولصانعي المغريات من الأعداء الذين ما برحوا يزرعون الألغام في طريق الحضارة الربانية، منذ بعث الله محمدا لإخراج العرب، ثم لإخراج العالم بالعرب، من الظلمات الى النور.

وما أحسب قوة تستطيع أن تحقق لإسرائيل الحماية الآمنة والبقاء الدائم، والتوسع الموصل الى أهدافها القصية، بمثل ما يفعله لها هذا الجيل الذي فقد هويته الاسلامية، وأصبح على أتم الاستعداد للسير خلف كل ناعق.. ويومئذ لن نجد، والعياذ بالله، حاجة للكلام عن حضارة للاسلام، لأنه لن يكون هناك انموذج يسعه أن يمثل بعض ملامح الاسلام.

شبابنا وقضية الحضارة:

وهذا يعني أن للمسلم الحق دوره الفعال في قضية

الحضارة، وله موقفه المعين من مضامينها سلبا وايجابا، لأنه بحكم عقيدته وسلوكه شهيد على الناس وله صلاحية الحكم على تصرفاتهم، لبيان مدى موافقتها أو مخالفتها لميزان العدالة والصحة، فإذا هو تخلى عن صفته هذه، واندمج في القطيع التائه، فقد أهليته للحكم والشهادة وعاد جزءاً من الآلة الكبيرة التي تدور بالناس على غير هدى.

وبتعبير موجز: إن موقف المسلم من الحضارة المعاصرة هو موقف الناقد البصير الذي يحدد القيمة ويشير الى مواطن الخطأ، ويدعو الى التصحيح، كمثل الطبيب الحاذق الأمين يشخص حالة المرض ثم يواجهه بالعلاج الناجح، وإذا وجد في الاصابة ما ينذر بسريان العدوى بذل جهده لحجر المصاب، حماية للمجتمع من انتشار الوباء،.. يستوي في ذلك الفرد المسلم والجماعة المسلمة والدولة المسلمة.

وسواء كان الفرد شابا أو شيخا او امرأة. لأن الاسلام أوجب المسئولية على الجميع دون استثناء فكلهم راع وكلهم مسئول عن رعيته. ولأن المسلم مزود بالوعي السليم لكل الحقائق، فبفطرته والتزامه روح الاسلام يحس كل شذوذ عن جوهر الحق والخير فينفر منه، ويعلن إنكاره اياه

بالحكمة والموعظة الحسنة.

على أن للشباب المسلم مزيدا من هذه المسئولية المشتركة، فهو بما ينطوي عليه من الطاقات النفسية والجسدية أقدر على التحمل من غيره، وأسرع الى الاستجابة، وإذا داخله الاقتناع بحقيقة ما بذل لها من ذات نفسه ما تقتضيه من الجهد دونما احجام او تردد.

وفي قصة أصحاب الكهف من القرآن العظيم درس أي درس عن أهمية الشباب وإقدامه على التضحية مهما كبرت، في سبيل الحقيقة التي انشرح لها صدره..

هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى، قد رفضت فطرتهم السليمة ضلال قومهم، فتنادوا لحماية وجودهم من لوثات الوثنية، وتميزوا عن المجتمع الزائغ بالمسلك النقي وبذلك خسروا مناصبهم الرفيعة، بين ظهرانية، مؤثرين الفقر على الغنى، والتراب الخشن على الأثاث الوثير. ولكنهم ربحوا راحة الضمير، وخلود الذكر. إذ جعلهم ربهم مثلا صالحا للأجيال، يتعلمون منهم كيف يؤثرون الحق على مرضاة الخلق بل على كل شيء.

وما كان شباب الرعيل الاول من صدر الاسلام سوى النماذج المثلى لهذا الطراز المميز بالخيرية على سائر الخليقة. لقد احتوتهم الجاهلية في ظلماتها أولا، فاتخذت منهم وقودا للفتن، وأدوات لنصرة الطغيان، وعاشوا كأسلافهم الضائعين خارج حدود التاريخ حتى أظلهم فجر النبوة، فاذا هم خلال اليسير من السنين أئمة الهدى وقادة البشرية ينطلقون في جنبات الأرض مبشرين المظلومين بالخلاص (من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام..)

نماذج من شباب الاسلام:

وهل نحن في حاجة الى عرض الأمثلة من أولئك العمالقة، وكلهم في العظمة والتفوق سواء.. فمن نختار منهم، وبمن نذكر من ذلك الجيل الخالد، وليس منهم رجل او امرأة إلا وهو كما قلت في آثار المدينة المنورة:

تروى الأعاجيب من أنباء مدرسة
فيها الأمينان جبريل وخير نبي
ربَّى بها الوحي جيلا لا كفاء له
على البسيطة من عجم ومن عرب

عندما أحدق شباب محمد صلى الله عليه وسلم بأسوار الإسكندرية بعث المقوقس الى قائدهم يدعوه لإرسال وفد يحاوره ففعل، وكان على رأس الوفد المؤمن الصحابي الجليل الأسود البشرة: عبادة بن الصامت، فاستكبر ممثل الطاغوت الرومي أن يحاور (ملونا) ولما اضطر الى ذلك جعل يساومه على فك (الارتباط) والوعيد.. فما كان جواب عبادة الا أن قال له: أبالدنيا تغرينا.. وإن احدنا ليكتفي منها بجفنة من سويق؟ أم بالموت تخوفنا.. والله ما منا احد خرج من بيته إلا وهو يدعو الله أن يرزقه الشهادة في سبيله!..

وكان ذلك كافيا ليعلم المقوقس أنه تلقاء طراز من الخلق لا تعرف له رومة أو أثينا ولا الدنيا كلها من قبل ذلك مثيلا..

وفي مشهد مماثل دخل وفد المسلمين بقيادة المغيرة ابن شعبة على رستم قائد جيوش الامبراطوية الفارسية، فلم يكتف المغيرة بالكلام، بل عمد الى الفعل المثير فزاحم رستما على سريره.. ولما نازعه حرسه في ذلك أجابهم: ويحكم، أيتخذ بعضكم بعضا أربابا؟.. أما نحن فليس لقائدنا على أحد من ميزة بل كلنا في الكرامة سواء.. وما دمتم على هذه

الحال فلا بد أن هلاككم على أيدينا إن شاء الله..

وكانت قذيفة محكمة لم تلبث أن عملت عملها في صدور القوم، اذ عرَّفتهم لأول مرة فساد النظام الذي يحكمهم، وسمو الدين الذي صنع من هؤلاء الفقراء القوة التي لا تقهر..

وسأل هرقل قيصر الروم قواده عن أسباب هزائمهم الدائمة امام مقاتلة المسلمين.. فقال أحدهم: ما منا رجل اذا لقيناهم إلا وهو يتمنى أن يقتل أخوه قبله، وليس منهم واحد إلا وهو يحب أن يقتل قبل أخيه.

فهتف هرقل: لئن صدقتني الوصف ليملكن ما تحت قدمي هاتين..

وسمع الفاروق رضي الله عنه وهو يجول خلال أزقة المسلمين بين أم وابنة لها..

تقول الام: امزجي اللبن ببعض الماء يرتفع محصوله..
وتقول البنت: ولكن أمير المؤمنين ينهى عن الغش..
وترد الأم: وهل يرانا أمير المؤمنين؟..
وتجيب البنت: ولكن الله يرانا يا أمَّاه..

ويمثل وفد سمرقند بين يدي حفيد الفاروق، المتحدِّر من هذه الفتاة العظيمة، أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، يشكو اليه قائد المسلمين محمد بن القاسم، مدعيا أنه اقتحم حاضرته دون إنذار سابق، فلم يتمالك الا أن كتب الى قاضي الجيش الاسلامي يأمره بالتحقيق في هذه الشكوى،، حتى إذا صحت كان عليه أن يأمر المسلمين بمغادرة المدينة خضوعا لأمر الله الذي حرم على المؤمنين أن يفجئوا عدوا بقتال قبل أن ينبذوا اليه على سواء..

حضارة الايمان وحضارة المادة:

وهل أمضي مع هذه النماذج خلال التاريخ، فأردفها بواحد من عهد صلاح الدين وأعززها بآخر من أيام يوسف ابن تاشفين، وثالث من مآثر العثمانيين.. وما لا أحصي من الروائع المثلة لجلال هذا الدين.. ولعمر الحق إن في كل منها لصورة واضحة الملامح تنطق بأجلى بيان بأن هاهنا حضارة ربانية تهيمن بخصائصها المتفردة على تصرفات الأفراد والجماعات، فتؤلف منهم المجتمع النموذجي الذي كونته التربية النبوية على منهج السماء ليقود الانسانية الى الجادة، التي عبَّدها رسل الله

منذ آدم الى خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم ان في كل منها لتشخيصا بارزا لمهمة الشباب المسلم بالنسبة الى مشكلة الحضارة. إنها مهمة الانسان الذي يملؤه اليقين بالمسئولية نحو خالقه ثم نحو نفسه وأهله والخليقة كلها، وعلى اختلاف أشكالها وأجناسها.

وعندما نتصور المرحلة الرهيبة التي تجتازها الانسانية أيامنا هذه، تحت أعباء الاخطاء المتراكمة، والأهوال المتوقعة، لا نتردد في القول بأنها مهمة المنقذ الذي بيده صُور النجاة لهذه الانسانية المعذبة، بعد أن أوغلت في تخريبها تلك الحضارة التي ينسبونها ظلما الى المسيحية، وهي التي أعلنت الحرب على المسيحية منذ فرضت عليها الدولة الرومانية سلطانها الغشوم، فاتخذت منها معرضا لكل مواريثها الوثنية، حتى انتهى بها الأمر أخيرا الى العزلة التامة عن حياة المجتمع، فهي تتطلع اليه من بعيد يتخبط في وحول التحلل دون ان تملك له ضرا او نفعا.. والا فأين أثر الكنيسة الغربية وهي ترى القوانين الوضعية تبيح نكاح الاخوات، واجهاض الحاملات، واتخاذ الخليلات،

وتبادل الزوجات.. وما الى ذلك من الموبقات المنذرات بنهاية الأديان والحضارات.

بلى.. والله.. ان كل شيء ليهيب اليوم بالمسلم: إن اقدم، فلم يبق للانسانية من منقذ سواك والويل لك ولأمم الارض معك اذا اغفلت مهمتك، وظللت في إجحامك وترددك..

بيد أن هذه المهمة تتطلب من الشباب المرشح لها أن يرتفع الى مستوى المسئولية التي تقتضيها. ورأس الامر وعموده ان يلتزم خط السلف الذي اعتصم بحبل الله فأعزه الله، وان يتجنب الهبوط الى منحدرات الامعات، الذين ضاقت بهم مسارب الحياة... وذلك هو أول الطريق الى استرداد مكانته السليبة في قيادة الفكر البشري الحائر الى منهج القرآن، الذي شهد الله والملائكة وأولو العلم، أنه الهادي أبدا للتي هي أقوم.

لقد كثر حديث العارفين عن جمال الحضارة الاسلامية وإمكاناتها التي لانفاد لها، فأعادوا وابدءوا وأجملوا وفصلوا.. واشرأبت اعناق التائهين والمظلومين تتطلع في لهفة لعلها تقع على بعض هاتيك البشريات مجسمة على ارض

الواقع.. وكادت تيأس وتعتبر ذلك الحديث لا يعدو ان يكون لونا من أحلام اليقظة، لولا خيوط من النور لا تزال تنطلق في العتمات من سلوك الطائفة الثابتة على عهد الله، والصادعة بالدعوة الى الله لا يضرها من خالفها ولا يصدها عن أداء واجبها نحوها ارهاب الظالمين، ومفتريات الكاذبين .. ولكنها تظل خيوطا مبعثرة يرسلها افراد، على حين تتلهف الشعوب المضللة الى نماذج تؤلف المجتمعات..

الاسلام السجين وكيف السبيل الى اطلاقه:

ونتساءل، ويتساءل معنا الضمير الإنساني في كل مكان، هذا المفهوم المثالي للحضارة.. ما السبيل لإخراجه الى حيز التطبيق، في مواجهة الواقع الرهيب الذي يحدق بالفكر الاسلامي، وبخاصة في ديار الاسلام؟..

لقد زاحمت قوانين الانسان المغرور شريعة الله، حتى أزاحتها نهائيا عن سياسة المجتمع الاسلامي.. وهي تريد اليوم أن تقضي على ما بقي من أحكامها حتى في نطاق الأسرة..

واستبعد الاسلام عن مناهج التعليم، حتى أوشك أن ينحصر في ما يسمونه بالتوجيه الخلقي.. او التربوي..

وطورد النظام الاسلامي في مجالات الحكم، حتى لم يبق له عند معظم حكام المسلمين سوى ظهورهم في مساجد المسلمين مرتين في كل عام لأداء مراسم العيدين..

وحوصرت الكلمة المؤمنة حتى لم يعد يسمح لها بالدفاع عن نفسها أمام الهجوم الذي ينصب عليها من دعاة الفجور والبهتان بكل وسائل الإعلام.. هذا الحصار المحكم حول الاسلام السجين.. كيف السبيل الى اختراقه، لاعطاء الاسلام حق الاتصال بالعالم.. بل بأبناء الاسلام؟..

الحق اني واحد من هؤلاء المتسائلين، غارق في مثل حيرتهم، لا أكاد ألمح بصيصا من الضوء يدلني على المخرج، او يقدم لي جوابا على أي من هذه التساؤلات .. ولعل أعضاء هذا المؤتمر المبارك يشاركوننا نحن الحيارى في موقفنا الأسيف المغلق هذا..

العودة الى المسجد.

على اني لا أكاد أواجه هذا الانغلاق الموئس حتى يتوهج في قلبي قول ربي:

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، مستهم البأساء والضراء وزلزوا، حتى يقول الرسول

والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟.. ألا إن نصر الله قريب) (٢١٤/٢).

واتذكر قوله تعالى لرسوله ومن معه من المؤمنين يوم الاحزاب: (اذ جاءوكم من فوقكم ومن اسفل منكم، واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) (٣٣/١٠/١١).

فيلوح لي الفرج قاب قوسين او أدنى، وان كنت اجهل كيف وأين ومن أين... ولكني ادرك بملء وجودي أن النصر المنشود في مثل هذه الحال موقوف على امرين، أوَّلها

انقطاع الأمل من كل انواع الحيل، بحيث لا يبقى امام المؤمنين إلا إمداد الله، وثانيها تصفية القلوب من لوثات الذنوب بتوبة نصوح تشد الأعين نحو علام الغيوب وحده..

ولقد والله تلاشت الآمال حتى اليأس..

وبدأت الضراعات الصادقة ترتفع من كل نفس..

ونظرة الى ردود الفعل الواسعة في أوساط المسلمين، الذين يعيشون تحت كابوس الرعب، تؤكد أن وراءه عملية

تطهير ربانية تخض ضمائر الغافلين لتردهم الى هويتهم التي نسوها في زحمة الاحداث والاهواء فاذا هم اليوم يملئون المساجد في كل مكان، ويعاودون الاتصال بالمنابع التي شحنت قلوب أسلافهم بالطاقات التي فتحوا بها الارض لدعوة الله.. والغريب في هذه (الرجعة) أنها لم تقتصر على جماهير العامة وطلبة العلم الشرعي فحسب، بل لعل هؤلاء كانوا اقل التائبين الى الوعي نسبة، ولكنها استقطبت العديد ممن كانوا حتى امس القريب، من اشد المناوئين للدعوة الاسلامية حربا لها ولأهلها، وتكاد تستولي على ازمة الفكر العالمي في اوساط الكليات العلمية بوجه أخص.

انتفاضتان مباركتان:

ولقد تطورت هذه الانتفاضة في بعض ديار الاسلام، فاذا هي تنتقل من نطاق الانفعال الى مجالات الفعل، فتدفع بشباب الاسلام الى استقبال قذائف الطغيان بالصدور العزلاء إلا من سلاح الايمان وقد استعذبوا طعم الشهادة، حتى فقد الموت هيبته في قلوبهم، فهم يتسابقون الى لقاء الله فرادى وجماعات لا يبالون اسقطوا على الموت ام يسقط الموت عليهم.. فيثبتون لاعداء الاسلام ان جهودهم الضخمة والمتلاحقة خلال العشرات من السنين كانت اهزل

واعجز من ان تقضي على الذات الاسلامية.

ولقد أذهلت هؤلاء المفاجأة حتى راحوا ينادون بالويل والثبور، وينذرون أقوامهم بأن ثقافة الغرب قد انهزمت نهائيا أمام الوقفة الاسلامية الجديدة. وما أحسبهم صدقوا قط كشأنهم في هذا النذير. لأن المعركة لم تكن من نوع الصراع على السلطة، كما يريدون أن يقنعوا السذج، بل كانت بين اتجاهين وثقافتين متباينتين، ثقافة علمانية تريد تجريد المسلمين من كل قدرة على مقاومة الفساد والاستغلال، حتى يظلوا وما في أرضهم من الكنوز، مجرد مطية لتأمين متعة العدو والذياد عن بيضته. وأخرى تريد تثبيتهم على خط النبوة، محافظين على انتمائهم الأعلى الى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليكونوا كما يحب لهم ربهم (خير أمة أخرجت للناس).

واني لأكتب هذه الكلمات وامامي خطاب الفريق محمد ضياء الحق، الذي اذاعه من قاعة الجمعية الوطنية في الثاني عشر من ربيع الآخر عام ١٣٩٩ هـ ليزف الى العالم الاسلامي بشرى عودة باكستان الى النظام الرباني، الذي طالما تطلعت نحوه بل ما كانت لتوجد في خريطة العالم لولا تشبثها به، ومع ذلك تواطأ حكامها السابقون جميعا على أن

يسلخوه عنها ، حتى قيض الله لها ، هذا القائد الشجاع ، فرد اليها هويتها السليبة ، على الرغم من آلاف الدسائس التي يثيرها في طريقه أعداء الله في داخل باكستان وخارجها .

وما أحكم كلمته وهو يركز على اهمية التعليم في تكوين الشخصية ، اذ يقول: (ان الكتب والمناهج الدراسية عملت على ابعادنا عن محور الاسلام ، فكان لزاما علينا أن نعيد صياغة السياسة التعليمية على النحو الذي يحفظ لنا صبغته القدسية ، ويكون هدفها الرئيسي إنشاء الجيل الجديد على أيديولوجية باكستان والاسلام [1] .

وقد شاء الله تباركت اسماؤه أن ترافق حركة البعث الاسلامي في باكستان قيام الكيان الاسلامي الجديد في ايران.. الذي افتتح وجوده برد ذلك القطر العزيز الى طريقه الطبيعي بالنسبة الى قضية فلسطين والحضارة الزائفة ، فأعلن سلفا قطع النفط الايراني عن اسرائيل ، ومقاطعتها دبلوماسيا ،ثم جاءت البشريات تترى ،وفي مقدمتها تحويل ايران الى دولة مواجهة لاسرائيل ، بعد أن لبثت ثلاثين سنة بمثابة الدعامة الكبرى التي تمدها بأسباب البقاء.. ثم اعفاء المرأة الايرانية من التجنيد في الجيش ،

---

(١) - تقلناه بتصرف بسبب سوء الترجمة /٣٥/

والغاء التعليم المختلط.. وهما من البدع التي فرضتها على ايران سياسة (التحديث) التي اريد بها القضاء على جذور الاسلام في الشعب الايراني.. على ان ابلغ ما قدمته الثورة الاسلامية في ايران من توكيدها أن الاسلام هو الغالب، لأنه مظهر قوة الله التي لا تقهر، وان العالم الاسلامي لا يصلح الا بالقيادة الدينية المبرأة من كل تبعية لغير الله ورسوله.

إنها المبشرات ثم الفتح:

وبعد.. فهل ثمة من ريب في أننا تلقاء الطلائع المرتقبة للمستقبل السعيد، الذي بشر الله به - على مر القرون - عباده التوابين في قوله الكريم: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا..) (٢٤/٥٥).

ولا جرم سيكون ذلك الفتح الموعود آية استجابته الخاصة لضراعة الأوابين، الذين يقول لهم: (ادعوني استجب لكم) ومظهر رحمته العامة للانسانية كلها، التي نهكها الضياع، وضاق بها الكون على رحبه، حتى باتت كالمخلوق الاسطوري، الذي انتفخ جسده على حساب قلبه، فغدا

مهيب الظاهر، سقيم الباطن، يفتك بالضعفاء، وتفتك به الادواء..

وجدير بالأرض يومئذ ان تفرح وتبتهج، لأن ذلك إيذان بعودة النور المحمدي اليها، بعد أن أوشكت الغياهب تطمس فيها كل معالم الخير في البر والبحر.

لقد ارتد العالم الى ما كان عليه من الفساد العام قبيل فجر الاسلام.. وكشأنه بالأمس يتطلع لهفان الى المنقذ الموعود، دون ان يعلم من اين يطل عليه. ولو هو قد ثاب قليلا الى هتاف فطرته لأيقن أن منقذ الامس هو منقذ الغد، والاّ سبيل الى الشاطئ الامين، الا بالأوبة إلى قيادة الصادق الأمين، الذي ارسله الله رحمة للعالمين.

وليس على الله بعزيز. وهو المالك لكل شيء، والقادر على كل شيء، أن يجعل ذلك الفرج المرجو هديته العظمى الى المؤمنين، مع مشرق القرن الخامس عشر، الذي سنستقبل مطالعه في مثل هذه الأيام المباركة من محرم الحرام.

أجل.. إن في استعادة الاسلام مكانه الطبيعي من قيادة الفكر العالمي، بعد تلك الغيبة الطويلة عن الميدان الذي طال اليه حنينه، لمثارا للاستغراب العميق عند

اليائسين من رحمة الله.. بيد انه سيظل حق اليقين في قلوب الذين ينظرون الى الأحداث بنور ربهم، ويستشرفون صور الغد الحبيب في حكمة نبيهم: (بدأ االاسلام غريبا، وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء [1].

وأي غربة اكبر من أن يقوم بين أبناء المسلمين من يؤثر حكم الجاهلية على شريعة الله، ويحاول خنق كل صوت يرتفع بالدعوة الى الله، في حين يرى بعينيه الى انظمة البشر - في كل مكان - تعلن إفلاسها، وتلعن كل تجربة منها سابقة ولاحقة!...

(ولينصرن الله من ينصره.. ان الله لقوي عزيز.. الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) - سورة الحج).

---

(١) - رواه مسلم.



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

فهرس